درب إبراهيم
عليه السلام
د.سعيد الشبلي

الكتـــــــــاب: سلسلة تأسيس البنيان (١)
درب أبراهيم
المـــؤلـــــــف: د.سعيد الشبلى
تصميم الغـــــلاف: HERO
المراجعـة اللغوية: MK
الطبعة الاولى فبراير ٢٠٢٠

رقـــم الإيـــــداع: 16090-2019

الترقيم الدولى : 978-977-6757-08-0

الإخـراج الفنـــــي: MK

المدير العام: محمد عبدالعال قاسم

جميع الحقوق محفوظة

وأي اقتباس أو تقليد، أو إعادة طبع، أو نشر دون موافقة قانونية مكتوبة يعرض صاحبه للمساءلة القانونية، والآراء والمادة الواردة وحقوق الملكية الفكرية بالكتاب خاصة بالمؤلف فقط لا غير.

العنوان: 6 ش احمد عبد الرحيم - الملك فيصل -جيزة

موبايل: 01003002847

البريد الإلكتروني: mkbookstor@gmail.com

سلسلة : تأسيس البنيان (١)

درب إبراهيم
عليه السلام

«مقالة في الانتماء»

د.سعيد الشبلي

M.K
Publishing
Distribution

بسم الله الرحمن الرحيم

الدعاء :

« وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمناً وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الأَصْنَامَ (٣٥) رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيراً مِنْ النَّاسِ فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٣٦) رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنْ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنْ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ (٣٧) رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ وَمَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ فِي الأَرْضِ وَلا فِي السَّمَاءِ (٣٨) الْحَمْدُ للَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ (٣٩) رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ (٤٠) رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ (٤١) وَلا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الأَبْصَارُ (٤٢) مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ (٤٣)»[1].

(١) - سورة إبراهيم : ٣٥ -٤٣

تمهيد
المسيرة الإبراهيمية
من الظلمات إلى النور

إبراهيم الخليل أبو المسلمين، ومؤسس الملة الإسلامية المشرفة والمكرمة إلى يوم الدين، وأبو الأنبياء كما يلقبه الناس، والمصطفى وآله من لدن العزيز الحكيم. هو أيضا الرجل الذي يذكر اسمه في القرآن الكريم مقترنا بقصة البيت العتيق ومرتبطا بأذان الحج إلى هذا البيت الشريف.إنه رافع القواعد ومعلن الأذان في الناس بالحج ومؤسس درب الإسلام. هذا الرجل الذي احتفى القرآن الكريم بذكره والثناء عليه، وأظهرت آياته من حب الله له والتقدير لشخصه ما لم ينله بشر سواه، هذا الخليل وما أدراك ما الخليل،هو صاحب الملة وباني الدرب، درب الحج وملة الإسلام.

ولذلك كان لابد لكل حديث عن الإسلام يروم تحصيل العمق وفهم البدايات واكتشاف أسرار الأحداث توسما للنهايات، أن يتطلع إلى سيرة إبراهيم الخليل عليه السلام. فقصته هي من معنى ما قصة الإسلام، وتاريخه هو بدون شك تاريخ المسلمين بعد أن قال له ربه أسلم فقال أسلمت لرب العالمين.

إبراهيم الخليل صاحب الملة الإسلامية الشريفة، هو كذلك أحد أبرز أعمدة هذه الإنسانية الكادحة الساعية إلى ربها،وإحدى قممها التي لا تنال إلا بحسن الأسوة وحسن الاتّباع. وهو أحد أولئك الذين أراد الله أن يكونوا أئمة يخرجون الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربهم. يقول الله سبحانه وتعالى في مستهل سورة إبراهيم:» الر كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنْ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ»[1] .

فَكيفَ جلى القرآن الكَريم مسيرة الخليل عليه السلام ؟ وكيف صاغ هذا الرسول النبي الكريم في إسلامه وإيمانه وإحسانه، نموذج المسلم الطاهر من الأدناس والأرجاس بفضل الله تعالى وتوفيقه إياه إلى الصبر على البلاء والتحقق بالحق سبحانه ؟

كيف أصبح الفرد أمة ؟ وكيف أصبح للإسلام فوق الأرض تاريخ ورجال ؟

تلك مسيرة تكشفها إحدى أعظم مراحل السيرة، سيرة الإنسان الكامل في استكماله لحجه نحو ربه سبحانه آئبا إليه بالإسلام والإيمان، ذاكرا إياه بالطاعة والرضا.

فكيف كانت هذه المسيرة ؟ وما هي أبرز مراحلها ؟ وعلام انطوت من الأسرار والحقائق والأخبار؟ ذلك ما نسعى إلى الإجابة عنه بإذن الله معولين أولا و آخرا

(١) سورة إبراهيم: ١

على القرآن العظيم وآياته الهاديات، متوكلين على ربنا ورب إبراهيم الخليل،ورب محمد الأمي الوارث لأبيه إبراهيم عليهما وعلى كل المسلمين صلاة الله وسلامه. اللهم آمين.

تتجلى سيرة إبراهيم الخليل كبناء متماسك من الأحداث والمواقف، بناء يتدرج ويتجه باستمرار نحو النهايات،أي نحو الظهور في النهاية كبيت قوي الأركان، مستقيم الأعمدة والحيطان. ولذلك لم يكن من المصادفة أن يقترن الحديث عن إبراهيم الخليل بالحديث عن البيت العتيق؛ فقصة إبراهيم هي في أحد أهم وجوهها قصة هذا البيت الذي ارتبط باسمه حيث كان الرافع لقواعده على ما بيّن القرآن الكريم وأظهر.هذا من ناحية، ومن ناحية ثانية أوحى القرآن الكريم بأن سيرة الخليل عليه السلام، هي سيرة الشجرة الطيبة التي تقوم على أصل ثابت، فإذا فرعها بإذن العلي القدير في السماء، وإذا بها تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها.إن الخليل عليه السلام،هو هذه الشجرة الطيبة،أو بالأحرى ،هو أصل هذه الشجرة الطيبة،شجرة النبوة المباركة التي قامت على أصل الحق الثابت، وفرّعت أغصانها في كل أنحاء الأرض، وضرب فرعها الأخير عند سدرة المنتهى طالبا للإنسان مقاما محمودا يكون له فخرا وعزا في العالمين.

يقول القرآن الكريم في سورة إبراهيم متحدثا عن هذه الشجرة الطيبة، مقارنا إياها بالشجرة الخبيثة،شجرة الكفر والنفاق التي لا أصل لها :» أَلَمْ تَرَى كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ (٢٤) تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (٢٥) وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ (٢٦) يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ « [1].

أما الكلمة الطيبة، فهي كلمة التوحيد: «لا اله إلا الله». وأما ما يقابلها في عالم النبات، فالشجرة الطيبة ذات الثمر الطيب والأكل الهنيء، زيتونة كانت أم نخلة. وأما ما يماثلها في عالم الأبنية والعمارات فهذا البيت العتيق، أول بيت وضع للناس، والذي جعله الله سبحانه وتعالى مثابة للناس ومحجة وأمنا. وأما مثل هذه الكلمات ذات المعنى الواحد رغم اختلاف المجلى في بني البشر، فالنبي الرسول إبراهيم الخليل عليه السلام،أصل الشجرة النبوية، ومبدأ الملة الإسلامية التي أذن الله سبحانه بعزها إلى يوم يبعثون وبرفعة أهلها على العالمين. ما حقيقة هذه الكلمة الطيبة الإبراهيمية ؟ وما ثمرتها؟ وكيف وازت في عالم الناس بيت الله

(١) سورة إبراهيم : ٢٤ - ٢٧

العتيق في البيوت، وكلمته الطيبة في الكلام، وشجرته الطيبة في الأثمار والأشجار؟ نجيب عن كل هذا بإذن الله، باستشراف حقائق وأبعاد هذه الذات الإبراهيمية الشريفة،عبر تأملها في أطوار ابتلاءاتها وفي أوقات أعمالها وتقديمها لقرابينها إذ هي صالحاتها، ثم النظر فيما حباها الله تعالى به من أوجه الاصطفاء والتأييد والتمكين.

الفصل الأول
النسخ والإثبات: بناء الإيمان

يقول سبحانه وتعالى :» وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لأَبِيه آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَاماً آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ (٧٤) وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنْ الْمُوقِنِينَ (٧٥) فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَباً قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لا أُحِبُّ الآفِلِينَ (٧٦) فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغاً قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لأَكُونَنَّ مِنْ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ (٧٧) فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ (٧٨) إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ حَنِيفاً وَمَا أَنَا مِنْ الْمُشْرِكِينَ (٧٩) وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ وَلا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلاَّ أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئاً وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْماً أَفَلا تَتَذَكَّرُونَ (٨٠) وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ وَلا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَاناً فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالأَمْنِ إِنْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (٨١) الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُوْلَئِكَ لَهُمْ الأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ (٨٢) وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ (٨٣) وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ كُلاًّ هَدَيْنَا وَنُوحاً هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (٨٤)» [1].

هذه الآيات البينات من سورة الأنعام تكشف لنا لحظة مبكرة من حياة إبراهيم الخليل عليه السلام، وهي اللحظة التي اختبر فيها إيمانه وابتلي فيها فكره واعتقاده سعيا نحو الحق واليقين. توضح الآيات القرآنية السالفة أن إبراهيم عليه السلام اقتنع منذ نشأته المبكرة أن الأصنام التي يعبدها أبوه وقومه هي آلهة زائفة، وأن ما يصنعه عبّادها هو الضلال المبين:» وإذ قال إبراهيم لأبيه آزر أتتخذ أصناما آلهة إني أراك وقومك في ضلال مبين». فلقد توجه إبراهيم نحو أبيه وهو أقرب الناس إليه بالخطاب، وأظهر له كفره بعبادة الأصنام وموقفه منها. ومعلوم أن الأصنام هي نصب وتماثيل حجرية أو خشبية أو سواها تصنع وتهيأ كي تصبح أجسادا ذات دلالات تعبد لأجلها. فبعض الأصنام تتخذ بعدا أنثويا هو المعبود فيها،وبعضها الآخر يختزل دلالة القوة أو دلالة العقل أو ما سوى ذلك، ثم تعبد هذه الأحجار والأخشاب لما ترمز إليه، فتعبد الأنوثة في الأصنام والتماثيل الأنثوية لما ترمز إليه من أفعال وقوى الخصوبة والحمل والولادة والإرضاع؛ ومن هنا انتشار عبادة ربات الجمال أو عبادة ربات الخصب والحمل، أو عبادة الأم المرضع رمز الخصب والعطاء والحماية... وكذلك عبد العقل في التماثيل ذات الهيئات الذكرية، كما هو الشأن في عبادات الآشوريين والبابليين والمصريين وسواهم.كما

(١) سورة الأنعام : ٧٤ - ٨٤

عبدت القوة في نفس هذه التماثيل أو في تماثيل أخرى مشابهة... وباختصار، لقد كانت الأصنام دائما هياكل تعبد فيها قوى وفضائل وقيم وأسباب قدسها الإنسان واعتبرها أهلا للتعظيم وللعبادة. وكان الفكر السائد في البيئات الوثنية دائما هو الفكر الشركي، حيث كان الإنسان يعبد مجموعة من الآلهة دفعة واحدة تقديسا منه لقيم الذكورة والأنوثة معا... وكانت عبادة الأصنام تعبيرا عن صورة العالم في ذهن الإنسان الذي بقي لفترة طويلة يرى العالم مجموعة من القوى المتصارعة ومجلى للتنافس والتقاتل بين القوى الكونية.

وباختصار، كانت عبادة الأصنام تختزل في كل الأوقات تصورا ثنويا شركيا للعالم لم يستطع أن يرقى إلى مستوى رؤية الوحدة العميقة التي تحكمه وتحركه وتدفعه نحو تحقيق مآرب الحق سبحانه فيه. وقد حدث أن تفطن بعض

الأقوام والشعوب إلى وجود اله أكبر طاغ هو صاحب الإرادة الكبرى وصاحب المشيئة التي لا ترد؛ فجسدوا هذا الإله وجعلوا له صنما، واعتبروه كبير الآلهة، لكنهم عبدوا معه دائما آلهة أخرى اعتبروها صاحبة الحق في السلطة والتسيير أيضا. وبصفة عامة فما آمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون.

لقد تفطن إبراهيم الخليل بفطرته السليمة إلى الضلال المبين الذي أطغى عبدة الأصنام وأعمى أعينهم فعبدوها.ومن الواضح أنه استطاع أن ينظر إلى هذه الأصنام في ذاتها،أي عارية عن الدلالات التي أسندت لها. فلم ير سوى أحجار ساكنة، ونصب جامدة وخشب مسندة لا تتحرك ولا تحري جوابا، فهاله أن تعبد هذه السواكن التي لا تقدر لنفسها على نفع ولا على ضر، ناهيك أن تنفع الناس أو أن تضرهم. يقول سبحانه متحدثا عن موقف إبراهيم من الأصنام :» وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقاً نَبِيّاً (٤١) إِذْ قَالَ لأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لا يَسْمَعُ وَلا يُبْصِرُ وَلا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئاً (٤٢) يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطاً سَوِيّاً (٤٣)»[1].

فلقد تفطن إبراهيم الخليل بقلبه السليم، إلى ضلال من يعبد الأصنام؛ ثم جاءه من العلم الإلهي ما جعل اعتقاده يقينا، فازداد وعيا بحقيقة الأصنام، واقتدر بما رشده ربه، على النظر إليها كما هي، خالية من السلطان الوهمي الذي ركبه لها البشر، منزوعة من كل سلطان مضاف ومن كل اعتبار زائد. فحينئذ علم أن أباه وقومه يعبدون مالا يسمع ولا يبصر ومالا يغني عنهم شيئا. فهذه الأصنام ليست قادرة على أن تنفع نفسها ناهيك أن تنفع الناس وتضرهم. وقد بلغ من يقين الخليل عليه السلام في اعتقاده، أنه جابه به قومه أيضا ولم يتوقف عند حدود

(١) سورة مريم :٤١ - ٤٣

مناقشة أبيه : « واتل عليهم نبأ إبراهيم إذ قال لأبيه وقومه ما تعبدون.قالوا نعبد أصناما فنظل لها عاكفين. قال هل يسمعونكم إذ تدعون أو ينفعونكم أو يضرون»[1].

فهنا نبه إبراهيم عليه السلام قومه عبر التساؤل الإنكاري إلى ما هم عليه من ضلال،إذ يعبدون أصناما ويعكفون على أوثان لا تسمعهم إذا دعوا ولا تضرهم ولا تنفعهم. فتبين أنه ألغى كل الاعتبارات الزائدة في النظر إلى العالم، الأمر الذي انعكس على رؤيته للألوهية، حيث ألغى التصورات والإضافات والأوصاف المضافة. فعلم حينئذ فساد اعتقاد من ألهوا الأصنام وضلال مسعاهم وخيبتهم. والسؤال الذي يطرح هو التالي : هل غاب عن هؤلاء، أي عن آزر وقومه أن الأصنام التي يعبدون وعليها يعكفون،لا تنفع ولا تضر ولا تسمع ولا تبصر؟ لاريب أن هذا الأمر جد مستبعد؛ فمن الواضح أن ملاحظة مثل هذه الحقيقة (كون الأصنام ساكنة لا حركة فيها، وكونها بالتالي لا تنفع ولا تضر)، ليست بالأمر الصعب ولا بالمستحيل، بل إنها ملاحظة جد هينة لا تخفى على الفتى اللبيب فكيف بالكهل الأريب؟ فكيف حدث وأصبحت هذه الأصنام الجامدة والخشب المسندة آلهة تعبد؟ يجيب القرآن الكريم على لسان قوم إبراهيم، إن عبادة الأصنام لم تستقر نتيجة لوعي عقلاني راجح بألوهيتها، بل لكون الناس رأوا آباءهم يعبدونها ويعظمونها، فساروا على نهجهم في التعظيم والعبادة لها. فلما استنكر إبراهيم عليه السلام على قومه عبادة ما لا ينفع ولا يضر، ولا يسمع ولا يبصر،جابهوه بالرد:» قالوا بل وجدنا آباءنا كذلك يفعلون». وقد جاء أيضا في سورة الأنبياء « وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا به عَالمِينَ . إِذْ قَالَ لأَبِيه وَقَوْمه مَا هَذهِ التَّمَاثيلُ الَّتي أَنْتُمْ لَهَا عَاكفُونَ . قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابدينَ . قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ في ضَلال مُبين»[2].

تكشف هذه الآيات التي سجلت الحوار والجدل الذي دار بين إبراهيم وأبيه وقومه،عن السر الكامن وراء تقديس الإنسان لما لا ينفع ومالا يضر وعبادته لمخلوقات مثله أو دونه قوة. إن السر لا يكمن في هذه المخلوقات المعبودة نفسها، فهي ظاهرة الفقر، بادية الحاجة؛ ولكنه يكمن في شيء آخر هو الهالة الأسطورية التي أحاط بها الناس وخاصة الآباء، هذه المخلوقات العاجزة حتى أحالوها آلهة تخشى، يرجى نفعها ويطلب رضاها:» قالوا وجدنا آباءنا لها عابدين». فالإنسان كما هو معلوم، يولد على الفطرة، وهو يتلقى بالضرورة تربية وتعليما من قبل

(١) سورة الشعراء: ٦٩ -٧٣

(٢) سورة الأنبياء : ٥١ - ٥٤

آبائه وأهله وقومه. وهذه التربية تتجاوز تعليمه ما به يسد خلته ويقضي حاجته إلى تعليمه حقائق الحياة وإفهامه أسرار العالم وأصل الوجود. ومعلوم أنه لكل أمة ثقافتها في هذا المجال، وغير خفي عن الأفهام أن من يولد ويتنشأ في قوم، يحمل دائما نفس تصرفاتهم ومسالكهم، ثم وفي مرحلة ثانية من نموه، يعتقد نفس اعتقاداتهم تبعية لهم وتأسيا بفعلهم ومجاراة لسنة طبيعية قضت بأن يكون المخلوق ابن بيئته ونبت موطنه.

هذه الحقيقة في توارث الطباع والصفات والتصرفات، حقيقة ثابتة يخضع لها مجمل العالم الحيواني، وقد زاد عليها الإنسان الخضوع في فكره واعتقاده لسنن الأسلاف ومعتقداتهم جريا على عادته في الأخذ عنهم كل ما يتعلق ببقائه وتدبير معاشه وحياته. ولم يتغير من هذه الحقيقة القاضية بتأثر الإنسان بآبائه إلى اليوم شيء ولن يتغير إلى أن يرث سبحانه الأرض ومن عليها. فالمسيحي ابن المسيحيين، يرث غالبا مسيحيته عن آبائه، والمسلم ابن المسلمين يرث إسلامه عن آبائه، واليهودي كذلك... أما إذا ما درجت أمة على عبادة الحكام والخضوع للطاغوت من سلاطين الأرض وملوكها، فإنها تورث هذا الدين أيضا لأبنائها، فينشأ أغلبهم وفي أنفسهم تعظيم للطاغوت وخوف من سلطته. ويقبلون في كل مراحل عمرهم بهذه العبادة، واثقين أنهم إن قدموا آيات الطاعة لسلطانهم وخضعوا له بالعبادة، فهم يمارسون عملا منطقيا وسلوكا ناضجا حكيما لا يداخله ضلال ولا وهم رغم أن العقل السليم يقضي أنه الوهم الأكبر والزيف الذي ما بعده زيف. وكيف لا يكون خضوع الإنسان للإنسان جنونا وهو يرى بأم عينه مماثلة الآخر له في كل صفاته وأحواله، وحاجة معبوده من البشر وفقره ظاهرة فيه ؟ ثم كيف لا توصف بالجنون أمة كاملة وشعب بأكمله يعبد طاغية، يعلم أفراد هذه الأمة أنه بشر مثلهم يحيا ويموت، وأنه في قبضة جبار السماوات والأرض؟

لا تفسير لهذه الظاهرة إلا بكونها سحرا يصيب العقول فيعميها عن الحقيقة. فأي سحر هذا الذي جعل المصريين يخضعون لفرعون، يستغلهم ويترفع عليهم، ويدعي امتلاكه لأسباب حياتهم وموتهم، ثم لا يتركهم حتى يوردهم النار، فيفسد عليهم دنياهم وأخراهم، وهم لا يملكون أمامه قدرة ولا إرادة ؟ ما السحر الذي ما زال وسوف يبقى ضاربا في عقول الناس ما بقوا قردة يقلد بعضهم بعضا ؟

الجواب القرآني الحاسم في هذه القضية الهامة أن هذا «السحر» يكمن في حقيقة واحدة: تقليد الآباء والتأسي بسيرتهم ومنهجهم. وبذلك يظهر أن سلطة الآباء على الإنسان،هي الطلسم الأول الذي يجب إزاحته بفك رموزه حتى يتمكن العقل الإنساني من الخلاص من أسوأ مصير، أعني عبادة الطاغوت والركوع أمام أحجار

لا تسمع ولا تبصر ولا ترى. لقد كان على إبراهيم أن يحارب هذه العبادة، عبادة معتقدات الآباء، حتى ينجو بنفسه من نار الضلال والكفر التي لفت عقل أبيه وعقول قومه.

إن الخلاص من عبادة الآباء،والتحرر من معتقداتهم وعاداتهم أو بالأحرى من سلطتهم، هو الفسخ الأول الذي حققه إبراهيم عليه السلام، وهو أول عمل إيماني عميق هداه إلى طريق الصواب في مسيرته التوحيدية، وهو الذي مكنه من التزام طريق الرشاد واجتناب الضلال.

كيف حقق الخليل هذا الخلاص من سلطة الآباء؟

نجيب عن هذا السؤال ضمن محاولة تمثل حقائق الإيمان الإبراهيمي وأسراره العميقة.

ونقول وبالله التوفيق،إن إبراهيم الخليل استطاع عبر تجاوز ثلاث سلط أن يهدم أركان الرؤية الهرمية الشركية للوجود ليخلص إلى الرؤية الصحيحة الرباعية، وذلك عبر اكتشاف البعد الرابع المغيب والذي هو سر الوجود وأصل مبناه ومبدأ معناه.

أما السلط الثلاث التي حطمها الخليل عليه السلام، فهي سلطة الأب وسلطة المجتمع (القوم)، وسلطة الملك التي جاءت كنتيجة للسلطتين الأوليين. وقد كانت هذه السلط الثلاث رمزا ومظهرا لرؤية هرمية للوجود قائمة على قاعدة شركية وثنية، يؤدي الاعتقاد فيها بالضرورة، إلى رفع الطاغوت كآلهة مهيمنة على العباد والبلاد.

١ - الرؤية الشركية للوجود وللعالم
الهرم الطاغوتي

كان استغراب إبراهيم من أبيه وقومه كونهم اتخذوا أصناما آلهة من دون الله: «وإذ قال إبراهيم لأبيه آزر أتتخذ أصناما آلهة إني أراك وقومك في ضلال مبين[١]. وهذا الاستغراب، وهذا الحكم الواضح الصريح على ديانة الآباء ووصمها بالضلال المبين، هو نفسه موضع عجبنا واستغرابنا نحن، إذ كيف يهتدي هذا الفتى إلى خطأ أبيه وقومه؟ وكيف يصل إلى يقين يسفه به اعتقاداتهم رغم كونه فردا واحدا لم يبلغ في عمر الزمان ما بلغوا ؟ غير أن القرآن الكريم، بكرمه المعرفي المطلق،لا يتركنا فريسة للحيرة، بل يعطينا سر هذه الحداثة الإبراهيمية ويدلنا على موطن استصناعها ووعيها. يقول سبحانه وتعالى : « وكذلك نري إبراهيم ملكوت السماوات والأرض وليكون من الموقنين»[٢].

تكشف هذه الآية الكريمة عن موطن الرؤية الحداثوية الحقيقية للوجود حيث بينت أن سر اليقين لا يوجد عند أب ولا أهل ولا في معبد بناه الناس ووضعوا فيه أصنامهم وأوهامهم، وإنما تكمن الحداثة في ملكوت الله الذي هو ملكوت السماوات والأرض، أي هو العالم بأسره.هنا تأسيس صحيح لمبدأ رؤية شاملة كلية لا تخضع للاعتبارات الزائفة ولا للأحكام المسبقة ولا للاشتراط، وإنما تتجه بتوجيه الحق الأعظم، الله سبحانه، نحو رؤية الحقيقة ولا شيء سواها هنا داخل العالم، وضمن ملاحظة حركة الوجود وتصريفاته لا في أي مكان آخر قابل للتزييف والأوهام.

إن العالم هو موطن اليقين. والحقيقة التي يهدي إليها الحق سبحانه لا تخجل من أي ضوء يسلط عليها كما سنرى،لا من ضوء كوكب ولا من نور قمر ولا من أشعة شمس.إنها تبقى دائما واحدة أمام كل الأضواء وقبالة كل العيون، وتقيم سلطانها الذي لا يمحوه ليل ولا نهار. هناك إذن موجه للتجربة هو الله سبحانه وتعالى لا سواه. وهذا الموجه لا يحضر في المسيرة الإبراهيمية الشريفة ويغيب في التجارب الأخرى، بل هو الحاضر في كل مسيرة تبتغي الهدى. وما مسيرة الإنسانية إلا سعي واع أو جاهل نحو الهدى والنور. فالله تعالى، هو أصلا الهادي لكل مخلوق بما وضع من آيات بينات، وما أنزل من علامات، وما أقام من شعائر ومشاعر. إنه باختصار، رب التجربة وصاحبها وموجهها نحو نهاياتها حيث قضى جل وعلا، بانتصار النور على الظلمة والحق على الباطل، مهما علا طغيان المتجبرين، وعتا

(١) سورة الأنعام : ٧٤

(٢) السورة نفسها :٧٥

طغاة الأرض طالبين تأليههم وترك ما سواهم. يبرز التوجيه الإلهي كتوجيه راق لا يقدم الحقيقة مباشرة، ولا يعد باليقين عيانا بل يدعو سبحانه الإنسان من طرف خفي إلى معانقة اليقين بنفسه، وإلى ملاحظة الحقيقة بعينه ورؤيتها بكل قلبه وفكره وحواسه ووعيه حتى تصبح أمامه يقينا لا يتزعزع وحقا لا يبيد.

لم ينزل ملاك الرب سبحانه على إبراهيم منذ اللحظة الأولى في وعيه بذاته وحياته. بل تركه سبحانه وحده أمام العالم ليكون بنفسه الحكم، وليكون هو صاحب إرادته، وليؤكد سبحانه من وراء ذلك، أن الإنسان هو باب نفسه، وأنه كما قال «محيي الدين بن عربي « حجاب نفسه عليه وبابها إليه، بيده هدايتها وبيده إضلالها. لقد بنى الله سبحانه العالم فرفع السماوات بغير عمد نراها، وأنزل الأرض ووضع الميزان، فجاء كل شيء آية تدل على وحدته سبحانه، وتفرده وعزته. وهو سبحانه العليم بما صنع، يعلم أن الإنسان قادر على أن يفطن إلى رسالته سبحانه في الوجود وهي رسالة التوحيد إذا تأمل هذا الوجود تأملا صحيحا خاليا من كل أنواع التحكم والتسلط والتوجيه المسبق الفاسد ومن كل الإيديولوجيات التي طبعها الضيق والوهم والضلال. فالإنسان، أي إنسان، قادر على أن يتفطن إلى حقيقة الرسالة الإلهية(رسالة التوحيد) وأن يتيقنها يقينا لا يخالطه الشك والضلال لأن التوحيد هو سر العالم، وهو شفرة بناء هذا الوجود من ألفه إلى يائه، ما قام إلا به وما استقر إلا بسلطانه. وإذا كان السؤال الذي يطرح بداهة هنا،هو لماذا لم يؤمن كل الناس بالواحد الأحد إذن ولماذا كان أغلب البشر من الضالين المضلين لا من الهداة المهتدين؟ فإن القرآن الكريم يجيب،إن سر الخلل الذي ورط البشر في هذا الأتون الرهيب من الخطيئة والضلال، هو الفساد والأمراض التي تعتري قلوبهم فتطمس على بصيرتهم الباطنة التي هي عين عقولهم وموطن ألبابهم. فبالقلب السليم يهتدي البشر إلى حقيقة العالم، وبالقلب السليم يحطم الأساطير والأوهام. يقول سبحانه كاشفا عن سر الإيمان الإبراهيمي ومبدأ التأييد في مسيرته الموفقة:»... وَإِنَّ مِنْ شِيعَتِهِ لإِبْرَاهِيمَ (٨٣) إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ (٨٤) إِذْ قَالَ لأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ (٨٥) أَئِفْكاً آلِهَةً دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ (٨٦) فَمَا ظَنُّكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ (٨٧) فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ (٨٨) فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ (٨٩) فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ (٩٠) فَرَاغَ إِلَى آلِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلا تَأْكُلُونَ (٩١) مَا لَكُمْ لا تَنطِقُونَ (٩٢) فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْباً بِالْيَمِينِ «[1].

تكشف هذه الآيات البينات عن سر اهتداء إبراهيم عليه السلام إلى الحق، وذلك لإقباله على ربه بقلب سليم. وهذا الإقبال على ربه ليس شيئا سوى الإقبال

(١) سورة الصافات : ٨٣ - ٩٣

على أبيه وقومه يخاطبهم بلغة الحق وينبههم إلى ضلالهم المبين:»إذ قال لأبيه وقومه ماذا تعبدون.أئفكا آلهة دون الله تريدون. فما ظنكم برب العالمين». فالقلب السليم إذن هو كلمة السر التي وصلت إبراهيم بربه الحق سبحانه، فحققت له صلتين طبيعيتين ثابتتين موفقتين بالتاريخ من ناحية، وبالكون من ناحية ثانية. أما صلته بالتاريخ الإنساني الصحيح، فهي صلته بالنبي الرسول نوح عليه السلام، حيث بين الله تعالى أن إبراهيم من نوح عليهما السلام:»وإن من شيعته لإبراهيم».

بذلك اتصلت المسيرة الإبراهيمية بشجرة النبوة المباركة لتكون جذعها المتين الذي سوف يكون مبدأ لثمرات عديدة تنزل كل حين بإذن ربها. وأما الصلة الصحيحة بالعالم، فتتمثل في اهتدائه إلى خضوع هذا العالم بكل ما فيه لله الواحد الأحد، ورفضه بالتالي تأليه أي طاغوت يستعلي فيه ظلما وعدوانا سواء أكان صنما أم ملكا أم سواهما.

هذه الصلة الصحيحة بالتاريخ وبالعالم، هي وليدة تأمل القلب السليم في ملكوت الله سبحانه وتعالى واستخلاصه اليقين من مطالعته لآيات الله المبثوثة ما بين السماوات والأرض:»وكذلك نري إبراهيم ملكوت السماوات والأرض وليكون من الموقنين». تلك رؤية شاملة تتطلع إلى الوعي بحقيقة السماء وبحقيقة الأرض معا، وهي رؤية هادفة، قاصدة إلى تحصيل الوعي الصحيح بالوجود، وتحقيق اليقين الذي لا يداخله الشك ولا تتقاذفه الظنون.

فماذا كشفت هذه الرؤية ؟ وعم تمخضت ؟

أ - الكوكب الآفل : الطاغوت المخلوع

« فلما جن عليه الليل رأى كوكبا قال هذا ربي. فلما أفل قال لا أحب الآفلين»[1] .
كان أول ما رآه الخليل في ليل لاوعيه كوكبا جعله معبوده وربه. ولا ريب أنه سهر بقية ذلك الليل البهيم من أيام المحاق يتأمل إلهه ومصدر هديه ونور كينونته الغارقة في ليل لاوعيها والتي ترجو الهداية إلى النور وتسعى في طلبه سعي العطشان إلى الماء الزلال.هو ذا رب مستعل يتوفر على أهم خاصيتين يجب أن تتوفرا في الرب المعبود مهما كان، تلكما خاصيتا الاستعلاء والهداية. فالإنسان المحكوم بأحكام موقعه الأرضي الأدنى، يعلم بفطرته وبغريزته أن ما علا عليه يتجاوزه ويحكمه، وأنه لا مقدرة له على مقاومة ما هو أعلى من موقعه الأدنى، ولذلك كان الاستعلاء أبدا، صفة إلهية صميمة. ولذلك أيضا تشبه المتألهون زورا بالله تعالى في استعلائه وكبريائه، وهو وحده سبحانه العلي العظيم المتكبر، قاصم الجبارين المستكبرين.هذا من جهة، أما من جهة ثانية، فالإنسان وهو المنشّأ في ظلمة كاملة:»... ؛ ينزل إلى الأرض فلا يخرج من ظلمات الرحم إلا إلى ظلمات مشابهة، وإن بدا أنه يرى النور ويبصر بعينه فبما يعلمه من ظلمة نفسه علم يقين، يتجه الإنسان بطبعه إلى النور عالما بشكل أو بآخر أن هذا النور هو مولاه لأنه هو مطلوبه وهو محبوبه.

فبالاستعلاء يرضخ العبد لربه، وبالنور يتجه إليه اتجاه العشق والمحبة. فثبت من ذلك أن قوام علاقة العبد بالرب خاصيتان؛ خاصية جذب قهري جبروتي متمثلة في رضوخ الإنسان بطبعه للأعلى وذله أمامه، وخاصية جذب حبّي عشقي متمثلة في حب الإنسان بطبعه للنور، وهو النفس المظلمة ظلمة كاملة، الطالبة للنور بعشق كامل ولهفة لا مزيد عليها. إن طلب الإنسان للنور علامة على طلب الممكن لما به قيام إمكانه، وظهور هذا الإمكان وتحققه في دائرة الفعل. فبالنور يخرج الإنسان من عدمه إلى وجوده لأنه لا كاشف للظلمة إلا النور. والإنسان كينونة في ظلمة، ولذلك طلب النور أبدا، وأقبل عليه إقبال العابد على معبوده. وعلى التحقيق، فليس النور سوى الله سبحانه الذي ما أضاء كوكب أو أشعت شمس إلا من فيض نوره سبحانه وتعالى عما يصفون.

هكذا إذن، صعّد الخليل عليه السلام بصره إلى السماء طالبا ربه، فدل بذلك على سلامة قلبه حيث لم يبحث عن إلهه في الأرض كما يفعل أغلب الناس من مرضى القلوب؛ فهو بفطرته السليمة، وقبل أن تفيض عليه أنوار المعرفة واليقين الإلهي،علم أن الله لا يطلب في الأرض بل في السماء، وأن أخص صفات الله تعالى

(١) سورة الأنعام : ٧٦

الاستعلاء، وأن استعلاء الأرضيين وهم وخداع وزيف، وكيف يستعلون والمقام الأدنى يحكمهم:» وَلا تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحاً إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولاً «[1].

وفي السماء، رأى الخليل عليه السلام كوكبا نجما منيرا، فجذبه إليه نوره، فلم يملك أن قال:» هذا ربي»،فقد توفرت في الكوكب السماوي صفتا العلو والإنارة وهما كما أسلفنا،الخاصيتان الحميمتان والصفتان الأساسيتان للألوهية كما يتمثلها قلب سليم لا من فتن وذهل عن قلبه، فمثل هذا يرى الحجر إلها ويرى البقر إلها، ولا يتورع عن تأليه شيء نتيجة للضلال المبين. هكذا آمن إبراهيم الخليل، وظن أنه بلغ اليقين. ولما شارف الاطمئنان، داهم النهار كوكبه فالتفت إلى السماء فلم يره :» فلما أفل قال لا أحب الآفلين». جاء في لسان العرب :» أفل : أي غاب. وأفلت الشمس تأفل وتأفل أفلا وأفولا:غربت،وفي التهذيب:إذا غابت فهي آفلة وآفل،وكذا القمر يأفل إذا غاب وكذلك سائر الكواكب.قال الله تعالى:فلما أفل قال لا أحب الآفلين»[2].

لقد غاب الكوكب المنير إذن، وصاحب القلب السليم يعلم أن الله المعبود يجب أن لا يغيب،بل يجب أن يبقى دائما مشرفا على مخلوقاته، قائما بذاته لا يبيده شيء وهو يفني ويبيد كل شيء. إن أفول النجم دليل على أنه محكوم لا حاكم وعلى أنه تابع في أحكام ظهوره وأفوله لقوة أكبر منه قدرت وقت الظهور والأفول وحكمت أن يعتوره الظرفان.لذلك علم إبراهيم عليه السلام أن النجم الذي دعاه ربا،إنما هو مخلوق مثله. فالرؤية دلته في الحالتين، في حالة التنصيب لهذا النجم إلها، وفي حالة خلعه. فتبين من ذلك مدى سلامة قلب هذا الرجل، ومدى كفاءة آلته المعرفية حيث أنها كانت قادرة على المحو والإثبات وعلى التأكيد والنفي غير خاضعة لمعنى دون آخر إلا لمطلق ما تعطيه الرؤية أي التأمل الصحيح الموضوعي للكون من حقائق. لم يكن هذا الرجل إذن متعسفا ولا كان هاويا في سوق العلم واليقين وإلا لقنع بكوكبه الذي نصب، ولكفاه هذا الكوكب المنير عناء السؤال عن الإله كما اكتفى كثيرون بعبادة الكواكب والأقمار عبر تاريخ الإنسانية. كما أنه لم يكن عابدا لهواه وإلا لوجد في كوكبه ما يغري المغرور من أصحاب الهوى، حيث أمكن له أن يتباهى بعلو نجمه وأن يفتخر بجماله واستنارته. كانت الحقيقة هي التي تحكم قلب هذا الفتى النابه. والحقيقة كما نعلم، سلطان قاهر يثبت ويلغي، ينصب ويعزل. وكما نصب الخليل الكوكب إلها بالليل استنادا

(١) سورة الإسراء : ٣٧

(٢) ابن منظور، لسان العرب، بيروت، دار صادر، ط٣، ١٩٩٤، مجلد ١١، مادة أفل، ص:١٨.

إلى معطيات الحقيقة، فقد خلعه بالنهار استنادا إلى معطيات الحقيقة أيضا. فما تكبر في الحالتين على حكم الحق، ولا استعلى برأيه أو بهوى مضل، وذلك أيضا معنى أن يكون للإنسان قلب سليم.

كان موقف الخليل عليه السلام عندما لم يجد الكوكب أنه قال: «لا أحب الآفلين» ، فعبّر بالحب وجمع الآفلين. والمعنى لا أبتغي ولا أرغب وأنا الباحث عن الله الحق، والطالب لربي الذي خلقني، في محاورة ما يأفل ويغيب بل طلبي الآن للثابت الذي لا يتحول، وللباقي الذي لا يموت وللقائم الذي لا يغيب. إن كل الآفلين يحملون معهم وفي عروقهم وفي أنسجتهم، وفي ظهورهم وغيابهم، وصمة عبوديتهم ودلالة ذلهم وخضوعهم سواء أكان هؤلاء الآفلون من أهل السماء وعمّارها أم من أهل الأرض وسمّارها.

كشف إبراهيم الخليل عليه السلام،عن المعيار الحق الثابت الراسخ في تمثل معنى الربوبية وتحقق معنى الألوهية، وهو معيار الثبات والرسوخ والبقاء. إن الله هو العلي حقا، وهو النور حقا، وهو فوق كل ذلك، الخالد الباقي الثابت الذي لا يتحول. وعند هذا الحد من الفقه القويم، انطفأت كل الشموس والكواكب، وبدا أن الغلام يتجه نحو الرشد بتمكين من لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء. «لا أحب الآفلين»، إنها صيحة رفض وصرخة إدانة لكل أولئك الذين عتوا واستعلوا زورا وظلما، ولكل أولئك الذين أشعلوا أنوارا زائفة بهروا بها أعين الحمقى والمغفلين من مجانين الخلق، فأصبحوا معبودات مقدسة وآلهة تقام لها المعابد.

إن هذا القول الإبراهيمي هو الضربة المعرفية الماحقة للبناء الطاغوتي عبر التاريخ الإنساني. فمعلوم أن طواغيت الأرض يبذلون كل جهودهم تأكيدا لاستعلائهم ويستنفدون كل حيلهم لتعمير هياكلهم المظلمة بأنوار مزيفة من الادعاءات والأسماء والألقاب والنياشين والشهادات الكاذبة. وهم على هذا المستوى، سحرة مهرة ومشعوذون لا يفوقهم في السحر سحرة فرعون الذين جاؤوا بسحر عظيم استرهبوا به أعين الناس حتى لقد خيل إليهم أن حبالهم وعصيهم أصبحت حيات تسعى. كذلك فعل ويفعل الطاغوت عبر العصور. فالفكر الطاغوتي يتجه مباشرة إلى المنازعة في الألوهية.

وهو لذلك يستوحي خصائص الإله وأوصافه ويتشبث بها. لذلك كان كل طاغية فوق الأرض، سواء أكان إنسا أم جنا، يحمل هاتين الصفتين: صفة الاستعلاء المزيف وصفة النور المزيف. وبهاتين الصفتين، يخضع الطاغية الخلق ويستعبدهم، فيقبلون عليه إقبال العبيد على مولاهم، ويقابلونه بما يقابل به الإله من خوف

ورجاء وخشية وطمع... ولا يكشف عن زيف الطاغية ولا يخلعه عن العرش الزائف للألوهية، إلا ظهور النهار عليه، أي انكشاف حقيقته وظهوره كما هو لا بألقاب ولا بأوصاف زائدة عليه. حينئذ ماذا تبقي الحقيقة من بنيان الطاغوت؟ إنها لا تبقي منه إلا ما أبقاه النهار الزاحف من كوكب إبراهيم الخليل عليه السلام؛ أي أنها تذيبه وتغيبه تماما، لأن الطغيان مقام وهمي وادعاء كاذب لا يقبله الوجود.

كان أفول الكوكب هو الدليل الساطع والبرهان الذي لا يناقش على أنه مخلوق وليس خالقا، وعلى أنه مربوب وليس ربا. فعلمنا بذلك نقطة ضعف الطاغوت في كل عصر ألا وهي أنه يموت ويزول ويأفل ويضمحل، فمن هذا الباب يمحى سحر الطغاة، وعبر الوعي بهذه الحقيقة، تزول طلاسم الطغاة والمتجبرين. هكذا، وعبر الوعي الصحيح السليم بضرورة أن تتوفر صفة الرسوخ والبقاء والثبات في الله الخالق سبحانه، استطاع الخليل عليه السلام، أن يحكم بضلال وجهته لما عبد الكوكب بليل ثم التفت فلم يجده بالنهار. ومن خلال هذا التأمل السليم في الكون، نفهم أن كل كائنات العالم ناطقة بحقيقتها، مظهرة لمعانيها وأبعادها وهوياتها،غير مدعية لشيء زائد عنها أصلا، وأنه ما حدث الادعاء والإضافة في العالم إلا من قبل الشيطان أولا، ثم من قبل البشر الغاوين الذين اتبعوا الشيطان في ضلاله وأوهامه.

ولذلك، فلما أقبل إبراهيم الخليل عليه السلام على الكوكب يؤلهه، رده الكوكب بظهوره بأوصاف مخلوقيته. فعلم الخليل عليه السلام، من أفوله أنه مخلوق ليس بيده أمر ظهوره ولا غيابه، وبالتالي أمر موته ولا حياته.

وبعزوفه عن عبادة الكوكب، كان إبراهيم الخليل يتجنب طاغوتا مستوليا، ويهدم أركان سلطة طالما بقيت طلسما وسدا منيعا أمام من يطلب الرشاد واليقين. وكان عليه عندئذ، أن يواصل البحث عن إلهه الذي خلقه فسواه فعدله.

ب - القمر الآفل : الكفر بالموت

« فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغاً قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لأَكُونَنَّ مِنْ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ « [1].

خلع َإبراهيم عن نفسه عبادة الكوكب لما رآه يأفل ولا يستقر، وأجال بصره من جديد باحثا عن الحي

الذي لا يموت. لم يحول بصره عن السماء، فهو بفطرته السليمة علم أن الاله لا يمكن أن يكون أرضيا دنيويا، بل لابد أن يكون مستعليا مستوليا على ما سواه. وفي السماء جذبه نور جديد فيكوكب آخر: إنه القمر.

القمر، هذا الكوكب المنير الذي يخفف من ظلمة الليل خاصة في أيام ازدهاره وبالذات عندما يصبح بدرا مستديرا مكتملا؛ هو أيضا كوكب لا يستقر على حال. فقد قدّره الخالق سبحانه منازل حتى عاد كالعرجون القديم:»والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم»[2]. وقد جعله الله تعالى منازل كي يعلم الناس عدد السنين والحساب:» هو الذي جعل الشمس ضياء والقمر نورا وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب ماخلق الله ذلك إلا بالحق، يفصل الآيات لقوم يعلمون»[3].

فمن أجل حكمة عددية حسابية، قدر الخالق سبحانه القمر منازل، فجاء أعجوبة الدهر فيما يعتريه من مقادير النور والظلمة. فهو أول الشهر هلال وليد، يكبر كل ليلة بمقدار معلوم حتى يصبح بدرا مستديرا مكتمل النور، ثم لا يلبث أن يقطع أربعة عشر يوما مماثلة من حيث العدد للمدة التي قضاها كي يكتمل بدرا، لكي يتجه نحو المحاق على التدريج والترتيب الالهي الذي لا يخل. فلا ينتهي الشهر إلا والقمر هلال كالعرجون القديم يتجلى في آخر الليل، ثم لا يلبث أن يمحق ليخرج في دورة جديدة هلالا وليدا مباشرة بعد الغروب معيدا دورته المنتظمة، ترتيبا الهيا لايخل، وتقديرا لا يطاله الزلل،آية من الله سبحانه أمام أعين خلقه يشاهدونها لا يماري فيها منهم أعمى أو بصير حتى ولو كان أغلبهم لا يعقلون شيئا ولا يفقهون.

ورغم أن القمر يذهب إلى حد ما بظلمة الليل، إلا أنه لا ينيره تماما، ولا يصل إلى حد جعل الليل نهارا، بل إنه لا يبسط نوره على الأرض إلا في أيام معدودة هي

(١) سورة الأنعام : ٧٧
(٢) سورة يس : ٣٩
(٣) سورة يونس : ٥

أيام إبداره. أما في غيرها من الأيام، فهو نور متوسط أو ذاو لا يلغي من ظلمة الليل البهيم شيئا. هذا من ناحية، أما من ناحية ثانية فإن كوكب القمر هو أيضا مصاب بما أصاب الكوكب، أعني بآفة الأفول. فلا يكاد النهار يزحف على الليل، ولا تكاد الشمس ترسل خيوطها وتمد أشعتها حتى ترتد أنوار هذا الكوكب ليغيب بعد ذلك بارتفاع الشمس واستقرار سلطان نورها على الأرض نهائيا فلا يبقى له أثر.إنه إذن يأفل كما يأفل الكوكب، ولذلك، فما إن أنس إبراهيم عليه السلام بالقمر ونوره، وظن أنه عثر على رب منير السبيل حتى أفل وتركه من جديد في حيرته وذهوله وضلاله،لا يدري ولا يفقه له وجهة. لذلك اعترف عندئذ وصرخ قائلا:» لئن لم يهدني ربي لأكونن من القوم الضالين». فأعلن الحيرة واعترف بالعجز والقصور عن الوصول إلى الحقيقة في نفس الوقت الذي آب فيه إلى مولاه الذي خلقه. فكان في حيرته عين إيمانه، وفي ضلاله عين اهتدائه، حيث لم يشك لحظة في وجود خالقه، وإنما ظهرت الآفة فيه هو، حيث قصر عن الاهتداء إلى ربه بما أوتي من فهم وعلم محدودين نسبيين.

علم الخليل عندئذ، أن الحقيقة ليست مطلبا هينا ولا غاية قريبة سهلة تنال بمجرد إجالة البصر في الأرض أو في السماء، وأن غاية التأمل إذا حصل من قلب سليم،هو التحقق من أن كل ما يراه الإنسان ويعيش في كنفه من كائنات الأرض والسماء، مخلوقات مثله لابد لها من خالق أكبر منها هو الذي خلقها وهو الذي يسيرها.

وبتخليه عن عبادة القمر، يلغي إبراهيم عليه السلام، سلطان الليل ويكفر بآلهته الوهمية، ويعلن بكل وضوح أنه لا مخرج له من ظلمة ليله إلا ربه الحق. إن الليل الموحش المظلم الذي تبعث دياجير ظلامه الخوف والرعب في قلوب أغلب البشر فيرتدون إلى أول نور يعبدونه أنسا به وتوكلا عليه، لا يزيد إبراهيم الخليل إلا اقتناعا بأن الحق يتجاوز الليل ويطويه. ومن هنا كان عليه أن يبحث في مكان آخر وفي زمان آخر؛ وحينئذ فقد جاء النهار وأشرقت شمسه .

ج - عبادة الشمس

« فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ. إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ حَنِيفاً وَمَا أَنَا مِنْ الْمُشْرِكِينَ «[1].

في النهار كان موعد إبراهيم الخليل مع الشمس التي ما كان النهار نهارا إلا بها، وما انجلت ظلمات الليل إلا بتأثيرها وتحت قهر سلطان نورها الساحق. لذلك كان اعتقاد إبراهيم في ألوهيتها أكبر من سائر اعتقاداته السابقة، دليل ذلك أنه قال: «هذا ربي هذا أكبر». فنسب الكبر إلى الشمس. والكبر كما نعلم، صفة من صفات الله تعالى الكبير المتعال.غير أن ما غاب عن الخليل عليه السلام، أن الشمس ما كبرت، وما تعاظم نورها في اعتقاده وظنه، إلا لما قارنها بما عبد سابقا من كوكب وقمر. أما لو قورنت بمطلق النور، فهي ولا ريب لن تكون سوى قطرة من فيضه سبحانه وتعالى الذي أنار الوجود غيبه وشهادته، فما استتر إلا لقوة نوره وشدته على الأبصار. إن الشمس نور، وهي مقارنة بأنوار الكواكب الأخرى التي نراها ونتأثر بها، النور الأكبر والأعم والأشد هيمنة وتأثيرا. وقد ثبت اليم أنها مركز المجموعة الفلكية التي تنتمي إليها الأرض والتي تسمى المجموعة الشمسية. فالشمس حينئذ، هي الكوكب الجاذب، وهي محور مدار الأفلاك التابعة. فللأرض دورتها الضرورية حول الشمس تتم بها سنتها المفروضة، فيحدث لها من ذلك أثر يتمثل في تعاقب فصول أربعة تختلف وتتغير فيها أحوال الأرض ويتبدل فيها طبع ووصف النبات والحيوان والإنسان. ثم إن نور الشمس نور باهر غلاب، يكفي أن يتجه الإنسان ببصره نحوه ليشعر بالعجز عن التحديق فيه. فهذا الكوكب الضخم يرسل نورا باهرا، وحرارة مختلفة الدرجات فيكون من نوره وحرارته حياة الأرض وما فيها وما عليها. ولقد استقر سلطان الشمس في نفوس عديد الخلق فعبدوها مباشرة وصراحة أو رمزا وتورية. إن كل العبادات ذات الطابع الذكري، وذات المنزع السلطوي، تستقي من رمزية الشمس، وتستوحي قوة نورها وحرارتها كأساس للحياة والبقاء، وكمظهر للقوة الساحقة التي لا تقاوم.

كان من المفروض أن يهدأ بال الخليل، وأن يطمئن إلى إلهه الجديد الكبير الذي يبز القمر وسائر الكواكب قوة وهيمنة وغلبة؛ كيف لا ونور النهار يذهب ظلمات الليل ويلغي جيوش الظلام.غير أن الآفة المزمنة، آفة الأفول التي جعلت الخليل ينفر من عبادة الكوكب وعبادة القمر، لم تلبث أن ظهرت من جديد في الشمس كمرض

(١) سورة الأنعام : ٧٨ -٧٩

عضال لا شفاء منه لمخلوق. فلقد أنس الخليل إلى الشمس ونورها وحرارتها اللاهبة التي تعطيها سلطة وجبروتا جديرين باله.غير أنه وبتقدير عجيب، ما لبثت هذه الشمس أن بدأت في الاتجاه نحو الغروب حاملة معها حرارتها ونورها. ثم، وبتقدير حاسم، هجم الليل وأعلن سلطانه فلا شمس ولا ضوء. حينئذ، كان على هذا الفتى النابه أن يعي الدرس جيدا، وأن ينتبه إلى الحلقة المفرغة التي تتحرك فيها الكائنات، حيث لا غالب فيها ولا مغلوب، ولا قوي فيها ولا ضعيف، بل جميعها مخلوقات لله الواحد الأحد يعطيها من التأثير ما يشاء وقتما يشاء، وينزع عنها الأثر والتسبيب وقتما يشاء. فهل نقول غلب الليل النهار عندما نراه يزحف بظلماته فيغطي بردائه الأسود كل شيء ؟ أم هل نقول غلب النهار الليل عندما يولد الفجر وليدا، ثم ينبلج الصباح مسفرا فتندحر آخر خيوط الظلام ؟ أم نقول ما قاله العزيز الحكيم:» وَمِنْ آيَاته اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لا تَسْجُدُوا للشَّمْس وَلا للْقَمَر وَاسْجُدُوا للَّه الَّذيَ خَلَقَهُنَّ إنْ كُنْتُمْ إيَّاهُ تَعْبُدُونَ» [1]. فثبت أن هذه الكواكب مخلوقة لخالق أعظم منها، هو الذي يظهرها ويخفيها، وهو الذي قدر أنوارها، وحدد مدى تأثيراتها. فهي كائنات خاضعة تتحرك بقدر معلوم، وتنتظم ضمن قوانين صارمة محكمة جعلت منها آيات دالة على الخالق الأعظم جل وعلا، الذي لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء.

هكذا زال الطلسم في رؤية الكون ورؤية العالم بالنسبة للخليل عليه السلام. فلقد لاحظ بأم عينه أن لا سلطان لشيء أصلا في العالم، وأنه (أي العالم)، قد ركب بحيث يعقب الآخر الأول، ويتداخل الواحد مع الآخر ويندمج فيه، كيف لا والعالم كله كرة تدور، فلا توجد فيه نقطة إلا وتعقبها أخرى، ولا توجد نقطة إلا وهي تعقب أخرى.

فكل مخلوقات العالم وكائناته سواء في هذه الدائرة وأي استعلاء فيها هو الوهم المستحيل بمقاييس الهندسة الوجودية الكونية. يقول الخالق جل وعلا « إنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدْ اللَّهَ مُخْلِصاً لَهُ الدِّينَ (٢) أَلا للَّه الدِّينُ الْخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونه أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّه زُلْفَى إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيه يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ (٣) لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَتَّخذَ وَلَداً لاَصْطَفَى مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ سُبْحَانَهُ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ (٤) خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لأَجَلٍ مُسَمًّى أَلا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ (٥) خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ يَخْلُقُكُمْ

(١) سورة فصلت : ٣٧ -٣٨

فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقاً مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلاثٍ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ لَا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ (٦) إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ وَلا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ وَلا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ « [١].

أجابت هذه الآيات البينات عن كيفية الخلق الكوني وخصائصه وسره. فأكد سبحانه أنه خلق السماوات والأرض بالحق. فدل بذلك على انتظام العالم، وانخراط الكون بما فيه ضمن نسق وبنية خلق وتكوين واحدة هي بنية الخلق الالهي الذي ظهرت بصماته في كل شيء، فجعلت من كل شيء آية ودليلا على الواحد سبحانه. إن خلق السماوات والأرض بالحق، تأكيد من الخالق سبحانه على أن النظام لا يتخلف عن سر تكوين الكائن مهما ضؤل فأصبح كالذرة أو أقل حجما، ومهما كبر فأصبح كالمجرة أو أكبر حجما. هذا من ناحية؛ ومن ناحية أخرى يوضح الحق سبحانه أنه طوى في كل ما خلق وكوّن سره وخاصيته وصفته الفريدة، ألا وهي صفة التوحيد، وأودع هذه الصفة في أطواء النظام الذي هو سر بقاء الكائن وانتظامه ووجوده وفنائه، كما أودعها ما طوى عليه الكائنات من الحكمة، فلم يند مخلوق عن الظهور بأسرار حكمة الخلق الإلهية، ولم يكن لمخلوق أن يبدل هويته ولا أن يحول مآله كما لم يكن له بدءا أن يتحكم في وجوده وخلقه. تلك حكمة بالغة تأتي اكتشافات العلماء وأعمالهم التجريبية وملاحظاتهم المجهرية كل يوم بما يدعم التأمل السليم الكاشف عن وجودها في بنية الخلق الكوني. إن الخلق، خلق الكون بالحق من قبل الخالق سبحانه، اتجه دائما إلى إبراز حقيقتين تؤسسان نفس القناعة وتوصلان إلى نفس المعنى المضمون .

الحقيقة الأولى، أن السماوات والأرض وما فيهما وما بينهما مخلوق. والحقيقة الثانية، أن خالق كل هذا الكون هو الله الواحد الأحد الفرد الصمد.

أما الحقيقة الأولى والمتعلقة بتأكيد مخلوقية العالم، فقد برزت من خلال أمرين اتصف بهما العالم بكل ما فيه.الأمر الأول، يتصل بمآل كائنات العالم، فقد قدر الخالق البارىء، أن يكون الفناء والموت مآل كل حي سواه، فجعل لكل شيء قدرا ومقدارا في الآجال والأعمار، كما في الأحجام والتأثيرات وسائر الأوصاف:» ولا تدع مع الله الها آخر لااله إلا هو كل شيء هالك إلا وجهه له الحكم وإليه ترجعون« [٢].

فجعل سبحانه صفة الفناء أخص أوصاف المخلوقات على اختلافها وجعلها

(١) سورة الزمر : ٢ - ٧

(٢) سورة القصص : ٨٨

القاسم المشترك بين كل الكائنات. وتفنن سبحانه في إظهار وصف الفناء وحجبه فجعله أنواعا، وجلاه في صور لا تحصى ولا تعد، حكمة منه سبحانه لينبه الغافلين ويحير ألباب العارفين، هداية لهم إلى سره الدفين. هذا الفناء الملازم للعالم، هو الوصف الأخص المشترك الذي اكتشفه الخليل عليه السلام لما تأمل خلق الله فوجد أن أنوار الخلق جميعها تنطفىء ما كبر منها وما ضؤل، ما قل منها وما كثر. إنه الأفول والغروب، ذلك المشهد الكوني الراسخ الذي لا يتخلف عنه مخلوق. فلكل مخلوق شروقه وغروبه، كوكبا كان بلا اسم أم قمرا جميلا محبوبا، أم شمسا ساطعة مرهوبة مستولية.

هذا الغروب، أو هذا الموعد، موعد الأفول الذي لا يتخلف، هو الذي صدم إبراهيم لما تأمل العالم، وهو الذي أكد له أنه أمام جنس واحد من الكائنات. جنس مخلوق محكوم مقود بالقهر والجبروت إلى نهايات بل إلى نهاية واحدة لا مناص منها.

حينئذ، تيقن الخليل عليه السلام، أن وراء هذه الفانيات خالقا أكبر منها، وأن وراء هذا القضاء المبرم، قضاء الأفول المحتوم، قاض محتم هو خالق السماوات والأرض جميعا ورب الشمس والقمر معا. يقول سبحانه معلنا عن الأجل المحتوم « وسخر الشمس والقمر كل يجري لأجل مسمى ألا هو العزيز الغفار».

فأكد سبحانه فناء العالم وأعلن عن نهايته، وقرّب صورة هذا الفناء المؤجل فجعل للشمس غروبا وجعل للقمر منازل قدره فيها حتى عاد كالعرجون القديم، وجعل للكواكب أفولا، حيث تغيب في النهار ولا تبين. كل ذلك من أجل تنبيه الغافلين إلى حقيقة العالم، وإلى حقيقة مآله، وأنه يفنى ويزول ويبقى وجه ربك ذي الجلال والإكرام. ولكن هل وعى الناس هذا الدرس ؟ كلا، فرغم ما يرونه من أفول الشمس والقمر والكواكب، فإن الناس أبوا إلا أن يؤلهوها وأن يجعلوها صاحبة السلطان في موقع الله سبحانه وتعالى.

ولم ينج من هذا الإفك وهذا الضلال المبين إلا صاحب القلب السليم الذي طلب الحق بصدق فظهر له هذا الحق لا خارج السماوات والأرض، بل فيهما وفي كل ما خلق الله . حينئذ رأى الحق حاكما على ما سواه. وعلم أن هذا السوى هو كل المخلوقات الآفلة التي لا بقاء لها. إن العلم الحديث لا يفتأ يكتشف من أسرار هذه الحقيقة الباهرة التي أعلنها القرآن الكريم،أعني حقيقة فناء العالم بأقماره ونجومه وكواكبه ومجراته.

أما الأمر الثاني الدال على مخلوقية العالم، وعلى أنه مصنوع من قبل صانع حكيم أعلى منه،فهو نظام الزوجية العجيب الذي لم يفلت منه كائن في الأرض ولا في

السماء. فالعالم كله مصنوع حسب خطة خلق واحدة هي خطة البناء الزوجي حيث جعل سبحانه لكل شيء زوجا، فلم يتفرد بالوحدة كائن سواه. يقول سبحانه:» ومن كل شيء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون. ففروا إلى الله إني لكم منه نذير مبين» [1].

هذه الزوجية التي نعلم اليوم من أسرارها الكثير ولعل ما خفي أكبر،هي التي تشكل بنية الخلق الكوني، وهي كلمة السر والمفتاح الذي ندخل به إلى دائرة العالم لفهم ما يدور فيها من قائم ومستقر، نائم ومستيقظ، ساكن ومتحرك. إن نظام الخلق الزوجي الذي ائتلف بفعل حضور الرحمن لا بشيء آخر سواه، هو الدليل القاطع والبرهان الساطع على مخلوقية كل الأزواج. فالذي لا مراء فيه أنه ليس من زوج إلا وهو محتاج لزوجه، وأنه لا إمكان لفهم سر تكوين الزوج في غياب تمثل ومعرفة زوجه وقرينه. فالزوج بالزوج يعرف، كما أنه بالزوج يستقر ويطمئن وإليه يسكن ويحن. وسبحان الذي أوحى للطير أن تتزاوج فتتخذ أعشاشا وتولد بيضا هو سر استمرار الحياة واستمرار الولادة، وسبحان الذي خلق للإنسان زوجه ليسكن إليه وجعل بين الزوجين مودة ورحمة بحيث لا ينكر أحدهما الآخر ولا يدفعه، بل يسعى إليه ويحن ويطلبه بلا هوادة. يقول سبحانه:» سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لا يَعْلَمُونَ (٣٦) وَآيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ (٣٧) وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (٣٨) وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ (٣٩) لا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ«[2] .

نبه سبحانه في هذه الآيات إلى أنه خالق الأزواج كلها مما نعلم ومما لا نعلم، فأوحى بذلك أنه أمام العلم دائما مجالات جديدة للكشف، وأن هذا العلم سوف يبقى أبدا في حالة تجديد رؤية وتجديد كشف، حيث أن مالا نعلم من أسرار الزوجية ، قد يكون أغرب مما نعلمه. ثم أشار سبحانه إلى الليل والنهار، ونبه إلى الترابط الزوجي القائم بينهما كما أشار إلى الشمس والقمر إشارة من يدعونا إلى رؤيتهما معا لا إلى الفصل بينهما حتى نعي سر الزوجية ونفقه من حقائقها وأحكامها ما يزيدنا فهما للعالم ووعيا بمخلوقيته لله سبحانه وتعالى. إن تأمل علاقة الليل بالنهار وعلاقة الشمس بالقمر، هو الذي سينبهنا إلى الحقيقة الثانية الأكيدة وهي وجود الخالق سبحانه وتعالى ووحدته، وأنه هو الرب لا اله إلا هو

(١) سورة الذاريات : ٤٩ - ٥٠

(٢) سورة يس : ٣٦ - ٤٠

وليس ما سواه سوى آلهة زائفة اتخذها الناس عن جهل وضلال لا عن علم ويقين. فلقد أشار سبحانه إلى أنه:» يكور الليل على النهار ويكور النهار على الليل». جاء في لسان العرب:» ... وقال النضر: كل دارة من العمامة كور، وكل دور كور.وتكوير العمامة: كورها. وكار العمامة على الرأس يكورها كورا: لاثها عليه وأدارها... والكور: الزيادة... وتكوير الليل والنهار: أن يلحق أحدهما بالآخر. وقيل تكوير الليل والنهار تغشية كل واحد منهما صاحبه، وقيل إدخال كل واحد منهما في صاحبه والمعاني متقاربة. وفي الصحاح:وتكوير الليل على النهار تغشيته إياه، ويقال زيادته في هذا من ذلك.وفي التنزيل العزيز: يكور الليل على النهار ويكور النهار على الليل:أي يدخل هذا على هذا، وأصله من تكوير العمامة، وهو لفها وجمعها. وكورت الشمس جمع ضوءها ولف كما تلف العمامة...وقال مجاهد: كورت اضمحلت وذهبت .. وقال عكرمة نزع ضوءها.. وكور المتاع ألقى بعضه على بعض...»[1].

فالتكوير حينئذ، يعني التداخل والالتفاف. يدعم هذا قوله سبحانه في موضع آخر:» إن ربكم الله الذي خلق السماوات والأرض في ستة أيام ثم استوى على العرش يغشي الليل النهار يطلبه حثيثا والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين»[2].

وقوله سبحانه في سورة الرعد:»وهو الذي مد الأرض وجعل فيها رواسي وأنهارا ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين اثنين يغشي الليل النهار إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون»[3].

فعبر سبحانه بلفظ الغشيان عن علاقة الليل والنهار وهو نفس اللفظ الذي استعمله سبحانه في توضيح علاقة الزوج بزوجه، حيث قال جل من قائل:»هو الذي خلقكم من نفس واحدة وجعل منها زوجها ليسكن إليها فلما تغشاها حملت حملا خفيفا فمرت به فلما أثقلت دعوا الله ربهما لئن آتيتنا صالحا لنكونن من الشاكرين.فلما آتاهما صالحا جعلا له شركاء فيما آتاهما فتعالى الله عمّا يشركون»[4].

فجعل سبحانه غشيان الزوج لزوجه سببا في حملها وولادتها، فكذلك الليل والنهار اللذان يشكلان وجه الزمان فوق الأرض، خلقهما الله سبحانه خلقا زوجيا ليناسب الظرف المظروف حيث لا يوجد مخلوق في هذا العالم الأدنى إلا وله زوج إليه

(١) لسان العرب : مجلد:٥، مادة: كور، ص ص:١٥٥- ١٥٦
(٢) سورة الأعراف: ٥٤
(٣) سورة الرعد: ٣
(٤) سورة الأعراف: ١٨٩ - ١٩٠

يحن وعنده يسكن. وكذلك جمع الله سبحانه بين الشمس والقمر جمع الزوجية، فجعل تأثير الشمس في القمر مثل أثر الزوج في زوجته، حيث إن الشمس هي مصدر نور القمر، وهي المسبب لتقلبه في أدواره وأطوار استنارته ومحاقه...

باكتشاف إبراهيم الخليل عليه السلام، لسر الشمس وذلك بمعرفة أنها مثل الكوكب والقمر تأفل وتغيب رغم كبرها وضخامتها، تجلى له وجه الحق سبحانه، فأعلن صراحة ودون مواربة أمام قومه أنه بريىء مما يشركون:» ..فلما أفلت قال يا قوم إني بريء مما تشركون. إني وجهت وجهي للذي فطر السماوات والأرض حنيفا وما أنا من المشركين»[1].

فجاءت البراءة من الشرك أولا، ثم جاء بعدها إعلان التوحيد بالاتجاه نحو خالق السماوات والأرض مباشرة وبدون واسطة. فكان إيمان الخليل عليه السلام، نفيا وإثباتا، إلغاء وتنصيبا ورفضا وتأكيدا. رفض للشرك وتأكيد للوحدانية، وكذلك إيمان كل مؤمن لابد أن يحضر فيه هذان الموقفان اللذان لا يشكلان في الحقيقة سوى موقف واحد ذي اتجاهين، اتجاه أول نحو فسخ السائد والمتعارف من الشرك والوثنية وعبادة الطاغوت. واتجاه ثان مواكب للأول، يتجه نحو الإيمان بالله الواحد الأحد رب السماوات والأرض وذلك على التحقيق معنى الشهادة في قول المؤمن:» أشهد أن لا اله إلا الله «.

ففي الشهادة الواحدة براءة واعتراف في نفس الوقت، وذلك هو جدل الإيمان ومنطقه العميق، وأساس بنيته الحركية الفاعلة. هكذا جاء اليقين ثمرة عيان وتجربة مباشرة، وتأمل حي واقعي لملكوت السماوات والأرض وما فيهما ، ولم يكن مجرد كلام يردد أو اعتراف ظاهري شكلي. كان على إبراهيم أن يرى بأم عينه كيف تأفل الكواكب والأجرام، وأن يستخلص منها درس الموت والحياة حتى يعرف أخيرا من هو رب الموت والحياة. فلم يصرح بعبادة فاطر السماوات والأرض إلا بعد يأسه مما بين يديه وأمام بصره من أنوار جزئية فانية، ولولا أنه رأى بعينه كيف يأفل الكبير والصغير من الكواكب المنيرة، لما حقق اليقين المطلوب لصدق الإيمان ورسوخه وثباته.

إن هذا التأمل الإبراهيمي في الملكوت كان يهدف منذ البداية إلى تحقيق اليقين الثابت في وحدانية الله تعالى وتجاوزه لآفاق المخلوقات، لذلك استهلت الآيات بقوله:» وكذلك نري إبراهيم ملكوت السماوات والأرض وليكون من الموقنين». فثبت أن اليقين لا يحصل إلا عبر التجربة المباشرة للحقائق والمعاينة الذاتية للوقائع، واستخلاص العبر استخلاصا ذاتيا يحضر فيه السمع والبصر والفؤاد. ومثل

(١) سورة الأنعام: ٧٨ - ٧٩

هذا اليقين هو المؤسس لأرقى وأصفى مراتب الإيمان، إن كان للإيمان مراتب. فالإيمان كما تجليه التجربة الإبراهيمية الشريفة،عيان ومباشرة وتجلّ، أي رؤية للحق سبحانه، وتمثل لحقيقة وجوده من خلال آياته وعلاماته الظاهرة في العالم، ولا يمكن أن يكون الإيمان قويا إذا تم بمجرد السماع دون استعمال السمع والبصر والفؤاد، أي دون تأمل وتدقيق وتحقيق. إن جرأة إعلان الشهادة بعد ذلك، وهي أعظم ثمرة من ثمرات الإيمان، لا يمكن أن تتأتى لصاحب إيمان هش؛ ولا يمكن أن يكون الإيمان قويا إلا إذا انبنى على مباشرة وعيان، وتأمل صحيح عميق عقلاني واع. وباستخلاص اليقين من معدن الرؤية، وباستصفاء الحقيقة من نسغ العلامات والآيات الظاهرة في الملكوت، أعلن إبراهيم الخليل الإيمان، وأظهر درب الحنيفية السمحة. فما هي الحنيفية ؟ ولماذا كانت صفة ملازمة للإيمان الإبراهيمي، وبالتالي علامة على إيمان كل مسلم ؟

جاء في لسان العرب:» الحنف في القدمين: إقبال كل واحدة منهما على الأخرى بإبهامها... والحنف: الاعوجاج في الرجل وهو أن تقبل إحدى إبهاميه على الأخرى...أبو عمرو: الحنيف :المائل من خير إلى شر أو من شر إلى خير. قال ثعلب: ومنه أخذ الحنف والله أعلم. وحنف عن الشيء وتحنف: مال. والحنيف: المسلم الذي يتحنف عن الأديان، أي يميل إلى الحق، وقيل هو الذي يستقبل قبلة البيت الحرام على ملة ابراهيم ، على نبينا وعليه الصلاة والسلام. وقيل :هو المخلص وقيل:هو من أسلم في أمر الله فلم يلتو في شيء، وقيل : كل من أسلم لأمر الله تعالى ولم يلتو، فهو حنيف. أبو زيد: الحنيف المستقيم... وقال أبو عبيدة في قوله عز وجل: قل بل ملة إبراهيم حنيفا، قال: من كان على دين ابراهيم، فهو حنيف عند العرب، وكان عبدة الأوثان في الجاهلية يقولون: نحن حنفاء على دين إبراهيم، فلما جاء الإسلام سموا المسلم حنيفا؛ وقال الأخفش: الحنيف المسلم. وكان في الجاهلية يقال من اختتن وحج البيت حنيف لأن العرب لم تتمسك في الجاهلية بشيء من دين إبراهيم غير الختان وحج البيت، فكل من اختتن وحج قيل له حنيف، فلما جاء الإسلام تمادت الحنيفية، فالحنيف المسلم... الزجاج: ومعنى الحنيفية في اللغة:الميل. والمعنى أن إبراهيم حنف إلى دين الله ودين الإسلام... الفراء: الحنيف من سنته الاختتان.

وروى الأزهري عن الضحاك في قوله عز وجل:حنفاء لله غير مشركين به، قال: حجّاجا وكذلك قال السدي. ويقال تحنف فلان إلى الشيء تحنفا إذا مال إليه. وقال ابن عرفة في قوله عز وجل: بل ملة إبراهيم حنيفا، قد قيل: إن الحنف الاستقامة وإنما قيل للمائل الرجل أحنف تفاؤلا بالاستقامة.

قال أبو منصور: معنى الحنيفية في الإسلام الميل إليه والإقامة على عقده. والحنيف: الصحيح الميل إلى الإسلام و الثابت عليه. الجوهري: الحنيف المسلم. وتحنف الرجل أي عمل عمل الحنيفية، ويقال اختتن، ويقال اعتزل الأصنام وتعبد...
والدين الحنيف الإسلام، والحنيفية: ملة الإسلام. وفي الحديث: أحب الأديان إلى الله الحنيفيةالسمحة الزجاجي: الحنيف في الجاهلية من كان يحج البيت ويغتسل من الجنابة ويختتن، فلما جاء الإسلام كان الحنيف المسلم وقيل له حنيف لعدوله عن الشرك... والحنفاء جمع حنيف، وهو المائل إلى الإسلام الثابت عليه. وفي الحديث: بعثت بالحنيفية السمحة السهلة»[1].
يتبين من خلال مطالعة معنى الحنيفية مما أورده العلامة ابن منظور على ألسنة أهل اللغة وعلماء البيان، دلالتها بصفة أساسية على الميل، حيث أن الحنيف هو الذي مال عن عبادة الأصنام إلى عبادة الله ، وهو الذي مال عن ديانة الوثنية والشرك إلى الإسلام. وقد ارتبطت صفة الحنيف بإبراهيم عليه السلام على وجه التخصيص لأنه قد أحدث أكبر ميل يحدثه إنسان في تاريخ البشرية، وذلك بترجيح كفة الايمان على كفة الشرك وبضرب الشرك من أسسه، وبغرس بذرة الشجرة الطيبة التي ستكون حجة على الشجرة الخبيثة وشاهدا عليها.
لماذا ارتبطت الحنيفية بإبراهيم الخليل ؟
لاريب أن الإجابة عن هذا السؤال لن تتأتى لنا إلا إذا نظرنا إلى مجمل حياة الخليل عليه السلام وهو ما لم نفرغ منه إلى الآن؛ غير أن مثل هذا الوصف جدير دائما بأن يجعلنا نبحث طيلة هذا الكلام عن حقيقة الميل الكبير الذي أحدثه هذا الرجل في مسيرة الإنسانية والذي لأجله استحق عن جدارة وصف الحنيف. كان كفر إبراهيم الخليل بالنجوم الثلاثة السماوية وخلاصه منها ومن شر عبادتها، رمزا لخلاصه من سجون ثلاثة أرضية، ومن معابد ثلاثة قامت في كل واحد منها سلطة متألهة مستعلية.
فماهي هذه السلط الثلاث الأرضية التي تألهت واستصنعت لها من الأصنام معبدا فيه تزار وعنده تقدم لها الذبائح ؟ وكيف استطاع الخليل عليه السلام أن يمحو أمام سبيله كل طاغوت من الآلهة المزيفة حتى خلص إلى معبد الأصنام فهدمه ودمر ساكنيه ؟

(١) ابن منظور: لسان العرب، مجلد:٩، مادة حنف، ص ص : ٥٦،٥٧، ٥٨

٢ _ نحو تحطيم أصنام المعبد

الخروج من الظلمات

لقد استطاع إبراهيم الخليل أن يقوم بعمل غير مسبوق في تاريخ الإنسانية وذلك عندما هجم وهو بعد فتى على معبد الأصنام التي يعبدها قومه ويعظمونها فجعلها جذاذا غير خائف ولا وجل، بل واثقا مؤمنا، واضحا، لايخشى في ما فعل لومة لائم. ولسائل أن يسأل حينئذ، بأية قوة تذرع الخليل عليه السلام حتى امتدت يده إلى الأصنام تحصدها بلا هوادة ولا خوف ؟ وقبل ذلك، أي إيمان هذا الذي مكن الخليل عليه السلام من رؤية الأصنام كما هي فعلا، أي مجرد حجارة لا تنفع ولا تضر في وقت كان الجميع يعظمونها ويعتبرونها الآلهة المنجية ؟

وللإجابة نقول إن إقدام إبراهيم الخليل على تحطيم أصنام قومه بجرأة نادرة لم يسبقه إليها أحد، كان نتيجة لما أيده الله تعالى به من حجة في مواجهة الملك الطاغية وفي مواجهة أبيه وقومه.

فكما تخلص الخليل عليه السلام من الاستقطاب الفلكي الثلاثي الأبعاد المتمثل في الكوكب والقمر والشمس، فإنه تخلص وبفعل القلب السليم واللب الحي والعلم الإلهي اليقيني، من ثلاثة مراكز استقطاب أرضية تشكل في جوهرها وعمقها، القاعدة التي قام عليها المعبد، وتمثل الضامن لاستمرار بقائه وظهور سلطان أصنامه. وهذه السلط الأرضية الإنسية الثلاث، هي سلطة الملك الطاغية وسلطة الأب وسلطة القوم أو المجتمع. وهي تناظر من حيث فعلها في الإنسان وتأثيرها فيه، فعل الكواكب والنجوم الثلاث المذكورة (الكوكب ،القمر والشمس)، في كوكب الأرض.

أ - مجابهة الطاغوت : انطفاء نور الكوكب

كان الكوكب السماوي الذي رآه الخليل عيه السلام وقدر أنه ربه المعبود الجدير بالصلاة والسجود، الرمز الفلكي لطاغوت الأرض المستعلي بنفسه، المعتد بنوره وفرديته المتعاظمة الرافض للتحديد والتواضع تحت أي اسم من الأسماء، المتجلي بمطلق الحرية ومطلق الكبرياء تشبها برب الأرض والسماء. فكما أن الكوكب في السماء نور لا يقبل التعريف والتحديد فكذلك طاغوت الأرض من الملوك المستبدين المتألهين، يستعلون على البشر رغم أنهم من نفس الطينة ولا يعترفون من الألقاب إلا بلقب الملك تشبها بالله الواحد الحاكم. وقد كان اكتشاف الخليل عليه السلام لنقطة ضعف الكوكب الذي عبد بالوقوف على أفوله واضمحلاله، سببا بعد ذلك في رفضه لسلطة الملك ورؤيته رؤية عقلية واقعية لا أثر فيها للضلال والغوغائية وسائر أمراض النظرة الميتة المحبوسة. يقول سبحانه وتعالى متحدثا عن المجابهة التي حدثت بين الخليل عليه السلام وبين الملك المتأله:» ألم تر إلى الذي حاج إبراهيم في ربه أن آتاه الله الملك إذ قال إبراهيم ربي الذي يحيي ويميت قال أنا أحيي وأميت قال إبراهيم فإن الله يأتي بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب فبهت الذي كفر والله لا يهدي القوم الظالمين»[1].

تكشف هذه الآيات البينات عن الواقع السياسي والثقافي والاجتماعي الذي كان يعيش فيه الخليل إبراهيم عليه السلام. فمن البين الذي لا يحتاج للتأكيد أن الملك الذي كان يحكم بلد الخليل، كان طاغية متألها قد بلغ في الطغيان مبلغا جعله ينازع في اختصاص رب السماء، ويدعي لنفسه نفس صفات العظمة والقوة الإلهية ؛ دليل ذلك أنه عندما أجابه إبراهيم بقوله: « ربي الذي يحيي ويميت» ادعى هو هذه القدرة، وقد يكون تذرع ببعض الحيل السخيفة لإظهار صحة ما قال مما جعل الخليل عليه السلام يضرب عن هذه الحجة الأولى ويدفع بحجة ثانية جعلت الملك يقف مبهوتا لا يحري جوابا.

وإذا كانت سياسة البلاد على هذه الشاكلة، فلا ريب أننا أمام مجتمع طبقي منظم على أساس الاعتبارات السلطوية، حيث يقنن العلو مسلك الاستبداد، ويرسخ انقسام الخلق إلى سادة وعبيد. إن مجتمعا يؤله ملكه، يعترف بالضرورة أنه يقدس التحكم والتسلط ويعطي لمركز الحكم قيمة سحرية لا تضاهيها قيمة أخرى. هذا إلى أن إلحاد مثل هذا المجتمع أمر واضح بيّن؛ فمن رأى الألوهية في بشر مثله لا يمكن له إطلاقا أن يفقه معنى التوحيد ومبدأه. وإذا كانت سلطة الملك وهي السلطة الظاهرة العلنية، قد أباحت له أن يتأله على العباد مع

(١) سورة البقرة : ٢٥٨

قبولهم لذلك، فمن الثابت أن مثل هذا المجتمع يتداول ثقافة ذات أساس مادي بحت لا مدخل فيه للحقائق الروحية بحال. إن عبدة الملوك والطاغوت، على شاكلة الأنعام التي تخضع مجموعاتها لأسلوب معين في الزعامة يقوم على حق الأقوى وأولوية الذكر الغالب الذي يزيح سواه من الطامعين ويهدم سلطاته.

أما الاستيلاء الطاغوتي على السلطة بالقوة والعسف، فلا يمكن أن يدل إلا على أن البشر قد تحولوا إلى أنعام تساق إلى حيث لا تدري مدفوعة برغبة لا تقاوم في الاستسلام وفي الخنوع والذل والهوان. وحيث أن الأمر كذلك، فمن الثابت أن وراء مثل هذا الخنوع للتسلط، اعتقاد في قدرة الطاغوت على النفع والإضرار، كما أن وراءه وهذا هو الأهم، تصور مادي للحياة والنجاة يقوم أساسا على اعتبار أن نجاة الإنسان نجاة مادية، وأن حياته هي أنفاس الدنيا فقط، وأنه لا حياة أخرى تنتظر ولا آخرة ترجى. إن الإنسان لا يقدم مثل هذه التنازلات للسلطة الأرضية الطاغوتية إلا إذا كان حبه للدنيا لا مزيد عليه ولا نقاش فيه. فمثل هذا الحب الطاغي للحياة الدنيا فقط، هو الذي يفسر قبول الإنسان لعبادة الملوك ورضوخه لاستبدادهم عليه واستخفافهم به.

ولو أن حب الدنيا زال من قلوب الناس، لما بقي فيهم من يعطي لطاغية قيمة ولا شأن؛ لأن الطاغية ما قام إذ قام إلا على خزانة الأموال والثروات الدنيوية. ولنتذكر فرعون الذي نادى في قومه :

» ونادى فرعون في قومه قال ياقوم أليس لي ملك مصر وهذه الأنهار تجري من تحتي أفلا تبصرون. أم أنا خير من هذا الذي هو مهين ولا يكاد يبين. فلولا ألقي عليه أسورة من ذهب أو جاء معه الملائكة مقترنين. فاستخف قومه فأطاعوه إنهم كانوا قوما فاسقين. فلما آسفونا انتقمنا منهم فأغرقناهم أجمعين. فجعلناهم سلفا ومثلا للآخرين»[1].

هذه الآيات البينات، وضحت سر استعلاء الفراعنة، وسر تأله الطواغيت وإفسادهم في الأرض. فهم بما يرونه من استحواذهم على ثروات البلاد، يتصورون أنهم هم أرباب الحياة والممات، وأن سواهم ليس له أمامهم إلا الركوع والخضوع.كيف لا وهم يملكون مصدر الأرزاق والخيرات والنعم :» وهذه الأنهار تجري من تحتي». وما جرت الأنهار إلا بما هو سبب لرزق العباد وهو الماء قوام الحرث وأساس الزراعة والغرس. فما استكبر فرعون إلا في قوم إذا خوطبوا بخطاب الدنيا، وإذا ما هددوا في أرزاقهم سكنوا وخضعوا وأطاعوا. ولنفرض أن قوم فرعون مثلا لم يكونوا شغوفين بالمادة، متبعين لأهوائهم، حينئذ ما كان ذلك الخطاب ليجد فيهم

(١) سورة الزخرف : ٥١ - ٥٦

أذنا صاغية، وكانوا سيرتدون على الذي استخف بهم لا ليطيعوه،بل ليحطموه ويدمروه. يقول سبحانه في هؤلاء الفاسقين:» فجعلناهم سلفا ومثلا للآخرين». فقوم فرعون الفاسقون،هم مثل كل قوم آخرين، يقبلون باستخفاف الطواغيت ويرضون بعبادة الفراعنة، ويرفضون الحق المنزل لا لشيء إلا لأنه جاء بدون أساور من ذهب، وبدون سلطان ظاهر حتى لا تكون الهداية غصبا. وما قوم إبراهيم عليه السلام، إلا مثل قوم فرعون في طاعتهم لملوكهم وخضوعهم لهم وتأليههم لهم. ولأمر ما قامت عبادة الملوك في مناطق الاستقرار الزراعي حيث أنظمة الري والتحكم في مياه الأنهار أمر ممكن ميسور. ولا يمكن أن تضاهى هذه البيئات الزراعية المستقرة التي ظهرت فيها عبادة الآلهة المزيفة من البشر، سوى البيئات المدينية الحديثة المستقرة، التي هيمنت عليها الدولة بسلطانها، فأصبحت بالنسبة للناس مثل فرعون بالنسبة لقومه. لذلك نلاحظ تكرار ظاهرة عبادة الملوك في العصر الحديث، أو عبادة المؤسسات التي تقوم الدولة على تسييرها والتحكم فيها.

وفي تلك البيئة القائمة على الطبقية واستعلاء الطاغوت، استدعي الخليل عليه السلام لمقابلة الملك. ولا بد أن يكون هذا الاستدعاء قد تم إما بعد حادثة تحطيمه للأصنام، أو بعد ما شاع من مواجهته لأبيه وقومه وإعلانه الكفر بآلهتهم المزيفة. ولا ريب أن الملك وهو الطاغية المتجبر مثله مثل فرعون ذي الأوتاد، كان يعلم يقينا أن الأصنام ما هي إلا أبواق لتركيز سلطته هو شخصيا، وأن المتعبدين لها لا يثبتون سلطانها بل سلطانه هو شخصيا؛ كيف لا وهم يثبتون بالسجود أمام الأصنام خضوعهم للاسم دون اكتراث بالمسمى، وسجودهم للظاهر دون اهتمام بحقيقة من يكون.

فعبدة الأصنام إذ يسجدون أمامها، فلما وقر في أذهانهم من كونها آلهة، بل بسبب هذه التسمية بالذات لا بسبب كونها آلهة حقيقية أو بسبب كونها حجارة. وهم إذ يفعلون ذلك، يرسخون سلطة الأسماء التي يستفيد منها الملوك الذين يسهل عليهم حينئذ، الاختباء وراء سلطة الاسم: الملك، لامتلاك قلوب الناس وأجسادهم ودفعهم إلى عبادتهم. من هنا نفهم لماذا لم ير الملوك الطغاة في الأصنام شريكة لهم في ملكهم، ولا منافسة لهم في سلطانهم، بل على العكس، دعموا هيبة المعابد وزخرفوها وزينوها، وأقاموا لها الكهنة والسدنة والحجاب، وجعلوا لها المناسبات والأعياد عالمين أنهم بهذه الخزعبلات والترهات، يقيمون شركا للقلوب ويحطمون المعبد الحي الذي يمكن له وحده أن ينازعهم: أعني قلب الإنسان.

إن الملوك هم أكثر الخلق معرفة أن الله الواحد الأحد رب السماوات والأرض

لا يحتاج إلى معبد صغير ليعبد فيه، وأنه لذلك إذا دخل الناس هذه الزوايا الضيقة والملاجىء العفنة التي سميت معابد عبر التاريخ، فإنما هم يعبدون على التحقيق أخيلتهم وأوهامهم التي تزيد من خضوعهم للطواغيت والجبابرة. لقد كان رسولنا صلى الله عليه وسلم، واعيا بما فعلته المعابد المزخرفة من تغطية لأعين الناس و استبلاه لعقولهم، لذلك جاء قوله عليه السلام:» وجعلت لي الأرض مسجدا وطهورا « تحريرا للصلاة من ربقة الخرافات، وتنزيها للعلاقة بالله أن يقوم عليها قيم أو تحددها مراسم. وإذا كان المسلمون قد أقاموا بدورهم مساجد، فلكي تذكرهم فقط بالعهد مع رب السماوات والأرض، ولكي تجمعهم صفا، أما وجوههم فهي أبدا قائمة شطر المسجد الحرام في أي مكان من الأرض أقاموا. والمسجد الحرام كما نعرفه، ليس سوى علامة على العهد الأول مع الملك الديان لا زخرف فيه ولا طنافس.

كان الملك الطاغية، قد وقر في نفسه أنه الإله فعلا بفعل ما يراه من خضوع عبيده له، وما يغذيه به الشيطان من أوهام وأباطيل يشربها فتكون له كالخمر لشاربها تزيده سكرا واشتعالا. وكان يرغب ولا شك في رؤية ذلك الإنسان الذي مازال متمالكا لعقله أمام شتى أنواع الإرهاب الفكري والديني والثقافي التي كان يزرعها كهنته وجنوده في أنحاء البلاد. ولأمر ما رغب في معرفة أسرار هذا العقل الصامد، وفي الاطلاع على سره الذي مكنه من كشف زيف الطغاة، ومن إبطال مفعول سحر السحرة والمشعوذين من سكان المملكة.

لذلك فإنه ناقش إبراهيم الخليل عليه السلام، ساعيا من وراء ذلك إلى اكتشاف السلطة المقابلة التي تواجهه ملغية لكل سلطانه وجبروته في كلمة واحدة وضربة واحدة هي قول إبراهيم عليه السلام:» لا اله إلا الله». ومثلما هو شأنه في كل مراحل خطابه، ينقل القرآن الكريم اللحظات الحاسمة في هذه المناقشة، ويركز على موضع الاعتبار والذكرى في هذا الحجاج المشهود.

محور الحجاج كما يتبين من خلال الآيات القرآنية، هو مسألة الألوهية. فالملك الذي آتاه الله الملك يدعي الألوهية، وإبراهيم الخليل من جهة أخرى يؤكد أن لا اله إلا الله الواحد الأحد فاطر السماوات والأرض. فقد طلب الملك من إبراهيم أن يعرفه بإلهه الذي يزعم. فكان رد الخليل عليه السلام:»ربي الذي يحيي ويميت». فأبان عليه السلام صفتين عظميين من صفات الخالق جل وعلا وهما صفتا الإحياء والإماتة.. وهاتان الصفتان هما من أوضح المجالي لسلطان الله تعالى وجريان قضائه وقدره على كل الخلق. حيث قضى سبحانه أن لا يتخلف مخلوق عن موعدي الموت والحياة، وأن يكون الهلاك نهاية كل شيء :» ولا تدع مع الله

إلها آخر لا اله إلا هو كل شيء هالك إلا وجهه له الحكم وإليه ترجعون»[1].
إن الإنسان نفسه، ليس سوى أحد هذه الأشياء الهالكة والنفوس الذائقة الموت سواء أطال به العمر أم قصر. يقول سبحانه:» كل نفس ذائقة الموت وإنما توفون أجوركم يوم القيامة. فمن زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور»[2].
هذا القضاء الذي ما منه مناص أعني الموت، ليس سوى الوجه الثاني للقضاء الآخر الذي ما منه مناص أيضا أعني الحياة. والإنسان الذي زوده الله تعالى بالوعي والفهم، يعلم علم اليقين أنه إن كان يقدر على أشياء كثيرة، ويمكن أن يدعي أشياء كثيرة، فلن يدعي يوما أنه خالق نفسه ومحييها، ولن يدعي كذلك أنه يعلم ساعة موته. فالموت والحياة هما الحقيقتان الأكبر في حياة الإنسان، وهما مجال لا مدخل له فيه إلا بالقبول والرضا تماما مثل بقية المخلوقات. ذلك منتهى علم العاقلين في هذه المسألة المحسومة سلفا ، والتي تدل دلالة قاطعة على مخلوقية الإنسان لخالق أكبر وأعظم منه وأعظم من كل الكائنات الأخرى التي تحيا وتموت وتأفل شأنها شأن البشر.
فأمام الموت والحياة، لا تملك أعتى الفلسفات إلا أن تصمت، وأمام أسرارهما لا تملك العلوم إلا أن تتوقف. ذلك أننا هنا أمام سر الخلق الذي يرتد أمامه البصر خاسئا وهو حسير. هذا السر الأعظم الذي أودعه الله سبحانه مخلوقا من أصغر مخلوقاته وتحدى البشر أن يخلقوا مثلها، حيث يقول سبحانه :» يا أيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذبابا ولو اجتمعوا له وإن يسلبهم الذباب شيئا لا يستنقذوه ضعف الطالب والمطلوب. ما قدروا الله حق قدره إن الله لقوي عزيز»[3].
لقد تحدى الله سبحانه الآلهة المزيفة أن تخلق ذبابا حتى وهي مجتمعة، وهذا ما لم تفعله ولن تفعله لأنه عين المستحيل بالنسبة للخلق أجمعين. ولذلك بقي هذا التحدي وسيبقى برهانا ودليلا على أن في الوجود قوة تتجاوزنا وتحاصرنا وتحيط بنا، وتصرف الكون كما تشاء وتريد، ولسنا أمامها سوى أحد مواطن تصريفها ومواقع فعلها. ولقد استوعب العاقلون من البشر هذه الحقيقة جيدا، وخضعوا بالوعي لما هم خاضعون له بالفعل، أي لسلطان الحق الله المحيي المميت، وجعلوا ما يرونه من تصرفه سبحانه بالإماتة والإحياء في الكائنات، دليلا

(١) سورة القصص: ٨٨
(٢) سورة آل عمران : ١٨٥
(٣) سورة الحج : ٧٣ - ٧٤

على وجوده سمّوه دليل التكوين أو دليل السببية أو دليل الاختراع على اختلاف بينهم في طرق تخريجه وتوضيح معناه، واتفاق بينهم في جوهر المعنى وحقيقة المقصود. ذلك كان منتهى قول العقل السليم في من يراه ينشىء الخلق ثم يعيده ويحيي ثم يميت. يقول سبحانه :» أفمن يخلق كمن لا يخلق أفلا تذكرون»[1]. فهل كان تذكير الخليل عليه السلام، بصفات ربه الخالق المحيي المميت سببا في تذكر الطاغية وتوبته عن ضلاله؟

على العكس ، لقد ازداد اللعين لجاجا ومكابرة وجرأة على ادعاء ما لا يدعيه من هو أشد منه قوة من المخلوقات الأخرى؛ فقال:» أنا أحيي وأميت». أشار اللعين إلى جهله الذي أطغاه فحكمه في رقاب العباد يقتل من يريد ويترك من يريد حيا، ناسيا أنه لا يفعل حينئذ سوى أن يتعاظم، كاشفا عن خلق إجرامي وعن نفس مدنسة بكل أنواع الفجور والضلالات. إن خطاب الطغيان والجبروت كله يمكن أن يلخص في هاتين الكلمتين :» أنا أحيي وأميت». هناك أولا قوله «أنا»، حيث أن الشخصية الطغيانية شخصية عمياء عمى تاما عن رؤية شيء سوى نفسها. ومادامت النفس في محض ذاتها ظلمة محضة ، فإن النفس الطغيانية لا ترى شيئا حينئذ، لأن موضع بصرها الظلمة الماحقة والليل البهيم.

يتركز عمل الطاغية كله على إشباع مطلب الأنا المقتصر على التعاظم والعلو بلا حد. وكلما لبّى الطاغية لنفسه مطلبا طالبته بسواه، وكلما ظن أنه بلغ مشارف العظمة وسكن إلى منتهى العلو، جاءه في يقظته أو في منامه ما يذكره بضآلته وحقارته وقلة حيلته وضيق أفقه، فلا يملك حينئذ ، إلا أن يعول وأن يثور كالثور الهائج طلبا للمزيد من الدماء وتعطشا للحوم الأبرياء. لذلك كان مسار الطغاة دائما مسارا تصاعديا في سلم التعاظم والعلو والعتوّ عن الحق. وكانوا كلما غرقوا في ضلالات أنفسهم وأوهام شياطينهم، يزدادون عمى، ويزدادون تعطشا لبلوغ المراد، وما دام ليس لهم من مراد إلا أنفسهم التي أغلقوا أبوابهم عليها، فإنهم يزدادون إحساسا بالضيق وشعورا بالحصر، فلا تزيدهم هذه المشاعر سوى مزيد من الإجرام والتقتيل وسفك الدماء.

إنهم حقا أولئك الذين عناهم الملائكة الكرام بقولهم لربهم:» أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك...»[2]. فالجبابرة عبر التاريخ البشري، مارسوا سفك الدماء، وكان عملهم الإفساد في الأرض قطعا للأواصر وتدميرا للفضائل ونشرا للرذائل والمفاسد. ذلك شأنهم في كل زمان، لا

(١) سورة النحل : ١٧

(٢) سورة البقرة : ٣٠

يختلف واحدهم عن الآخر إلا في لباسه وشكله، أما في العمق، فالملك الذي حاج إبراهيم هو فرعون الذي جادل موسى ، وهو كل طاغية يستبد اليوم بشعبه ويسخره لخدمة أغراضه وأهوائه الفاسدة. من هنا علمنا أن الأنا حجاب عن الحق إذا استعلت وتعاظمت وتجبرت؛ وأنها لا تكون مبدأ خير لنفسها وللآخرين إلا إذا آمنت وتواضعت وخضعت للواحد الأحد. فثبت أن كل كافر لابد أن يداخل ذاته من الاستعلاء ما يطغيه على اختلاف بين الكافرين في مدى الطغيان ودرجته. ثم نسب الطاغية لنفسه الإحياء والإماتة معا، فهاهو يتصرف في رقاب الخلق، يترك هذا حيا ويقتل هذا بدون أن يرد إرادته راد أو يمنعه مانع :» أنا أحيي وأميت».

فجعل اللعين الناس مسرحا لجنونه، ومحلا لتصرفه بلا رادع ولا وازع، فكأنهم قطيع أنعام بين يدي جزار يختار منه ما يشاء للذبح ويترك ما يشاء حيا. فأظهر بذلك قمة الظلم حيث ظلم إخوانه من البشر الذين يعلم يقينا أنهم مثله تماما كائنات حرة استعبدها بغير وجه حق. هذا من ناحية، ومن ناحية ثانية كشف هذا التصرف المجنون عن عمق الضلال والهوان الذي تعيشه الرعية التي لم يعد لها من الإنسانية إلا الاسم، ومن العقلانية إلا الرسم؛ كيف وهي تقبل أن يتحكم واحد منها في مصيرها، وتوافق أن يدبر لها أمر حياتها ومماتها فرد منها هو أفسدها أخلاقا وأشدها إضرارا بنفسه وبسواه.

فثبت أن مشهد الطغيان يعري النفس الإنسانية في حال فجورها عريا لا لبس فيه. فمن أراد أن يعرف معنى أسفل سافلين، فلينظر إلى تصرف الطاغية وإلى تصرف من أطاعوه من بني قومه. فهؤلاء أصفى مجلى للظهور الشيطاني، وهم عند الله شرار الخلق وأسوؤهم مصيرا ومآلا.

كان على الخليل عليه السلام، أمام استكبار الطاغية، أن يحسن الحجاج وأن يتقن تخريج مبتغاه بحيث يؤول بالمعنى إلى قمته حيث تغيب شبهات الكلام، ويستوي السلطان للحق بدون زيغ ولا ضلال. وإذا كان الطاغية قد ادعى أنه شريك في الإحياء والإماتة، فليأته إبراهيم الخليل بنفس الحجة مرة ثانية ولكن في مجلى لا تطاله يداه وتقصر عن الإحاطة به عيناه.

حينئذ رفع الخليل المثل من الأرض إلى السماء ودفع بحجته قائلا لخصمه:» فإن الله يأتي بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب». هذه آية جلية واضحة نراها كل يوم، ولفرط ما اعتدناها لم نعد نكترث بها ولا نستغرب من عجيب ما صّرف فيها من حقائق ومعان. غير أن الخليل عليه السلام وقد آتاه الله تعالى رشده، لم تكن لتغيب عنه ضخامة هذه الآية وعظم شأنها ودلالتها الساحقة على تحكم

الله سبحانه واستيلائه على المشارق والمغارب:» رب المشرق والمغرب لا إله إلا هو فاتخذه وكيلا «[1].

وأمام هذه الآية البينة وعلى رؤوس الأشهاد، لم يجد الطاغية ما يرد به على تحدي الخليل عليه السلام، فبهت ووقع في فراغ نفسه وارتد إلى ظلماته لا يرى شيئا. يقول سبحانه :» فبهت الذي كفر». وما أصابته البهتة إلا لأنه فوجئ من حيث لا يتوقع. فقد استقر سلطانه بما رآه من تحكمه في رقاب أهل الأرض، وبما مكن فيه من أرزاق وخيرات، وكان هذا سبب طغيانه، ولم يكن ليفكر في السماء أو ليهتم بشأنها، ولو أنه فعل ذلك بصدق لما وصل إلى ما وصل إليه من طغيان وظلم. ذلك أن السماء كلها آيات بينة دالة على وجود الواحد الأحد رب السماوات والأرض. يقول سبحانه وتعالى:» وفي السماء رزقكم وما توعدون» [2]. فالتأمل في السماء لابد أن يؤدي إلى الوعي بوجود الواحد مصدر الرزق الذي لا رزاق سواه؛ والذي أبى إلا أن ينزل الماء من السماء تذكيرا للإنسان أنه هو وحده الرزاق ذو القوة المتين. ثم إن التأمل في السماوات والأرض وكيفية خلقهن يحيي العقول ويوقظ الألباب، يقول سبحانه وتعالى:» إن في خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الألباب الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم ويتفكرون في خلق السماوات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانك فقنا عذاب النار»[3].

فوصف الله سبحانه المتفكرين في خلق السماوات والأرض بأولي الألباب لأنهم جمعوا النظر ولم يقتصروا على الأرض فقط، وأحاطوا بالأبعاد المختلفة لمسألة المعرفة، فتأملوا الحقيقة في مختلف الزوايا :» قياما وقعودا وعلى جنوبهم». فمثل هؤلاء ماكان الحق ليغيب عنهم، وإنما غاب الحق عن الظالمين من طواغيت الأرض وعبيدهم لأنهم لم ينظروا إلى السماء نظر اليقين والتحقيق، ولم يتفكروا في ما يجري فيها وما يتنزل منها، بل كانت الأرض منتهى نظرهم وغاية أملهم. فمثل هؤلاء يكون تصرفهم منطقيا تماما إذا استعلى فيهم طاغوت بما حاز من خيرات الأرض وقواها، ويكون منطقيا أيضا ضمن هذه الرؤية، ما يفعله ظالمو أنفسهم من عبدة الطاغوت، من تسخير أنفسهم للطاغوت تعويلا على أنه هو الرزاق صاحب خزائن النعم والجود.

باختصار ، يغيب في الفكر الطغياني بجزئيه السالب والموجب، بعد السمو بالنظر

---

(١) سورة المزمل : ٩

(٢) سورة الذاريات : ٢٢

(٣) سورة آل عمران : ١٩٠ - ١٩١

إلى الأعلى، أو لنسمه البعد العمودي المستقيم في النظر الموصل إلى الوعي بالسماء وحقائقها وآياتها البينات. فقد ثبت أن الفكر الطاغوتي فكر أرضي حشري، قاصر أعمى، وهذا ما يتبين في قصر حجة الطواغيت أنفسهم وضيق أنفاسهم بالحجة الحقيقية المستقيمة. فقد رد الطاغية بما يعلم لما كلمه الخليل عن الإحياء والإماتة اللتين تشملان كائنات الأرض والسماء.

غير أن الخليل عليه السلام الذي كان واعيا بسر قصور النظر الطغياني، صعّد المثل وحصره في السماء؛ حينئذ بهت الذي كفر. لم يتراجع الخليل عليه السلام، عن حجته الأولى، وهي أن الله هو «الذي يحيي ويميت»، فهي حجة حقيقية ثابتة لا يماري فيها إلا من أعدت من أجلهم جهنم وسقر، ولكنه وقد رأى تلاعب الطاغية بالكلام، حصرها في مجلى واحد سماوي هو مشهد شروق الشمس وغروبها، وتحولها في مواقعها مابين الشروق والغروب؛ ودعا الملك إلى أن يتدخل في هذا القدر المحكم بالتغيير والإحباط إن كان حقا إلها من الخالقين. هنا بهت الملك:»فبهت الذي كفر». جاء في لسان العرب:» وقد بهَت وبَهت الخصم: استولت عليه الحجة. وفي التنزيل العزيز.. فبهت الذي كفر، تأويله: انقطع وسكت متحيرا عنها»[1].

فقد جاءت حجة الحق من حيث لم يحتسب الطاغية، فلم يجد ما به يرد. وماذا سيرد وما الذي سيقوله وهو يدعى إلى تحويل مسار الشمس التي لا يكاد يحتمل حرارتها وهي على بعد مئات آلاف الأميال منه فكيف بتحويل وجهتها ؟ وقد نبه سبحانه بوصف الملك هنا بالكفر :» الذي كفر»، إلى أن كل كافر إذا جوبه بحجة الله البالغة المحكمة، سوف لن يكون مآله إلا البهت والانقطاع. ذلك أن الكفار ما أقاموا سلطانهم إلا على إنكار السماء وآياتها، ولو أنهم أدخلوا هذه الحقائق في الاعتبار، لما كفروا ولما استعلوا؛ فإذا جابههم صاحب الحق بآيات السماء، لم يجدوا ما يردون به عليه اللهم إلا ما كان من أمر فرعون لما استبد به سعار الاستبداد وجنون العظمة، فأمر وزيره هامان أن يصنع له صرحا لعله يبلغ أسباب السماء فيطلع إلى إله موسى:»وقال فرعون يا هامان ابن لي صرحا لعلي أبلغ الأسباب أسباب السماوات فأطلع إلى إله موسى وإني لأظنه كاذبا وكذلك زين لفرعون سوء عمله وصد عن السبيل وما كيد فرعون إلا في تباب»[2] .

وهذا الكلام هو عين الهذر والتخريف إذا أخذ بالمقاييس العلمية الموضوعية. فالسماء أبعد من أن يصلها فرعون وأسمى من أن تفتح بابها لملعون مطرود من رحمة الله تعالى:» إن الذين كذبوا بآياتنا واستكبروا عنها لا تفتّح لهم أبواب

(١)لسان العرب ، مجلد : ٢ ، مادة : بهت، ص : ١٣

(٢) سورة غافر : ٣٦ - ٣٧

السماء ولا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل في سم الخياط[1]. وكذلك نجزي المجرمين. لهم من جهنم مهاد ومن فوقهم غواش وكذلك نجزي الظالمين». قال الله تعالى تعليقا على حال الكافر الذي بهت عندما جوبه بحجة الله البالغة:» والله لا يهدي القوم الظالمين»؛ فنسبه سبحانه إلى القوم الظالمين. فعلمنا أن الظالمين هم الكافرون ومن في حكمهم ممن استكبر عن حكم الله وترفع عن النظر إلى آياته سبحانه. فظلم الإنسان نفسه أن يحرمها من ربها، ويقطع أسبابها بأسباب السماء ليبقيها متشردة شقية في عالم لا تعرفه ولا هو على التحقيق يقبلها بل يلعنها ويستعبدها. وإذا كان الظلم ما ذكرنا ، فإن العدل عين العدل، هو الإيمان بالله تعالى والإيمان بآياته البينات. فمن فعل ذلك بالحق عدل في حكمه ولم يمل مع الأهواء. ذلك أن مركز الألوهية مطلوب من قوى عديدة مستكبرة؛ فهناك الشيطان الذي يعلم المسألة حق العلم، ولذلك لا يطلب الألوهية بذاته بل يحرض الإنسان عليها. فيقبل هذا الجاهل بحقائق الوجود على ما لا يدعيه ملك ولا شيطان.

فنجد البشر يخلقون إفكا، فيؤلهون ما شاء لهم جهلهم ان يؤلهوا من أشياء وقوى وحيوان ونبات وجماد، ثم يتألهون هم أنفسهم ناسين أنهم بذلك يدخلون على الحق ما ليس منه، وأنهم بفعلهم هذا يصبحون مطلوبين للإعدام والمحق والسحق المطلق. وهل يترك الحق جراثيم الفساد لتطاله وهو الواحد الأحد ؟

أما إذا كان الإنسان عدلا، فإنه وهو يرى تكالب الطاغوت على الألوهية وهي منه براء، يشهد عندئذ أنه لا اله إلا الله الواحد الحق، وأن الطاغوت باطل لا يستحق سوى الكفر به وتجنبه. هذه الشهادة للحق بالحق هي عين العدل الذي به يقوم بناء الإنسان، إذا حضرت في الذات حضر الخير كله، وإذا أدبرت أدبر الخير كله. فوالله الذي لا اله إلا هو، ليمحقن كل بنيان مهما علا إذا كان خاليا من الشهادة، ووالله الذي لا اله إلا هو ليبقين كل بنيان قائم على الشهادة؛ وذلك قضاء الله الذي لا راد له. يقول سبحانه مباشرة بعد آية العرش التي أكدت استواءه الكلي على عرش الوجود واتساع كرسيه للسماوات والأرض:

» لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنْ الغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدْ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لا انفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ . اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنْ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمْ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنْ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ «[2] .

(١) سورة الأعراف : ٤٠ - ٤١

(٢) سورة البقرة : ٢٥٦ - ٢٥٧

فجعل الله سبحانه الشهادة للحق شهادة عدل وصدق، حرة لا جبر فيها ولا غصب؛ وجعل الإقبال على اللاهوت والإدبار عن الطاغوت بيد الإنسان نفسه. فثبت أن الإنسان مخلوق حر تام الحرية، وأنه على التحقيق ، ما كسب فرادته كجنس متميز في الوجود، إلا بهذه الحرية. فمن عرف هذه الحرية واستخدمها في ما ينفعه فاز ومن جهلها ضل وتاه وشقي. وقد سمى الله سبحانه الآلهة المزيفة طاغوتا، إشارة إلى ظلم الطواغيت لأنفسهم بادعائهم حقيقة ليست حقيقتهم.فسمي الطاغوت طاغوتا، لطغيانه عن موقعه، وترفعه عن حقيقته العبدية منازعة منه في الألوهية. ولذلك يطغي الطاغوت كل من يعبده، لأن عابد الطاغوت بمتابعة هذا المارق عن حقيقته، يضطر إلى المروق هو أيضا من حقيقته، وإلى الخروج من أوصافه وحقائقه، تصنعا منه وتقربا من الطاغوت.

يحتاج عابد الطاغوت إلى كثير من النفاق وكثير من الكذب وكثير من الجهل والظلم وغير ذلك من أوصاف السوء والضلال حتى يتأقلم مع الهه الجديد الذي يخرج عابديه من النور إلى الظلمات على عكس الإله الحق سبحانه وتعالى. فجاء الطاغوت مجلى نقيضا للحق سبحانه وتعالى. والنقيضان كما نعلم، لا يجتمعان. لذلك كان عمل الطاغوت مناقضا تماما لعمل الرب. فالرب الخالق سبحانه ، ولي الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور، بينما يخرج الطاغوت أولياءه من النور إلى الظلمات.

فحركة المؤمنين ومسعاهم بإذن الله نحو النور ونحو الوجود؛ وحركة الكافرين ومسعاهم نحو الظلمة والعدم. فثبت بهذا أن أخشى ما يخشاه العبد على نفسه إذا كان من العاقلين، أن بتورط في عبادة الطاغوت، وأن يرضى بهذه العبادة قائلا كما قال من سبقوه:» ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى»[1].

هؤلاء رد عليهم الله سبحانه بقوله في نفس الآية :» ألا لله الدين الخالص والذين اتخذوا من دونه أولياء ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى . إن الله يحكم بينهم في ما هم فيه يختلفون. إن الله لا يهدي من هو كاذب كفار»[2].

فبين سبحانه، أن له الدين الخالص من أي شريك. وأن سوى هذا الدين هو منه بريىء وهو رد على صاحبه. وأن اولئك الملاعين الذين عبدوا الطواغيت بدعوى أنها تقربهم إلى الله زلفى، ليسوا سوى كذابين كافرين:» إن الله لا يهدي من هو كاذب كفار».

فما عبد الطاغوت إلا استهانة بالحق سبحانه، وجهلا بحقه الواجب في

(١) سورة الزمر : ٣

(٢) السورة نفسها ، الآية نفسها

العبادة،وعمى عن مصدر الرزق الحقيقي الذي هو الله دون سواه. وما وقع الإقبال على الطاغوت إلا حبا في الدنيا، ويأسا من الآخرة، ورضا بالهوان، وتضييعا لأمانة العقل والحرية والاستخلاف. باختصار، إن عابد الطاغوت يقف مباشرة كنقيض مطلق لعابد الله أي للمؤمن، تماما كما أن الطاغوت نقيض لله الواحد الحق. وإذا كان المؤمن يؤاخي الملائكة الكرام وكل خلق الله المؤمنين بإيمانه وإسلامه وإحسانه، فإن عابد الطاغوت يؤاخي القردة والخنازير. يقول سبحانه بدون لبس :» قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ اللَّهِ مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ أُولَئِكَ شَرٌّ مَكَاناً وَأَضَلُّ عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ «[1].

فاليقَين الثَابت أن الله سبحانه، ما خلق القردة شبيهة بالبشر، إلا تنبيها إلى هذه القردة البشرية من عبدة الطاغوت الذين لا يشبهون المؤمنين إلا على مستوى أشكالهم، أما في أعماقهم، فهم قردة وخنازير بكل ما تعنيه هذه الكلمات من معاني الهوان والانحطاط.

يقف الطاغوت على رأس هرم البنية السلطوية للذات والتصور السلطوي الوهمي للعالم الذي انبنى هندسيا على شكل هرمي. فليس من المصادفة بحال، أن تكون أهرامات مصر الشهيرة مدافن للفراعنة الطغاة الذين تألهوا في الأرض. فهذه الأهرامات بهندستها تلك، تعبر أحسن تعبير عن البنية السلطوية لفلسفة الوجود والعالم والإنسان في البيئة الطاغوتية في كل عصر و كل مكان.

إن الطاغوت هو الولد المعبود في عبادة أم الولد الشهيرة التي وجدت في مصر ومناطق أخرى من العالم، والتي انتقلت بعد ذلك إلى الديانة المسيحية نفسها والتي تأثرت بالبيئات الوثنية الرومانية وغيرها والتي تنشأت فيها وظهرت. فالتثليث المسيحي المتمثل في عبادة « الأب والإبن والروح القدس»، هو تصحيف خفيف،وتغيير شكلي فقط لعبادة أم الولد المنتشرة في البيئات الشركية الوثنية والتي تعبر عن المنطق الشركي الوثني في رؤيته للعالم وللوجود.

وإذا كان الخليل عليه السلام، قد واجه الطاغوت وحاجه وأفحمه بحيث لم يجد له حجة أمام الحق، ولم يعد له من منطق ينطق به، فإن هذه المواجهة الحاسمة التي انتهت بانتصار صاعق للحق على الباطل وللتوحيد على الوثنية والشرك، لم تحصل من فراغ ولم تأت صدفة، بل جاءت لحظة الانتصار هذه نتيجة موقفين أولين وقفهما الخليل عليه السلام ظاهرا بحجته مدافعا عن توحيده، شاهدا بألوهية رب السماوات والأرض أمام أبيه المشرك من جهة، ومجتمعه الظالم

(١) سورة المائدة :٦٠

لنفسه من جهة ثانية. إن الأب وما يعنيه من سلطة العائلة بكل معانيها الظاهرة والخفية.
والقوم أو المجتمع بكل سلطاته المعلنة والخفية أيضا ، يمثلان القاعدة التي يقوم عليها ويرتكز البناء السلطوي الطاغوتي الذي يشكل ضمن هذا التصور، بنية فوقية لبنية تحتية تقيمه وتمكن له.
إن ظهور الطاغوت كسلطان حاسم مهيمن متأله في الناس، نتيجة حتمية لتربية أولى سلطوية شركية تتم داخل العائلة وداخل مؤسسات المجتمع،حيث يشكلان معا (العائلة والمجتمع)، الأب والأم الشرعيين للاستكبار الطاغوتي الذي هو في نهاية المطاف، نتيجة لهما وإرث من صنعهما.
كيف تتكون هذه العلاقة بين ظهور الطاغوت كأعلى نقطة في الهرم، وبين قاعدته المؤسسة ممثلة في سلطة العائلة وسلطة المجتمع ؟ هذا ما سنجيب عنه بإذن الله ونحن نتابع مسيرة ابراهيم الخليل التي وصفها الله سبحانه بكونها خروجا من الظلمات إلى النور بإذنه.

ب - تحصيل الرشاد

الكفر بعبادة الشمس والقمر، أو الانقلاب على الأب والعشيرة

أسلفنا القول أن كفر الخليل عليه السلام، بالأنوار الثلاثة الفلكية: الكوكب والشمس والقمر، هو مشهد ظاهر ورمز لكفره بثلاث سلط أرضية،وتحطيمه لثلاثة طواغيت بشرية هي سلطة الملك الطاغية،وقبلها سلطة أبيه عدو الله،وسلطة مجتمعه الكافر الظالم لنفسه.

أما وقد بينا موقف الخليل عليه السلام من الطاغوت ومحاججته إياه وانتصاره عليه، وأوضحنا أن هذا الانتصار هو تتويج لانتصارين آخرين على سلطتين أخريين، هما سلطة العائلة ممثلة في الأب المستعلي،وسلطة المجتمع المستبد رغم جهله وضلاله؛ فإننا نشرع الآن في تحليل كيفية انتصار الخليل عليه السلام، على هاتين السلطتين الأوليين،وصولا إلى تهديم بنية السلطة في حد ذاتها وذلك بتحطيم الهيكل وتكسير أصنامه. إن مسار تحطيم البنى السلطوية في أشكالها ومراتبها المؤسسة ومنطلقاتها الفاعلة، هو مسار تحقيق الرشد باعتباره خروجا من الظلمات إلى النور،وتجاوزا للشرك والتزاما بالتوحيد. يقول سبحانه وتعالى في سورة الأنبياء :» وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ (٥١) إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ (٥٢) قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ (٥٣) قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (٥٤) قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنْتَ مِنَ اللَّاعِبِينَ (٥٥) قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَى ذَلِكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ (٥٦) وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ (٥٧) فَجَعَلَهُمْ جُذَاذاً إِلَّا كَبِيراً لَهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ (٥٨) قَالُوا مَنْ فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ (٥٩) قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ (٦٠) قَالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلَى أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ (٦١) قَالُوا أَأَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ (٦٢) قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنطِقُونَ (٦٣) فَرَجَعُوا إِلَى أَنفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ (٦٤) ثُمَّ نُكِسُوا عَلَى رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلَاءِ يَنطِقُونَ (٦٥) قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لا يَنفَعُكُمْ شَيْئاً وَلا يَضُرُّكُمْ (٦٦) أُفٍّ لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَفَلا تَعْقِلُونَ (٦٧) قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنتُمْ فَاعِلِينَ (٦٨) قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْداً وَسَلاماً عَلَى إِبْرَاهِيمَ (٦٩) وَأَرَادُوا بِهِ كَيْداً فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ (٧٠) وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطاً إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ (٧١) وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً وَكُلاًّ جَعَلْنَا صَالِحِينَ (٧٢) وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ

وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ « [1].

توضح هذه الآيات البينات من سورة الأنبياء عليهم صلوات الله وسلامه، سر لحظة هامة من لحظات حياة الخليل عليه السلام، هي لحظة ترشيده من قبل ربه سبحانه وتعالى، والذي تم عبر حدث واقعي عملي هو حدث مجابهته لأبيه وقومه والذي انتهى بدوره بتحطيمه للأصنام. حينئذ، اكتسب الخليل صفة الرشد، وأصبح على خلاف أبيه وقومه، من الراشدين.

جاء في لسان العرب :» رشد: في أسماء الله تعالى الرشيد: هو الذي أرشد الخلق إلى مصالحهم، أي هداهم ودلهم عليها. فعيل بمعنى مفعل، وقيل : هو الذي تنساق تدبيراته إلى غاياتها على سبيل السداد من غير إشارة مشير ولا تسديد مسدد. الرُشد والرشد والرشاد: نقيض الغي. رشد الإنسان، بالفتح يرشُد رشدا،بالضم، ورشد بالكسر، يرشَد رشَدا ورشادا، فهو راشد ورشيد، وهو نقيض الضلال، إذا أصاب وجه الأمر والطريق... وأرشده الله وأرشده إلى الأمر ورشّده: هداه... ويقال استرشد فلان لأمره إذا اهتدى له، وأرشدته فلم يسترشد. وفي الحديث: وإرشاد الضال أي هدايته الطريق وتعريفه... وقوله تعالى: يا قوم اتبعون أهدكم سبيل الرشاد، أي أهدكم سبيل القصد سبيل الله وأخرجكم عن سبيل فرعون. والمراشد : المقاصد...»[2].

تركز هذه الشروح التي ساقها صاحب اللسان رحمه الله، على معنى أساسي لمصطلح الرشد وهو الهداية إلى القصد والصواب واجتناب طريق الغي والضلال. فالراشد هو الذي يسلك على طريق قويم، ويلزم صراطا مستقيما، وضده الضال والسادر في غيه. فقوله تعالى:» ولقد آتينا إبراهيم رشده من قبل وكنا به عالمين»، يعني عندئذ، أن الله قد هدى إبراهيم الخليل ورشد مسيرته، ووجهها الوجهة الصحيحة التي آلت به إلى أن يصبح أبا المسلمين إلى يوم الدين. أما قوله تعالى :» وكنا به عالمين»، فإشارة إلى كيفية عملية الترشيد هذه ، وأنها لم تكن عبر خطاب مباشر منذ البداية، بل عبر هداية هذا العبد إلى طرق التأمل الصحيح، وتمكينه من عقل سليم قدر به أن يفقه حقيقة الإله وأنه لا يأفل، وأن يتجنب بالتالي الوقوع في الشرك. هذا التأمل الإبراهيمي في ملكوت السماوات والأرض، وإن تم عبر رؤية ذاتية ومباشرة للحقائق والوقائع، إلا أنه تم أيضا تحت سمع الله تعالى وبصره، وحصل بتوجيه خفي من الله سبحانه وتعالى، أو على الأقل بعلم الله تعالى الذي لا يعزب عن علمه مثقال ذرة في السماوات ولا في الأرض.

(١) سورة الأنبياء : ٥١- ٧٣

(٢) لسان العرب: مجلد : ٣، مادة : رشد، ص ص: ١٧٥ - ١٧٦

« إذ قال لأبيه وقومه ما هذه التماثيل التي أنتم لها عاكفون»، تكشف هذه الآية عن موضوع الاختلاف بين إبراهيم وأبيه وقومه والذي تطور إلى صراع وعداوة متبادلة، وهو موضوع العبادة أو قضية الألوهية. وقد جاءت معارضة إبراهيم لأبيه وقومه في أغلب الأحيان على شكل تساؤل إنكاري حول عبادتهم للأصنام التي يتأكد أن الخليل لم يقتنع بفطرته السليمة أبدا بكونها آلهة يمكن أن تعبد، وإنما أنكر منذ بدية حياته ألوهيتها، ونظر إليها دائما كحجارة لا تنفع ولا تضر.
تتبين صيغة الإنكار هذه في أكثر من موضع من مواضع حديث القرآن الكريم عن إبراهيم الخليل؛ حيث جاءت أغلب أحاديث القرآن عن هذا النبي مبتدئة بهذا السؤال الإنكاري الإبراهيمي الذي قصد إلى تنبيه أبيه وقومه من غفلتهم. ففي سورة الأنعام، نجد قوله تعالى:» وإذ قال إبراهيم لأبيه آزر أتتخذ أصناما آلهة إني أراك وقومك في ضلال مبين»[1].
وفي سورة الصافات جاء قوله تعالى:» إذ قال إبراهيم لأبيه وقومه ماذا تعبدون. أئفكا آلهة دون الله تريدون»[2].
وفي سورة الشعراء كذلك يأتي تساؤل إبراهيم الإنكاري بمثابة هزة لقومه لعلهم ينتبهون:» واتل عليهم نبأ إبراهيم. إذ قال لأبيه وقومه ما تعبدون. قالوا نعبد أصناما فنظل لها عاكفين»[3].
وفي خطابه لأبيه، يحافظ إبراهيم على نفس المبدأ في تسفيه عبادة الأصنام واتهام عابديها بالضلال:» واذكر في الكتاب إبراهيم إنه كان صديقا نبيا. إذ قال لأبيه يا أبت لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغني عنك شيئا»[4].
فقد جعل الخليل همه إذن، تحطيم هيكل الأصنام وتدمير الأوثان وإلغاء عبادتها. تلك هي المسألة المركزية في دعوته، ولذلك تصدرت كلامه دائما، وكانت محور نقاشه وحجاجه سواء مع أبيه أو مع قومه أو مع سواهما. فثبت أن التحول الإبراهيمي هو بالأساس تحول في مسألة التأليه، وأن التغيير الكبير الذي جاء به والذي من خلاله خط درب المسلمين من بعده، هو تغيير يتصل بالإله المعبود،حيث دعا إلى الكفر بالأوثان وعبادة الله الواحد الأحد.
ويعني هذا، أن مسألة الألوهية هي المسألة المركزية في الفكر وبالنسبة للوعي. إن الوعي ينبني أساسا على طبيعة تمثله لهذه المسألة. فنوعية الوعي ترتبط بنوعية الإله المعبود. فإذا كان الإله المعبود صنما، فنحن أمام وعي شركي كافر

(١) سورة الأنعام : ٧٤
(٢) سورة الصافات : ٨٥- ٨٦
(٣) سورة الشعراء : ٦٩ - ٧١
(٤) سورة مريم : ٤١ - ٤٢

منحط.وإذا كان الإله المعبود هو رب السماوات والأرض، فنحن أمام وعي ثابت منفتح متحقق بحقائق الحياة والوجود. إن انقلاب الفكر الإنساني، والمعنى الأصلي الحق للثورية كما يثبت من خلال المثل الإبراهيمي، يتمثل في التوجيه التالي: تحطيم الآلهة المزيفة وعبادة الله الواحد الأحد. فهذا الانقلاب لو حدث لبشر، فإنه يقدر أن يقول إنه غير ما بنفسه، وحينئذ يغير الله ما به. أما ما سوى هذا التغيير، فيبقى دائما عرضيا نسبيا في فعله وتأثيره على العقل والنفس.

إن الانقلاب الفردي والاجتماعي الجذري والحقيقي، يحدث إذا حدث انقلاب على مستوى تصور الألوهية وفهمها، وما لم يقع هذا الانقلاب، فإن الفكر يبقى مجترا لمقولاته، مستعيدا لقضاياه التقليدية وإن بشكل جديد مقنّع. إن تجديد النظر في الفكر الديني على الخصوص، يعني عندنا بالضرورة، تجديد النظر في مسألة الألوهية، وإعادة التمحيص والتحقيق لمصطلحات : الله والإيمان والشرك والتوحيد والكفر والنفاق، لتأخذ أبعادها الحقيقية في عالم يتغير كل يوم، ويعيد تصنيع أصنامه، ويعيد إنتاج أوهامه وصياغتها في قوالب جديدة لا تغني من الحق شيئا. وفي كلمة، تبقى كلمة التوحيد كلمة السر التي يجب إعادة تفحصها في كل معانيها، في كل مرحلة حضارية، وخاصة في المرحلة التي يراد فيها التجديد والتغيير والتقدم.

إن الحداثة ضمن الرؤية الإيمانية، إنما تتحقق على هذا المستوى، أي على مستوى إعادة صياغة العلاقة بالله الحق انطلاقا من الوعي المتجدد بمعطيات العالم، أي من الفهم المتجدد المستمر لآيات الله تعالى. أما إذا قامت الحداثة مفصولة عن مقولة التوحيد،معزولة عن مسألة الألوهية، فإنها لن تلبث أن تصبح كلاما يدور في فلك الأوهام والضلالات. لذلك كان السؤال الإبراهيمي الأول والاعتراض الأساسي الذي اعترضه على أبيه وقومه، يتصل بمسألة التأليه حيث ناقشهم في آلهتهم التي يعبدون مناقشة من جاء بالجديد وترك التقليد:» ما هذه التماثيل التي أنتم لها عاكفون» ؟

جاء في لسان العرب:» ... التمثال: الصورة، والجمع التماثيل. ومثّل له الشيء: صوره حتى كأنه ينظر إليه. وامتثله هو: تصوره. والمثال: معروف، والجمع أمثلة ومثل. ومثلت له كذا تمثيلا إذا صورت له مثاله بكتابة وغيرها. وفي الحديث: أشد الناس عذابا ممثل من الممثلين أي مصور.يقال مثلت بالتثقيل والتخفيف، إذا صورت مثالا. والتمثال: الاسم منه.وظل كل شيء تمثاله... والتمثال: اسم للشيء المصنوع مشبها بخلق من خلق الله، وجمعه التماثيل، وأصله من مثلت الشيء

بالشيء إذا قدرته على قدره ويكون تمثيل الشيء بالشيء تشبيها به» [1].
التماثيل كما جاء في التعريف اللغوي إذن، هي ظلال وصور لأشياء. صور تكاد تكون مثل هذه الأشياء من شدة الشبه بها.
فالتمثال إنما يصنع لإظهار شيء من الأشياء أو قيمة من القيم أوحقيقة من الحقائق. فهو صورة حسية لمعنى ما من المعاني، ولذلك اعتبرت صناعة التماثيل فنا: (فن النحت، النقش...)،من حيث أن الصانع كلما ازداد مهارة في إبراز حقيقة الشيء من خلال تمثاله كلما عبر عن موهبة فنية رفيعة وفريدة. ولسائل أن يسأل إذا كانت التماثيل ليست مقصودة بالصنع لذاتها بل لما توحي به من معان، أو ماتعطيه من صور دقيقة للأشياء والناس، فإنها أيضا عندما تعبد لا تعبد لذاتها، بل لما تشير إليه من رموز وحقائق. وحينئذ يكون السؤال: إلام كانت ترمز الأصنام التي كان يعبدها قوم ابراهيم الخليل عليه السلام ؟ وقد نوسع السؤال على النحو التالي: لماذا عبد الناس الأصنام؟ وماذا كانت عبادتها تعني لهم ؟
يجيب القرآن الكريم عن هذه التساؤلات قائلا :» ألا لله الدين الخالص والذين اتخذوا من دونه أولياء ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى إن الله يحكم بينهم في ما هم فيه يختلفون. إن الله لا يهدي من هو كاذب كفار».
من الثابت أن السؤال حول الأصنام قد أثير من قبل منكري عبادتها، أو من قبل عابديها أنفسهم. هؤلاء، لم ينكر أغلبهم أنهم لا يعبدون الأصنام في ذاتها لأنهم يرون أنها بالفعل مجرد تماثيل صنعت من أحجار أو من مواد أخرى؛ ثم إن هذه التماثيل جاءت في أغلب الأحيان تحمل صورا لكائنات أخرى، اللهم إلا بعض النصب التي عرفت عبادتها خاصة في الجزيرة العربية. فواقع العبادة الصنمية يدل على أن أصحابها إنما يعبدون رموزا أخرى وراء الأصنام التي يحركونها وينحتونها ويعلمون أنها لا تسمع ولا ترى. وعندما سئل عباد الأصنام والتماثيل من قبل الأنبياء عن حقيقة عبادتهم قالوا:» ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى»، فجعلوها بابا للتزلف إلى الله، أي لنيل رضاه ومحبته. غير أن الله سبحانه رد عليهم هذا الكلام بتأكيده أولا أنه لا يقبل الدين إلا خالصا:» ألا لله الدين الخالص». فخطأ بذلك مذهبهم في اتخاذ الوسائط، ثم فضحهم في آخر الآية بقوله:» إن الله لا يهدي من هو كاذب كفار».
فأظهر سبحانه حقيقة هذه العبادة، وأن الله ليس هو المقصود بالتعظيم فيها، بل إن وراءها عبادة وتعظيما لأشياء أخرى وكائنات أخرى ؛ وليس القول بأن الأصنام تقرب إلى الله زلفى حينئذ، إلا ستارا لإخفاء عقائد وهمية وجهالات قائمة

(١) لسان العرب: مجلد : ١١، مادة مثل، ص ص: ٦١٣ - ٦١٤

على السفه والغرور واتباع الأهواء. فماذا يكمن وراء عبادة الأصنام ؟
إذا تأملنا التجربة الإبراهيمية، وعملنا بالوعي على إظهار ما يخفي الكلام وما يعلن، وما يخفي الاعتقاد وما يعلن، فإننا نصل إلى إجابة عن السؤال السابق بالقول إن وراء عبادة الأصنام وتأليه التماثيل من قبل قوم إبراهيم، يكمن تعظيمهم لسلطة ثلاثية الأركان هي سلطة الأب وسلطة المجتمع وسلطة الطاغوت الحاكم.
هذه السلط الثلاث، هي المرتكزات الفعلية الواقعية والعملية التي هيأت لعبادة الأصنام وتأليه التماثيل التي لا تمثل في الواقع إلا أبواقا وصورا خارجية كاذبة خداعة. أما الحقيقة، فهي أن معبد الأصنام هو بالذات المعبد الذي يؤله فيه المشرك آباءه وقومه وملكه. فالمعبود الحق بالنسبة للمشركين، وهم جميعا دنيويون لا يعرفون للآخرة معنى حتى لو ادعوا خلاف ذلك، هم آباؤهم وأقوامهم وملوكهم. وهؤلاء كما نعلم بالنسبة للإنسان الدنيوي، هم أركان الأرض وسلاطينها، وهم أصل السلطة فيها، كل واحد منهم يحكم جزءا من منظومة السلطة الضاغطة على جسد الإنسان وعلى قلبه. إن إحدى أهم خصائص الخطاب الشركي كما قدمها القرآن الكريم، أنه خطاب متشابه رغم تبدل العصور والأمكنة؛ وهو في هذا يماثل الخطاب الإيماني الذي يحمل هو أيضا نفس الخصائص والسمات رغم تبدل العصور والأمكنة.
فمن الخصائص الثابتة في الخطاب الشركي، عبادة المشرك لما عبد آباؤه وتقليده لنهجهم في الحياة. ولذلك، فما من نبي تقريبا خاطب قومه بشأن الدين الحق، إلا وهاجمه قومه منكرين عليه أن يبدل عبادة الآباء والأجداد. إن قوم ابراهيم عليه السلام ردوا عليه نفس الرد:» إذ قال لأبيه وقومه ما هذه التماثيل التي أنتم لها عاكفون. قالوا وجدنا آباءنا لها عابدين». والسؤال الذي نطرح، لماذا كان تقليد الآباء وعبادة آلهتهم حزءا أساسيا من تفكير المشرك ولازمة من ثوابت الوعي لديه ؟

* عبادة الآباء : سلطة الماضي أو الليل المجهول

جاء في سورة الشعراء قوله تعالى:» واتل عليهم نبأ إبراهيم إذ قال لأبيه وقومه ما تعبدون.

قالوا نعبد أصناما فنظل لها عاكفين. قال هل يسمعونكم إذ تدعون أو ينفعونكم أو يضرون. قالوا بل وجدنا آباءنا كذلك يفعلون»[1] .

توضح هذه الآيات طبيعة الخطاب الشركي ولاعقلانيته وعرضية الأسس التي قام عليها باعتبارها أسسا سلطوية ضاغطة مهيمنة لا أسسا عقلية قوامها الحقيقة الموضوعية والفهم السليم. فلقد واجه الخليل عليه السلام أباه وقومه بخطاب واحد:» إذ قال لأبيه وقومه»، وذلك لاشتراك الإثنين في نفس الاعتقاد وتوحدهما على نفس العبادة، أعني عبادة الآباء. ومنذ بداية الحوار والمحاجة، وجه الخليل عليه السلام حجته وجهة عقلية منطقية مرتبا النتائج على المقدمات، مستهديا بنظام الأسباب الموضوعية. فلما أجابه أبوه وقومه عن سؤاله» ما تعبدون « بقولهم:» نعبد أصناما فنظل لها عاكفين»، لم يسفههم منذ البداية، ولم يسع إلى احتقار ما يعبدون بدون دليل ولا برهان، بل قال لهم:» هل يسمعونكم إذ تدعون أو ينفعونكم أويضرون».

فنبه بذلك إلى أن للمعبود خصائص لابد أن تتوفر فيه، وللعابد على معبوده حقوقا لابد أن يجدها فيه. وقد ركز تحديدا على ثلاث فعاليات للرب المعبود ينفتح بها على عبده ويتصل من خلالها به. فأولى هذه الخصائص، أن يسمع المعبود عابده إذا دعاه. فجعل واجب العابد الدعاء، وواجب المعبود إن صح التعبير، سماع عابده الذي يناديه ويناجيه. وهذه الصلة الأولى بين العابد والمعبود، نبه عليها القرآن الكريم في عديد الآيات. حيث أكد سبحانه أنه لا قيمة للعبد إلا إذا دعا :» قل ما يعبأ بكم ربي لولا دعاؤكم فقد كذبتم فسوف يكون لزاما»[2].

فثبت أن فلسفة العلا قة بين العابد والمعبود تقوم على الدعاء وهو حق المعبود على العابد. ثم قال سبحانه في آية اخرى:» وإذا سألك عبادي عني فإني قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان فليستجيبوا لي وليؤمنوا بي لعلهم يرشدون»[3].

فبين سبحانه أنه قريب من عباده، وعرف هذا القرب بقوله:» أجيب دعوة الداع إذا دعان» . هذا من ناحية، ومن ناحية اخرى نبه القرآن الكريم إلى أن الله تعالى هو النافع الضار، وأنه لا نافع على التحقيق إلا هو ولا ضار على التحقيق إلا

---

(١) سورة الشعراء : ٦٩ - ٧٤

(٢) سورة الفرقان :٧٧

(٣) سورة البقرة : ١٨٦

هو، وهو الأمر الذي برز في كلام الخليل نفسه عندما قال لقومه مستفسرا عن حال الأصنام استفسار المنكر لهذه العبادة:» قال هل يسمعونكم إذ تدعون. أو ينفعونكم أو يضرون».

فنبه الخليل عليه السلام، أباه وقومه ضمنيا، إلى حقيقة الصلة بين الخالق والمخلوق. فالخالق الحق هو الذي يتصل بعبده يسمعه ويجيب دعاءه، وهو أيضا النافع الضار وحده، وهو لكل هذا يستحق العبادة. وما دامت الأصنام التي يدعوها هؤلاء القوم لا تملك شيئا من صفات التواصل هذه، حيث أنها لا تسمع من يدعوها ولا تملك لإنسان نفعا ولا ضرا، فإن السؤال الذي يطلب إجابة حينئذ: لِمَ تعبد الأصنام إذن ؟ ولِمَ يقبل عليها هؤلاء الناس ويتركون سواها ؟ يجيب أبو إبراهيم وقومه على هذا السؤال بقولهم:» قالوا بل وجدنا آباءنا كذلك يفعلون». ذلك كان جواب أولئك المشركين من الأمم الخالية، فيه من الصدق بقدر ما فيه من اللاعقلانية لما يحويه من ضلال عن الطريق المستقيم، ومن تعطيل مطلق لملكة التفكير والتأمل والنظر وكل مكونات الوعي السليم.

فلماذا استحب هؤلاء المشركون الكفر على الإيمان بتفضيلهم اتباع الآباء وترك سبيل الهداية والحق ؟ نحصل على الإجابة بإذن الله تعالى من خلال تدبر الآيات التالية والتي سجلت الحوار الدائر بين إبراهيم وأبيه:» واذكر في الكتاب إبراهيم إنه كان صديقا نبيا. إذ قال لأبيه يا أبت لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغني عنك شيئا. يا أبت إني قد جاءني من العلم مالم يأتك فاتبعني أهدك صراطا سويا. يا أبت لا تعبد الشيطان إن الشيطان كان للرحمن عصيا. يا أبت إني أخاف أن يمسك عذاب من الرحمن فتكون للشيطان وليا.

قال أراغب أنت عن آلهتي يا إبراهيم لئن لم تنته لأرجمنك واهجرني مليا. قال سلام عليك سأستغفر لك ربي إنه كان بي حفيا. وأعتزلكم وما تدعون من دون الله وأدعو ربي عسى ألا أكون بدعاء ربي شقيا . فلما اعتزلهم وما يعبدون من دون الله وهبنا له إسحاق ويعقوب وكلا جعلنا نبيا. ووهبنا لهم من رحمتنا وجعلنا لهم لسان صدق عليا»[1].

تقص هذه الآيات موقفا هو شهادة صادقة خالصة لله تعالى أمام أحد أقطاب اللاهوت الأرضي المستعلي ظلما وعدوانا أعني الأب المشرك المتسلط. وفي أطواء هذا الحوار الذي دار بين إبراهيم عليه السلام وبين والده المشرك، تتبين أسباب الإيمان وأسباب الشرك، وتتضح الطرق الهادية إلى إلغاء عبادة الأصنام وتهديم معبدها، والطرق المعاكسة التي أدت إلى عبادتها والخضوع بالتالي لسلطة ما لا

(١) سورة مريم : ٤١ -٥٠

ينفع وما لا يضر. يبدأ الحوار من قبل ابراهيم الخليل الذي يظهر هنا وقد تجاوز حيرته وعرف ربه، وجاءه من ربه العلم اليقين؛ حيث قال لوالده:» يا أبت لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغني عنك شيئا».

فذكر هنا في صيغة التقرير والإثبات ما ذكره سابقا في صيغة الاستفهام الإنكاري حيث قال لأبيه وقومه متحدثا عن الأصنام:» قال هل يسمعونكم إذ تدعون أو ينفعونكم أو يضرون». وفي وصف إبراهيم الخليل الأصنام بكونها لا تسمع ولا تبصر ولا تغني عن عابدها شيئا، وهذه الأوصاف كما أسبقنا القول، حقيقة ثابتة لم يمار فيها حتى عبدة الأصنام بل جاؤوا بحجج أخرى تعليلا لسبب عبادتهم إياها من مثل قولهم إنهم ما عبدوها إلا لتقربهم إلى الله زلفى، أو قولهم إنهم وجدوا آباءهم لها عابدين؛ في وصف الخليل عليه السلام للصنم رغم أنه لم يذكره بالاسم وهذا لحكمة، تعريف ووصف للسلطة في أدق خصائصها، وتعرية لأدق أسرارها ومعانيها. ماهي السلطة ؟ ويأتي الجواب من عند الخليل عليه السلام إنها:» ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغني عنك شيئا». فكل ما لا يسمع ولا يبصر و لا يغني مع صممه وعماه عن الإنسان شيئا، إذا نظر إليه الإنسان واعتبره، تسلط عليه وتأله وعتا. ولا حل حينئذ للإنسان إلا أن يقبل بالاستعباد لمثل هذا الخلق المشوه أو أن ينزعه عنه بالإعراض عنه مطلقا. لماذا تأولنا ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغني عن الإنسان شيئا بأنه عين السلطة في كل زمان ومكان ؟

الجواب لأن هذه الأوصاف هي فعلا أوصاف المتسلط التي لا يمكن له أن يتخلى عنها إلا إذا تخلى عن تسلطه وطغيانه. فالطاغية، لكي يطغى ويزداد طغيانا لابد له أن لا يسمع، لأنه لو سمع فسيسمع الحق الذي يناقض سلطته ويهدم طغيانه. ولا بد للطاغية أن لا يبصر، لأنه لو أبصر فسيبصر عبوديته ماثلة بين عينيه وضعفه حاضرا بين يديه، وحينئذ يذهب طغيانه ويزول. ثم إن الطاغية مهما كان، لا يغني عن الإنسان شيئا لا لأنه يحب ذلك، على العكس، فهو يود لو ملك كل مفاتيح كيان الإنسان لكي يستعبده استعبادا حقيقيا، ولكن لأن الله حرم كل المخلوقات من التأثير إلا بإذنه. ولذلك، فالطواغيت جميعا يعلمون أنه ليس لهم من الأمر شيء، وهذا ما يدفعهم إلى عمل عكسي، حيث يتنافسون في إظهار قوتهم وجبروتهم، ويصطنعون لهذا أزلاما وغلمانا، ويخترعون لأجل هذا أيضا حيلا وتصرفات خرقاء لا هدف منها سوى إظهار قدرتهم على التأثير، وبيان هيمنتهم على مصائر البشر.

والعاقل هو الذي يعلم علم اليقين، أن الطغاة ليس لهم من الأمر شيء وأنهم أعجز عن تدبير أمر أنفسهم ناهيك عن أمور سواهم. فإن اعتقد هذا الاعتقاد

بيقين، زال عنه السحر بإذن الله، وخرج من الظلمات إلى النور.
يحدث تسلط كلما وقع اعتبار ما لا اعتبار له أصلا؛ وإذا كان هذا أمرا مرئيا على مستوى العالم المحسوس بما فيه الإنسان، فإن أصل هذه المسألة أعني مسألة التسلط، إعطاء الإنسان الشيطان وهو العدم، اعتبارا ليس له، فبذلك تولاه الشيطان فأذله وتسلط عليه وأهلكه. ولو أن الإنسان لم يسمع لكلام الشيطان ووساوسه، ما بقي إلى اليوم رهين هذا الخرق الذي لا زال يتسع ويزداد. فالعدم لا حكم له إلا الشهادة عليه بأنه عدم، فإن أعطي الوجود على أي شكل كان هذا العطاء، تشبث وتمسك وصار كل عمله تعسفا وتسلطا. لذلك كان التسلط دائما من قبل من لا حق له في هذا الموقع الذي يشغله، مثل الملك الذي يتولى الملك غصبا بدون كفاءة منه ولا رضا من الناس به ؛ فهذا لابد أن يتسلط على الرقاب وأن يذل الخلق ما قدر على ذلك. وهذا الملك المستبد المتسلط، هو التجسيد الظاهر لإبليس اللعين الذي أخذ موقعا له ليس من اختصاصه سواء في نفسه عندما قيمها بنفسه:» أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين»[1]، أو بالنسبة للإنسان عندما أخذ دور الموجه والمرشد له وهو لا يقصد به إلا إلى النار، فجاء عمله مضادا لموقعه، فقد قال للإنسان:» يا آدم هل أدلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى» [2].
وما دله إلا على ما يهلكه ويفنيه ويفقره ويعريه. فثبت أن السلطة تعسف على الوجود، بما هو الواقع الموضوعي والحقيقة القائمة التي لا تتبدل، ولذلك كان كل عمل السلطة هراء وباطلا لا يدوم. وكان المتسلط أبدا مجرما ظالما لنفسه ولغيره. يقول سبحانه:» وقال الذين لا يرجون لقاءنا لولا أنزل علينا الملائكة أو نرى ربنا لقد استكبروا في أنفسهم وعتوا عتوا كبيرا. يوم يرون الملائكة لا بشرى يومئذ للمجرمين ويقولون حجرا محجورا. وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثورا»[3].
فهذه الآيات البينات تؤكد العلاقة بين العتو والاستبداد والاستكبار، وبين النزعة الدنيوية في الحياة وإنكار الآخرة وبين سوء المآل أيضا في يوم القيامة. إن الله تعالى هو السلطان وهو الملك الحق وهو جبار السماوات والأرض، وهو عالم الغيب والشهادة؛ فمن لم يؤمن بالغيب، غاب عنه تمثل سلطان الله تعالى كاملا، فلم ير إلا فعل الله بالأسباب، فغفل برؤية السبب عن رؤية المسبِب.

(١) سورة الأعراف : ١٢
(٢) سورة طه : ١٢٠
(٣) سورة الفرقان : ٢١ - ٢٣

أما ما غاب فهو المسبب نفسه، وهذا أحد أهم معاني وحقائق الإيمان بالغيب، أعني أن نرى ما وراء السبب وما وراء الظاهر. فكان الكفر بالغيب وهو عين الإلحاد، سببا في عبادة المظاهر لأنه لا ظاهر إلا هي. فكل ملحد لا بد أن يعبد ظاهرا من المظاهر، سواء أكان ظاهرا من القول أو ظاهرا من الأشياء.

إن مطالبة المجرمين الملحدين برؤية الملائكة، هي عينها مطالبة كفار اليوم برؤية ما وراء القوانين مما لا سبيل إليه بحال. فمن لم يؤمن اليوم وهو يرى القوانين الكونية المنظمة للوجود، فليس له من سبيل سوى الإلحاد لأن رب الوجود ضرب الستر على عالم الغيب ولم يأذن بهتكه قضاء منه سبحانه وإنفاذا لمشيئته وتحقيقا لحكمته بإعادة هذا المخلوق الذي أضله العدم إلى دائرة النور وإلى مظلة الوجود.إن شدة تعلق العدم بالوجود، ورغبته المسعورة في التشبه به، هي المنطق الخفي الكامن وراء خطاب السلطة في كل تجلياتها. وهذا ما يفسر لنا سر عبارات ومصطلحات الامتلاك والاستحواذ التي يزخر بها خطاب السلطة. وبما أن امتلاك الذوات أمر مستحيل لعجز الممتلك أو لرفض المملوك، فإن التسلط هو بالفعل رغبة فاشلة.

كم من ذكر أغراه استعلاؤه على الأنثى بملكيتها، فكان ذلك الإغراء ومطاوعته سببا في خراب نفسه بظهور جرثومة الاستكبار فيها دون أن يحقق رغبته في الملكية. وكم من حاكم جعل من دولته حظيرة اعتبر الناس فيها أنعاما وتصرف فيهم على هذا الأساس، غير أنه لابد في النهاية أن يفقد سلطته وأن ينتهي معزولا، إما من قبل رب الموت والحياة، أو من قبل شعبه نفسه الذي اضطهده. إن هذه الواقعة الأساسية، واقعة استحالة تحقق رغبة الامتلاك، بقدر ما تكشف عن تحطم مشروع إبليس بالاستحواذ على التجربة البشرية، تكشف أيضا عن تحطم مشاريع الطواغيت وأن أعمالهم تذهب أدراج الرياح كما ذهبت أعمال معلمهم إبليس. لكن لماذا ظهرت في الإنسان هذه الرغبة المسعورة في الامتلاك،وبالتالي في التسلط والاستكبار ؟

يبدو واضحا أن هذه الرغبة هي صدى لسعي الإنسان الجنوني إلى تغطية عريه بعد أن سلب لباسه نتيجة لاتباعه وسوسة الشيطان. فلما رأى الإنسان نفسه عارية، ورأى حينئذ سوأته بعد أن كانت مغيبة عنه، علم أنه لا يطيق معاشرتها والاعتراف بها بحال من الأحوال، وتأكد لديه أنه لن يقبل بغير الفردوس المفقود. حينئذ، وضمن سعيه المحموم لاستعادة امتلاك حق الدخول إلى الجنة، جاءه رسولان، أولهما رسول الحق الذي بين له أن الجنة حجرت عليه إلا أن يلتزم بصراط الله المستقيم؛ وثانيهما الشيطان الذي أغراه باستخدام إمكانياته والتعويل

على كفاءاته، إلا أن ذلك لم يغن عنه شيئا وكان من الذين:» يبغونها عوجا» [1].
فالمتسلط هو هذا المعول على ذاته في حماية نفسه وستر عوراته وتغطية سوءاته، غره الشيطان بذلك ،فلا يلبث في فقر وعري، ولا يلبث يرى سوأته بارزة أمام عينيه، فهو في دوام هم وغم ومزيد لهاث على الدنيا، كيف لا وهو يرى بأم عينه مشاريعه الكبريائية تتهاوى كما تتهاوى مياه الأنهار في المنحدرات وهو لا يملك لها ردا.
فعلمنا أن عجز السلطة الرئيسي كامن في كونها تقاوم ما لا يقاوم، تقاوم إرادة الله. فكان عملها عمل من يريد إطفاء نور الله بفيه، والذي قال فيه سبحانه:» يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون»[2].
أما الذين سلموا لله وأظهروا علامات الإسلام، والتزموا نهج الله بيقين وعزم، فقد أثابهم سبحانه بأن ألبسهم لباسا لا يتعرى لابسه هو لباس التقوى. فشتان ما بين لباس التقوى ولباس الفجور.
كان الخليل واعيا إذن، بسر السلطة الكامنة في خطاب الشرك، ولذلك أراد أن يحرر والده منها بتنبيهه إلى أن ما يعبده لا يسمع ولا يبصر، ثم هو أيضا لا يغني عنه شيئا ولا يملك له نفعا ولا ضرا.
وإذا كان السؤال الذي يطرح هو كيف استطاع الخليل عليه السلام، أن يخترق جدار السلطة وأن يصل إلى جوهر حقيقتها التي كنا بصدد تحليلها، فإن هذه الآيات القرآنية تعطينا الجواب:» يا أبت إني قد جاءني من العلم مالم يأتك فاتبعني أهدك صراطا سويا. يا أبت لا تعبد الشيطان إن الشيطان كان للرحمن عصيا. يا أبت إني أخاف أن يمسك عذاب من الرحمن فتكون للشيطان وليا». من الثابت أن السلطة إذا قامت لا تلغى إلا بسلطة أخرى أقوى منها. وقد قامت في عهد الخليل عليه السلام، سلطة هرمية ثلاثية الأركان، هي كما أسلفنا القول سلطة الطاغوت وسلطة الأب والعشيرة. هذه السلط الثلاث كانت تتبادل الاعتراف ببعضها، وتتواطؤ على الاعتراف بلغة واحدة هي لغة الإخضاع والتملك والاستبداد ورفض العقلانية والتنوير. وقد رأينا أن الخليل قاوم سلطة الملك الطاغية بالاعتصام بالله تعالى عالم الغيب والشهادة وبالالتزام اللامشروط بكلمة التوحيد، الأمر الذي جعل حجته أمكن من حجة عدوه الذي انتهى به الأمر إلى الانقطاع والبهت.
أما في ما يتصل بأبيه وقومه، فإن هذه الآيات تكشف عن نوعية القوة التي استند إليها إبراهيم عليه السلام لمحو سلطانهم الباطل والتحرر من معتقداتهم

(١) سورة إبراهيم :٣
(٢) سورة التوبة : ٣٢

الزائفة. ليس الخلاص من سلطة الأب والعائلة عموما بالأمر الهين السهل، بل هو أصعب الأمور وأشقها على الإنسان، ويكفي أن نفكر في نمط حياة البشر وكيف أنه يتوارث جيلا بعد جيل بدون تغييرات كبيرة تذكر لنعلم إلى أي مدى تحضر العائلة بتأثيراتها في حياة الإنسان. ثم إن ما يتلقاه الإنسان عن عائلته وبالتحديد عن والديه، يكون في فترة الطفولة الأولى حيث يكون الطفل معدا لاستهلاك كل أساليب وأنماط الحياة والفكر والسلوك لكي يؤسس شخصيته وكيانه. في هذه الفترة الأولى من حياته، يكون الطفل في وضع القابل الذي لا مقدرة له على الاعتراض في الغالب ولا على مناقشة ما يأخذ؛ وأنى له الاعتراض والمناقشة، وهو لا يعلم من حقائق الحياة شيئا ولا يفقه لها معنى. وإذا صح ما يقال من أن الإنسان يأخذ أغلب آليات الفكر والعمل في السنوات الخمس الأولى من حياته، فلا ريب أن هذا الأخذ وهذا التأثير يتم في مرحلة سوف تصبح في مستقبل حياة الإنسان نسيا منسيا. إن هذه المرحلة الأولى هي الماضي المجهول وهي الليل الذي تجاوزته الذات محمولة لا قدرة لها ولا فهم.

ليس غريبا عندئذ أن يتعلق الإنسان بهؤلاء الذين سهروا على حمله في الليل وهو نائم، والذين اجتازوا به مرحلة القبول والتعلم والاستكانة. إن الأبوين علاوة على أنهما يمثلان سببا حسيا يتكون منه نسيج بنية هيكل الإنسان وجسده، يمثلان أيضا سلطة معرفية هي التي بنت في الإنسان نظام تصرفه وفهمه وتعامله مع الحياة. لذلك لم يكن غريبا أن ينظر الإنسان إلى والديه نظرة التقديس، وأن يتعود على أن يأخذ منهما كل شيء؛ كيف لا ، وهما كانا مصدر حياته وهو في قمة ضعفه. هذا إلى أن الإنسان يطمئن بفطرته وبحكم التجربة إلى والديه لما يعلمه من حرصهما على مصلحته ومن سعيهما إلى سعادته.

وإذا كان الأمر كذلك، فإن قبول الإنسان لعقيدة الآباء والتزامه بها، يعد أمرا منطقيا تماما بالنسبة للإنسان الذي تعود أن يأخذ كل شيء منهما. ومن هنا كان ما يغرسه الآباء في الأبناء، نبتا راسخا ضارب العروق يستعصي على الاقتلاع. كيف لا وعقائد الآباء يأخذها الأبناء ببراءة تامة ويحتسبونها من ضمن نظام الوجود وحقائق العالم التي أخذوها عن آبائهم. وإذا كان الآباء قد نصحوا لهم في إطعامهم وتغذيتهم وكسائهم وفي تعليمهم وسائل التواصل والتعامل، أفلا يكونون أيضا ناصحين لهم في تعريفهم بالإله المعبود وما يلزم له من فروض الطاعة ؟.

إن الجواب الذي يكاد يكون بديهيا أن الإنسان يأخذ معتقد آبائه بتسليم تماما مثل أخذ لغتهم بتسليم وقبل رعايتهم بتسليم. لذلك كله، كانت كلمة الآباء من

الكلمات الباقية بصرف النظر عن محتواها. وتلك سنة الحياة، فالطيب يورث الطيب، والخبيث لا يورث إلا الخبث.

إن إبراهيم نفسه، والذي سيكون سببا لقطع حبل الشرك الذي تواصل آمادا، سوف يؤسس هو أيضا كلمة تبقى في عقبه يتوارثونها هي كلمة التوحيد:» وإذ قال إبراهيم لأبيه وقومه إنني براء مما تعبدون. إلا الذي فطرني فإنه سيهدين. وجعلها كلمة باقية في عقبه لعلهم يرجعون»[1].

بذلك تأسست كلمة جديدة هي بذرة لشجرة جديدة. وإذا كانت الكلمة:» لا اله إلا الله»، كلمة طيبة، فإنها سوف لن تنبت إلا شجرة طيبة:» الإسلام». وهو بالضبط ما جاء به الخليل عليه السلام، وكان أول مؤسس له. علام تأسست هذه الكلمة الطيبة ؟ يجيب القرآن الكريم في حوار إبراهيم مع أبيه:» يا أبت إني قد جاءني من العلم ما لم يأتك فاتبعني أهدك صراطا سويا»[2].

القوة الأولى والسلطان المبين الذي جاء به إبراهيم الخليل لهدم ما بني وإعادة البناء على أسس وقواعد أخرى، هي قوة العلم:» يا أبت إني قد جاءني من العلم ما لم يأتك»، فلقد أيد الله سبحانه إبراهيم بعلم لم يعرفه أبوه وقومه، وهو الوحي النازل بكلمة التوحيد الشريفة. هذا العلم، هو السلطان الجديد الذي يمتلك قوة الهدم والبناء من جديد، ويتوفر على خاصية الإلغاء والإثبات. والمعلوم الذي لا خلاف فيه، أن قوة العلم تكون بحسب قوة صاحبه ومدى هيمنته وسيطرته على حقائق الوجود والحياة. فعلم الطفل ضئيل، وما ذلك إلا لضعف حيلته ونقص قوته على كل المستويات.

وعلم الكهل أكبر وأنضج لأنه خبر من الحياة ما لم يخبره الصبي. وكلما ازداد الكائن في العلم، ازداد حظه من التصرف السليم ونصيبه من الاعتقاد الصحيح. دليل ذلك أن خشية الملائكة الكرام لا تضاهيها خشية سواهم، لما يعلمونه من سلطان ربهم العظيم، وما يرونه عن كثب من آيات عظمته ودلائل عزته. ودليل ذلك أيضا، ضعف خشية البشر لربهم واستهانتهم بمقامه الأجل الأعظم إلا أقلهم، وما ذلك إلا لضعفهم وقلة علمهم وبعدهم عن مجالات الرؤية الكاملة الحقية.

وبما أن علم إبراهيم الخليل من خزائن علم الله تعالى، وصحفه التي نزلت عليه نسخ من كتب الله المقدسة المحفوظة التي لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها؛ فإن سلطان علمه لا يغلب وحجته لا تردها حجة أخرى، وهو ما رأيناه في قصته مع الملك الطاغية الذي بهته الحق. إن علم الخليل عليه السلام، هو علم

(١) سورة الزخرف :٢٦ - ٢٨

(٢) سورة مريم : ٤٣

التوحيد، وهو العلم الإلهي الثابت الراسخ اليقيني.
أما علم قوم إبراهيم وأبيه والملك، فهو العلم الشيطاني وهو الشرك. ولا علم غير هذين، علم الله وهو الحق، وعلم الشيطان وهو عين الجهل. لذلك لا نجد مرتبة ثالثة بين الحق والباطل، وبين الكفر والإيمان. فمن لم يؤمن ولم يوحد ، فهو بالضرورة كافر مشرك. والثالث الذي يروم الإنسان خلقه، مرفوع مقطوع. فالإنسان على التحقيق، ليس بصاحب علم أصلا، كما أنه ليست له شراكة في الخلق والإبداع أصلا، فهو الكائن القابل مطلقا.
وما عدا السمع والبصر، أي الحواس والفؤاد وكلها قوى قابلة، فليس للإنسان قوة خالقة، وليس له مقدرة إنشاء شيء من عنده. فإن علم أو أنشأ شيئا، فإما بعون الله أو بعون الشيطان. أما في مطلق ذاته، فالإنسان سلب مطلق لا يمكنه الإنتاج إلا كما يمكن للأنثى أن تخصب من دون ذكر وهذا ما أحالته القوانين الرحمانية ونفته الآيات الزوجية.
بمجيء الوحي الإلهي ظهر الحق، وأصبح الخليل عليه السلام على بينة من أمره، واستطاع حينئذ أن ينظر إلى حياة أبيه وقومه نظر العارف المستيقن الواعي بالواقع وحقيقة ما قام عليه وما يؤول إليه، وبذلك أيضا استطاع أن يتخلص من آفة التقليد للآباء الذي أسلفنا القول أن أغلب البشر يتورطون فيه. وبالعلم الجديد(الوحي)، أصبح الخليل مبدأ لمرحلة ومؤسسا لمسيرة، وأصبح أيضا أبا لملة جديدة هي ملة المسلمين.
إن أبوة إبراهيم لهذه الملة المشرفة لم تقع في فراغ، بل قامت على أنقاض تهديم علاقة التقليد المتعارفة بين الابن والأب ليصبح الابن هو الأب، ويغيب الأب في أطواء العدم، وتذهب كل أعماله الباطلة وأقواله الفاسدة أدراج الرياح. لم يكن الخليل عليه السلام من المستكبرين عندما خاطب أباه قائلا:» يا أبت إني قد جاءني من العلم ما لم يأتك فاتبعني أهدك صراطا سويا». ذلك أن سلطان العلم الذي جاء به، هو أقوى وأصح من سلطان التقليد الذي تعلق به والده وقومه:» قالوا وجدنا آباءنا لها عابدين».
وبسلطان العلم وهو النور المبين، استطاع الخليل عليه السلام أن يطوي ليل الظلمات البهيم، ليل الحياة، حياته هو الأولى حيث لم يكن شيئا مذكورا، وبنور العلم لم يعد للماضي مهما كان وكيف كان، مقدرة على الاستحواذ عليه وعلى إخافته.
إن الماضي في ضوء العلم، وعلى هدى أنواره، مثل الحاضر تماما مساحة مكشوفة لا خوف فيها. وبانهيار سلطة الماضي المظلم المبهم اللامفهوم الذي ترمز إليه تلك

المراحل الأولى حيث كان الإنسان أو بالأحرى حيث لم يكن الإنسان شيئا مذكورا، أو كان كينونة ضعيفة تتغذى من صلتها بالآخر؛ من قطع هذا الماضي بالوعي السليم الذي هو عين العلم اليقين، تخلص الخليل عليه السلام من سلطة الأب لا بل صنع أبوته هو وبناها على أركان وأسس كتب الله أنها لن تنهار ما بقيت السماوات والأرض.

لذلك خاطب الخليل أباه مطالبا إياه باتباعه، وهو بذلك يخاطب فيه الجهل الذي يجب أن يسلم للعلم والضلال الذي يجب ن يخضع للحق:» فاتبعني أهدك صراطا سويا». إذا كان الماضي ليلا مجهولا بالنسبة للإنسان، فإن العلم الإلهي جاء قمرا منيرا أنار ظلمات هذا الليل وأزال الخوف منه. بذلك لم يعد الماضي إلها معبودا بالنسبة للخليل، فحيث يزول الخوف من الشيء يزول تأليهه وتقديسه. إن الأبوة الواقفة على باب الماضي تستمد منه سلطتها : (الجذور، الأصول، البدايات، العهد الأول القديم...)، هي كالقمر الواقف سادنا على ظلمة الليل لا يكشف منها إلا بمقدار، معتمدا في تأكيد سلطانه على هول الليل وخوف الإنسان الطبيعي منه.

ولذلك كان رفض الخليل عليه السلام لعبادة القمر وجها ظاهرا حسيا لرفضه وجوديا ومعرفيا وشعوريا، عبادة الماضي وعبادة الليل وعبادة الأب الأصل. يتأكد من خلال رفض عبادة الآباء واتباع عقائدهم، أن الخليل شطب كل علاقة له بالخلق تقوم على أساس إرهاب الليل الكامن في ثنايا التكوين والتأسيس كمونا مأساويا لا مناص منه تماما مثل المرحلة الجنينية اللازمة لنشأة الإنسان والتي لا ظهور له إلا بعد اكتمالها. وفي مقابل ذلك، أقام الخليل عليه السلام علاقته بالليل بالماضي، بأبيه على قاعدة العلم الإلهي الذي هو نور مبين، يهدي الضالين ويؤمن الخائفين.

بذلك حق أن يطالب الابن أباه باتباعه. وهذا القلب لنظام التقليد أساسي وضروري لنظام التجديد. فلا تجديد إلا هذا، أعني تجاوز ما فات، وإلغاء الظلمات بقوة العلم الحق. فكل تجديد فسخ وإلغاء وإعادة لنظام التواصل مع الوجود بماضيه ومستقبله على السواء على قاعدة العلم وعلى هدى النور لا على قاعدة الوهم والضلال. قال الخليل عليه السلام لأبيه:» فاتبعني أهدك صراطا سويا» فأعلن الطريقة، ونطق باسم الصراط الجديد، صراط الحق المستقيم. فتبين أنه لا صراط سويا إلا الصراط القائم على العلم. وليس من علم إلا علم الله تعالى. فمبدأ صلاح الإنسان وحي الإله، والإنسانيات في شتى نواحيها وأبعادها وفروعها لا صلاح لها كعلوم إلا بالإلهيات. وكل حضارة أقامت إنسانياتها على غير الإلهيات الحقة،

حضارة تؤول إلى موت الإنسان. وانحطاطه وتؤديه إلى مصير مريع من التمزق في الدنيا والعذاب في الآخرة. ذلك ما يتبين من آي القرآن الكريم التي أكدت على أن مؤسس العلم في الإيمان الديني القرآني، هو الله تعالى لا سواه.

فالواحد الأحد، كما أنه مؤسس الوجود هو مؤسس العلم. إنه صاحب الحق الأول في تعريف العالم وتأويله وتفسيره. والغريب أن بعض مدعي الفهم يدعون الإيمان بالله كخالق، وينكرون عليه حقه كمعلم مرشّد للتجربة البشرية. وهم كمن يعترف لصاحب آلة بأنه مخترعها، ثم لا يعطيه حق التعريف بكيفيات استخدامها والمراد منها وكيفية الاستفادة منها.

يتبين من خلال حوار إبراهيم مع أبيه، أن مسيرة الإنسان تبحث بطبعها عن أصل، عن مصدر للشرعية؛ وهذا الأصل مصدر الشرعية هو الأب وعقائده وأنظمته وآلهته بالنسبة للوثنيين الكافرين المشركين. أما المؤمن، فإنه وإن التقى مع الكافر في البحث عن مصدر شرعية لوجوده ولمعرفته، فإنه يجعل هذا المصدر الله الواحد الأحد. والعلاقة بالله تقوم على العلم، والعلاقة بالآباء تقوم على التقليد. إن أصل الوجود هو أصل المعرفة. والبشر يعرفون هذه الحقيقة حتى وإن لم يتداولوها باللسان. فمن كان ماديا لا صلة له بالغيب، فسوف لن يرى أصلا لوجوده سوى أسباب ظهوره وتكوينه المادي الحسي، وهم الآباء. وعليه، فسوف يتوارث عنهم أيضا عقائدهم ومعارفهم لا قبل له بردها عليهم، لأنه ليس وراءهم بالنسبة له من تأسيس، وليس قبلهم من قبل.

أما من كان مؤمنا، فإنه لا يرى في الآباء سوى أسباب لوجوده الظاهر الحسي، أما وجوده الحقيقي، فأصله الله تعالى نافخ الروح في الإنسان وصاحب الحق في توجيهه وهدايته. إن انقلاب المؤمن على آبائه وعقائدهم، هو انقلاب على أسباب يعلم أنها لا تملك له ضرا ولا نفعا. وهنا في العمق تبرز قضية المعرفة متشابكة تمام التشابك مع قضية الوجود، لابل يبرز أنه لاتوجد مسألة معرفة منفصلة عن مسألة الوجود. فحيث الوجود تكون المعرفة، وأحكام الوجود هي عينها أحكام المعرفة.

وبنزول العلم على الخليل عليه السلام معرفا إياه بالله الموجد الحق الذي لا رب سواه، توحد مصدر العلم لديه. وكما أن التوحيد قضى أنه لا اله إلا الله، فإنه قضى أيضا أنه لا معلم إلا الله ولا هادي إلا هو.

ثم يواصل إبراهيم الخليل المؤمن الموحد وعظه لأبيه داعيا إياه إلى الصراط المستقيم:» يا أبت لا تعبد الشيطان إن الشيطان كان للرحمان عصيا». في هذه الآية يبرز مدى علم الخليل عليه السلام بحقائق الأمور وخفايا الاعتقادات

وخلفيات الأعمال والسلوكات. فلقد نهى والده عن عبادة الشيطان وهو عابد الأصنام كما نعلم جميعا، فنبهه إلى أن عبادته للأصنام هي عينها عبادة الشيطان. فكشف بذلك عن سر الشرك والكفر، وعن الكامن وراء العبادة الشركية. إن عابد الأصنام هو عابد الشيطان. لماذا ؟ والجواب بتأييد الله وعونه: لأن الشيطان هو القوة الوحيدة التي تسعى لنشر الشرك في الوجود ودفع الإنسان إلى نسيان ربه عبر تلهيته بآلهة كثيرة مزيفة.

فالحجاب الأعظم الحائل دون رؤية التوحيد، هو الشرك لأنه نقيضه تماما. وكلما أوغل الإنسان في طريق الشرك، كلما نسي طريق التوحيد ونأى عنه. وإذا كانت كلمة الله في الكون وفي القرآن الكريم هي كلمة التوحيد، حيث بالواحد قام الوجود وتقوم، فإن كلمة الشيطان حينئذ هي كلمة الشرك، لأن الشيطان هو في الحقيقة النفي المطلق والسلب المطلق لله سبحانه، أو على الأصح هو ادعاء هذا النفي وهذا السلب. فمنذ لحظة العصيان الأولى عندما أبى ابليس أن يسجد لآدم، واستكبر واصطنع له علما من جهله مضمونه أنه خير من آدم لأنه خلق من نار وآدم خلق من طين، ومسيرة التعدد والشرك والانحلال في مزيد اتساع. لقد كانت السماوات والأرض رتقا، فلما ظهر الصوت الثاني في الوجود لزم الفتق. يقول سبحانه :» أولم ير الذين كفروا أن السماوات والأرض كانتا رتقا ففتقناهما وجعلنا من الماء كل شيء حي أفلا يؤمنون»[1].

ومازال هذا الفتق في مزيد اتساع مادام الشيطان عاملا على نصيبه من المخالفة والنفي والعصيان، ومادام يتوالد من شياطين الإنس والجن خلق جديد. فإذا جاء الأجل المضروب وهو الساعة المذكورة في القرآن الكريم، ألغى الله سبحانه الفتق وأعاد الرتق وذلك بإعادة الموحدين إلى الجنة، وإعدام الشياطين من جن وإنس وإفنائهم. ولذلك نقدر والله أعلم، أن تاريخ العالم بدأ من تلك اللحظة بالذات التي أعلن فيها إبليس رفضه لكلمة الله، حينئذ كان من ضرورات الحقيقة إنجاز وصنع مركز جديد له زمنه الخاص ليكون مأوى للماهية الجديدة الدعية. بذلك خلق الله سبحانه وتعالى الزمان والمكان.

أما المكان فهو العالم، وأما الزمان فهو ما نحن فيه من أيام وليال مقدرة.

وبخلق الزمان والمكان أوت الماهية الجديدة الدعية إليهما لأنهما صنعا على مقياسها وبحسب حقيقتها. فهبط الشيطان إلى العالم وهبط معه آدم لما قارف نفس فعله وهو العصيان والذي يعني تعديد الموقف وضرب الوحدة ؛ وحدة الحكم والترتيب والتنظيم الإلهي. إن كل عصيان ينطوي على اختلاف في الرأي،

(١) سورة الأنبياء:٣٠

وهو يدل على ظهور معرفة جديدة. ولا تظهر معرفة جديدة إلا لدى رؤية وجود جديد. لذلك عصى الشيطان الله لما رأى آدم، وعصى آدم الله لما رأى الشيطان. فنتج بعصيان الشيطان الثنوية، فكان بذلك رأس الشرك بدون منازع.

ونتج بعصيان الإنسان التثليث، وهو تدشين لمسيرة الانحلال والتنوع والتمزق بلا حد. إن ثالث الزوجين هو الابن الأول، ثم بعد ذلك يأتي الأبناء تباعا. فكان ادعاء إبليس اللعين الثنوية بإظهار معرفة جديدة في الوجود غير الحقيقة الإلهية، سببا أكيدا في ظهور الثالث الذي عنده سيفرق الأمر، أمر تأكيد الثنوية أو إعدامها. لذلك كان الإنسان مجلى قابلا لعبادة الله كما لعبادة الشيطان. والإنسان حينئذ، هو كل العالم علويه وسفليه، ومن خلاله سيؤكد الله

للشيطان أن العالم لا يقبل حقيقتين ولا تسيره قوتان. لذلك نجد المنافق من الناس أشد الخلق تمزقا وأكثرهم رهقا، لأنه يحمل نفسه عبء مشروع مستحيل، هو مشروع التوفيق بين الله والشيطان.

وإذا كان الأمر على ما ذكرنا، فمن الثابت أن الآلة الإنسانية قد خلقت بحيث لا تسير سويا إلا بحسب قانون واحد هو قانون التوحيد:» فاتبعني أهدك صراطا سويا»، وهو صراط التوحيد لا شك فيه ولا اختلاف. فالتوحيد هو دواء الذات الإنسانية وهو نظامها وهو مبدأ إصلاحها. والشرك هو داؤها ومرضها العضال وسبب إتلافها وتضييعها.

والواقع أن هذه الحقيقة بارزة أيضا في العالم الذي ينطق كله بمعنى واحد ويتبع نهجا واحدا تتضامن فيه كل كائناته من الأرض إلى السماء ومن السماء إلى الأرض. وقد أشار سبحانه إلى هذه الحقيقة الكونية العظمى في قوله:» أم اتخذوا آلهة من الأرض هم ينشرون. لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا فسبحان الله رب العرش عما يصفون»[1].

وقد ثبت للعلماء المهتمين بحراك العالم وما فيه من كائنات أن كل الدلائل تشير إلى وجود قانون واحد أكبر يجمع تحته كل القوانين الحزئية التي تحكم كل مجموعة. ومجهود العلم اليوم بكل فروعه تقريبا البحث عن القوانين الأساسية الأولى والكبرى بعد أن تم النفوذ إلى عديد القوانين الجزئية سواء منها ما يحكم الأجرام أو ما يحكم الظواهر الطبيعية أو الإنسان. وإذا كانت الصورة الحقيقية المتعارفة اليوم للعالم، أن كل ما فيه يتعامل مع بعضه البعض، فالوعي ثابت أيضا بأن كل ما في الإنسان يتفاعل بعضه مع بعض. فإذا كان من المستحيل مثلا أن نفصل الشمس عن القمر عن الأرض باعتبارها مخلوقات تتبادل التأثير والتأثر، فكذلك لا يمكن فصل الجسد عن الروح عن النفس في الإنسان باعتبارها

(١) سورة الأنبياء: ٢١-٢٢

مؤسسات تتبادل التأثير والتأثر. فليس الجسد غريبا عن الروح، بل الأقرب إلى العلم القول أنه تعبير عن وضع الروح وعن حاله؛ وليست النفس سوى صورة ناطقة بعلاقة الروح بالجسد إن اتفاقا أو شقاقا وفراقا.

بذلك يعلن الواحد أنه مبدأ العالم ومنتهاه، ويؤكد أنه كما بدأ العالم سوف ينهيه ثم يبعث بعد ذلك من في القبور ويعلن أن هذه المسيرة واحدة متحدة، وأن من لا يرونها منطقية ولا يقدرون على الإيمان بها كم أعلنها القرآن الكريم وسائر الكتب السماوية ،هم أولئك الذين في قلوبهم مرض، أعني أولئك الذين لم يروا الوحدة والنظام والصيرورة في أنفسهم هم.

فلو أن الإنسان يتفطن إلى ما فيه من وحدة عميقة، وتضامن كامل بين شتى ما خلق فيه ونشىء من قلب وعقل وجسد لإنجاح مسيرته، لعلم عندئذ أنه يظلم نفسه بالسعي إلى بترها أو بتر بعض أجزائها.

إن شأن الكافرين المشركين ومثلهم دائما مثل من يأتي إلى جسد سليم فيقطع طرفا منه أو يقتله ادعاء بأن هذا الطرف لا فائدة منه أو أنه مخل بقواعد الجمال أو» بمكارم الأخلاق»، أو ادعاء بأن الجسد كله سرطان موته خير من حياته. إن القتل والسحل والتمثيل بالبشر وكل التصرفات والسلوك التي تنتمي إلى هذه الأفعال، سمة الكافرين والمشركين في حالتي السلم والحرب.

أما التوحيد فهو سلام وأمان لأنه رؤية كلمة الله تعالى بكلمة الله تعالى. قال الخليل عليه السلام بعد أن نهى والده عن عبادة الشيطان :» إن الشيطان كان للرحمن عصيا». فبعصيانه، تنكب الشيطان عن الصراط السوي وأصبح ربا للضلالة والإفساد وأصلا للشر والخراب ومجلى للعدم بكل معانيه السلبية. واسم الله تعالى الرحمن، هو أحد أهم الأسماء الحسنى المعرّفة به سبحانه، وموقع ظهور آثار هذا الاسم: العالم أو دائرة الزمان والمكان. يقول سبحانه :» قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن أيا ما تدعوا فله الأسماء الحسنى ولا تجهر بصلاتك ولا تخافت بها وابتغ بين ذلك سبيلا. وقل الحمد لله الذي لم يتخذ ولدا ولم يكن له شريك في الملك ولم يكن له ولي من الذل وكبره تكبيرا» [1].

نشاهد هنا تعظيم الخطاب القرآني لاسمه تعالى الرحمن الذي جعله بدلا من اسمه الأعظم الله، وساوى بينهما في الدلالة على أنه هو صاحب الأسماء الحسنى لا سواه. فما السر في هذا التعظيم لاسم الرحمن ؟

والجواب بإذن الله، أن اسم الرحمن عظم هنا من بين سائر الأسماء لما له من ظهور واستيلاء وفعل وتأثير في العالم أي في دائرة الزمان والمكان التي محورها

(١) سورة الإسراء:١١٠ - ١١١

هذا الكائن الإنسان. لقد بينا أن العالم قد ظهر لما ظهر العصيان في الوجود بسبب الشيطان الرجيم، فلزم حينئذ أن يظهر في الوجود ما يقابل ما ظهر في المعرفة. فلقد كانت المعرفة حقيقة خالصة أو لنقل علما خالصا لا شوب فيه؛ فلما عصى إبليس وادعى، ظهر الجهل والضلال. وبما أن الوجود لا يتحدث إلا بلسان واحد هو لسان العلم، وبحقيقة واحدة هي حقيقة الحق الذي لا ريب فيه، فقد لزم أن تجد الدعوى الإبليسية محلا تظهر فيه، فكان العالم.

جعله الله سبحانه وسطا قابلا للوجود والعدم، فنفخ فيه من روحه وأدخل إبليس إليه وأعطاه حق الوسوسة فيه. وقد كيفه العلي العظيم بحيث يظهر بأوصاف الوجود من حق وخلود وحياة وبقاء، وبأوصاف العدم من ضلال وفساد وفناء واندثار. وغني عن القول أننا إذا تحدثنا عن العالم فإننا نتحدث في نفس الوقت عن الإنسان حيث كليهما بدل من ذات صاحبه.

وبظهور العالم، أصبح للعدم حكم ومملكة. فجعل الله سبحانه حكمه الموت ومملكته الوهم. لذلك حكم الله سبحانه أن كل شيء هالك إلا وجهه، وهو يعني العالم. فالعالم هو الوهم الذي ما إن تكتمل نشأته حتى يزول. والإنسان يعاني هذه الولادة العدمية وفناءها في كل لحظة وحين في ما يسمى بالخيال. فالخيال هو مشاهد العدم، وحكمها جميعا الفناء والاندثار.

وكذلك أملى الله لإبليس اللعين وأنظره إلى يوم يبعثون. وإنظاره إياه يعني التمكين لحكم ادعائه وهو الثنوية بالظهور. فإبليس باق ما بقي العالم؛ ويرفع حكمه برفع حكم العالم. إن صيرورة العالم من نقطة أولى إلى هذا التكثر المتزايد ثم الانفجار الأخير والاندثار، هي نفس صيرورة إبليس من كلمة، من دعوى أطلقها إلى كلمات ولغات لا تحصى لا تلبث أن تمحى جميعا وتزول وتضمحل. فإبليس هو القدر المقدور، والله تعالى هو القضاء المقضي. فظهر في القدر حكم القضاء وهو الإعدام والإلغاء:

« أولم يروا أنا نأتي الأرض ننقصها من أطرافها والله يحكم لا معقب لحكمه وهو سريع الحساب»[1].

فجعل سبحانه حكمه إتيان الأرض وتنقيص أطرافها. لذلك لزم الإيمان بالقضاء والقدر خيره وشره. فالشر في القدر والخير في القضاء. لقد ظهر إبليس لما ادعى الحكم وتطاول على الحق مدعيا القدرة على خلق حقيقة جديدة. وكان عقاب الحق سبحانه، أنه جعله عدما لا مقدرة له على فعل شيء أصلا بل لا مقدرة له على دخول الوجود لأنه مسخ بحيث أصبح نقيض الوجود، يستحيل حضورهما

(١) سورة الرعد :٤١

معا في محل واحد. ولما خلق الله تعالى العالم، وجعله موطنا للشيطان والإنسان على السواء، لحقت رحمته سبحانه الإنسان لما له من نسب بربه غير منكور، حيث إن هذا المخلوق نفخ فيه من روح الله.

فإشفاقا منه سبحانه على روحه المنفوخ في الإنسان، وعملا بصلة الرحم التي أوصى بها سبحانه، لم يضيع العلي العظيم الإنسان، ولم يتركه في عالم الوهم والضلال وحده، ولم يقض بأن تكون مسيرته عدمية مثلما قضى ذلك على مسيرة الشيطان بصريح الحكم وصريح العبارة. بل جاءت رحمته سبحانه، لتؤكد للإنسان أنه وإن كان في عالم الكون والفساد، وفي أرض مآلها الخراب المحقق مثلها مثل البدن الذي تحيا في أكنافه روحه، فإن الرحمن قضى بأن تسلم روحه الكامنة في الإنسان وبأن ترجع إلى ربها راضية مرضية وأن تدخل جنة الخلد من جديد مفارقة لدار الغرور والفناء.

كيف تدخّل الرحمن في العالم ؟

لقد كان ذلك معجزة إلهية لا تضاهى. وإليك تفصيل الكلام. قلنا إن الشيطان كان أول من أدخل الشرك في الوجود لما ادعى ما لا يقوم، وتوهم مالا يحق. فهذه الدعوى هي عين الثنوية في المعرفة التي استدعت الثنوية في الوجود، وذلك بخلق الأرض مقابلة للسماء، وبخلق الزمان مقابلا للأبدية وخلق الجسد في الإنسان مقابلا للروح.

وبما أن فعل الشيطان ليس سوى ممارسة التثنية والشرك والسعي إلى إخفاء وتغييب وحدة الوجود، حيث أصبح بذاته علامة على الثنوية والشرك، فإن دعوته للإنسان التي جعلها الله تعالى حقا له عقابا للإنسان الذي سمع لإبليس ونسي كلمة ربه، لن تكون سوى دعوة إلى الشرك وإلى نسيان التوحيد. وبما أن الإنسان ولد بعينين وشفتين ليرى مشهدين ويسمع بأذنيه كلمتين وليشهد بشفتيه إحدى شهادتين، فإنه يرى ولا شك مشهد التثنية في نفسه.هذا المشهد الذي جعله الله تعالى ظاهرا غير باطن وإمكانا غير لازم. غير أن فعل الغواية شديد، ورؤية الآخر تدعو بإلحاح إلى معرفته والدخول إليه وفيه، ولذلك كانت السقطة قدرا مقدورا وشرا مسطورا لا بد منه. فهل تنبئوني عن هذا الذي رأى جسده ولم يؤمن بالموت ؟ وعن هذا الذكر الذي رأى الأنثى ولم يسع إلى مقارنتها وملامستها ؟ ذلك أمر لا مناص منه. فما العمل حينئذ والشرك أصبح مصيرا مفروضا ؟

هنا حدثت المعجزة، فقد تدخل الله سبحانه برحمانيته ليجعل النار بردا وسلاما على الإنسان، أعني نار الثنوية. فالعالم الذي قلنا إنه ناطق في عمقه بالوحدة، بالنظام الواحد والقانون الواحد والخالق الواحد، ناطق في ظاهره بالثنوية. حيث

جعل الله سبحانه لكل شيء مثناه، فخلق الله سبحانه السماء وثناها بالأرض، وخلق الذكر وثناه بالأنثى، وخلق الليل وثناه بالنهار، وخلق الشمس وثناها بالقمر... ولم يفلت من ظاهرة التثنية هذه مخلوق في هذا العالم.

هذه التثنية للخلق هي مدخل إبليس إلى الإنسان، وهي حجته إذا دعا الإنسان إلى الشرك وسعى في جعله كافرا. فهذا التعدد الظاهر إذا وجد من يستثمره، يمكن أن يدل وهما على عدم وجود مركز واحد ورب واحد للوجود ومؤسس واحد للحقيقة. وقد استغل الشيطان فعلا هذا التعدد الظاهر في العالم ليدفع الإنسان إلى الإيمان بعديد الآلهة لا باله واحد، وبذلك ستر عنه الحقيقة وجعله كافرا بالله الواحد الأحد.

إن العالم بما فيه من تعدد ظاهر، ومن اختلاف وتنوع شكلي، هو الحجاب الذي سيقيمه إبليس بين الإنسان والله رغم أن هذا العالم في حقيقته وعمقه آية دالة على الواحد الأحد. فإذا انشغل الإنسان بالعالم نسي الله، ذلك هو تعليم إبليس الذي يستعمله في غوايته للإنسان. كذلك شغله بالشجرة عن الجنة، ويشغله اليوم بالدنيا عن الآخرة وبالخلق عن الحق وبالأرض عن السماء... وباختصار، فهو يشغله بالانشطار عن الوحدة...

كانت الذات الإلهية المعظمة أمام مهمتين في هذا العالم: المهمة الأولى إنفاذ العهد مع الشيطان الرجيم بإنظاره إلى يوم يبعثون مع ما في ذلك من إسكانه مجاله الخاص الذي دخله بيديه وهو العدم، وتمكينه من فعاليته الخاصة وهي خلق الوهم ونشر الضلال، الأمر الذي يقتضي ظهور العالم بالثنوية بالضرورة، إذ لا يمكن أن نكون في وضع وحدة حقيقية مطلقة في حضور كائن ثان يدعي معرفة أخرى ويعلن عصيانا على الحق. بمعنى آخر، لقد هيىء العالم من أجل قبول الشيطان .

غير أن النازل الآخر إلى الأرض وإلى عالم الكون والفساد هو الإنسان، وهنا اختلف الوضع. فهذا المخلوق النازل قابل للوهم إمكانا قابل للعصيان إمكانا؛ لكنه من جهة أخرى قابل للصلاح والهداية واتباع الحق المبين إذا وعى بروح الله الكامن فيه. وكانت مهمة الرحمن هنا أن يتدخل لكيلا يترك إبليس وحده مع الإنسان يطغيه بحديث الثنوية والشرك. وبالفعل، فقد تدخل الرحمن في صلب هذه الثنوية ذاتها وقلبها إلى زوجية رحيمة إذا أخذت بقانون الله وضمن حده سبحانه وتعالى. يقول سبحانه وتعالى:» ومن آياته أن خلقكم من تراب ثم إذا أنتم بشر تنتشرون. ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها وجل بينكم مودة ورحمة إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون. ومن آياته خلق السماوات والأرض

واختلاف ألسنتكم وألوانكم إن في ذلك لآيات للعالمين»[1].

جاءت هذه الآيات البينات من سورة الروم كاشفة عن الآيات الإلهية الفردية والزوجية والكونية الاجتماعية، مؤكدة الحقيقة القائلة أن في كل شيء له آية تدل على أنه الواحد وعلى أن الانتشار والتعدد إنما نشأ عن أصل واحد ومبدأ واحد تذكيرا بالله الواحد الأحد. وفي الآية الموالية توضيح لحقيقة الزوجية الكونية والوجودية، وأنها أيضا مثل الفردية آية بينة:» ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة. إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون».

جاءت هذه الآية البينة مثبتة للخلق الزوجي، وأنه أيضا آية من آيات الله تعالى مثل الخلق الفردي؛ وأن أصل الزوجية مبدأ الوحدة أيضا. فكما أن البشر جميعا أصلهم واحد وهو التراب، فإن الزوجين أيضا أصلهما واحد، وهو النفس الواحدة. فجعل سبحانه الوحدة أصلا للزوجية وأصلا للتعدد.

ثم جعل مشهد الاختلاف الكوني والإنساني آية للعالمين:» ومن آياته خلق السماوات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم إن في ذلك لآيات للعالمين». فتبين بذلك، أن الوحدة أصل الزوجية وأصل التعدد بكل أشكاله وفي كل مظاهره ومختلف تجلياته. وقد جاءت الآية الأولى من سورة النساء دالة على هذه المعاني جميعا في قوله تعالى:» يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالا كثيرا ونساء واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام إن الله كان عليكم رقيبا»[2].

فجعل الله تعالى النفس الواحدة الفردية مبدأ للزوجية، ثم جعل الزوجية مبدأ للتعدد والكثرة. وجعل العلاقة الصحيحة بين هذه المستويات الثلاثة من تجلي الوجود علاقة إلهية رحمانية:» واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام». لأن في ذلك صلاح هذه المستويات الثلاثة. أما إذا غابت الرحمانية في علاقة الفردية بالزوجية بالكثرة، فإن الشيطانية هي التي ستحضر. إن كل ما هو قائم في صلاحه بالمبدأ الرحماني ، قابل للتدخل وللاستحواذ الشيطاني.

والعالم قائم في صلاحه بالمبدأ الرحماني ؛ والإنسان فوق الأرض إنما حفظ بالمبدأ الرحماني ، فإذا وعاه واستوعبه وحافظ عليه ضَمن الستر والحفظ، وإذا ما ضيعه أضاعه الله. ومعنى المبدإ الرحماني ، الرحمة التي جعلها الواحد واصلة بينه وبين الزوجين، وبينه وبين الكثرة. فلقد امتدت يد الواحد بالرحمة للزوجين، فجعلت

(١) سورة الروم :٢٠

(٢) سورة النساء:١

العلاقة الرحمانية بينهما مودة ورحمة، وجعلت الهدف من الزوجية السكينة وليس الاضطراب والتذبذب.:» خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة».

فنبه بهذه العلاقة المفروضة والمطلوبة بين الزوجين، إلى العلاقة الأصل بينه سبحانه وبين الإنسان وهي علاقة الرحمة والود. فإذا أقام الإنسان علاقته الزوجية على هذه الأسس وباستعمال هذه الأخلاق: الرحمة- الود.. وصولا إلى هذا الهدف : السكينة، أمن الخطر الماحق وهو أن تتحول الزوجية إلى ثنوية وتصبح لعنة شيطانية. ذلك أن الزوجية علاقة، والعلاقة اعتبار وليست حقيقة جامدة لا تتزحزح.

فإذا قرئت هذه العلاقة بالاعتبار الرحماني، كانت زوجية مرحومة وأنبتت الود والرحمة وخلفت السكينة. وإذا قرئت بالاعتبار الشيطاني، أصبحت ثنوية شركية، وأنبتت النقمة والعداوة وخلفت الاضطراب العظيم.

ثم إن الكثرة أيضا لا تقوم بدون قيام العلاقة بين أفرادها، وقد تدخل الرحمن لجعل علاقة أفراد الكثرة بعضهم ببعض رحمانية مثل العلاقة الزوجية، فدعا إلى التعارف والتعاون والأخوة مما هو ثابت صريح في القرآن الكريم، ونهى عن استعباد البعض للبعض كما جاء في صريح الآية القرآنية:» قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله و لا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون»[1].

فجعل الكلمة السواء بين أهل الأديان إذا أرادوا وحدة لا حربا، أن لا يعبد إلا الله ، وأن لا يشرك به شيء، وأن لا يتخذ الناس بعضهم بعضا أربابا من دون الله .

فتبين أن العلاقة الزوجية والعلاقة الاجتماعية قابلتان للتدخل الرحماني كما هما قابلتان للتدخل الشيطاني؛ وجعل سبحانه في عين الرحمانية إلغاء الثنوية في الزوجية، وإلغاء الشرك في العلاقات الاجتماعية. والثنوية والشرك كما نعلم هما عين الكفر.

لقد كانت الرحمة عامة شاملة للإنسان لما كان في الجنة بضمان المحل، محل الإقامة. فمادام في الجنة فهو في أمان وسكينة:» وقلنا يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة وكلا منها رغدا حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين» [2]. فجعل سبحانه سكينة الزوج وزوجه كليهما في الجنة إلى الجنة. فالجنة هي مصدر الأمان وهي موئل الراحة والاطمئنان. وبزوال الجنة، طلب آدم السكينة

(١) سورة آل عمران : ٦٤

(٢) سورة البقرة : ٣٥

حيث لم يعد له ما يسكن له، فنزّلها سبحانه وجعلها في هداه المنزل كما جعلها في الزوج. فأصبح الإنسان إذا أراد سكينة نفسه مطالبا بأن يرود مساجد الله من جهة لأنه فيها يسمع كلام الله الذي يحدث له السكينة الحق، كما أنه بإتيانه زوجه يجد سكينته أيضا، فضم سبحانه سكينة الزوجية إلى سكينة الإيمان رحمة منه ومنّا، ولكي يحول دون الشيطان ودون العبث بهذه الإنسانية التي يحبها الله لما لها من نسب إليه سبحانه لم يضيعه. لقد أكد سبحانه على ضرورة أن تدخل الرحمة مجال العلاقة الزوجية والعلاقة الاجتماعية على السواء حفظا لهما من الاستحواذ والاستهلاك الشيطاني. فقال في العلاقة الزوجية :» ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون».

فجعل سبحانه المودة والرحمة أمرا قائما بين الزوجين، ودعاهما إلى إثراء هذه العلاقة الرحمانية بما يضيفانه من أعمال المعروف والإحسان وحفظ العهد والمواثيق. فإذا عمل الزوجان بأمر الله وحدوده في علاقتهما، ودعما ما أسسه فيهما من مودة ورحمة بأصل الفطرة، ضمنا أن لا يداخل الشيطان علاقتهما، وأن لا يقلب الزوجية إلى ثنوية وثنية يستعبد فيها الزوج زوجته أو الزوجة زوجها بأمر الشيطان وتوجيهه. أما إذا غاب هذا التوجيه الإلهي عن الزوجين، واستندا إلى غير حكم الله، فإن معين الرحمانية ينضب، أو على الأصح يغيب، وتظهر آثار الشيطانية ووحشيتها.

إن عين العذاب في هذه الدنيا، أن يغيب وجه الرحمن في علاقات الزوجين أو في علاقات أفراد المجتمع بعضهم ببعض. فإذا غاب هذا الوجه المنير المشرق المتكلم بلسان الود والرحمة، حضر بالضرورة وجه الشيطان الأكهب المظلم الناطق بالكفر والفجور والخصام واللعنة. ذلك ما وعاه الخليل جيدا عندما قال لوالده:» يا أبت إني أخاف أن يمسك عذاب من الرحمن فتكون للشيطان وليا». فجعل ولاية الشيطان للإنسان عين عذاب الرحمن. فثبت أن الصراع فوق الأرض على الإنسان إنما يتم بين الرحمن والشيطان.

وثبت أن أصل الخير في اتباع الرحمن، وأن أصل الشر في اتباع الشيطان. ومن هنا نشر الرحمن ألويته في كل العلاقات التي يمكن أن تقوم بين الإنسان وبين سواه. فجعل الزوجية رحمة ومودة، وجعل الولادة هبة ورحمة:» ووهبنا لهم من رحمتنا وجعلنا لهم لسان صدق عليا»[1].

كما جعل العلاقة الاجتماعية الايمانية علاقة رحمة وود :» محمد رسول الله

(١) سورة مريم : ٥٠

والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم تراهم ركعا سجدا يبتغون فضلا من الله ورضوانا سيماهم في وجوههم من أثر السجود ذلك مثلهم في التوراة ومثلهم في الإنجيل كزرع أخرج شطئه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه يعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة وأجرا عظيما» [1].

فجعل سبحانه، قيام العلاقات الرحمانية بالإيمان وزوالها بالكفر والعصيان. فأهل العلاقات الرحمانية هم المؤمنون الركع السجود، الذين وسمهم الرحمن بوسمه وعلّمهم باسمه، فظهرت على وجوههم آيات التقوى. فثبت بذلك أن ما حازوه من نور الباطن قد فاض على الظاهر، حيث أفاض القلب على الوجه مما آتاه الله وهو النور الهادي إلى أحسن السبيل وأحسن العلاقات. وثبت كذلك أن عماد قيام العلاقات الرحمانية ، أن تقوم العلاقة الإيمانية العبادية بالله تعالى. فهذه العلاقة الأساسية بالله التي تقوم عبر الصلاة بما فيها من ركوع وسجود، هي التي تعطي القوة اللازمة والنور اللازم لقيام العلاقات الإنسانية بعد ذلك زوجية كانت أم جماعية، على أساس رحماني، وتلغي بقوة النور الالهي كل إرث شيطاني فاسد. لذلك نلاحظ بدون أدنى ريب ولا يخالف في هذه الملاحظة إلا جاهل، أنه إذا غاب الإيمان العميق الصادق بالله تعالى من أنفس البشر، غابت في علاقاتهم الرحمة وسادت النقمة عائلاتهم ومجتمعاتهم واكتووا بنار الشيطان الحارقة لا يجدون عنها حولا. فالإيمان أساس الرحمة لأن الله تعالى هو الرحمن:» قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن». فمن آمن بالله وصلى له، رفع الله تعالى من قلبه الكبر والذل وهداه إلى نفسه المعززة المكرمة: «ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين».

فحينئذ إذا انقلب إلى أهله وقومه، انقلب وهو يؤمن بكرامة الإنسان فحرم في دينه احتقار البشر، وانقلب وهو يؤمن بعزة الإنسان فحرم في دينه عبادة ملك أو شيطان، فحينئذ يكون على أتم الاستعداد لممارسة العلاقات الرحمانية إن في بيته أو في مجتمعه.

أما قرين الشيطان، فهو لا يتعلم منه سوى الذل والاستكبار لأنه ليس للشيطان علم إلا بهذه اللغة وهذا المنطق، أعني لغة الاستكبار ومنطق الطغيان. ذلك ما ظهر به منذ عرفناه وما يبقى عليه إلى يوم يبعثون. يوم ينطقه الحق سبحانه وتعالى بالحقيقة، فيقول الحق الذي أنكره ويعترف بضلاله وطغيانه.

فإذا انقلب قرين الشيطان من عند وليه هذا، ودخل على أهله وقومه، أظهر فيهم ما تعلمه من ذل واستكبار، فلا يزال في شقاء ولا يزال من عاشره في رهق

(١) سورة الفتح : ٢٩

ونكد إلى أن يتوب أو يقضي الله بهلاكه وزواله.
ثم يقدم الله سبحانه وتعالى صورة لما تعطيه القيم الرحمانية وصورة لما تعطيه القيم الشيطانية في حديث إبراهيم الخليل وأبيه. فبعد أن جابه الخليل عليه السلام أباه بحقيقة الشرك ودعاه إلى التوحيد وترك الشيطان، جاء دور والده الذي قال :» قال أراغب أنت عن آلهتي يا إبراهيم لئن لم تنته لأرجمنك واهجرني مليا» [1].
جاء في لسان العرب :» رجم : الرجم: القتل. وقد ورد في القرآن الرجم القتل في غير موضع من كتاب الله عز وجل، وإنما قيل للقتل رجم لأنهم كانوا إذا قتلوا رجلا رموه بالحجارة حتى يقتلوه، ثم قيل لكل قتل رجم، ومنه رجم الثيبين إذا زنيا، وأصله الرمي بالحجارة... والرجم : اللعن، ومنه الشيطان الرجيم: أي المرجوم بالكواكب... وقيل رجيم ملعون مرجوم باللعنة مبعد مطرود، وهو قول أهل التفسير، قال: ويكون الرجيم بمعنى المشتوم المسبوب من قوله تعالى: لئن لم تنته لأرجمنك، أي لأسبنك. والرجم الهجران، والرجم الطرد، والرجم الظن، والرجم السب والشتم...»[2].
استنكر آزر على ابنه ترك عبادة آلهة أبيه:» أراغب أنت عن آلهتي»؛ فكان في نسبتها إليه تعريض بهذا الذي ترك عبادة آبائه، وكان الأحرى به لو كان راشدا أن لا يعبد إلا ما عبد آباؤه كيف لا وهم ما عبدوا أيضا إلا ما عبد آباؤهم :» قالوا وجدنا آباءنا لها عابدين»[3].
فهنا لم يجد الأب ما يدعم به عبادته الضالة هذه إلا بكونها عبادة الآباء الأولين، ولم يجد من سبيل إلى لوم ابنه إلا كونه لم يتبع ملة آبائه وترفع عن إرث أجداده، فتبين أنه لا حجة للشيطان أصلا ولا لعابديه إلا حجة الخطيئة الأولى. كذلك يسعى الشيطان دائما إلى أن يوقع الإنسان في الخطأ. فإذا أوقعه، أنشأ له من ذلك الخطأ تاريخا وجعله عليه حجة، فيخضع الجاهل لإرهاب الشيطان وبذلك يصبح أسيرا لماض هو ماضيه كما يدعي، حاملا لهمّ لا وجود له فعلا إلا في خزانة الوهم الشيطانية. ولا يمكن محو إرهاب الماضي إلا بالإيمان، لأن الإيمان وحده يحمل رسالة الإصلاح وكلمة التوبة والغفران. ولذلك فإن كل إنسان ما عدا المؤمن مورط بشكل أو بآخر في ماض يجعل منه ماضيه يحمله همّا على صدره لا يدري ما هو فاعل به.

(١) سورة مريم : ٤٦
(٢) لسان العرب، مجلد : ١٢، مادة : رجم، ص ص: ٢٢٦- ٢٢٧
(٣) سورة الأنبياء : ٥٣

إن ثقل الماضي بفعل الاستحواذ الشيطاني والتعليم الشيطاني الذي لا توجد فيه كلمات التوبة والمغفرة والكفارة والرحمة.. هو الذي يعتمده الشيطان كسلطة يبني بها معابد لآلهة زائفة حجتها أنها من الماضي، من إرث الآباء وكيف يستطيع إنسان مثقل بسلطة الماضي أن يتخلص من سلطة الآباء ؟ هذا مستحيل.

إن عبادة الآباء وتعظيم آلهتهم قائمان على الاعتراف بثقل الماضي وحجته وأنه حق لازم، وأنه لا يمحى بشيء. والحقيقة تقول إنه لا وجود لماض إلا في الوهم لأن ما مضى انتهى، والإيمان يقول إن الحسنات تذهبن السيئات. يقول سبحانه وتعالى :» ولا تركنوا إلى الذين ظلموا فتمسكم النار وما لكم من دون الله من أولياء ثم لا تنصرون. وأقم الصلاة طرفي النهار وزلفا من الليل إن الحسنات يذهبن السيئات ذلك ذكرى للذاكرين»[١].

فجعل الله سبحانه الركون إلى الذين ظلموا سببا في الاحتراق بالنار، نار الدنيا وهي نار العلاقات الشيطانية؛ ونار الآخرة وهي النار ذات اللهب التي لا تبقي ولا تذر. ثم أعطى سبحانه الكيفية السليمة لتجديد الإيمان والمداومة في طريق الإحسان فنبه إلى واجب إقامة الصلاة طرفي النهار وزلفا من الليل، وجعل هذا العمل وهو الصلاة حسنات تذهبن السيئات. فلم يجعل سبحانه للسيئات أثرا باقيا، ولم يعط للخطيئة سلطانا مفروضا، بل جاء بالهدى والغفران وأنزل كلمات التوبة على آدم وتاب عليه وسمى نفسه سبحانه التواب الرحيم :» فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه إنه هو التواب الرحيم»[٢].

ثم أعلن سبحانه أنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون. جاء على لسان يعقوب النبي عليه السلام يعظ بنيه :» يابني اذهبوا فتحسسوا من يوسف وأخيه ولا تيأسوا من روح الله إنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون»[٣].

وروح الله تعالى رحمته. جاء في لسان العرب :» الروح: الرحمة، وفي الحديث عن أبي هريرة قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: الريح من روح الله تأتي بالرحمة وتأتي بالعذاب، فإذا رأيتموها فلا تسبوها واسألوا من خيرها، واستعيذوا بالله من شرها، وقوله: من روح الله أي من رحمة الله، وهي رحمة لقوم وإن كان فيها عذاب لآخرين. وفي التنزيل: ولا تيأسوا من روح الله؛ أي من رحمة الله، والجمع أرواح» [٤].

والمتأمل في أخلاق الكافرين وأشياعهم من المنافقين، يلاحظ بالدليل والبرهان أن

(١) سورة هود : ١١٣ - ١١٤

(٢) سورة البقرة : ٣٧

(٣) سورة يوسف : ٨٧

(٤) لسان العرب، مجلد : ١٢، مادة : رجم، ص ص: ٢٢٦- ٢٢٧

هؤلاء لا يعرفون شيئا اسمه الرحمة. أما عبارات التوبة والهداية فلا تعني لهم شيئا. إن السارق فيهم سارق أبدا، والبغي فيهم بغي أبدا، والكاذب فيهم كذلك، لا لأنهم فعلا كذلك ولكن لأن مجتمعهم الفاسد لا تعترف أخلاقه بمفاهيم التوبة والرجعى والرحمة والاستغفار والتي تتناقض كلها مع تأليه الماضي وتسعى في تهديم سلطانه.

إن المجتمعات السلطوية أي تلك التي يحكمها الآباء معتمدين على سلطة الماضي، هي مجتمعات ماضوية بالضرورة، سلطوية بالضرورة، شيطانية بالضرورة. وهي لو ادعت الإيمان بالمستقبل والرغبة في الحداثة، فكادعاء المنافق أنه مؤمن صادق الإيمان. إن ما انكسر لا يجبر في المجتمعات الماضوية الأبوية، والخطيئة التي حدثت من آدم لا كفارة لها ولا توبة عليها. ذلك هو تعليم الشيطان الذي لا يحتنك الإنسان إلا بما كسب. يقول تعالى مفرقا بين تعاليمه السمحاء التي كلها توبة ورحمة وعفو وبين تعاليم الشيطان :» إن الذين تولوا منكم يوم التقى الجمعان إنما استزلهم الشيطان ببعض ما كسبوا ولقد عفا الله عنهم إن الله غفور حليم»[1].

فانظر إلى عمل الشيطان كيف يتحكم في الناس ويسعى إلى تضليلهم وتخويفهم بما كسبوا وتثبيط هممهم، فلا يقدرون على مواجهة الحاضر ولا على الثبات حين البأس لأن الشيطان يعميهم حينئذ ويملؤهم رعبا بما كسبوا من قبل فلا يقدرون على رده، بل يرتدون إلى ما أركسهم فيه أذلاء خانعين. ولعلك تتوهم أن هؤلاء الذين تولوا يوم التقى الجمعان لا يحبون أن يثبتوا كما ثبت المؤمنون، إنك حينئذ تخطىء، فهؤلاء يرغبون ولا شك في الثبات إثباتا لرجولتهم وتأكيدا لشجاعتهم، ولكنهم لا يجدون القوة اللازمة لذلك لأنهم في أعماقهم أسرى للشيطان، أسرى للماضي يستهلك وجودهم ويضيع عليهم فرصتهم الحاضرة.

أما الرحمن الرحيم، السميع العليم، فهو لما يعلمه من حال هؤلاء ولما يعانون من الكرب العظيم رغما عنهم وجهلا منهم بحقائق الحياة، لم يطردهم من رحمته بل جاءهم بكلمات الرحمة والعفو والمغفرة :» ولقد عفا الله عنهم إن الله غفور حليم».

فانظر إلى الفرق العظيم بين موقف الشيطان وموقف الرحمن من هؤلاء الذين تولوا، تعرف حينئذ قيمة إلهك الغفور الرحيم الذي لا يريد إرهاب الإنسان ولا تضييعه، بل يريد إقامة بنيانه وتحريره من أسر الذنوب والأوهام. إن عمل الله تعالى، تحرير الإنسان من كل القيود و من كل الذنوب كي لا يكسب في الآخرة إلا

(١) سورة آل عمران : ١٥٥

الجنة والغفران؛ أما عمل الشيطان فاستعباد الإنسان بأبسط الذنوب وتقييده بما كسب كي لا يدعو إلهه الرحمن الرحيم، ويغرق في بلادة الذنب وثقله.

يقول تعالى :» ويوم يحشرهم جميعا يا معشر الجن قد استكثرتم من الإنس وقال أولياؤهم من الإنس ربنا استمتع بعضنا ببعض وبلغنا أجلنا الذي أجلت لنا قال النار مثواكم خالدين فيها إلا ما شاء الله إن ربك حكيم عليم. وكذلك نولي بعض الظالمين بعضا بما كانوا يكسبون» [1].

فجعل الله سبحانه ولاية الجن للإنس وولا ية الإنس للجن جزاء بما كانوا يكسبون، حيث كسب الإنس الخطيئة، وكسب الجن حق إرهابهم بها وتخويفهم بها. ولو أن هؤلاء الظالمين تابوا واستغفروا لوجدوا الله توابا رحيما؛ لكنهم استكبروا على الاستغفار ولم يستكبروا على قبول الإثم وحمل الذنب، فولاهم الله سبحانه ما تولوا، وتبرأ منهم، وأدخلهم يوم القيامة نارا. إن في قول أولياء الشيطان من الإنس:» ربنا استمتع بعضنا ببعض»، صدق وحقيقة. ففي علاقة التسلط الشيطانية، يحقق الشيطان متعته باستعباد الخلق دون الله الواحد الأحد، ويحقق هؤلاء التعساء متعتهم بالخضوع لأرباب زائفة يجدون لذة غريبة موحشة في طاعتها وتعظيمها. إنها لذة من يقدم نفسه للعدم، للموت، للتلاشي.

لذة من يساق إلى الذبح راضيا لا يريد سوى ذلك، لذة من يسعد إذا عذبه الآخرون واستعلوا عليه. لذة الذليل الذي يبحث عن سيده أينما حل، لأنه لا يرى له وجودا بدون سيد من الخلق يأمره وينهاه.

هذه اللذة المرعبة التي يفضل المؤمن العاقل الجحيم عليها، هي أقصى ما يعد به إبليس اللعين أشياعه وأتباعه. فهو الفقير المعدوم الذي لا يملك إلا العدم يجود بما لديه لأحبابه هؤلاء، فماذا سيعطيهم سوى العدم ؟ وهؤلاء الأتباع يثبتون في الواقع رضا لا يوصف بهذا العدم الذي يهدى لهم. فأي أنعام هذه ؟

توعد والد الخليل ابنه بالرجم والهجران :» لئن لم تنته لأرجمنك واهجرني مليا». فكشف بذلك عن خضوعه للقيم الشيطانية القائمة على القطع والاستعباد والإلغاء والنفي والإرهاب والهجران في المواقع ومع الأشخاص الذين يجب أن تقوم العلاقة معهم على التواصل والرحمة والود.

أما إبراهيم الخليل الذي يحمل البعد الرحماني في أعماقه ويجسده في علاقاته، فلم يقطع والده رغم الاختلاف البين بينهما، ولم يسع إلى تخريب العلاقة القائمة بينهما، بل سعى إلى تحسينها وتقويتها:» قال سلام عليك سأستغفر لك ربي إنه كان بي حفيا». فجاء بالسلام عوضا عن العداوة والانتقام، وجاء بالاستغفار عوضا

(١) سورة الأنعام : ١٢٨ - ١٢٩

عن الكره والاستبعاد؛ واستمد من إيمانه العميق ما به يحقق الرحمانية في علاقته بوالده ويلغي كل الأبعاد والحيل الشيطانية. وفي قوله عليه السلام :» سلام عليك سأستغفر لك ربي»، مثل راق على صدق العلاقات الرحمانية والعقلانية التي تحكمها. فرغم الخلاف العقدي البين بين الأب وابنه، فإن الابن لم يسارع إلى نفي العلاقة الشخصية له بوالده بل احتفظ لوالده بالسلام وهو ضد العداوة والبغض؛ ثم ومراعاة لحق الأبوة، سعى إلى الاستغفار لأبيه عند ربه.

فدل بذلك عل أن المسلم يراعي المبادىء والقيم الرحمانية ما استطاع، ولا يقطع ما أمر الله به أن يوصل إلا أن يكون بإزاء عدو لله، حينئذ لا صلة ولا رحمة ولكن شدة وبراءة. ولذلك فلما تبين للخليل عليه السلام أن والده مصر على كفره سادر في غيه، لا يرتد عن عداوته لله تعالى، تبرأ منه. يقول الله تعالى: ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولي قربى من بعد ما تبين لهم أنهم أصحاب الجحيم. «وما كان استغفار ابراهيم لأبيه إلا عن موعدة وعدها إياه فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه. إن إبراهيم لأواه حليم» [1].

فثبت من هذه الآيات البينات أن دائرة العلاقات الرحمانية هي دائرة الإيمان وحلقة المؤمنين. أما مع المشركين ، فقد طولب المسلمون إزاء هؤلاء بالشدة وأمروا أن يجعلوا أساس علاقتهم معهم البراءة والإنكار، لأن تولي مثل هؤلاء الأنجاس والركون إليهم، سبب في أن تمس المسلم النار، نار علاقاتهم الشيطانية في الدنيا ونار الجحيم في الآخرة. يقول سبحانه وتعالى :» ولا تركنوا إلى الذين ظلموا فتمسكم النار وما لكم من دون الله من أولياء ثم لا تنصرون» [2].

إن دعوة الإسلام إلى الأخوة الإنسانية وإلى إقامة العلاقات الرحمانية القائمة على التسامح والمغفرة والود والرحمة، ليست دعوة طوباوية لا حد لها أو قصيدة شعرية تسبح في الخيال لقوم يقولون ما لا يفعلون، بل كلمة منزلة بالحق من أجل أن تطبق في الواقع. ولأنها كلمة حق، فما كانت لتغفل أن الناس فوق الأرض ليسوا كلهم إخوة بل بعضهم أعداء بعض، وليسوا كلهم عباد الرحمن بل أغلبهم عباد الشيطان. لذلك أكد القرآن على ضرورة الانتباه والحذر وعدم ممالأة الكافرين والمشركين؛ وأمر بعدم توليهم والركون إليهم، لأن مثل هذه العلاقات لو أقيمت مع الكافرين، فسوف تؤدي إلى ما لا تحمد عقباه من النتائج. وفي إطار هذا الفهم الواقعي، ينبه القرآن الكريم إلى ضرورة عدم اتخاذ اليهود والنصارى أولياء من بعد ما تبين للمسلمين أنهم أعداء الله :» يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا

(١) سورة التوبة : ١١٣ - ١١٤

(٢) سورة هود : ١١٣

اليهود والنصارى أولياء بعضهم أولياء بعض ومن يتولهم منكم فإنه منهم إن الله لا يهدي القوم الظالمين» [1].

غير أننا نرى المسلمين اليوم وقد أصاب قلوبهم المرض، يسارعون في اليهود والنصارى، يطلبون رضاهم ويخطبون ودهم بكل وسيلة. يخفون ذلهم هذا وهوانهم، بدعوى أن القرآن الكريم دعا إلى الأخوة الإنسانية وإلى التسامح والرحمة...الخ؛ يقول سبحانه وتعالى في هؤلاء :» فترى الذين في قلوبهم مرض يسارعون فيهم يقولون نخشى أن تصيبنا دائرة فعسى الله أن يأتي بالفتح أو أمر من عنده فيصبحوا على ما أسروا في أنفسهم نادمين» [2].

إنه الخوف إذن هو الذي يدفع هؤلاء المريضة قلوبهم إلى موالاة الكافرين من اليهود والنصارى، وهي الأغراض الفاسدة التي تحركهم من حب لهؤلاء وولع بما عندهم ورغبة في تقليدهم. فإذا صدموا بعداوة هؤلاء لله ولرسوله، تحايلوا وتذرعوا بدعوة القرآن إلى الأخوة والتسامح. والقرآن الكريم كما رأينا، يؤكد بصريح الآية أنه لا يدعو المؤمنين إلى تولي الكافرين، بل يدعوهم إلى معاداتهم والوقوف لهم بالمرصاد. فأي ادعاء هذا إن لم يكن قولا زائفا وافتراء على الله يضاهىء به هؤلاء المريضة قلوبهم أشياعهم من اليهود والنصارى في تعاملهم مع كتبهم المنزلة. إن مثل هذا السلوك، أعني تولي مرضى القلوب من مدعي الإسلام لليهود والنصارى، ردة لا شك فيها، حيث يقول سبحانه :» يا أيها الذين آمنوا من يرتد منكم عن دينه فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين يجاهدون في سبيل الله ولا يخافون لومة لائم ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله واسع عليم.

إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون. ومن يتول الله ورسوله والذين آمنوا فإن حزب الله هم الغالبون. يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا الذين اتخذوا دينكم هزوا ولعبا من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم والكفار أولياء واتقوا الله إن كنتم مؤمنين» [3].

فهذه الآيات واضحة الدلالة صريحتها في تحريم ولاية المؤمنين للكافرين. وهي معضودة بآيات أخرى في سور أخرى من القرآن تدل كلها صراحة لا تلميحا على هذا المعنى، وتؤكد أنه لا يحل للمسلمين تحت أية دعوى، أن يتولوا الكافرين من اليهود والنصارى وأشياعهم. إن مثل هذه الولاية لو حصلت، لن تزيد اليهود

(١) سورة المائدة : ٥١

(٢) سورة المائدة : ٥٢

(٣) سورة المائدة : ٥٤ - ٥٧

والنصارى حبا في المسلمين، ولكنها بالتأكيد سوف تزيد المسلمين بعدا عن دينهم. وهذا ما نراه يحدث لمرضى القلوب من المسلمين اليوم، حيث ما زادهم توليهم لليهود والنصارى بدعوى تحقيق الأخوة والتعاون والسلام وهي قيم رحمانية، سوى ذل وهوان واستعلاء عليهم من قبل أعداء الله حيث يسومونهم سوء العذاب ولا من يرد عليهم أو يجاهدهم. ولقد بلغ من نفاق بعض مرضى القلوب من المحسوبين على المسلمين، أنهم سعوا إلى إلغاء آيات الجهاد بتأويلها على غير معانيها الصحيحة، واستبعادها من مناهج التعليم والتدريس حتى لا تنشىء جيلا معاديا في زعمهم للقيم الإنسانية.

ونسي هؤلاء أو تناسوا أن القيم الرحمانية تزكو بالإيمان، وأن من لا إيمان له لا رحمانية فيه ولو ادعاها، وحتى لو وجدت فهي طبقة رقيقة قشرية لا تدوم ولا تستقر أو تستمر. إن المبدأ القائل :» لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق»، هو مبدأ إسلامي أصيل ثابت جعله الله سبحانه الحد والنور الذي إذا استعمل عرف الإنسان ما له وما عليه في علاقته بالناس مهما كانوا. وبالنسبة للمسلم ، لا إمكان لقيام علاقة بدون حد. فكل علاقة لها حد محدود وترتيب منضود إذا طغت عليه فسدت وزالت عنها الرحمانية لتصبح علاقة شيطانية. إن الحد إذا حضر في علاقة الذكر بالأنثى، جعلها علاقة زوجية، وإذا غاب أصبحت ثنوية وثنية مدمرة. ولا تخرج العلاقة بالآباء عن دائرة الحدود والأنظمة التي تحفظ للرحمانية بقاءها.

فلا انتماء مطلق للآباء ولا رفض مطلق لما عندهم، وإنما تعامل معهم على قاعدة من العقل والمنطق السليم. إن الانتماء المطلق لبشر يؤدي إلى إفقاد الذات استقلاليتها ونورها وإلى استعبادها وتعبيدها للآلهة المزيفة.

ليس الماضي بالنسبة للمؤمن سوى ذكرى مضت وانتهت، فإن كانت حسنة فهو يحمد الله على ذلك، وإن كانت سيئة استغفر الله الغفور الرحيم فيغفر له الله سبحانه ويدخله في رحمته. بمثل هذا الفهم الحي للحياة الذي يجعل من كل يوم فيها يوما جديدا، وفرصة كاملة في التقدم والاستغفار والتوبة والالتحاق بمسيرة المؤمنين، يتقدم المؤمن نحو المستقبل، نحو الحقيقة التي يعلم تماما أنها وسط دائرة لا تعبأ بالزمان ولا ترتهن بالمكان لأنها باختصار شرط نفسها ولا شيء يشرطها من الخارج. إن تهديم معابد الآباء والكفر بتقليدهم ورفض اتباعهم، هو عين الرشد لأنه بداية التعامل مع الحقيقة بشرطها لا بشرط شيء سواها. وما لم يتعامل المؤمن مع آبائه تعاملا عقليا قائما على تأكيد الحدود والفواصل، فإنه سيبقى أبدا رهين الماضي وبالتالي رهين الشيطان الرجيم.

قال إبراهيم عليه السلام لأبيه وقومه :» وأعتزلكم وما تدعون من دون الله وأدعو ربي عسى ألا أكون بدعاء ربي شقيا» [1].

فأداه كفره بعبادة الآباء ورفضه لتقليدهم إلى خط درب جديد كانت بدايته الهجرة والاعتزال، اعتزال قومه وما يعبدون من دون الله. وإذ اعتزل إبراهيم أباه وقومه، تمحض بكليته لربه وعلم عندئذ أنه ليس له من ولي سواه، وأنه لا علاقة حقيقية دائمة إلا العلاقة بالحق سبحانه وتعالى. فحينئذ التفت إلى ربه التفات العبد إلى مولاه، وجعل الدعاء واسطة العلاقة بينه وبين خالقه:» وأدعو ربي عسى ألا أكون بدعاء ربي شقيا».

فعلمنا أن الإنسان لا يستطيع أن يتخلص من إرث الماضي ممثلا خاصة في عبادة الآباء وتعظيم معتقداتهم إلا بسلطان الحق جل وعلا، لأن مثل هذا الخلاص يجعل من يفكر فيه بدون سلطان يشعر وكأنه يخر من السماء أو تلقي به الريح في مكان سحيق. ومن هنا حرص أغلبية البشر على توثيق عراهم بآبائهم وأقوامهم واتباع مناهج الأولين ومعتقداتهم. إن الخلاص من سلطة الآباء وعبادة القوم معناه زعزعة الثابت المستقر الذي به قامت الذات وإليه اطمأنت وسكنت. وهذه الزعزعة سوف تسبب بالتأكيد شقاء لا مزيد عليه وقلقا رهيبا لمن ليس له مأوى جديد يؤوب إليه. إن الآباء هم مأوى الأبناء، وبدون هذا المأوى يصبح هؤلاء أيتاما ضعفاء، وما من بشر يرغب في اليتم برضاه. وليس الخليل عليه السلام في هذا مخالفا لسواه، فهو ما قبل باليتم إلا لما ضمن التحاقه بنسب أشرف من نسبه الأرضي؛ وما ترك بيت آبائه إلا لما انتمى إلى رب البيت العتيق. وباختصار، لقد استطاع الخليل أن يجعل من هذه النقلة النوعية من معبد الآباء إلى معبد الحق إنجازا إنسانيا باهرا ومشكورا من قبل الحق جل وعلا.

هذا الإنجاز المتمثل في التخلي والعزلة والانقطاع عن القوم الظالمين وقطع النسبة إليهم ، هو الذي سينظر إليه الحق سبحانه وتعالى بعين التقدير والرضا، وسوف يرتب عليه أن يورث ابراهيم الخليل البيت العتيق، وأن يجعله أبا لملة جديدة هي ملة المسلمين المباركة المكرمة، وأن يجعل النبوة والحكم في ذريته ما بقيت الأرض مسكنا للإنسان.

لقد صح أن الله تعالى لا يعطف إلا على الأيتام ولا يؤوي إليه سواهم، هم من فقدوا الآباء والأمهات وفارقوا الأقوام والجماعات وهجروا معابد القوم. هؤلاء الأيتام الذين مارسوا النبذ والبراءة وتخلوا بإنابة للحق سبحانه، عن الباطل وأركانه الواهية، هؤلاء الذين وعوا أن بيت الباطل هو بيت العنكبوت أوهى البيوت،

(١) سورة مريم : ٤٨

هم الذين تتلقاهم السماء بالترحاب، لأنهم حينئذ يكونون مستعدين للإخلاص. يقول سبحانه وتعالى لرسولنا محمد صلى الله عليه وسلم:» ألم يجدك يتيما فآوى ووجدك ضالا فهدى ووجدك عائلا فأغنى»[1].

فما عطف عليه إلا لما وجده محتاجا خاليا من أعطيات الخلق فارغ القلب من أباطيلهم، حينئذ أعطاه وآواه وأمنه وأسكنه وهداه، وفي كلمة رحمه. ذلك أن الاحتياج هو باب الوعي. فالإنسان الذي لا يعي حاجته للسكينة وللهدى وللغنى مخدوع بما تغطى به من أوهام الاكتفاء وما آب إليه من بيوت الآباء وما انتمى إليه من معتقدات و ترهات الكهنة واللقطاء. فهو أشد الناس عريا ولكنه يتوهم أنه متدثر بدثار سميك، وهو أكثرهم تيها وهو يحسب أنه مهتد. وهو من الأخسرين أعمالا في حين يتوهم أنه من الناجحين. يقول الله تعالى في هذا الخاسر وأضرابه :» قل هل ننبئكم بالأخسرين أعمالا. الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا. أولئك الذين كفروا بآيات ربهم ولقائه فحبطت أعمالهم فلا نقيم لهم يوم القيامة وزنا. ذلك جزاؤهم جهنم بما كفروا واتخذوا آياتي ورسلي هزوا «[2].

فلحق الخسران المبين أعمال الكافرين لأنهم لم يحصلوا من الحقيقة غير الأسماء. فآبوا ولكن إلى ركن غير شديد، وآمنوا ولكن ليس بالله الحميد المجيد، وسعدوا ولكن بإرضاء الخلق المرتب لغضب الله الشديد، وخافوا ولكن من غير يوم الوعيد، واهتدوا ولكن إلى معابد الشياطين ومهاوي الجنة ومباءات العبيد. فما حصلوا من الحقيقة غير الأسماء، أما المسميات فكانت كلها زائفة، وويل للبشر من زيف الأسماء التي سموها هم وآباؤهم. إن الأصنام التي رفعت بالباطل ولازالت ترفع ليست سوى مخلوقات عاجزة تمام العجز، أعطيت أسماء الآلهة فحسبها الناس كذلك. وكذلك الطواغيت التي ألهت من جبابرة الخلق وعتاة الملوك، ليست سوى مخلوقات ضالة لا تملك لنفسها نفعا ولا ضرا. فلما أعطيت أسماء الآلهة، ونسبت إليها السلطة والمقدرة، ألهها البشر وعموا عن حقيقتها وصمّوا عن عجزها رغم أنهم هم أنفسهم الذين سموها ورفعوها وألهوها :» إن هي إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان إن يتبعون إلا الظن وما تهوى الأنفس ولقد جاءهم من ربهم الهدى» [3].

فبأي سلطان عبدت الأسماء وترك الحق ؟ لقد كان ذلك بسلطان الهوى وحب

---

(١) سورة الضحى : ٦ - ٨

(٢) سورة الكهف : ١٠٣ - ١٠٦

(٣) سورة النجم : ٢٣

الدنيا، إذ منهما اكتسبت الأصنام واكتسب الطاغوت قوة وهمية باعتبارها مواطن تأليف بين المتحابين في الدنيا، المتواصين بالإقبال على لذاتها بدون حد ولا نهاية.

إن حب الدنيا هو وحده الذي يبرر تعلق الإنسان اللامشروط بأسباب الأرض حتى ولو كانت واهية، وإقباله على معابد الأصنام حتى ولو كانت لا تعقل ولا تنطق، وعبادته للطواغيت حتى ولو كانت لا تستحق إلا اللعنة والإبعاد. لذلك صح لدينا ما قيل من أن رأس الشر وسببه الأول حب الدنيا. وكل حديث حول السلطة في تكونها وامتداداتها ومعانيها الظاهرة والخفية يغفل هذه الحقيقة، حديث عرضي لا يهدي إلى شيء.

باعتزال الخليل عليه السلام لأبيه وقومه، اتجه إلى ربه داعيا إياه؛ فقام بذلك المحور الجديد، وثبت بذلك نسب كريم خالد لا ينقطع هو ما سنتحدث عنه بإفاضة إن شاء الله بعد استعراض السلطة الثالثة التي هدمها الخليل عليه السلام، أعني سلطة القوم والقبيلة.

*عبادة الأقوام:نورالشمس التي تبهر الأبصار، نور اللحظة الآفلة

عندما أفل القمر، أغلق الخليل عليه السلام معبد الآباء متبرئا منهم إلى غير رجعة. ومنذئذ لم يعد يخشى الليل، أو على الأصح لم يعد محتاجا إلى قمر الأرض لينير ليله، بل أوجد لنفسه من نور الحق سراجا لا ينطفىء. غير أن الليل أعقبه نهار. وفي النهار، ظهر «سلطان» يبهر الأبصار ؛ إنه كوكب الشمس الحارقة المستعلية التي لا تترك مكانا إلا وينفذ إليه نورها باعثا فيه الحياة، داعيا إياه إلى الاستفاقة من نومه وإلى الخروج من أحلامه إلى العالم، عالم الناس والأشياء، العالم اليومي المألوف.

وبرؤية الخليل للشمس، وتأمله لما صنعته بالليل حيث عصفت به؛ وما فعلته في الناس من سحر حيث بعثت فيهم النشاط، وحركتهم وأبدلت خمولهم نشاطا، أكبر ما رأى وخشع وأعلن قائلا :» هذا ربي هذا أكبر»[1].

أجل، إنه أمام نور دونه نور القمر، نور حارق باهر لا تثبت أمامه الأبصار بل يغشاها ما يغشى إذا حاولت التأمل فيه وإطالة النظر إليه. وإذ تابع الخليل هذا النور الظاهر سائر النهار وهو يكنف الناس ويهديهم، فقد آمن أنه وجد الهدى الذي يريد، وأمن بمعبوده هذا شر الظلمات. غير أنه وباقتراب ساعة محددة هي ساعة الغروب، عرى نور الشمس من الوهن والنقص ما لا يخفى على أحد، ثم ما لبثت أن فقدت من خصائصها أغلبها. وفي لحظة حاسمة واحدة ابتلعتها الظلمات، فأصبح الخليل في ليل دامس. حينئذ صاح :» يا قوم إني بريىء مما تشركون. إني وجهت وجهي للذي فطر السماوات والأرض حنيفا وما أنا من المشركين» [2].

ما هو سر هذه الصيحة الإبراهيمية ؟ ولماذا خاطب قومه بالذات ؟

وكيف توصل عليه السلام إلى الإيمان بفاطر السماوات والأرض ؟

لقد كان الخليل عليه السلام وهو يكفر بعبادة الشمس، يحطم في نفس الوقت كل الإرث الاجتماعي السائد، وكل الاعتقادات والقيم التي آمن بها قومه واعتبروها من ضمن الضروري من علوم الحياة وحقائقها. وبالتالي، فقد كان يزيح عن نفسه هيمنة سلطة ثالثة قاهرة هي سلطة القوم أو المجتمع. وقد قدم القرآن الكريم قصة إبراهيم وقومه في أكثر من سورة وأكثر من موضع، وعرّف بالحجاج الذي دار بينهما والذي انتهى بإلقاء إبراهيم عليه السلام في النار ونجاته منها بإذن الله.

(١) سورة الأنعام : ٧٨

(٢) السورة نفسها : ٧٨ - ٧٩

جاء في سورة الشعراء قوله تعالى :» واتل عليهم نبأ إبراهيم . إذ قال لأبيه وقومه ما تعبدون. قالوا نعبد أصناما فنظل لها عاكفين. قال هل يسمعونكم إذ تدعون. أو ينفعونكم أو يضرون. قالوا بل وجدنا آباءنا كذلك يفعلون. قال أفرأيتم ما كنتم تعبدون أنتم وآباؤكم الأقدمون. فإنهم عدو لي إلا رب العالمين . الذي خلقني فهو يهدين. والذي هو يطعمني ويسقين. وإذا مرضت فهو يشفين. والذي يميتني ثم يحيين. والذي أطمع أن يغفر لي خطيئتي يوم الدين. رب هب لي حكما وألحقني بالصالحين. واجعل لي لسان صدق في الآخرين. واجعلني من ورثة جنة النعيم . واغفر لأبي إنه كان من الضالين. ولا تخزني يوم يبعثون. يوم لا ينفع مال ولا بنون. إلا من أتى الله بقلب سليم...»[1].

تكشف هذه الآيات البينات من سورة الشعراء، عن جولة من جولات الحوار والحجاج الذي حصل بين إبراهيم وبين قومه. وفي أطواء هذا الحوار، وفي ثنايا الحجاج، سوف يتميز المنهج والفكر الإبراهيمي عن منهج وفكر قومه. وقد انطلق الحجاج بقول إبراهيم عليه السلام لأبيه وقومه :» ما تعبدون» ؟. فجاء خطابه لأبيه وقومه واحدا نظرا لاتحادهما في الاعتقاد، ولكون أبيه لم يخرج عن نظر قومه ولا عن اعتقادهم رغم ما دعاه إليه إبراهيم من أمر التوحيد والإيمان بالله الواحد الأحد. وفي تساؤل إبراهيم عن عبادة أبيه وقومه تجاهل واستنكار ضمنيان، غير أنه وهو الذي يريد إقامة الحجة على قومه ما كان له أن يبدأ بسب آلهتهم وتسفيهها، بل سعى إلى بيان حجته بتقريرها ضمن نسق بياني استدلالي عقلي لا يأباه إلا الجاحدون.

« ما تعبدون» ؟

هو ذا السؤال الأساسي الذي ساءل فيه الفرد الجماعة والذي سوف يترتب عنه نبأ عظيم. نبأ تحقيق تغيير جذري على مستوى الاعتقاد وبناء أسمى أمة وملة جديدة. لم يسائل إبراهيم قومه: ما تأكلون و ما تشربون ؟ أو ما تصنعون وما تحبون ؟

وإنما ساءلهم حول عبادتهم دون سواها. فدل بذلك على السؤال الرئيسي الذي يجب أن يسائل فيه الفرد قومه إذا أراد أن يكون له ذكر فيهم، وأن يحيا بينهم عزيزا مكرما محافظا على شخصيته وفرديته. إن سؤال الاعتقاد هو الذي سوف يكون أساس قبول الانتماء إلى المجتمع أو رفضه. وما لم يتثبت الفرد من اعتقاد المجتمع، وما لم يختر بحرية قبول هذا الاعتقاد أو رفضه، فإن علاقته بالجماعة سوف تشكو أبدا من اختلال رهيب في موازين القوى. اختلال ليس هو لصالح

(١) سورة الشعراء : ٦٩ - ٨٩

الفرد بالطبع.
يعلم الفرد من البشر أنه أمام المجتمع لابد أن يسلك مسلكا ما وأن تكون له معه علاقة ما. فمن الناس من يأخذه الغرور ويلعب بأعطافه الكبر، فيتجه نحو الجماعة اتجاه المستعلي المتكبر، وغالبا ما يكون كبرياؤه قائما على وهم زائل يلبث أن يعود عليه ذلا وصغارا. ومن الناس من يقابل الجماعة بوجه ذليل خانع، ويحيا معها حياة الخادم يرى في استدعاء سادته له ليطعم معهم على نفس المائدة شرفا لا يستحقه ولا مقابل له إلا الخنوع الكامل والتفاني اللامشروط في الخدمة. وبين هذين الموقفين من الكبر أو الذل، تتراوح مواقف أغلب البشر من الجماعة؛ وهي مواقف غلب عليها الجهل بأصول الحقائق والغفلة عن أسرار الاجتماع الإنساني ومعانيه.
أما الخليل، فقد لخص كل جدل الفرد والجماعة في كلمة، في سؤال : «ما تعبدون»؟ هذا السؤال الذي رآه الخليل عليه السلام مشروعا بل ضروريا لازما، يحمل في أطوائه كل مشروع الحرية. حرية الفرد في أن يسلك في الحياة مسلكا يرضاه هو وحده دون تدخل من سواه، في نفس الوقت الذي يحمل فيه كل الاحترام للجماعة والتواضع لها، والرضا المبدئي بالانتماء إليها ما لم تكن معادية للحق جل وعلا.
إن سؤال الخليل :»ما تعبدون» ؟ تأكيد على أن جوهر الالتقاء بين الأفراد وجوهر مسألة الاجتماع الإنساني، هي مسألة الاعتقاد ولا شيء سواها على خلاف ما يدعيه العديد من الكتاب المختصين أو غير المختصين من أسس مادية للاجتماع الإنساني. إن الخليل وقد طرح هذا السؤال، يؤكد على أن النسب الحقيقي الذي يربط الإنسان بالإنسان هو نسب الإيمان أو الكفر وليس نسب المال أو البنين. هل معنى ذلك أن المجتمعات كلها قامت على قاعدة دينية اعتقادية بنت بالاعتماد عليها علاقاتها وحددت بالنظر إليها نشاطاتها ؟
لا بالطبع، فأغلب المجتمعات الإنسانية قامت على أسس أخرى غير هذه الأسس الاعتقادية اللهم إلا إذا أخذنا الاتجاه المادي في الحياة على أنه أيضا يحمل في أطوائه اعتقادا محددا وتصورا محددا للإنسان والعالم والحياة وهو أمر صحيح تماما.
إلا أن الخليل عليه السلام وهو يطرح سؤاله هذا، يعيد الاجتماع إلى أصوله وإلى ما جعل له، ويحدد له هدفه وغاياته، ويرفض مبدئيا أن يخضع لشروط الاجتماع السائد بلا قيد ولا شرط.
«ما تعبدون» ؟ سؤال يسعى نحو إعادة تعريف الجماعة والفرد في نفس

الوقت. هو أيضا سؤال يحرك البداهة وينقب عما وراء المعلن والمعترف بأنه حقيقة ثابتة لا تتغير. هذا السؤال الخطير سوف يكون البداية الصحيحة والضربة الأولى في تأسيس مشروع حداثة مستقبلية تقطع مع الماضي وتلغي سلطة السائد.
« ما تعبدون» ؟
مساءلة الفرد للجماعة حول مرجعيتها المعتمدة وحول كل نظام ونسق اجتماعها. إنه سعي إلى السماع العميق لصوت الآخر ولحقيقته. ويعلمنا الخليل هنا أيضا أن الآخر يحضر ويعرّف بدينه وعبادته. ليس الآخر إذن شكلا ولا مظهرا، وإنما هو عمق واعتقاد.
«ما تعبدون» ؟ سؤال عميق يسائل الآخر عن لباسه، عن محل تقواه، عن نفسه أتقية مستورة أم فاجرة عارية. فبحسب الإله تكون النفس، لأنه ليس سوى الإله غطاء للنفس. فإذا كان الإله وهما كان غطاء النفس وهما، وكانت عارية رغم ادعائها الستر؛ وإذا كان الإله حقا، كانت النفس مستورة حقا.
« ما تعبدون» ؟ سؤال الفرد يسعى لمعرفة موقعه من الجماعة وما تريده منه هذه الجماعة. إن الجماعة العارية يستحيل أن تقبل فردا مستورا بلباس لأنه سيذكرها دائما بعريها الفاضح. ألم يتواص قوم لوط عليه السلام بطرده ومن تابعه لأنهم قوم يتطهرون: «ولوطا إذ قال لقومه أتأتون الفاحشة ما سبقكم بها من أحد من العالمين. إنكم لتأتون الرجال شهوة من دون النساء بل أنتم قوم مسرفون. وما كان جواب قومه إلا أن قالوا أخرجوهم من قريتكم إنهم أناس يتطهرون» [1].
فكان ما حافظ عليه لوط عليه السلام ومن كان معه من الستر والتقوى، سببا في إنكار الجماعة لهم وكرهها لهم ورغبتها في طردهم وإبعادهم. إن المجتمع بصفة عامة ودائمة، كتلة واحدة. ولا تسقط هذه القولة إلا في حالات التحول العميق الذي يشهده المجتمع حيث ينقسم أفراده فعلا إلى فريقين متناقضين وجماعتين متحاربتين. أما في حالات الاستقرار، فإن المجتمع يتحرك ويتفاعل أفراده ويتعاملون بحسب نظام أفكار وقيم ثابتة لا ترغب الأغلبية أبدا في تغييرها أو مسها.
إنها روح الجماعة تستوصي بها جيلا بعد جيل، وغالبا ما تكون هذه القيم والأفكار في أصلها نتاج أعمال عظيمة وأفكار طيبة حكيمة صنعها رجال مؤسسون قد يكونون أنبياء أو حكماء، ثم ومع مرور الأيام تمسخ حتى لا يبقى من معناها الأصلي شيء تقريبا، ومع ذلك تحافظ على قداستها بفعل التفاف الجماعة وتحفظها.

(١) سورة الأعراف : ٨٠ - ٨٢

«ما تعبدون» ؟ اعتراف بالجماعة ونفي لها في نفس الوقت. اعتراف بحقها على الفرد أن لا يستكبر عليها بغير سبب، وأن يسفه أحلامها ويلغي أحكامها بدون علم؛ ونفي من جهة ثانية للجماعة كسلطة ضاغطة مهيمنة متغطرسة لا تعترف للفرد بشيء إلا بواجب الطاعة العمياء والخضوع المطلق. إنه سؤال ضخم؛ والسؤال ما كان، هو أبدا حرية. هو أبدا اعتراف للذات بحق الفهم، وإعلان للفاصل بين الذات والموضوع. إنه تحديد للحدود ورسم للعلامات بشرط الحق لا بشرط أحد سواه. إنه احتكام الفرد العارف إلى الحق، إلى الواحد الأحد ليكون هو الفاصل بينه وبين الجماعة أو الواصل بينهما. وبالفعل، فإن هذا السؤال الإبراهيمي قد أدى إلى تحقيق كل النتائج التي أدت فيما بعد إلى أن يكتسب إبراهيم لقب الخليل ولقب الحنيف جزاء بما بنى وأسس وعمل وأصلح.

كان جواب قوم إبراهيم عن سؤاله «ما تعبدون» ؟ أن قالوا :» نعبد أصناما فنظل لها عاكفين».

جاء في لسان العرب :» صنم : الصنم: معروف واحد الأصنام،يقال إنه معرب شمن، وهو الوثن، قال ابن سيده: وهو ينحت من خشب ويصاغ من فضة ونحاس، والجمع أصنام، وقد تكرر في الحديث ذكر الصنم والأصنام، وهو ما اتخذ الها من دون الله، وقيل هو ما كان له جسم أو صورة، فإن لم يكن له جسم أو صورة فهو وثن. وروى أبو العباس عن ابن الأعرابي: الصنمة والنصمة الصورة التي تعبد. وفي التنزيل العزيز: واجنبني وبني أن نعبد الأصنام؛ قال ابن عرفة: ما اتخذوه من آلهة فكان غير صورة فهو وثن، فإن كان له صورة فهو صنم. وقيل: الفرق بين الوثن والصنم أن الوثن ماكان له جثة من خشب أو حجر أو فضة ينحت ويعبد، والصنم الصورة بلا جثة، ومن العرب من جعل الوثن المنصوب صنما...»[1].

وجاء في تفسير العكوف: « عكف: على الشيء يعكُف ويعكِف عكفا وعكوفا: أقبل عليه مواظبا لا يصرف عنه وجهه، وقيل: أقام، ومنه قوله تعالى: يعكفون على أصنام لهم، أي يقيمون، ومنه قوله تعالى: ظلت عليه عاكفا، أي مقيما...»[2].

إذن، فقد رد قوم إبراهيم على سؤاله باختصار ووضوح عندما قالوا :» نعبد أصناما فنظل لها عاكفين». فعرفوا معبودهم، وبينوا فعلهم معه . أما معبودهم، فأصنام عديدة، وهي ما ذكر صاحب اللسان من كونها الأنصاب التي اتخذت صورا أو التي لا صورة لها. وأما عملهم معها، فالإقامة عندها، والإقبال عليها

(١) ابن منظور: لسان العرب، مجلد :١٢، ص: ٣٤٩، مادة: صنم.

(٢) ن - م : مجلد :٩، ص : ٢٥٥، مادة: عكف.

والتآلف فيها وحولها؛ وباختصار، جعلها آلهة المجتمع وعمارة معبده. تلك هي معبودات قوم إبراهيم ومن ورائهم كل الأقوام الكافرة المشركة، أنصاب وأوثان وأصنام إما ذات صور منقوشة على خشب أو حجارة أو كتلا حجرية لا صور لها أصلا. فهل بلغ عقل الإنسان من السذاجة مبلغا يخشى معه حجارة ينحتها بنفسه أم أن وراء الأمر سرا كامنا ؟

نجيب إن شاء الله بعد استعراض محاجة الخليل عليه السلام لقومه. « قال هل يسمعونكم إذ تدعون أو ينفعونكم أو يضرون». وفي هذا السؤال الإبراهيمي الرشيد يكمن معنى الألوهية وسرها. فمن خلال هذا السؤال الذي يستبطن بالتأكيد احتجاجا خفيا، سعى الخليل إلى تعريف قومه بحقيقة الله الحق. وقد ركز على صفتين يجب أن تتوفرا في الإله، ولا يمكن أن يعد إلها ما لم تكونا فيه.

الصفة الأولى السماع؛ أي أن يكون الإله سميعا قادرا على الإنصات لدعوات عبيده، قادرا على التواصل معهم لحل مشاكلهم وإعانتهم في كل الظروف والأحوال.

والحقيقة أن السماع هو الصفة المركزية لأي عاقل حتى ولو كان إنسانا ناهيك أن يكون إلها.

إن من لا يسمع لا يجيب، هذه حقيقة بديهية عميت عنها عقول أولئك الجهلة من الكافرين وأضرابهم من الكفار إلى يوم الدين. وإذا كان الإله لا يجيب خلقه لأنه لا يسمعهم فأية فائدة لهم من عبادته، وأي معنى يمكن أن يسندوه إلى هذه العبادة ؟ مفهوم أن يصلي المسلم لله الواحد الأحد السميع المجيب، ومفهوم أن يدعوه وأن يتضرع إليه مادام قريبا يجيب دعوة الداعي إذا دعاه، ولكن أية حكمة ولو ضئيلة يمكن أن تستفاد من دعوة ما لا يسمع وما لا يجيب ؟ هذا استنكار شديد وهذه حجة بالغة يستحيل أن يجيب عنها كافر اللهم إلا أن يعترف بأنه يمارس اللامعقول، وبأنه لا يكترث لنظام الوجود ولا لمعناه.

إن إبراهيم في حجاجه هنا يبدي كل التواضع للحقيقة، فهو لم يتراجع عن محاجة قومه عندما أكدوا أنهم يعبدون أصناما، ولم يبادرهم بالبراءة والتولي بل ناقشهم في هذه الأصنام نفسها، في حقيقتها وصفاتها وقواها وتأثيراتها نقاش من لا يعمّي على حقيقة، بل من يسعى لكشف كل الأوراق وإظهار كل الأسرار. وهو إذ يفعل هذا يريد أن ينبه قومه إلى أن العبرة ليست بالأسماء بل بالحقائق. فهذا هو الوهم الأكبر الذي صنعته أخيلتهم فغطى على عقولهم، أعني ضعفهم أمام سلطان الأسماء الوهمي الخيالي، ذلك السلطان الشيطاني المصدر والملة.

ثم إن الإله يجب أن يتوفر على صفة ثانية أساسية، هي صفة النفع والإضرار. فالله الحق ينفع ويضر، وهو لذلك يعبد، ولذلك يخشى ويتقى. ألم تر إلى الله

تعالى كيف وصف نفسه في سورة المائدة بقوله: « اعلموا أن الله شديد العقاب وأن الله غفور رحيم»[1].

فبما هو شديد العقاب، فإنه سبحانه يخشى. وبما هو غفور رحيم، فإنه سبحانه يرجى. فيكون حال المؤمن أبدا بين الخوف والرجاء، فيحصل المقصود وهو دوام الصلة بالله في كل الأحوال وفي كل الظروف وكل الملابسات. حينئذ لا يعبد الله على حرف بل يعبد عبادة حقيقية من قبل عبد يعلم أنه لن يجد من دون الله ملتحدا. وفي استفسار الخليل عليه السلام عن دور تلك الأصنام المعبودة وتأثيرها، تنبيه لقومه إلى ضلالة ما هم عليه حيث أنهم يعبدون آلهة ليس لها من الألوهية سوى الاسم، وهو اسم نسب إليها إفكا وزورا وإلا فإنها على وجه الحقيقة أحجار وأخشاب لا تنفع ولا تضر.

إن التركيز على إبراز أسماء الله تعالى وصفاته، هو تنزيل لصورة الله المدبر الخالق، النافع الضار، السميع البصير لكي يبرز أمام الأنظار، أنظار العقول الواعية. يعلم الخليل عليه السلام أن هؤلاء الناس قد فقدوا القدرة على الاتصال بالله الواحد الحق نتيجة لضعف عقولهم الشديد الناتج كما قلنا على استفحال سلطان الوهم فيهم؛ ولذلك سعى إلى أن يقرب إليهم صورة الله تعالى، وليس من سبيل إلى ذلك أحسن من إظهار صفات الله تعالى البارزة في هذا الكون، الظاهرة فيما خلق الله تعالى من سماوات وأراض وما بينهما. إن الخليل نفسه آمن لما تطلع إلى السماوات والأرض وما بينهما، واهتدى لما آب إلى خالق السماوات والأرض، وعندئذ صاح صيحته الشهيرة :» قال يا قوم إني بريىء مما تشركون.

إني وجهت وجهي للذي فطر السماوات والأرض حنيفا وما أنا من المشركين». فالصفات الواضحات هي فيصل التفرقة إذا غابت الحقائق وصعب منالها، كما أنها بالأساس أمثلة مقربة وتعريفات على التبسيط والتدريج بالحقيقة الإلهية الواحدة والكاملة. وسنزداد اقتناعا ونحن نتمثل السيرة الإبراهيمية الشريفة، أننا أمام مشروع تركيز وعي جديد بالألوهية يخرج بها من دائرة الاسمية التافهة الضالة إلى دائرة الحقيقة الثابتة اليقينية وذلك عبر رؤيتها حقا وفعلا داخل العالم وضمن حياة الإنسان نفسه. لاريب أن ضلال القوم أصبح مبينا إذ عكفوا على أصنام لا تنفع ولا تضر، فانتفى بذلك كل مبرر حتى ولو كان ضئيلا لهذا العكوف ولهذه العبادة. إنها عبادة بلا عقد، بلا معنى لأنها بدون دوافع حقيقية وبدون أهداف صحيحة ثابتة.

وإذا كانت المبررات العقلانية في تأسيس هذه العبادة وإعلانها معدومة تقريبا،

(١) سورة المائدة : ٩٨

فهل معنى ذلك أنه لا توجد مبررات أصلا ؟ هذا ما لا يقبله العقل وطبيعة الأمور. فالإله إذا نصّب في المعبد فلا بد أن له موازيا قد نصّب في النفس. وعليه فإن وراء عبادة الأصنام مبررات ودوافع أخرى ولا شك، نكتشفها في الاعتراف التالي لقوم إبراهيم :» قالوا بل وجدنا آباءنا كذلك يفعلون» [١].

وفي سورة الأنبياء نجد قوله تعالى :» قالوا وجدنا آباءنا لها عابدين» [٢].

ذلك هو باختصار، سر عبادة تلك الأصنام التي لا تنفع ولا تضر. إنه الوفاء بعهد الآباء والأجداد والسير على منوالهم والتقليد لهم في كل ما فعلوا. وفي هذا الاعتراف الشركي يكمن كل منطق الشرك ويبرز فكره المتميز. إن الشرك لا يبني رؤيته للحياة وللواقع على قاعدة العقل التي تعني في النهاية الرؤية الموضوعية للأشياء كما هي، وإنما يبنيها على قاعدة التقليد، تقليد السابقين في ما فعلوا بدون تمحيص لهذا الفعل إن كان صحيحا أو خاطئا. ومن هنا قيام كل البناء الشركي على قواعد واهية وعلى أسس مهترئة ليست جديرة أصلا بوصف الأسس والقواعد، بل هي الأوهام والترهات التي لا تقوم ناهيك أن تجد الوقت للسقوط. يقول سبحانه وتعالى في هذا البناء :» مثل الذين اتخذوا من دون الله أولياء كمثل العنكبوت اتخذت بيتا وإن أوهن البيوت لبيت العنكبوت لو كانوا يعلمون» [٣].

جاء بيت الكافرين المشركين واهيا لأنه قام على ما لا يعلمون وما لا يميزون؛ فانظر إلى قولهم «بل وجدنا آباءنا كذلك يفعلون».

فهم شاهدوا آباءهم يتصرفون تصرفا فتصرفوا على منوالهم بدون مناقشة أسس هذا التصرف ولا معرفة حقيقته أو معانيه أو دلالاته. فهذه قمة الانحطاط العقلي حيث يصبح الإنسان أمام حقائق الحياة وقضايا الوجود كالطفل الصغير أمام والده، يسعد بتقليده ويفخر بذلك ويزهو؛ لا بل إن الطفل الصغير قد يتوقع منه بعض الحجاج وبعض التصرفات التلقائية على علاتها، أما المقلد فلا يرجى منه خير البتة لأنه منذ البداية قيّد نفسه بما لا مخرج منه، حيث ألزم نفسه بتعليم جاهز، وارتهن بزمن ميت لم يعد له من حراك. وكيف يرجى للفكر الشركي خير ويتوقع منه الصلاح ومفاتيحه قد حملها الآباء معهم إلى قبورهم.

إن المشركين عندئذ صناديق مغلقة لا سبيل إلى حلها بعد أن تاهت مفاتيح الأقفال في ظلمات الماضي، وكأن عقولهم تلك الكنوز السحرية التي يروى أنها توجد في بعض بقاع الأرض ولكنها مرصودة بأرصاد معينة ومحجوبة بأختام وتعاويذ من

(١) سورة الشعراء: ٧٤

(٢) سورة الأنبياء : ٥٣

(٣) سورة العنكبوت : ٤١

فعل الجن والمردة والمشعوذين. فثبت عندئذ وجود الكنز وثبت في نفس الوقت تعذر إن لم نقل استحالة استخراجه والانتفاع به.

فانظر إلى عسر حال هؤلاء الناس كيف وقعوا في مطب رهيب وفخ قاتل لم يعد لهم أمامه من حيلة إلا التسليم، تسليم يبرز في لغة كلامهم عندما قالوا :» وجدنا آباءنا لها عابدين». فكأنهم جميعا طفل صغير ساكن الحراك في أحد المسالك يسأل عن سر سكونه وانتظاره، فيقول ببراءة إنه ينتظر أباه الذي أمره بالبقاء حيث هو وعدم تغيير مكانه. يبقى لإتمام المثل أن نقول إنه من حسن حظ هذا الطفل أن يكون أبوه حيا وأن يعود إليه لكي يبلغه مسكنه ومأمنه قبل حلول الظلام، ولكن ماذا تكون نهاية القصة إذا مات والد الطفل واندثر أثره ؟

ماذا سنقول في وصف هذا الصغير المسكين الذي ينتظر الوهم حينئذ، إلا أن نقول إنها المأساة التي لا حد لها وهو اليتم في أقصى حالاته؟ ذلك فعلا وضع المشركين فوق الأرض، أيتام لا يرجون راعيا ولا وليا، وهم يعلمون هذا ويشعرون بهذا اليتم العميق الذي يلف وجودهم ويقبض نفوسهم،ولذلك يتواطئون مع الطاغوت ليسلموه أنفسهم يحميها ويجعلون منه وليا بعد أن ضيعوا الولي الحق، الله الواحد الرحمن الرحيم. يقول تعالى» لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها والله سميع عليم. الله ولي الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات .أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون»[1].

ذلك أن من لم يتوله الله تعالى فسوف يتولاه الطاغوت بالضرورة. فبين الله تعالى وبين الطاغوت جدل التضاد والتناقض. فحيث حضر الطاغوت، غاب الله سبحانه وتعالى عما يصفون، وحيث يغيب الطاغوت، يحضر الله سبحانه وتعالى عما يصفون. ولا حضرة للطاغوت إلا حضرة الإفك، وهو الخيال والباطل الذي لا يقوم. لذلك كان الكفر بالطاغوت بابا للإيمان بالله ، بل إن هذا الإيمان يتجلى على أنه هذا الكفر بالطاغوت بالذات. لذلك كانت شهادة المؤمن فوق الأرض نفيا وإثباتا. فبنفي الشيطان والكفر بالطاغوت يتأكد الوعي بالله، ويتحقق الاعتراف به سبحانه. يقول المؤمن :» أشهد أن لا اله إلا الله»؛ فينفي وجود إله سوى الله الواحد الأحد.

وعليه فقد جاءت العبادة صوما وصلاة. أي انقطاعا واتصالا. انقطاعا عن الخلق واتصالا بالحق سبحانه وتعالى. وليس الانقطاع عن الخلق سوى الكفر بالطاغوت

(١) سورة البقرة : ٢٥٦ - ٢٥٧

وترك الهوى وهو الشرك بالله تعالى. أما ما أمر به الله تعالى أن يوصل من رحم وقرابة ومودة المؤمنين، فمعاذ الله أن ندعو لقطعه أو للتهاون به.
باطلاع إبراهيم الخليل عليه السلام على السلطة الكامنة وراء عبادة الأصنام متمثلة في سلطة الآباء والأجداد، وبتحققه من غياب العقلانية في تصرف قومه وفهمهم واستفحال التقليد والتبعية لديهم، انهار معبد الشمس، وعلم الرجل المؤيد بالرشد والحكمة والكتاب أن هؤلاء القوم على كثرتهم ليسوا سوى صورة مكبرة من أبيه ونسخة مستعادة منه. فكما أن أباه تذرع بأنه يعبد آلهة آبائه، فإن قومه قالوا نفس الكلام. وهكذا تبين أن الشمس مثل القمر تماما، تشكو من الداء المزمن: داء الأفول الذي لا دواء له. أما كون الشمس أكبر من القمر، وأما كون نورها أشد إحراقا وأكبر أثرا وأظهر سلطانا، فكل ذلك ليس سوى غطاء جديد وحجاب آخر يخفي حقيقة واحدة ، هي حقيقة كون كل ما عدا الله تعالى يأفل وكل ما سواه سبحانه يموت.
إن الحجاب يتكثف ويتلون ويتبدل ما بين الطاغية والأب المتسلط والمجتمع المشرك، ولكنه فعليا لا شكليا حجاب واحد يخفي حقيقة واحدة. إنه حجاب الباطل الذي يخفي الحقيقة الأولى، الأقدم والأصح والأبقى دائما؛ حقيقة أنه لا اله إلا الله . لقد كان الخليل عليه السلام يصدم في حجاجه سواء مع الملك أو مع أبيه أو مع قومه دائما بنفس الحواجز، ويكتشف أنه دائما أمام بشر ضيعوا العقل وجانبوا الرشد وجعلوا من اللامعقول واللامقبول شعارا ودينا. فالملك الذي يدعي القدرة وهو أعجز من ذبابة، والأب الذي يدعي الحكمة وهو أجهل الجاهلين، والقوم الذين يدعون الإيمان وهم في الكفر قد سقطوا ؛ كل أولئك أصبحوا أمام عيني الخليل الحكيمتين، أعداء لأنهم بكل بساطة تواطئوا على أمر واحد: إنكار الحقيقة الصارخة، حقيقة أن من خلق السماوات والأرض هو الأحق والأجدر بالعبادة.
وبانطفاء أنوار الثالوث الفلكي، تحطمت البنية الهرمية للعالم في ذهن الخليل عليه السلام، وانكشف عندئذ البعد الرابع المفقود، البعد الذي سوف يجعل الحقيقة بناء مستقرا ثابتا قائما على أركان أربعة لا تزول.

٣ - الله الحق
البعد الرابع المفقود

« قال أفرأيتم ما كنتم تعبدون أنتم وآباؤكم الأقدمون. فإنهم عدو لي إلا رب العالمين. الذي خلقني فهو يهدين. والذي هو يطعمني ويسقين.. وإذا مرضت فهو يشفين. والذي يميتني ثم يحيين. والذي أطمع أن يغفر لي خطيئتي يوم الدين» [١].

من هو إله إبراهيم الخليل ؟

تجيب هذه الآيات البينات من سورة الشعراء على هذا السؤال، وتحدد إلى مدى بعيد كيفية تمثل الوعي الإبراهيمي للحضور الإلهي كحضور طاغ مهيمن داخل التجربة الإنسانية نفسها لا خارجها فقط.. وفي تقريره لموقفه من الألوهية، يمارس الخليل عليه السلام النفي والإثبات. فهو يواجه قومه بصراحة معلنا رفضه لآلهتهم وآلهة آبائهم الأقدمين وعداوته لها :» قال أفرأيتم ما كنتم تعبدون أنتم وآباؤكم الأقدمون. فإنهم عدو لي إلا رب العالمين». ففي قوله عليه السلام،» أنتم وآباؤكم الأقدمون»، هدم لتاريخ الشرك واستهانة به، وإلغاء لسلطته على العقول والأرواح.

إن الكافرين من قوم إبراهيم ما ثبتوا على عبادتهم للأصنام إلا تأثرا بهذا التاريخ الشركي القديم الغابر وإكبارا لأحداثه وتعظيما لسدنته ودهاقينه. أما الخليل، فقد كان يعلم أن هذا التاريخ المزيف هو حروف من وهم كتبت في ألواح الشيطان الوهمية الخيالية المزيفة. ولذلك لم يكن في صدره أدنى ضيق من إعلان وضعه لسلطان الوهم ورفعه في المقابل لراية الحق إيمانا برب العالمين، الله الواحد الأحد الذي ليس هو برب عشيرة دون أخرى ولا إله قبيلة دون سواها.

إن رب العالمين، هو الله الواحد الذي لا يتثنى، وهو الحق الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، ولا يؤثر فيه وهم ولا خيال. هو رب العالمين لأنه الواحد الحق الذي يعرفه كل إنسان، لأنه زرع سره في كل مكان وليس إلها مصنوعا من أوهام قوم بعينهم أو من ترهات قبيلة تفضل الوهم على الحق.

ولكن، من هو رب العالمين ؟

في حواراته المتكررة مع قومه وحجاجه الشديد لهم، قدم الخليل عليه السلام صورتين لربه المعبود، الأولى كونية والثانية ذاتية. أما الوجه الكوني للخالق عز وجل، فيبرز في خلقه للسماوات والأرض وما بينهما الأمر الذي لا يمكن أن يدعيه

(١) سورة الشعراء : ٧٥ - ٨٢

صنم من الأصنام الحجرية ولا ملك طاغ متجبر.
هذا الإله الخالق لكل شيء هو الذي هدى الخليل إليه لما رفض عبادة القوى الوضعية ومراكز النفوذ النسبية، فتبرأ مما يشرك القوم قائلا :» يا قوم إني بريء مما تشركون. إني وجهت وجهي للذي فطر السماوات والأرض حنيفا وما أنا من المشركين». فكان ميل الخليل عليه السلام عن عبادة الأصنام، عين اتجاهه نحو الحنيفية السمحاء وعين تجليته لها. فليست الحنيفية سوى الميل عن الباطل والاتجاه نحو الحق. هذا الميل هو الذي سيحيي به الله تعالى الملة السمحاء، ملة الإسلام الخالدة. ففي ميله، اكتشف الخليل ربه. فدلّ بذلك أنه كشف عن بعد كوني وجودي جديد هو بعد الغيب. ومن هنا ستتخذ سيرة الخليل عليه السلام، مسارا متفردا نتيجة لدخول البعد الغائب في حياته، هذا البعد الذي ميز حياته وحياة المؤمنين من بعده عن بقية الشعوب والأمم. وفي آيات أخرى يقول الخليل عليه السلام لقومه وأبيه :» قال لقد كنتم أنتم وآباؤكم في ضلال مبين. قالوا أجئتنا بالحق أم أنت من اللاعبين. قال بل ربكم رب السماوات والأرض الذي فطرهن وأنا على ذلكم من الشاهدين» [1].
فجاءت شهادته الأولى لله في الكون، حيث شهد أنه سبحانه خالق السماوات والأرض. أما الشهادة الثانية لله تعالى، فهي داخل الدائرة الإنسانية نفسها، وضمن حدود الكيان الإنساني. هنا ضمن الدائرة الإنسانية المشرّفة، يبرز الإنسان بيتا قائما مربعا تحيط به سبع آيات معجزات هي علامات الرب فيه ودلائله عليه.

(١) سورة الأنبياء : ٥٤ - ٥٦

أ - البيت العتيق : نور الآيات السبع المعجزات

* الآيتان الأوليان : « الذي خلقني فهو يهدين»[١].
بدأ الخليل عليه السلام القراءة، قراءة كتاب الإنسان من البداية، من حدث الخلق نفسه :» اقرأ باسم ربك الذي خلق. خلق الإنسان من علق» [٢].
فعرف مخلوقيته، وبها عرف أن له خالقا صانعا. وليست معرفة الإنسان بمخلوقيته بالأمر العجيب، فكل الناس يعرفون هذا تقريبا؛ غير أنهم في تصرفهم في حياتهم إلى مماتهم ينسونه، ويسلكون سلوك الخالقين لا سلوك المخلوقين. وقد جاء قوله سبحانه :» خلق الإنسان من علق «، تنبيها إلى أن هذا المخلوق لا يفهم بدون متعلق يتعلق به، فهو كيان عالق في كيان آخر أكبر منه هو الخالق سبحانه. فجسده بالكون عالق، وروحه بالله عالق تماما مثلما علقت بويضته بالرحم لتتم نموها. فثبت أن الإنسان لابد له من متعلق يتعلق به كما تعلقت علقة تكوينه برحم الأم فأنشأت الجنين. فالمؤمن يجعل متعلقه الله سبحانه، يبرز ذلك في قول الخليل عليه السلام:» الذي خلقني فهو يهدين». فجعل الخلق مبدأ لغاية هي الهداية. وهذه العبارة قمة في الوعي بمنطق الخلق الكوني وأسلوب الرحمن في الخلق والتصوير والتطوير. فقد جعل الله سبحانه وتعالى الخلق على أطوار. قال عز وجل:» مالكم لا ترجون لله وقارا وقد خلقكم أطوارا «[٣] .
فنبه إلى أطوار الخلق المختلفة للإنسان، وكذلك يصدق الأمر على الحيوان و سواه من الكائنات الحية. فالهدى هو عين هذا التطوير الرحماني للمخلوق الناشىء من مرحلة إلى مرحلة حتى يبلغ كمال نموه ويحقق الهدف من بقائه ووجوده. سأل فرعون موسى:» قال فمن ربكما يا موسى»[٤].
فأجابه :» قال ربنا الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى»[٥].
فربط بين الخلق والهداية لأنها كمال الخلق وغايته التي ينحو إليها. فثبت أنه لا معنى للخلق بدون هداية، كما ثبت أن من يخلق هو الذي يهدي. فصانع الآلة أولى بتحديد أهدافها، ولذلك قال الخليل عليه السلام: « الذي خلقني فهو يهدين». فربط بين انفراد الله سبحانه بالخلق، وانفراده سبحانه بالهداية وهو

(١) سورة الشعراء : ٧٨
(٢) سورة العلق : ١ - ٢
(٣) سورة نوح : ١٣ - ١٤
(٤) سورة طه : ٤٩
(٥) سورة طه : ٥٠

عين العقل والحكمة. فالخالق المتحكم في سر الخلق العليم بما وضع في مخلوقه، أولى من سواه بأن يحدد السبيل لهذا المخلوق وأن يهديه سواء السبيل.
غير أن المشركين والكافرين إذا اعترف بعضهم بوجود الخالق الأعظم وبأنهم مخلوقون وليسوا خالقين، فإنهم جميعا يلتقون حول إنكار حق الله الخالق في هداية الإنسان وتوجيهه وإرشاده. فبعضهم يتولى هواه ويتبع شهواته، فلا يلبث يرى ويمارس ويلقى من أصناف الغي ما يؤول به إلى الدمار في النهاية. وبعضهم يتولى الطاغوت فلا يزيدونه إلا ضلالا ولا يعطونه إلا ضعفا وانحلالا ثم لا يلبث أن يموت كمدا وحسرة على ما فرط في جنب الله تعالى. أما المؤمن، فإنه يؤمن بأن ربه:» الذي خلق فسوى والذي قدر فهدى» [1]؛ قادر على هدايته إلى نجاته، فلا يلبث مستمسكا بهذه العروة الوثقى أي هدى الله حتى يلقى ربه آمنا مطمئنا على نفسه،واثقا من نيل حظه العظيم، حظ دخول الجنة وزوال العوائق عن الوجود. يقول تعالى معرفا بمصدر الهدى:» قلنا اهبطوا منها جميعا فإما يأتينكم مني هدى فمن تبع هداي فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون. والذين كفروا وكذبوا بآياتنا اولئك أصحاب النار هم فيها خالدون»[2].
فنبه سبحانه إلى أنه هو مصدر الهدى تماما مثلما أنه مصدر الخلق؛ وأكد أن من يتبع هداه فلا خوف عليه ولا حزن يأتيه، ومن لا يتبعه فمآله النار وبئس المصير. فكان الهبوط من الجنة بمثابة الخلق الجديد لآدم الذي نشىء في طور جديد لا مناص لاجتيازه نحو أحسن تقويم إلا باتباع الهدى. فتأكد أن الخلق إذا خلق احتاج أول ما يحتاج إلى الهدى لتستقيم طريقته وتستبين سبيله.
إن الحيوان الأعجم يتدرج في أطوار الهدى الإلهي فينتقل من وضع الجنين العاجز إلى وضع الوحش الباشق الهصور تبعا لهدى الله تعالى، فيكتسب في تطوره صفات ويتعلم قدرات ما كان ليحصل عليها لولا هدى الله تعالى الذي يعلّمه بأصل الغريزة ما أعد له ويقيض له من الآباء من يعلمه ويربيه.
ولولا هداية الله تعالى القائمة في سر تكوين الكائن وفي أصل غريزة الحياة، لما اهتدى شيء إلى كماله الذي نرى، وما أعطت شجرة ثمرتها. فجاء الكون بكل ما فيه آيات بينات على قدرة الله الخالق الهادي سبحانه وتعالى حيث ما هدى خلقه إلا لما يجب لهم وإلى ما به يبلغون الكمال ويجعلون من وجودهم وجودا نافعا مفيدا ومن حياتهم سعادة ونعيما. ذلك شأنه سبحانه مع الطير كما هو شأنه مع الفلك السابح في الفضاء والحوت السابح في أعماق المحيطات، ومع

(١) سورة الأعلى : ٢ - ٣
(٢) سورة البقرة : ٣٨ – ٣٩

الذرة المتماسكة بإذنه وهديه، فجاء خلقه كاملا تبعا لهداه سبحانه، فلم يبرز فيه أدنى تفاوت، «الذي خلق سبع سماوات طباقا ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت فارجع البصر هل ترى من فطور. ثم ارجع البصر كرتين ينقلب إليك البصر خاسئا وهو حسير»[1].

فمهما نظر الإنسان كرة وكرتين لم يجد سوى نظام، ولم يجد سوى هدى الله ظاهرا وأعلامه سبحانه منتشرة هادية كل مخلوق إلى رجعاه. فتلك آية الكون العظمى تتضامن على تأكيد أن الخلق الذي نرى مهدي بالضرورة، وأن هاديه سبحانه أحكم الهدى بطريقة لا توصف إلا بكونها معجزة.

ومع ذلك، ومع كل ما نرى من هدى الهي قائم ومبثوث في ظاهر الكون وفي أطوائه الخفية، فإن من البشر من يقف إلى اليوم ليتحدث عن الصدفة في وجود العالم، والصدفة في ظهور الحياة، والصدفة في التطور، والصدفة في تصنيع الحياة لكائن عاقل واع. وهكذا يستمر مثل هؤلاء العميان في إنشاء الأباطيل وقول الزور الذي يخجل من قوله حيوان لو نطق ناهيك عن عاقل يدعي أنه من العلماء. إن الفصل بين الخلق والهداية لم يحدث إلا للإنسان والشيطان. أما الشيطان فقد عصى ثم اهتدى إلى سبيله لما جعل نفسه قوّاما على الشر وسادنا على الفساد، فأنظره الله تعالى على علم إلى يوم يبعثون. وأما الإنسان فقد غوى ومازال كذلك إلا من اتبع هدى الله وانتبه قبل فوات الأوان وقلة من هم .

علم الخليل عليه السلام أن الإنسان بدون هدى كالبويضة بدون لقاح، لا تلبث أن تموت وتندثر. وأنه لا تمام لحركة الخلق إلا بحركة الهداية التي هي دفع للخلق نحو نهاياته وأهدافه المطلوبة. وعلم أنه لا هادي إلا الخالق سبحانه وتعالى. فمن وضع برنامج الخلق أولى بأن يضع برنامج الهداية. فلخص كل هذا في قوله:» الذي خلقني فهو يهدين». فأثبت بذلك أهم نعمتين أنعم الله تعالى بهما على الإنسان: نعمة الخلق ونعمة الهداية.

وهاتان النعمتان متعاضدتان لا معنى لإحداهما بدون الأخرى، بل إن إحداهما وهي نعمة الخلق، تصبح نقمة وعذابا إن لم تقترن بنعمة الهداية وهو الأمر الذي يعيشه الكافرون والمشركون والمنافقون. هؤلاء الذين أنكروا حق الله تعالى في هدايتهم، وتوكلوا على شياطينهم وأهوائهم، فهدتهم إلى اتباع الآباء والطواغيت، وأدخلتهم بالنتيجة إلى معبد الأصنام ليمارسوا هناك أكبر حركة عقم شهدها الوجود.

(١) سورة الملك : ٣ - ٤

الله رب العالمين، هو الخالق الهادي، هذا تعريف أول يعرف به الخليل الهه العظيم مبينا بذلك أنه رب البدايات بتحكمه في سر الخلق، ورب النهايات بتحكمه في نهج الهداية المحقق لأحسن الغايات؛ ومعلنا لذي عقل أن الواحد الأحد هو مهندس حياة الإنسان وربها وإمامها.

الآيتان الثالثة والرابعة :» والذي هو يطعمني ويسقين»[1].

هذه الآية تنبيه إلى ما أنعم به الله تعالى على الإنسان من نعم الطعام والشراب. ومعلوم بالضرورة أن الإنسان لا حياة له بدون طعام وشراب. فنعمة الإطعام والسقي تدعم نعمة الخلق والهداية... فبنعمة الخلق والهداية يحقق الإنسان مسيرة روحه، أي مسيرة وعيه الذي يتجه إلى كماله بالرجعى إلى ربه، وهذا هو الهدف الأساسي من خلق الإنسان. وبنعمة الطعام والشراب، يتحقق حفظ حياة الإنسان فوق الأرض لإتمام مهمته الأولى، أي مهمة الاهتداء والرجعى إلى ربه. وبهذه النعم جميعا: الهداية للروح (الوعي)، والطعام والشراب للجسد، يتصل الله تعالى بالإنسان اتصال القريب الحبيب المرحب المضيف الكريم؛ فهو يعطي من عنده بدون طلب وبطلب.

وهو لا يعطي فيشح كما يفعل المنافقون بل يعطي بكرم اله حقيقي لا لبس فيه. فلقد جاء الهدى آيات بينات مكتوبة بكل لغة وكل لسان، وانتشرت ما بين الكون والصحف المطهرة لتقرأ بكل الأعين، ولتكون حاضرة أمام الجميع. فجاء كل ما في الكون آيات بينات لا يماري في هذا إلا أحمق، ثم عضدت آيات الكون بآيات باهرة ظهرت في تكوين الإنسان نفسه، هذا المخلوق الذي جمع فأوعى.

ولم يكتف الرحمن بذلك، بل أضاف إلى آياته تلك كتبا قيمة فيها ذكر من قبلنا ومن بعدنا، وفيها تفصيل كل شيء. وليس هذا القرآن الكريم الذي بين أيدينا والذي نغترف من بحره الذي لا ينضب، سوى دليل ساطع وبرهان قاطع على أنه سبحانه :» خلق فسوى وقدر فهدى». ذلك هدى الروح (الوعي، العقل)، متمثلا في الآيات التي جعلها الله سبحانه غذاء للروح وترشيدا له.

فلو أن الوعي البشري (الروح: العقل)،أنفق كل جهده ليل نهار، وبذل أقصى ما في وسعه للإحاطة بآيات الله تعالى ما بلغ علمه بها إلا مقدار قطرة من بحر وشربة ماء من محيط خضم. فكل آية بينة وصل للروح (العقل) البشري بعالمه الأول، عالم الغيب، عالم الكمال والحقيقة التي لا لبس فيها.

وكل وعي حقيقي بآية من آيات الله تعالى، يزيل طلسما من طلاسم الجهل ويحطم صنما من أصنام الوهم والنسيان. لذلك كان العلم بالله تعالى، العلم

(١) سورة الشعراء : ٧٩

بآياته خاصة، أما ذاته سبحانه فهي أرقى من أن تعرف وأقوى من أن تشاهد بالأبصار. والدليل القاطع على أن الإنسان أصبح على علم بالآيات، سعيه في سبيل النجاة. فمن لم يجد في فكره وسلوكه وقوله وعمله وخلوته واختلاطه، أعمالا قصد منها إلى النجاة بروحه من الأدناس والفرار بعقله من الجهالات، فعلمه بالآيات جهل وافتراء. وكما فعل سبحانه في غذاء الروح، فعل في غذاء الجسد، فخلق من الطعام ألوانا لا تحصى، ومن الثمار صنع سبحانه أصنافا وألوانا؛ وباختصار، أوجد سبحانه من الطيبات ما لا يقدر الإنسان على مجرد معرفته كله ناهيك عن إفنائه أكلا واستمتاعا.. يقول سبحانه « هو الذي أنزل لكم من السماء ماء لكم منه شراب ومنه شجر فيه تسيمون. ينبت لكم به الزرع والزيتون والنخيل والأعناب ومن كل الثمرات إن في ذلك لآية لقوم يتفكرون»[1].

فخلق سبحانه من الثمرات ما لا يحصيه إلا هو، وأوجد من الطيبات ما لا يعده من البشر أهل العد والحساب. ثم جعل الإنسان وسط هذه الأرض المليئة بالثمرات والطيبات مثل النحلة في أجمل الحقول وأعظم الغابات، تنتقل من زهرة إلى زهرة مستمتعة بما أفاء الله تعالى عليها من نعيم مقيم. فجاءت الطيبات والثمرات التي هيأها الله تعالى للجسد صورة حسية للآيات التي جعلها الله سبحانه وتعالى غذاء للروح (العقل).

وهنا نتوقف لنقول وبالله التوفيق، إن الجسد هو صورة الروح لا أكثر ولا أقل، وإن أحكامه الظاهرة هي وجه ملموس محسوس لأحكام الروح الباطن. فبما أن الروح من عالم الغيب، فقد استحال أن يُرى بعين الظاهر. فجعل الله سبحانه هذا الجسد الظاهر على صورة الروح وعلى هيئته، وجعل له من الأحكام ما جعل للروح. فكل حكم ثبت للجسد يثبت مثله للروح، وهو عين العقل عندنا حيث لا نفرق أبدا بين معنى الروح ومعنى العقل ونعتبرهما اسمين لمسمى واحد على خلاف ما يذهب إليه الكثيرون. فإذا ثبت للجسد مثلا حكم الغذاء كأمر لازم لبقائه، فلا بد أن نفكر أن للروح غذاء لازم لبقائه ونموه واستمراره. فلا يختلف الحكم أبدا في هذا عن ذاك آية منه سبحانه ودليلا.

فكما أنه جعل الكون ظاهرا بأسمائه سبحانه وتعالى، ناطقا بأحكام ذاته العلية الغيبية، جعل الجسد في الإنسان ناطقا ظاهرا بأحكام الروح الغيبي. فثبت أن أحكام الجسد هي عين أحكام الروح، وأن من أجرى الأحكام في الظاهر بحسب المطلوب وهو ما جاء الشرع الحكيم بتفصيله، ضمن بإذن الله تعالى أن يرى روحه يوم القيامة سليما معافى من الرجس والدنس.

(١) سورة النحل : ١٠ - ١١

أما أمراض الجسد فهي صور لأمراض الروح ولكن أكثر الناس لا يعقلون. والدليل على صدق ما نقول أن الشريعة المطهرة جاءت بالحكمين معا، حكم الجسد وحكم الروح.

وجمعت العبادة بين حركة الجسد وحركة القلب، وبين طهارة الظاهر وطهارة الباطن، وهذا ما لا يماري فيه مسلم. ولكن تقرير النتائج المترتبة على مثل هذه الحقيقة العظمى قلما حفل به كتاب أو أظهره مفسر، وهو ما نسأل الله تعالى أن يعيننا على الاجتهاد فيه وعلى الاحتساب له بتنوير المسلمين بخفايا أحكامه وعجيب تدبيراته في كونه الأعظم وفي هذا المخلوق العجيب بالذات، أعني الإنسان. إن جوهر مشروع الاجتهاد العقلي والشرعي يجب أن لا يغفل هذه الحقيقة الباهرة التي جاء الدين معلنا لها مؤكدا عليها، كاشفا أن الوجود غيب وشهادة، وأن من اكتفى بأحد الوجهين فقد كفر.

هكذا يطعم على مائدة الرب تعالى كل المخلوقات، ويجد فيها الإنسان خاصة من الطيبات ما لا يجده سواه. ومع ذلك فقد ثبت أن في هذا النوع الإنساني أشد الخلق كفرا وأكثرهم جدلا. يقول سبحانه : « ... وقليل من عبادي الشكور» [1]. لقد انتبه الخليل عليه السلام إلى حقيقة كون الله تعالى هو مصدر الطعام والشراب وهو المنعم بهما على عباده. ورغم أن هذه الحقيقة أيضا هي من البديهيات التي لا تناقش، إلا أن أغلب الناس لا يرون الله تعالى منعما بل يسندون صفة الإنعام إلى مخلوقات أخرى وكائنات أخرى لا صلة لها أصلا بالنعمة.

فعبدة الأصنام يعتبرون أصنامهم مصدر الخير، وعبدة الطاغوت يعتبرونهم أولياء نعمتهم وأصحاب الفضل عليهم، لذلك تراهم يلهجون بذكرهم صباح مساء، ويرفعون صورهم في كل مكان احتفاء بهم وأنسا بغير الله وتوقعا لخيرهم. والحقيقة أننا نرى من تجاهل الناس اليوم لأنعم الله وإسناد النعمة لسواه ما يندى له الجبين خجلا وينقبض له القلب أسى، ولكن ليس لنا إلا أن نقول إنا لله وإنا إليه راجعون.

لقد كان إبراهيم الخليل عليه السلام نموذجا فريدا في قومه بشكره لله وحده، واعترافه بالنعمة لخالقه دون سواه. يقول سبحانه :» إن إبراهيم كان أمة قانتا لله حنيفا ولم يك من المشركين. شاكرا لأنعمه اجتباه وهداه إلى صراط مستقيم. وآتيناه في الدنيا حسنة وإنه في الآخرة لمن الصالحين. ثم أوحينا إليك أن اتبع ملة إبراهيم حنيفا وما كان من المشركين» [2].

(١) سورة سبأ : ١٣

(٢) سورة النحل : ١٢٠ - ١٢٣

فكان مما أهل إبراهيم عليه السلام لهذه الدرجة العظيمة وهي أن يكون أمة وحده، الأمر الذي لم يبلغه بشر سواه علاوة على توحيده لله توحيدا خالصا، شكره لأنعم الله على عكس الكافرين الذين يجحدون النعمة بكفرهم. وقد علمنا أن الكفر ينطبق على أمرين ثابتين في فعل الكافرين، الأول: ستر الحق سبحانه وذلك بعبادة ما سواه وهو عين الشرك. والثاني: ستر المنعم سبحانه وذلك بشكر ما ومن سواه، وهو كفر النعمة الذي يتساوى في سوء العاقبة مع كفر الملة ورفض التوحيد.

إن أحد أهم معاني العبادة على الإطلاق، شكر المنعم على ما أنعم؛ حيث أنه وفي قلب هذا الجحيم الأرضي هيأ للإنسان من أسباب الأمان والاستقرار والرخاء، وأعطاه من وسائل الفهم والإدراك ما به ينجو. فثبت يقينا أنه في كل حركة من حركات الإنسان توجد نعمة لله ظاهرة أو خفية. ومع كل نفس من أنفاس الإنسان، يتجلى من الرحمة والنعم ما لا يعلمه إلا الله سبحانه.

كيف لا وكل شيء فوق الأرض بمقدار بدءا بالأرض نفسها التي لا ثبات لها إلا بنعمة إذا حجبت زلزلت الأرض زلزالها وجعلت عاليها سافلها. يسعف الواحد منا صديقه في محنة أو ضيق، فإذا حدث يوما ورأى من صديقه برما أو ما يشبهه حتى ولو كان خفيفا، حفظ عليه وتذكر ما فعله معه وسابق إحسانه إليه، وربما دفعته نار الغيظ إلى تذكير صديقه بما فعله من أجله وإلى توبيخه لأنه لم يعرف له صنيعه ولم يحتسب سابق إنعامه إليه. وهو عندما ينطق بهذا الكلام، يعتبر نفسه عاقلا تام العقل، فهو ينطلق من مسلمة أن من فعلت له معروفا فليس عليه أقل من أن يحفظ لك معروفك ويعترف لك بحسن صنيعك. فإذا نظرنا الآن إلى نفس هذا الرجل «العاقل» « الحكيم»، الذي يزن الأمور بميزان» الحق» و» العدل»، فإننا نجده لم يعتقد يوما اعتقادا يقينيا أن الله تعالى هو وحده المنعم، ولم يتوجه يوما في حياته بصدق إلى الله تعالى لكي يقول له شكرا أيها المنعم الكريم على كل ما أعطيت ومنحت.

ثم بعد ذلك يطمع مثل هذا «الجاهل» في عفو الله ومغفرته. إن الوضع البشري يشكو بالفعل فشلا ذريعا على مستوى مسألة الوعي، وكل ذلك نتيجة لغياب الإيمان واختفاء الغيب من حياة الناس وقناعاتهم.

لاريب أن حسنة الدنيا قد نالها إبراهيم الخليل بشكره لأنعم الله تعالى خاصة. فالله تعالى يحب أن يعطي الشاكرين بقدر ما يضيق على الناكرين المنافقين. أما حسنة الآخرة فتنال بالإيمان خاصة. وبما أن الخليل آمن بالله وشكر لأنعمه، فإنه نال في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة، وذلك جزاء العاملين.

إن من أهم ثمرات الإيمان الحقيقي، عدم الاعتراف بمنعم سوى الله تعالى، وعدم رؤية الخلق سوى أسباب يتبادلون ما رزقهم الله من منافع وطيبات. ولذلك أيضا كان عمل الطاغوت الذي يريد أن يصرف الناس عن عبادة الله تذكير هؤلاء وإقناعهم بأنه هو صاحب النعمة وليس الله. هكذا استغل فرعون نظام الري لإرهاب الفلاحين واستعبادهم وتهديدهم بقطع الماء عنهم، ويستغل الطغاة اليوم، نظام المرتبات والجرايات لإرهاب الموظفين وتذكيرهم دائما أنهم هم أصحاب النعمة عليهم.

فمن قبل حجة الطاغوت، واعتقد جازما أنه لا يرزق إلا من بابه، أشرك وكفر وخرج من ملة الإسلام. نسأل الله تعالى العفو والعافية. هذا وإنه لم يعرف معنى العزة من لم يعتقد يقينا أنه لا معطي إلا الله ولا مانع إلا هو سبحانه. فمن اعتقد أن غير الله سبحانه يعطي ويمنع، فقد صنع ذله بيده وهدم كرامته بنفسه. إن أهم شروط العزة أن لا يربط الإنسان رزقه إلا بالله سبحانه سواء أكان هذا الرزق رزق الروح (العقل)، الذي قلنا إنه هدى الله لا سواه، أو رزق البدن وهو ما خلق لنا الله تعالى من طيبات ومن خيرات. لذلك كان المؤمنون فقط أهل العزة فوق الأرض، لأنهم استفادوا الهدى كما استفادوا الرزق من ربهم الأعلى لا من سواه. فلا يزال يظهر عليهم عز من يعاشر صاحب العزة جميعا، ولا يزالون يرفلون في حلل العز والشعور بالأمان والاطمئنان إلى صاحبهم الذي يعلمون يقينا أنه لا يخيبهم.

أما الكافرون والمنافقون من عبدة الطاغوت ومؤلهي الأصنام، فإنهم في ذل ما بعده ذل، وذلك لأن آلهتهم المزعومة تبيعهم الماء والهواء بثمن، وتأبى عليهم أن يتنفسوا نفسا إلا بحمدها. ثم هي بعد ذلك لا تقنع منهم إلا بالعري الكامل، ولا ترتاح إلا إذا قلبت أمنهم خوفا وكرامتهم وعزهم ذلا.

الآية الخامسة : « وإذا مرضت فهو يشفين»[1].

آية أخرى، هي نعمة أخرى من نعم الله تعالى على الإنسان، نعمة الشفاء من المرض. فالإنسان يمرض حيث أن نفسه قابلة بطبعها للمرض:»وإذا مرضت»، إلا أن الله تعالى لا يتركه وحده يعاني آلام المرض ويقاسي من شدة الداء بل يهيء له سبيلا إلى الشفاء إما بدواء أو بغير دواء.» وإذا مرضت فهو يشفين»، فنسب المرض إلى نفسه وهوعين الحق، ونسب الشفاء إلى الله تعالى وهوعين الحق أيضا. ولولا أن الله تعالى جعل لكل داء دواء لعاش الناس في هم دائم وفي كرب عظيم، ولكنه سبحانه تفضل بالدواء لكل داء وجعل من الأمراض الخفيف الذي سرعان ما يزول

(١) سورة الشعراء : ٨٠

والمزمن الذي يطول. وقدر سبحانه أن تكون العلل ألوانا تنبيها منه سبحانه إلى علل النفوس وأمراضها.
هذا، وكلما زادت النفوس إغرابا في المعاصي، انضافت إلى قائمة الأمراض أمراض أخرى لم تكن موجودة. ونحن أقرب ما نكون إلى الاقتناع أن لكل فرد من أمراض جسده ما يعبر عن أمراض نفسه، كما أنه لكل أمة أمراضها الخاصة التي تعبر عن أمراض الإنسان والمجتمع فيها. فبحسب نوع الوعي يكون نوع المرض. إن وعيا سليما خالصا لا يطاله من المرض إلا العابر الخالص.
أما الوعي المصاب بخلل صميم، فهو مهدد على المستوى الظاهري الجسدي بمرض خطير ينبهه إلى ما هو عليه من ضلال مبين إذا كان مازال ينفعه التنبيه. فالجسد مرآة الروح كما أسبقنا القول. ولذلك يدل كل مرض من أمراض الجسد على مرض من أمراض الروح، وعلى حصول انشقاق في الوعي لابد من معالجته. وعليه، فقد جاءت الأمراض ألوانا ليدل كل مرض على إصابة معينة في دائرة الروح. والتأويل قادر على أن يسعفنا بالكثير من الفهم في هذا المجال.
فأمراض المعدة وهي موطن الغذاء، تنبه الإنسان الحكيم إلى ضرورة النظر في ما يأخذه من غذاء روحي، وتسائله هل أن ما يأخذه من غذاء لعقله سليم أم أنه لا يأكل إلا جيفا من الغيبة والنميمة والأكاذيب ووساوس الشيطان. وفي تقديرنا أن كل مرض من أمراض المعدة تنبيه للإنسان إلى فساد ما في علا قته بالدنيا. فالمعدة في الاعتبار، هي محل الدنيا في هذا الكيان الإنساني الشريف.
وكيفية التعامل معها تعبير عن كيفية التعامل مع الدنيا.. ألا ترى إلى العاقل لا يأكل إلا بمقدار، بينما يقبل عابد هواه على اللذات بدون حساب إلى أن يشقى أخيرا بسوء عمله فيصاب بأحد أمراض المعدة. ثم ألا ترى أنه مهما تعددت الأدوية التي تستعمل للشفاء من أمراض المعدة فإن دواء أساسيا يبقى دائما هو الدواء المطلوب من المريض وهو الحمية ؟ وقد قيل:
« المعدة بيت الداء والحمية رأس الدواء»، وهو قول حكيم نابه لا شك في ذلك. وليست الحمية سوى النظام المحسوب في التعامل مع الغذاء بقبول ما يصلح منه وترك ما لا يصلح وتحديد المقادير وترك التبذير.
كل ذلك جعله الله سبحانه تنبيها للإنسان إلى ضرورة التزام النظام في تعامله مع الدنيا وعدم اتباع هواه والسقوط في مهاوي هذا الحب القاتل : حب الدنيا.
وكذلك أمراض التنفس قد تكون دلالات على وهن في مسيرة الروح وضعف في تقرير سلطانه وتأكيد حضوره... هذا وليس الأمر سوى اجتهاد وتأويل الله أعلم بمستقره، وإنما أقصى علمنا أن نجتهد طلبا للفهم السليم واستقصاء للحق المبين،

فإن بلغنا المأمول فذلك ما نرجو، وإن لم نبلغ فحسبنا أننا لم نعطل العقول أن تتدبر والقلوب أن تعقل.

إن الوعي بالتوافق القائم بين الأجساد والقلوب (العقول)، أي بين وضع البدن ووضع الوعي، علم عظيم على درجة كبيرة من الأهمية وفوائده لا تحصى. ذلك أن آفة الوعي البشري أنه وهو الوعي المجرد لا يستطيع أن يقرأ إلا عبر المقاربة في المحسوس بعد أن قارب هو نفسه بسكناه هذا البدن الحسي.

فجاء البدن صورة ومرآة للروح يكتشف فيه مزاياه ونقائصه، ويقرأ فيه ما يجب عليه أن يفعل وما يجب عليه أن يترك، رسائل من الله الواحد الأحد. ولقد تفطنت بعض أمم الشرق إلى الصلة العميقة بين الجسد والنفس. وهذه الأمم تستعمل بمهارة تقنيات ورياضات تعالج بها النفس من خلال التأثير الجسدي، وهو أمر على جانب عظيم من الأهمية كان على المسلمين أن لا يغفلوه وهم أصحاب أكبر إرث روحي في العالم، وأهل أصدق رسالة روحية فوق الأرض. ومع ذلك فلا بد أن نقول إن عديد العارفين المسلمين ممن آتاهم الله وعيا عميقا بحقائق الحياة، لم تفتهم حقيقة التلازم بين وضع النفس ووضع الجسد، فألفوا في ذلك المؤلفات ووضعوا الكتب والملخصات، نذكر من بينهم الإمام الغزالي رحمه الله في كتبه حول النفس والسعادة، والإمام محيي الدين بن عربي في عديد مؤلفاته وكتبه، وخاصة في كتابه» التدبيرات الإلهية في إصلاح المملكة الإنسانية».

لقد كان من نعم الله تعالى على الخليل أن أنعم عليه بعقل راشد يعرف النعمة لصاحبها ويتفطن إلى مواضع النعم ظاهرها وخفيها؛ فانظر إلى قوله :» وإذا مرضت فهو يشفين»،

كيف لخص في كلمتين وضع الإنسان ووضع الله تعالى. فوضع الإنسان هو الفقر والحاجة، ووضع الله تعالى هو العطاء والإمداد والإغاثة. وهذا هو الوعي السليم بحقائق الأمور كما تجري في الواقع الموضوعي لا كما تجري في أذهان وأخيلة أولئك المرضى من البشر الذين يدعون القدرة والإرادة، ويتحدثون عن الإنسان القاهر للطبيعة والصانع للمعجزات. فإذا أصابهم أدنى ألم رأيت وجوههم مسودة وقلوبهم الصخرية فارغة ليس فيها سوى الهواء بعد أن ضيعوها في الكبر والاستعلاء، وتركوا دعوة الله تعالى واستجداء رحمته.

هؤلاء الملاعين الذين ليس في وجودهم بركة بحال، هم أسوأ الخلق، وهم أسباب ما ينزل على الناس من بلاء.

فالسماء لا تعالج هؤلاء المناكيد إلا بالبلوى تلو البلوى والمصيبة تلو المصيبة، حجة من الله عليهم لعلهم يرجعون قبل أن يأخذهم الفزع الأكبر، فحينئذ لا

يستنطقون ولا يسألون. وماذا على الإنسان لو اعترف بأنه لا يقدر على المرض، وبأنه يشقى إذا مرض، وبأنه لا يقدر على رد مرض لو أصابه الله تعالى به ؟ .
ماذا عليه لو اعترف أنه يسكن جسدا كل ذرة من ذراته قابلة للانحلال والفساد ودخول شتى الأمراض عليها ؟ ماذا عليه لو اعترف أنه لا حول ولا قوة له أمام جبروت الله عز وجل الذي أسره في عالم الكون والفساد، وأنه ليس أمامه إلا ن يدعو ربه الرحمن الرحيم طالبا السلامة. أما الخليل عليه السلام ومن تبعه من أبنائه ومنهم رسولنا محمد صلى الله عليه وعلى آله وسلم، فيقولون :» ربنا اصرف عنا عذاب جهنم إن عذابها كان غراما» في الدنيا والآخرة، ويعرفون في وجه ربهم الطبيب الشافي من كل داء. بذلك عاشوا آمنين في ملك الله لم يمسهم نصب ولا سوء، وعلى ذلك يبعثون لا يحزنهم الفزع الأكبر. وأما من سواهم فغرهم الأمل ومازال يغرهم وسوف يندمون، ولكن لات حين مناص.
- الآيتان السادسة والسابعة : « والذي يميتني ثم يحيين» [1].
حقيقتان جديدتان تؤكدان الحضور الإلهي الرحماني الساحق داخل المجال الإنساني، هما الإماتة والإحياء. فالإنسان مخلوق ميت حي أو حي ميت لا فرق. وحياته وموته كلاهما ليسا من عنده ولا من صنعه أو من تدبيره، بل هما من عند الله عز وجل يتحكم فيهما تحكما مطلقا. فهو سبحانه الذي يقضي بفتح كتاب الإنسان متى يشاء، ثم يقرر وقتما يشاء أن يغلق هذا الكتاب، ثم له وحده أن يفتحه وقتما يشاء مرة أخرى. ومن يجادل في هذه الحقيقة أو هذه الحقائق فهو المجنون الذي لا يرد عليه، لأنها حقائق نراها بأم العين ونشهدها في كل لحظة وحين.. من منا لا يرى كيف يخلق الله تعالى ما يشاء مما يشاء ؟
من منا لم ير مرة كيف يتنشأ الدود الحي داخل التمرة الميتة ؟
وكيف تولّد الجيفة القذرة الميتة دودا لا عد له ولا حصر ؟
وكيف تولد حبوب القمح والشعير وسواها، سوسا يطير بجناحين ؟
من لم ير هذا بأم عينه فليجادل في شأن الموت والحياة. أما من رأى ولا يزال يرى كيف يحيي الله الأرض بعد موتها، وكيف تثمر الشجرة بعد أن كانت عيدانا جرداء، وكيف يتكون الجنين ولم يكن شيئا مذكورا ؛ من يرى كل هذا وغيره كثير لا يكاد يحصى من مظاهر الموت والحياة، فما عليه إلا أن يسكت، وأن يسبح بحمد الله الواحد الأحد الذي له الحجة البالغة في الأرض والسماء.
الله الخالق الهادي، ولا ينكر بشر أنه مخلوق لخالق اللهم إلا أولئك الذين يتحدثون عن الصدفة، وهم الذين يعانون من أخطر أنواع الجنون على الإطلاق،

(١) سورة الشعراء : ٨١

رغم أن بعض الناس يسمونهم علماء أو عقلاء أو أدباء أو شعراء أو معلمين؛ وكيف لا يسمونهم كذلك وهم يتحدثون عن الأجنة وعن الكواكب وعن الذرة وعن الكائنات الحية، ويكتشفون في كل يوم قانونا جديدا، ثم يختمون كل ذلك بالحديث عن الصدفة الخالقة ؟ فهل بعد هذا العقل من عقل !!!

الله تعالى المحيي المميت، يحيي الإنسان بعد موته، بعد أن لم يكن شيئا مذكورا:» هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئا مذكورا. إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه سميعا بصيرا»[1].

يعلم الإنسان اليوم علم يقين وهو يرى بالصورة المدققة معنى كونه نشأ وتكون من نطفة أمشاج.

فلم تعد هذه الآيات البينات متشابهات، بل جعلها الكشف العلمي كلمات محكمات كأشد ما يكون الإحكام، ظاهرات كأشد ما يكون الظهور، وسبحان من قال فصدق: «سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق أو لم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد»[2].

يرى الإنسان بأم عينه لحظة بلحظة كيف يتنشأ الجنين في بطن أمه خلقا من بعد خلق في ظلمات ثلاث؛ ثم فجأة ينبض القلب ويستمر نابضا إلى يوم يسكته خالقه وباريه. وسبحان من حرك القلب، والإنسان ما يزال بعد جنينا لم يكتمل، وإلا لادعى أن له في الأمر تدبير شأن الكافرين في كل مكان.

ويرى الإنسان بأم عينه النشأة الأولى من موت وحياة وموت، وهو موعود بأن يرى النشأة الآخرة وهي ليست أصعب على الله من النشأة الأولى، فإن شاء فليؤمن ، وإن شاء فليكفر. ليست حياة الإنسان سوى شهود متواصل للموت وللحياة في كل شيء، في جسده الذي يموت منه ما يموت ويبعث فيه ما يبعث. كم مرة ألغى الجسد ظفرا يابسا ميتا وظهر بدله ظفر جديد؛ وكم طفلا سقطت أسنان طفولته ثم عوضه الله أسنانا غيرها، وكم شعرة سقطت أو أزالها الإنسان فإذا بها تنبت من جديد.

إنها قوة الحياة والخلق تعمل وتبعث الحياة في كل شيء وكل مكان. كذلك الموت يشاهده الإنسان قرينا للحياة حيثما وجدت وجد؛ فكل ما ولد يموت سواء أكان ذرة أم حيوانا أم زهرة أم كوكبا، تلك هي الحقيقة التي لا يماري فيها العلماء بالطبيعة وقوانينها اليوم. وكل هذه الحقيقة الباهرة، حقيقة الموت والحياة، لخصها الخليل عليه السلام في قوله:» والذي يميتني ثم يحيين». فجعل تسليمه

(١) سورة الإنسان : ١- ٢

(٢) سورة فصلت : ٥٣

لله تعالى بأنه المميت عين تسليمه له بأنه المحيي من جديد، فالإيمان هنا واحد لا ينقسم. ويستحيل أن يقتنع إنسان اقتناعا يقينيا أن الله هو الذي خلقه وهو الذي يميته ثم لا يقتنع أنه يحييه من جديد. فالإيمان بالبعث استمرار طبيعي وتقرير منطقي لمقتضيات الإيمان بالموت والحياة في الدنيا.

هل لنا أن نقول إن التصديق بكل أركان الإيمان وحقائقه يصبح أمرا طبيعيا إذا ما آمن الإنسان بالله إيمانا حقيقيا قطعيا لا ريب فيه.

الله تعالى هو رب البدايات وهو رب النهايات، وهنا أيضا يجب أن نلاحظ أحد أهم مؤسسات عزة الكيان الإنساني. فهذا المخلوق إذا آمن فعلا أن نهايته بيد الله تعالى تماما مثل بدايته، إذا تأكد أن ربه العزيز الجبار، الخالق البارئ المصور، قضى أن يبعثه ليوم لا ريب فيه مصداقا لقوله تعالى:» إن الذي فرض عليك القرآن لرادك إلى معاد قل ربي أعلم من جاء بالهدى ومن هو في ضلال مبين»[1].

حينئذ، وعند الإيمان بالمعاد، يكتسب الإنسان الحصانة اللازمة ضد كل إرهاب الطاغوت من شياطين الجن والإنس والذي يهدده في كل لحظة بالفناء.

أن يعلم الإنسان أنه لا محيي إلا الله ولا مميت عند التحقيق إلا هو سبحانه، وأن أمر الموت والحياة بيد الخالق وحده يصّرفهما كيف يشاء، أن يعلم هذا ويستيقنه قلبه، حينئذ يتحرر من كل الكوابت، من كل المخاوف ومن كل أنواع الإرهاب التي تضغط على قلبه وعقله وجسده مهددة إياه بالإفناء. ماذا يجدي الموت لمن موته بيد الله ؟ وماذا تجدي الحياة لمن حياته بيد الله ؟ ليس الموت وليست الحياة سوى صور وتجليات لقدرة الخالق جل وعلا. أما الإنسان المؤمن ففوق الموت والحياة. إنه بالأحرى عمل صالح يريد أن يقف بين يدي الرب، وقربان يريد أن يتقبل من الله تعالى : « الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا وهو العزيز الغفور»[2].

ينشغل ظالمو أنفسهم من الجبابرة والجبناء من أتباعهم بلعبة الموت والحياة وهي ليست لهم أصلا، فيحرك الجبابرة سلاح الموت، ويسجد الجبناء طالبين الحياة ؛ وهو غزل تافه مريض يقوم على تبادل الأكاذيب والأوهام، فلا الجبابرة يملكون الموت ولا الجبناء يعرفون معنى الحياة.

أما المؤمنون فيركزون على جوهر المطلوب من الحياة فوق الأرض، على العمل الصالح الذي يجب تقديمه بين يدي الله تعبيرا عن الشكر له وعن الحمد له على آلائه ونعمه. فغاية نظر الضالين النظر في شروط الحياة، وغاية نظر المؤمنين

(١) سورة القصص : ٨٥

(٢) سورة الملك : ٢

الانشغال بحقيقة الحياة. بذلك يحقق الإيمان بالله المميت المحيي راحة كاملة للمؤمن واطمئنانا حقيقيا على الشرط لينتبه ويتفرغ بكليته للمشروط، وهو ما طلبه منه خالقه جل وعلا. فالإيمان بأن الموت والحياة بيد الله يدفع الإنسان نحو تحديد الهدف الأساسي من الحياة بدقة، ويبعده عن مهاترات الضالين من مستكبرين وجبناء.

جبناء غرتهم قدرتهم على الانتحار فظنوها اكتسابا لحق الموت بأيديهم وهيمنة على سلطان الموت ناسين أن جبار السماوات والأرض يبعثهم يوم القيامة ليموتوا فعلا ولكن في نار حامية تجعلهم يتمنون لو كانوا ترابا. ومستكبرون غرتهم قدرتهم على سجن الأخيار وعلى قتل الأبرار متجاهلين قول الله تعالى : « ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون. فرحين بما آتاهم الله من فضله ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم ألا خوف عليهم ولا هم يحزنون. يستبشرون بنعمة من الله وفضل وأن الله لا يضيع أجر المؤمنين» [1].

إن الحياة شهادة لله تعالى أنه لا اله إلا هو، تخترق كل الأوصاف لتجثو بين يدي الحق سبحانه في مشهد لا يعبأ بالموت والحياة، مشهد هو الخلود والوجود بدون حدود. لذلك اقترنت الشهادة دائما بالشعور بالعزة، عزة النفس وعزة الإيمان. إن المؤمن الواثق من الخلود يهينه فعلا أن يرضخ للزمن، وأن ينحدر إلى استجداء الموت والحياة ممن لا يملكانهما. لذلك كان مثل هذا الإيمان بأن الله صاحب مفاتيح الذات الإنسانية ورب مغاليقها، باهرا في آثاره على النفس حيث يسحق فيها كل استعلاء وكل جبروت ما عدا جبروت الحق سبحانه. إن مثل هذا الإيمان هو الذي سيدفع الخليل بعد ذلك إلى دخول النار هازئا من الكافرين، وإلى الخروج منها أيضا هازئا من الكافرين. إنه إيمان يحول الإنسان إلى حقيقة لا تحرقها النار ولا يفنيها لا الموت ولا الحياة.

(١) سورة آل عمران : ١٦٩ - ١٧١

ب - الله الغفور رب يوم الدين

بعد أن كشف الخليل عليه السلام في سبع آيات صادقة بينة عن ربه الخالق المعبود رب العالمين، وأفصح عن الدوائر السبع المحيطة بالإنسان والتي هي أقفال سبعة لا يملك مفاتيحها سوى الله تعالى، فبين بذلك بيانا عمليا معنى أن يكون الله تعالى هو النافع الضار على عكس الأصنام التي لا تنفع ولا تضر.

عرفنا حينئذ من هو الله رب العالمين، فما عرفناه إلا بمعرفتنا أنفسنا أو على الأصح، قادتنا معرفتنا به سبحانه إلى التعرف على أنفسنا. إن النفس الإنسانية كيان مسجون عليه سبعة أسوار، ووجود منفي تحيط به سبع دوائر ليس من يحلها جميعا سوى الله تعالى، وليس من يغلقها سواه. وهذه صورة السجن والسجين:

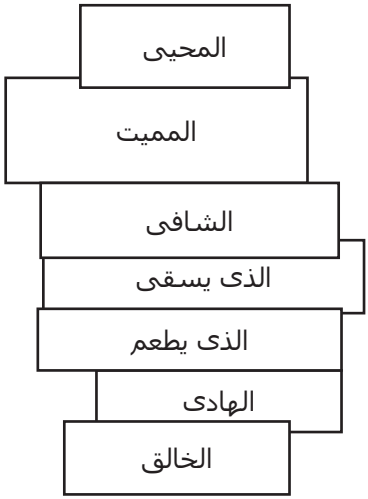

لماذا قلنا إنها سجون ؟ ونجيب وبالله التوفيق، إن هذه الدوائر هي مجالات عمل الله تعالى خاصة في كيان الإنسان، وهي مظاهر قوة الله البارزة في الهيكل الإنساني حيث لا يضارعه فيها أحد. ولو تأملنا لوجدنا كل دائرة علامة على نعمة عظيمة أعطاها الله تعالى للإنسان ووهبه إياها بدون طلب بل محض منة من عنده سبحانه. غير أن هذه النعم جميعا يمكن أن تنقلب إلى نقم في أية لحظة إذا كان من يتمتع بها وهو النفس الإنسانية، جاهلا بالوضع الإلهي، غافلا عن الحق، عابدا لغير الله تعالى.

فكل هذه النعم تبقى محفوظة تدعم حرية الإنسان، وتؤكد كرامته وتعلن عن عزته بربه بشرط واحد وحيد: أن يشكر عليها رب العالمين الذي وهبه إياها. أما إذا كفر الإنسان واستعلى، فإن النعمة تصبح نقمة والجنة تصبح عذابا وسعيرا.

فما عاقب سبحانه وأثاب إلا بالتجلي والحجاب. يقول سبحانه :» وإذ تأذن ربكم لئن شكرتم لأزيدنكم ولئن كفرتم إن عذابي لشديد» [1]. ليس من المصادفة بحال أن تكون هذه الآية في سورة إبراهيم بالذات، لأننا أمام نموذج فريد لمخلوق أسس طريق الشكر، وفتح أقفال الرب بإذن الرب نفسه، وجعل من نقمة الله تعالى على الكافرين نعمة عليه خالصة، فرأى المنة في عين العذاب، وصاحبته الحياة في جحيم النار. ليس الشكر إلا شكر الرحمن على نعمه السبع تلك البادية عيانا وتحقيقا في ذات الإنسان نفسه، لا حوله ولا في سواه:» وفي أنفسكم أفلا تبصرون»[2].

وليس الكفر سوى الكفر بتلك النعم السبع البادية في ذات الإنسان نفسه. فما هو الشكر ؟ وما هو الكفر ؟ لعلنا نختصر من واقع ما استفدنا من كتاب الله العزيز فنقول: إن الشكر هو اعتراف الإنسان بنفسه، وإن الكفر على العكس من ذلك، هو إنكار الإنسان لنفسه. لقد حرص الرحمن دائما أن يجعل من الإنسان شاهدا على نفسه أو لها، وعلى أن يكون هو سبحانه قبلة الإنسان أو منفاه..

إن حوار الله تعالى مع الإنسان في كل أطواره، وخطابه إليه وجدله معه، اتجه دائما إلى تعريفه بالحقيقة التالية: أيها الإنسان إنك على نفسك بصيرة، وإنه ليس لك من نفسك إلا بمقدار ما لك من ربك :» فاذكروني أذكركم واشكروا لي ولا تكفرون» [3].

ذلك حال من ذكر فكيف هي حال من نسي ؟ يجيب القرآن الكريم :» ولا تكونوا كالذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم أولئك هم الفاسقون»[4].

أيها الإنسان، يقول الرحمن، إن نفسك عندي في أشرف مقام، فإذا توجهت إلى نفسك بالحق تكون قد توجهت إلي، وإذا غفلت عنها تكون قد غفلت عني. أيها الإنسان، إن كل أمر يدعوك للغفلة عني هو داعي انتحار ويأس، ولذلك فهو الكفر والشرك المبين، فلا تلتفت إليه بل توجه إلي بكلية ذاتك تجدني؛ وعندما تجدني تجد نفسك عندي في أعلى عليين. أيها الإنسان، أحطتك بالرحمة والنعمة، فخلقت لك من السماوات سبعا ترقى فيهن إلى سدرة المنتهى، ولكن حذار فمن الأرض خلقت مثلهن سبعا تهوين بك لو كفرت ونسيت. فهل السماوات خلاف الأرضين ؟ أم أنهما كانتا رتقا ففتقناهما « أو لم ير الذين كفروا أن السماوات

---

(١) سورة ابراهيم : ٧

(٢) سورة الذاريات : ٢١

(٣) سورة البقرة : ١٥٢

(٤) سورة الحشر : ١٩

والأرض كانتا رتقا ففتقناهما وجعلنا من الماء كل شيء حي أفلا يؤمنون»[1] فما فتقناهما إلا لما حق أسفل سافلين على الكافرين المجرمين : « لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم. ثم رددناه أسفل سافلين إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم أجر غير ممنون. فما يكذبك بعد بالدين. أليس الله بأحكم الحاكمين» [2].

ونجيبك أيها الرحمن الرحيم، بلى إنك أنت أحكم الحاكمين وأقوى القادرين، ورب الإنس والجن أجمعين؛ أعطيت للكافرين أموالا وأولادا لتعذبهم بها ففرحوا بما كانوا منه سيفرون لو عقلوا، واغتروا بما كان الأحرى بهم أن يبتعدوا عنه. قلت سبحانك من قائل في آيتين مكررتين حتى يسمع الصم:» فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم إنما يريد الله ليعذبهم بها في الحياة الدنيا وتزهق أنفسهم وهم كافرون»[3].

« ولا تعجبك أموالهم وأولادهم إنما يريد الله أن يعذبهم بها في الدنيا وتزهق أنفسهم وهم كافرون»[4].

سبحانك، تبنا إليك من الكفر، تبنا إليك من الكفر.

لقد عرف إبراهيم الخليل ربه إذن، ومعرفته لربه سبحانه وتعالى وشكره له، فتح له الله مغاليق نفسه فعرفها. فماذا كان أول نطقه بعد الوفاء بحق الشكر والطواف حول البيت العتيق طواف الشاكرين المعترفين ؟ يجيب القرآن على لسان إبراهيم:» والذي أطمع أن يغفر لي خطيئتي يوم الدين».

فنطق بالاستغفار لما رأى نفسه، واتقى بالاستغفار أهوال يوم الدين. فقابل ربه مقابلة العبد الخاشع المعترف بذنبه، المقر بخطيئته.

فأية خطيئة ارتكبها الخليل؟

لابد أن نقر أولا أنه إذا كان الخليل عليه السلام قد ارتكب خطيئة فلابد أن كل إنسان سواه قد ارتكبها، لأنه لا يعقل أن مثل هذا الإنسان في تقواه وإيمانه وإسلامه، تكون له خطيئة مميزة وعمل فاسد ينتمي به إلى الفاسقين نزهه الله وباركه. فما هي خطيئته التي رجا الله أن يغفرها له يوم الدين ؟.

إنها نفس خطيئة آدم المتمثلة في التوكل على علمه ونسيان أمر الله تعالى ونهيه. هذه الخطيئة لم يسلم ولا يسلم منها بشر على الإطلاق حتى الخليل نفسه. فانظر إليه وهو يسعى متوكلا على علمه كيف عبد الكوكب ردحا من الزمن، ثم عبد القمر ثم الشمس، ولولا فضل الله تعالى عليه ورحمته وهدايته لكان من الضالين.

(١) سورة الأنبياء : ٣٠
(٢) سورة التين : ٥- ٨
(٣) سورة التوبة : ٥٥
(٤) سورة التوبة : ٨٥

كذلك الإنسان، مهما كان اسمه ورسمه لابد واقع فيما وقع فيه آدم عليه السلام من الخطإ في حق ربه بالتعويل على نفسه وترك ما اختاره الله تعالى له تأثرا بوسوسة الشيطان الرجيم. ألا ترى إلى نبينا محمد صلى الله عليه وسلم كيف اعتمد على علمه، فتصدى لمن تولى، وعبس وتولى لما جاءه الأعمى، فأخطأ التقدير، واستحق اللوم والتنبيه، ولولا فضل الله عليه لما رتق الفتق. وهكذا كل بني آدم لابد واقعون تحت طائلة هذه الخطيئة، خطيئة آدم التي هي بالنسبة لنا، قدر لا مناص منه: « كل بني آدم خطاؤون»، لا يختلف في ذلك بشر عن بشر، إلا أن الاختلاف يقع بعد ارتكاب الخطيئة. فمن الناس من لا يتوب منها ولا يستغفر وهم الأشرار والكافرون، ومن الناس من يستغفر ربه ويتوب إليه ويؤوب وهم الأبرار الأخيار :» وخير الخطائين التوابون».

فخطيئة الخليل عليه السلام التي عبر عنها بصيغة الإفراد، هي نفس خطيئة آدم، حيث عول على نفسه وترك حفظ الله تعالى اغترارا بوسوسة الشيطان الرجيم. وكيف لا يستغفر الخليل عليه السلام لخطيئته وهو يرى بأم عينه نفسه فوق الأرض ؟ فهل هبطت إلا تعويلا على نفسها واغترارا باللعين ؟ وكيف لا يستغفر وهو يرى لباسه الظاهر، جسده، يعري حقيقة دعواه ويفضحها ؟ أوليس جسده بعينين ؟ فلماذا جاءت العين الثانية إن لم تقم دعوى رؤية أخرى مخالفة ؟ أو ليست له أذنان ؟

فلم وجدت الأذن الثانية إن لم يكن اقتضاها القبول للكلامين ؟.

ثم أليس الإنسان بشفتين ؟ فلم ظهرت الشفة الثانية لولا أن الإنسان قادر على أن يشهد شهادتين ؟

إن حدث الاختيار نفسه فضيحة كونية لا توصف. فهل يقبل مؤمن عاقل أن يوضع بحيث يختار بين الله والشيطان ؟

وهل زلت القدم وتاه الفكر وضل المسعى حتى يرضى العبد بأن يسمع كلام الشيطان، والله موجود سميع بصير يسمع ويرى ؟

إن مثل هذه الفضيحة هي بمثابة من يزني بأمه أمام عين أبيه؛ فضيحة وعار ما مثله عار. لذلك كانت أول كلمات الخليل عليه السلام لما انكشفت نفسه بعد تسبيحات الشكر والاستغفار، عن خطيئته الكبرى، عن الخطيئة الحقيقية أم الخطايا جميعا: أن يدعي الإنسان أن لله شريك في الملك باعترافه أن للشيطان وجود وقيمة، ولا أقول باتباعه لوسوسة الشيطان، فذلك هو الفحش والفجور اللذان لا يوصفان. إن يوم الدين هو يوم إدانة بالضرورة. إدانة لهذا الإنسان الذي يتبع خطى قاتله، ويتمسك بأهداب مذله ومبهدله.

هو يوم فضيحة مجلجلة سوف يسمعها كل الكون، وسوف يتبرأ منها الخلق. ولن ينجو في ذلك اليوم العصيب إلا من اعترف هنا فوق الأرض أنه خطاء، أنه مخطئ بالولادة، وأن عمله فوق الأرض باطل كله إلا كلمة استغفار تصدر عن قلب مكروب صادق الإيمان. يقول سبحانه وتعالى :» قال رب إني ظلمت نفسي فاغفر لي فغفر له إنه هو الغفور الرحيم. قال رب بما أنعمت علي فلن أكون ظهيرا للمجرمين»[1].

والحديث عن موسى عليه السلام لما وكز المصري فقتله رغم أنه لم يرد سوى تأديبه لا قتله. فحينئذ علم أنه أخطأ، وعلم أن الشيطان قد تدخل في عمله فقال :» هذا من عمل الشيطان إنه عدو مضل مبين»[2] .

فلما اعترف بخطيئته الناشئة عن سوء تقديره وتغرير الشيطان به في هذا التقدير رغم اعتقاده أنه ينصر مظلوما،واستغفر لذنبه ناسبا إياه إلى مصدره الصحيح، إلى الشيطان الرجيم وأثره الخبيث على الإنسان، حينئذ غفر الله تعالى له. ومما يدل على صدق استغفاره، وعيه بانطباع أثر الشيطان في نفسه حيث ظلمها. فكشف بذلك عن علم عظيم حيث لم يقل ظلمت الرجل القتيل بل قال ظلمت نفسي. فعلمنا أن محل الظلم واحد هو النفس البشرية؛ وأن الظلم حيث ارتكب لا يعلق إلا بالنفس، وأن من يظن أنه يعذب غيره فهو أكبر الواهمين، فهو على التحقيق والصدق يعذب نفسه. وكذلك من يذل غيره ويستعلي عليه.

فحكمك على غيرك هو عين حكمك على نفسك. فلما قتل موسى الرجل وظلمه بذلك الفعل، علم أنه قد ظلم نفسه بارتكاب فعله في نفس الوقت الذي ظلم فيه غيره، فاستغفر لذنبه فغفر الله له بدون إبطاء :» إنه هو الغفور الرحيم». فظهر أثر المغفرة في إحساس موسى عليه السلام بنعمة الرضا، رضا الله سبحانه، وتوقيه من نار النقمة بالاستغفار. فحينئذ وعد أن لا يكون للمجرمين ظهيرا.

فكان نهج الاستغفار أحسن منهج في تربية الله تعالى للمسلمين، حيث نبههم إلى ضرورة تصفية ذواتهم وتحرير نفوسهم من أوزارها باستعمال كلمة الاستغفار التي لا شك أنها من أهم الكلمات التي تلقاها آدم واستعملها في مشروع توبته، ومازال إلى اليوم يستعملها أبناؤه من بعده.

يتبين مما قدمنا، أن الخليل عليه السلام لم يتعرف إلى ربه كبعد موضوعي وكحقيقة متعالية إلا بقدر ما تعرف عليه كبعد ذاتي داخلي وكحقيقة محايثة نافذة داخل صميم الواقع الإنساني فاعلة في صلب الوجود البشري. إن الله تعالى

(١) سورة القصص : ١٦ - ١٧

(٢) سورة القصص : ١٥

هو رب العالمين، وهو خالق السماوات والأرض:» قال بل ربكم رب السماوات والأرض الذي فطرهن وأنا على ذلكم من الشاهدين»[1].

وقال : « إني وجهت وجهي للذي فطر السماوات والأرض حنيفا وما أنا من المشركين»[2].

ذلك تعريف أول يقدمه الخليل عليه السلام لإلهه، يعري من خلاله الزيف الكامن والظاهر في عبادة أصنام لا تنفع ولا تضر، وفي عبادة طاغية لا يبلغ السماء طولا ناهيك أن يخلقها وأن يدبر ما فيها.

غير أن التعريف الأهم والأدق الذي قدمه الخليل عليه السلام للذات الإلهية، كان عندما سعى لاكتشافها في ذاته هو، وعندما سعى لاستجلاء آياتها ومعجزاتها المحيطة بوجوده الشخصي كإنسان يدب فوق الأرض. لقد رأى الخليل ربه في نفسه، فماذا رأى ؟

لقد رأى ربه فعلا، وما رأى نفسه إلا قائمة بربها. فكل ما ظهر من نفسه وما بطن ينكشف على أنه فعالية تتجاوز هذه النفس التي ليست سوى محل قابل للتصريفات الإلهية. فبدءا بالخلق وانتهاء بالبعث، مرورا بالهداية والإطعام والسقي والشفاء والإماتة والإحياء، علم الخليل عليه السلام يقينا أنه كيان محمول كليا على قوة أخرى تتجاوزه وتحركه وتفعل فيه فعلها وتظهر فيه تأثيرها كما تشاء. ثم تأمل أثر هذه القوة وفعلها فلم يجد سوى الخير. رأى كيف أحياه الله تعالى من عدم، ثم شاهد عملية خلقه كيف قدره سبحانه وتعالى وهداه إلى ما فيه صلاحه ورضاه.

ثم رأى الله العزيز الحكيم يحيط هذا الخلق برعاية لا توصف، فجعل له الغذاء والماء في نفس الوقت الذي تناول روحه بالنصح والتذكير في كتب منزلة لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها. ثم شاهد بأم عينه فعل الحكيم الشافي في عبده إذا ألم به الداء، ورأى كيف أنه لا يكون داء إلا من النفس، من أوهامها وطغيانها وضلالها وجهلها. ورغم ذلك يتنزل الرحمن بالشفاء لأسقام الجسد مثلما يتنزل بالتوبة والغفران لضلالات العقل وترهات الوعي.

هذا، ولم يكتف الرحمن بهذا حتى خلق الموت والحياة فقضى أجلا وأجل مسمى عنده، وجعله خلفة لمن أراد أن يذّكر أو أراد شكورا. وكان من فضل الرحمن وعظمة ذاته أن لم يشغل الإنسان بأمر الليل والنهار، فهو سبحانه فالق الإصباح، وهو سبحانه الذي يأتينا بليل نسكن فيه، وكأنه بذلك يقول للإنسان لا تكترث

(١) سورة الأنبياء : ٥٦

(٢) سورة الأنعام : ٧٩

بالسفينة فإنها في حماي، اشتغل فقط بالصيد. فماذا فعل الحفاة العراة، أوغاد الأرض ومجرموها ؟ لقد انشغلوا بالسفينة، كل يدعي ملكيتها والقدرة على توجيهها، وما اصطاد منهم أحد بل اصطادهم جميعا إبليس اللعين ووضعهم في جرابه يؤنسونه في سواء الجحيم. لعنهم الله أجمعين. وفوق كل هذا، استوى الرحمن عز وجل على العرش ليقبل التوبة عن عباده رحمة بهم وإيناسا لهم في وحشة الأرض وفي ظلمات البر والبحر. قال تعالى :» ألم يعلموا أن الله هو يقبل التوبة عن عباده ويأخذ الصدقات وأن الله هو التواب الرحيم» [١].

وقال تعالى :» وهو الذي يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات ويعلم ما تفعلون» [٢].

ولا يدرك قيمة التوبة والمغفرة إلا من رأى عظمة الذنب واكتوى بنار الخطيئة. أما الجاهل فليس هذا مقامه أصلا.

عند هذا الحد من الوعي العميق بمعنى أن يكون للإنسان رب يحميه ويرعاه، تنبعث في ذات النفس المخلوقة عزة من عزة القديم سبحانه، وتنفجر فيها ينابيع كرامة من كرامة العزيز الحكيم سبحانه، ثم تلتقي كل هذه الشاعر لتبرز على شكل ثقة بالله لا توصف، وعلى هيئة إيمان بقيمة الإنسان لا تحده الحدود. هذا الإيمان بقيمة الإنسان، وهذه الثقة الغالية بالله تبرز في مشهد واحد لعله أحد أشد مكونات الموقف الإيماني إثارة وجمالا ذلك هو مشهد الدعاء. لذلك حالما رأى الخليل من ربه ما رأى، وأدرك من المعرفة بنعمه ما رفع عن عينيه العمى، علم أنه هو الإنسان الضعيف المسكين، مؤيد بسلطان الله المطلق، ومدعوم بحجته تعالى البالغة، وأنه ليس عليه سوى أن يدعو ليجد من يجيب؛ فحينئذ دعا وقال :» رب هب لي حكما وألحقني بالصالحين. واجعل لي لسان صدق في الآخرين. واجعلني من ورثة جنة النعيم. واغفر لأبي إنه كان من الضالين. ولا تخزني يوم يبعثون. يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم»[٣].

لسبب ما جاءت هذه الآيات في سورة الشعراء، آيات الوعي بالله والتمثل لذاته العلية سبحانه، ثم آيات الدعاء الجميل المستجاب. ونبادر فنقول إجمالا قبل التفصيل أن وراء هذه الآيات نظرية كاملة في معنى الشعور الإنساني والحقيقة التي يجب أن يجري عليها، وفيها إجابة لا لبس فيها عن كل التساؤلات التي تبحث عن معنى الشعور الإنساني الصحيح الفاعل، السليم من الضلالات والأوهام. ولكن

(١) سورة التوبة : ١٠٤

(٢) سورة الشورى : ٢٥

(٣) سورة الشعراء : ٨٣ - ٨٩

دعنا نؤجل الكلام عن هذا الآن إلى أن يأتينا ذكره ونحن نتناول جانب الدعاء في شخصية الخليل عليه السلام وضمن نظام اعتقاده.
ولنركز الآن على قيمة هذا الوعي الإبراهيمي المتميز بالألوهية كنفوذ وسلطان داخل الذات، وكوجود راسخ مكين في أعمق أعماق النفس البشرية لا فقط كوجود موضوعي خارجي لا صلة للإنسان به.
إن هذا الفهم المتميز للألوهية النابع من وعي عميق حقيقي بالله سبحانه وتعالى، هو أحد أكبر وأهم إنجازات الإيمان الإبراهيمي الذي سيترسخ بعد ذلك في سلوك أفراد ملته إلى يوم الدين.
لقد صنع قوم إبراهيم أصنامهم بأنفسهم لأنهم لا مولى لهم. أما إبراهيم فقد صنعه إلهه. وبنى قوم إبراهيم معبدا لأصنامهم، أما إبراهيم فقد هداه الله سبحانه لمعبده الحق، إلى قلبه الساكن في مركز كيانه، الخافق في لب وجوده. فلما اهتدى إلى مركز الغيب في نفسه، اهتدى في نفس اللحظة إلى مركز الغيب في العالم حيث الصلة بين كلا المركزين حاسمة وضرورية.
فالقلب في الإنسان مركز غيبي تسكنه قوة غيبية هي نفس القوة التي تسكن مركز العالم وتحركه إلى أجل مسمى.
باختصار، إن الله الواحد الأحد قد هيمن على ملكه وملكوته وذلك بسيطرته على قلب كل وجود ولب كل موجود. فحيثما ظهر وجود، وحيثما تحرك موجود، فإن الله سبحانه لا بد أن يكون ساكن قلب هذا الموجود مهيمنا عليه. وهذا ما يفسر لنا لماذا كان الاهتداء إلى الخالق سبحانه وتعالى يعني دائما اهتداء الإنسان إلى نفسه، أي إلى التعرف على نفسه كعبد لله تعالى مستخلف ومكرم وصاحب رسالة وقيمة وجودية وكونية لا لبس فيها ولا جدال حولها.
إن مسيرة الإيمان بالله تعالى، هي عين مسيرة اكتشاف الحرية. فحالما يخلص الإنسان من أثقاله ويضع عنه أوزاره، ويقدر على التطلع إلى السماء فإنه يحرر نفسه من أسر النظرة الضيقة والوجود الرتيب المنحصر في الأبعاد الثلاثة: (التحت، اليمين، الشمال)، لينضاف إلى وعيه وكيانه بعد جديد رابع هو بعد الفوق: الأعلى، بكل ما يبعثه هذا البعد الجديد من آمال وطموحات ووعود.
فإذا نظر الإنسان إلى أعلى استقام كيانه، وما استقام إلا بالاكتمال. فلا اكتمال لمشروع الإنسان إلا بالوعد؛ وهذا الوعد جعله الله سبحانه غيبيا (الجنة)، ليتطلع الإنسان في مسيرته الأرضية أبدا إلى الأعلى، فلا ينسى ربه ولا ينسى أصله ولا ينسى نسبه الشريف، وليعمل على بلوغ أحسن تقويم من جديد بتجديد الإيمان وتجديد العمل الصالح. هنا أيضا يلتقي الوعي بالله والوعي بالذات ليكوّنا وعيا

واحدا حقيقيا هو ما أسماه القرآن، الإيمان والإحسان. ومعلوم أن بناء الذات ليس سوى إيصالها إلى مراتب الإخلاص والإحسان. فثبت أنه لا بناء صالح لذات الإنسان إلا ما قام على تقوى من الله ورضوان.

وثبت أن التقوى تؤسس بالضرورة لبلوغ الإنسان كل كمالاته الموعودة وتهدي هذا المخلوق إلى عميق إمكاناته وحرياته التي ما كان ليعرفها لو غرق في أتون نفسه بدون دليل هاد. يقول سبحانه وتعالى :» أفمن أسس بنيانه على تقوى من الله ورضوان خير أمن أسس بنيانه على شفا جرف هار فانهار به في نار جهنم والله لا يهدي القوم الظالمين. لا يزال بنيانهم الذي بنوا ريبة في قلوبهم إلا أن تقطع قلوبهم والله عليم حكيم»[1].

هنا، وضمن تجربة الإيمان، تتكامل إرادتان وتندمج مسيرتان، إرادة الإنسان في الاهتداء، وإرادة الله سبحانه في الهداية. ومسيرة الإنسان نحو ربه، ومسيرة الله سبحانه بالمقابل نحو الإنسان.

فالإيمان تجربة تواصل واندماج، ومسعى خروج وتحقق، ومطلب في التجاوز والانفتاح. إنه باختصار، إعلان عن حسن النية وسلامة الطوية، ونفي لكل الأفكار المسبقة والأحكام المسقطة، أي قطع مع الماضي وانطلاق في الآن ومن الآن نحو آفاق الوجود ووعود الخلود. لذلك كانت كل تجربة إيمانية يقوم بها إنسان، تدشين جديد لطريق العهد القديم مع الله سبحانه. فالعهد قديم ولا شك، والطريق يتجدد بتجدد السالكين. حيث ما سلك سالك إلا ممتطيا نفسه راكبا لصهوة قدره الخاص القاضي بأن يكون أو لا يكون.

فانظر إلى قوله تعالى معرفا بالدور الإبراهيمي في تجربة الإيمان حيث قال سبحانه وتعالى عن إبراهيم الخليل:» وإن من شيعته لإبراهيم إذ جاء ربه بقلب سليم. إذ قال لأبيه وقومه ماذا تعبدون. أئفكا آلهة دون الله تريدون. فما ظنكم برب العالمين»[2].

كشف الله سبحانه في هذه الآيات عن جوهر القلب الإبراهيمي الشريف الذي أقبل على ربه سليما معافى. ومعنى سلامة القلب هنا، أنه كان خاليا من كل أنواع التحكم، فارغا من كل السلط المستبدة زورا وظلما وعدوانا، ملغيا لكل الأفكار المسبقة، رافضا لكل الآلهة المصنوعة سلفا لمقاصد معلومة مكشوفة. وبهذه السلامة من كل الأمراض التي ذكرنا، استطاع هذا القلب أن يقبل عن الله الحق سبحانه تعاليمه وهداه. ذلك أن الحق سبحانه وتعالى وضع نفسه قبلة لكل

(١) سورة التوبة : ١٠٩ -١١٠

(٢) سورة الصافات : ٨٣ - ٨٧

خلقه ليهديهم إليه ويدخلهم في رحمته، ولم يكلفهم سبحانه وتعالى شيئا من أمر الحياة ولا من أمر الممات، ولم يطلب منهم رزقا ولا طعاما، بل كلفهم أمرا واحدا وحيدا: أن يحافظوا على سلامة هذا القلب، هذا المعبد الذي وضعه الله سبحانه بيديه الكريمتين في وسط البنيان الإنساني الشريف.

فإذا حافظوا على سلامته، ضمن لهم الرحمن الهداية، وتكفل بتنزيل كل التعليم رحمة من عنده سبحانه. يقول سبحانه وتعالى:» إن إبراهيم كان أمة قانتا لله حنيفا ولم يك من المشركين. شاكرا لأنعمه اجتباه وهداه إلى صراط مستقيم»[1].

فبقنوته وبحنيفيته المتمثلتين عمليا في رفض كل أنواع الآلهة المتهالكة على استعباد الإنسان والإصرار على الإخلاص للحق وحده، اجتبى هذا الإله الحق إبراهيم عليه السلام وهداه إلى صراط مستقيم. فكشفت هذه الآيات عن حدود الدور الإنساني في تجربة الإيمان وماهية هذا الدور، كما كشفت عن حدود الدور الإلهي وماهيته. فالدور الإنساني والمهمة الإنسانية ضمن هذه التجربة التي يمكن أن نقول إنها هي نفسها تجربة الحياة، أو هي كل التجربة الوجودية للإنسان، تتمثل في الإخلاص للحق ورفض الاستقطاب التسلطي الطاغوتي القائم على الدعوى والأوهام من أي مصدر جاء، من أب أو أم أو عشيرة أو من فرعون طاغ. فإذا ثبت هذا الإخلاص للحق، وتحقق الرفض لكل طواغيت الأرض، فحينئذ يتنزل الهدى الإلهي على قلب الإنسان ليجعله من المؤمنين المحسنين المخلصين. فما حصلت الهداية للمهتدي إلا لما حصل منه القنوت والإخلاص والشكر، وما أقبل الرحمن على قلب الإنسان إلا لما وجده سليما معافى من الشرك والأوهام.

فثبت أن قوام تجربة الإيمان جدل حي بين إنسان طالب للحق، وحق طالب لهداية هذا الإنسان؛ وأن موضع تجلي حقائق وأبعاد هذا الجدل هو قلب الإنسان نفسه. صحيح أن الله تعالى هو الهادي لا هادي سواه، لكنه سبحانه:» لا يهدي القوم الظالمين»[2].

وهو سبحانه:» لا يهدي القوم الكافرين» . وهو سبحانه:» لا يهدي القوم الفاسقين». وهو سبحانه:» لا يهدي من هو كاذب كفار»[3].

فإذا تحقق لدينا أن هدى الله ليس مشاعا لكل من هب ودب، وليس حقا مطلقا لكل إنسان لمجرد كونه إنسانا، بل هو رحمة إلهية يصيب بها الله سبحانه المتقين من عباده، العاملين على حفظ قلوبهم من أدران الشرك وترهات الوثنية، علمنا

(١) سورة النحل : ١٢٠ - ١٢١

(٢) سورة آل عمران : ٨٦

(٣) سورة الزمر : ٣

حينئذ أنه لا مناص للإنسان من أن يعمل على نجاة نفسه بنفسه؛ وأن القول الصدق في مسألة الإيمان أنه تجربة قائمة على جدل حي بين الخالق والمخلوق، جدل يفترض في الإنسان أن يبدأ بإعلان حسن النية وسلامة الطوية وذلك بأن يعلن ولاءه للحق وحده دون سواه، وإخلاصه للنور وحده دون سائر أنواع الظلمات . فإذا عمل المخلوق على هذه المرتبة، وحقق هذا المطلوب، وجد الحق يقترب منه شيئا فشيئا حتى يعانقه ويملأه.

وضمن هذا الجدل الإيماني، يتحدد موقع الحق من الإنسان بتحدد موقع الإنسان من الباطل. فإذا هاجم الإنسان الباطل وكفر به وابتعد عنه، كان اقتراب الحق سبحانه منه بمقدار ابتعاده عن الباطل فبقدر تضحية الإنسان بنفسه قهرا للباطل ودفعا له، ودحضا لأسسه، يقترب الحق سبحانه منه، ويحقق له وعد الاكتمال. حتى إذا ما بلغ الإنسان نقطة الإخلاص الكامل للحق وذلك بدفع نفسه وماله في سبيل الله (الحق)، أعطاه الله سبحانه كل الوعد، ووهبه كل العالم، ومكنه من الحقيقة إذ هي كل لا يتجزأ.

فعلمنا حينئذ، أن الله تعالى ما حكم على الإنسان إلا تبعا لحكم هذا الإنسان على نفسه، وما هداه أو أضله إلا بحسن عمله أو سوء فعله؛ وذلك هو العدل المطلق الذي به يدين سبحانه وتعالى كل البشر يوم القيامة. فمن المستحيل أن يسبق الله سبحانه العبد بالقول، وقد قضى أجلا وأجل مسمى عنده، وجعل هذا الأجل فسحة تبرز فيها الأعمال وتتحقق فيها النوايا تحققا يقينيا لا شبهة فيه ولا اختلاف.» الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا وهو العزيز الغفور»[1].

فما كان الموت والحياة إلا من أجل إظهار السيئات أو الحسنات لتنكشف أعمالا محكمات تكون مناط الحساب بالحق والعدل من قبل الله سبحانه وتعالى.

إن الله سبحانه وتعالى صاحب المشيئة المطلقة، قد شاء أن يتواضع للإنسان وأن يتنزل إليه وأن يخاطبه بلغته ليفهم هذا المخلوق ويسعى إلى النور والهداية بقلب سليم، لا ليستخفي ويبخل ويتماوت ويستكبر عن الحق.

إن أي استكبار عن سلوك طريق الإيمان بما هو إخلاص وإحسان وشكر وعمل صالح ومقاومة للآلهة الأرضية الفاسدة، هو استكبار على الحق سبحانه، وتجاوز له وخنوع لسواه على عكس ما يدعي مرضى القلوب من المنتسبين إلى الإسلام من احتسابهم بقبول الظلم والذل والهوان، إلى الله بما يفعلون، ناسين أنه سبحانه وتعالى لا يحتسب لديه بمثل هذا الصنيع، بل يحتسب لديه برفض الذل والظلم

(١) سورة الملك : ٢

والهوان. وشتان ما بين العملين.
فلا يمكن أن يفهم الإيمان إلا كجدل حي بين الخالق والمخلوق، وكعلاقة حية مثمرة بين الله والإنسان قوامها إحياء الإنسان لطاقاته واستعماله لها وصولا إلى إحياء روحه الساكن في غياهب قلبه. فإذا تحرك القلب ونشط، استوى الإنسان عندئذ، وامتلك منذئذ الآلة الروحية التي ستمكنه من التواصل مع عالم الغيب الواسع الرحب. إن الإيمان إحياء للقلب، وهو إحياء يتم بواسطة الإنسان، أي بعمله ومجهوداته وتضحياته دفاعا عن نفسه ضد الظلم وضد الطغيان وضد كل أنواع الاستبداد والتأله الكاذب. فإذا ناضل الإنسان ونافح عن نفسه، ثبت عندئذ أنه جاهد في الله حق جهاده، فحق أن يهديه الله سبله، وأن ينير طريقه، وأن يعرفه بالحقيقة في مطلق أبعادها، أي بما هي نسبية ظاهرية، مخلوقية، إنسانية، وأيضا بما هي مطلقة كلية غيبية إلهية. يقول سبحانه وتعالى :» والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وإن الله لمع المحسنين»[1].
عبر الجهاد في سبيل الله تحقيقا للإيمان وشهادة للحق سبحانه، يبني الإنسان ذاته ويتعرف إلى نفسه كوجود حي فاعل راق، عزيز مكرم، فينفي عنها كل التعريفات الأخرى التي تصورها بألوان الهوان، وأشكال الانحطاط والابتذال. ولذلك ثبت لدى المؤمن دائما أنه لا يوجد طريقان في الحياة ولا سبيلان، بل هو طريق واحد وسبيل واحدة، هو طريق الإيمان الذي يلتقي فيه الله والإنسان. وبهذا وحده نفهم معنى قوله تعالى:»ومن جاهد فإنما يجاهد لنفسه إن الله لغني عن العالمين»[2].
فجعل هدف الجهاد إنقاذ النفس وإسعادها رغم أنه في تمظهره وفي واقع الأمر، تضحية في سبيل الحق، وإنقاذ للضعفاء ، ونصرة للمستضعفين، أي خدمة للشأن العام، وقيام بمطالب الأمة ونصرة للإنسان في كل مكان.
إن هذا الربط المحكم بين الاستثمار في الميدان الفردي الشخصي، والتضحية في الميدان الاجتماعي أي في سبيل الأمة وفي سبيل الإنسانية، وبين العمل والجهاد في سبيل الله باعتبار كل هذه الأعمال عملا واحدا، أي عبادة لا تختلف في المضمون وإن اختلفت في الأشكال والتمظهرات، يشكل مصدر القوة الحقيقية للإسلام باعتباره دين التوحيد بين الإنسان والإنسان، وبين الإنسانية جمعاء وبين ربها. فالإسلام إنما حقق إنجازاته فوق الأرض بواسطة المؤمنين الذين وعوا جيدا أنهم مستخلفون على كلمة الله تماما كما هم مستخلفون على روح الله ، فاندفعوا

(١) سورة العنكبوت : ٦٩
(٢) سورة العنكبوت : ٦

للعمل في كل الأماكن وفي كل الميادين واعين و مستيقنين لأمر أساسي وهو أن أي عمل صالح هو عمل في سبيل الله. وبذلك لم تهن في أعينهم صغائر الأعمال، ولم تند عن طلبهم جلائل الأفعال، بل قارفوا الجليل والحقير مؤمنين أنهم في كل هذا إنما يعبرون عن إرادة واحدة وعن مشيئة واحدة هي مشيئة الله الواحد الأحد.

هذا الوعي العميق بحقيقة الإيمان والإسلام هو الذي دفع عقيدة التوحيد نحو المسار الذي سلكته، أي كعقيدة خلاص ونجاة للفرد وللمجتمع معا في الدنيا والآخرة معا. والسؤال الذي نطرحه الآن هو التالي: لماذا كانت آلهة القوم، قوم إبراهيم ومن ماثلهم أصناما من صنع أيديهم أو من صنع آبائهم ؟ ولماذا كان إله إبراهيم في المقابل، الله الواحد الأحد رب السماوات والأرض وما بينهما ؟ وبعبارة أخرى، ماذا يكمن وراء الاعتقاد فيجعله شركيا صنميا ثنويا لدى هذا، ويجعله توحيدا خالصا لدى الآخر ؟

٤ - ما وراء الاعتقاد

أ _ في أصل الشرك

« وإبراهيم إذ قال لقومه اعبدوا الله واتقوه ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون. إنما تعبدون من دون الله أوثانا وتخلقون إفكا. إن الذين تعبدون من دون الله لا يملكون لكم رزقا فابتغوا عند الله الرزق واعبدوه واشكروا له إليه ترجعون. وإن تكذبوا فقد كذب أمم من قبلكم وما على الرسول إلا البلاغ المبين. أو لم يروا كيف يبدىء الله الخلق ثم يعيده إن ذلك على الله يسير. قل سيروا في الأرض ثم انظروا كيف بدأ الخلق ثم الله ينشىء النشأة الآخرة إن الله على كل شيء قدير. يعذب من يشاء ويرحم من يشاء وإليه تقلبون. وما أنتم بمعجزين في الأرض ولا في السماء ومالكم من دون الله من ولي ولا نصير. والذين كفروا بآيات الله ولقائه أولئك يئسوا من رحمتي وأولئك لهم عذاب أليم. فما كان جواب قومه إلا أن قالوا اقتلوه أو حرقوه فأنجاه الله من النار إن في ذلك لآيات لقوم يؤمنون. وقال إنما اتخذتم من دون الله أوثانا مودة بينكم في الحياة الدنيا ثم يوم القيامة يكفر بعضكم ببعض ويلعن بعضكم بعضا ومأواكم النار وما لكم من ناصرين. فآمن له لوط وقال إني مهاجر إلى ربي إنه هو العزيز الحكيم. ووهبنا له إسحاق ويعقوب وجعلنا في ذريته النبوة والكتاب وآتيناه أجره في الدنيا وإنه في الآخرة لمن الصالحين» [1].

تكشف هذه الآيات البينات من سورة العنكبوت عن حقيقة المعتقد الشركي وعن الكامن وراء اتخاذ الأوثان آلهة معبودة من دون الله الواحد القهار. فقد جاء في خطاب إبراهيم عليه السلام لقومه ومحاجته لهم قوله: « ... اعبدوا الله واتقوه ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون. إنما تعبدون من دون الله أوثانا وتخلقون إفكا إن الذين تعبدون من دون الله لا يملكون لكم رزقا فابتغوا عند الله الرزق واعبدوه واشكروا له إليه ترجعون. وإن تكذبوا فقد كذب أمم من قبلكم وما على الرسول إلا البلاغ المبين».

نبه الخليل عليه السلام قومه إلى ضلالهم بترك عبادة الله الواحد الأحد وتنكبهم عن التقوى مؤكدا أنهم لو اتبعوا العلم لما عبدوا سوى الله. غير أنهم باتباعهم لأوهامهم وتصرفهم على مقتضى جهالاتهم، لم يجدوا في قلوبهم تقوى لله، ولم تدعهم عقولهم إلى القيام لله قانتين، على العكس، لقد نسوا الله الحق، وأقاموا من أوهامهم أصناما وأوثانا جعلوها الآلهة المعبودة:» إنما تعبدون من دون الله

(١) سورة العنكبوت : ١٦ - ٢٧

أوثانا وتخلقون إفكا». لقد صنع قوم إبراهيم إذن بأيديهم أوثانا عبدوها من دون الله. والأوثان كما نعلم هي الصور المصنوعة من مواد الأرض، من الحجارة أو من الخشب أو من سواهما. فجاءت هذه الأوثان دليلا على استعباد الأرض لهؤلاء الناس وانغلاق دائرتها عليهم، ونسيانهم كل شيء سواها وكأن العالم هو الأرض فقط، وكأن الوجود هو وجودهم القصير فوق الأرض فقط. ولكونهم أضافوا إلى الوجود ما ليس فيه ومنه عندما عبدوا الأوثان وجعلوها آلهة، فقد شاركوا في الخلق وادعوا إيجاد ما لا يوجد، لذلك نازعوا في الخالقية؛ولكن ماذا خلقوا ؟

« وتخلقون إفكا». والإفك هو الكذب والبهتان، فما خلقوا إلا وهما أوحت به قرائحهم. ولم يرد في القرآن نسبة الخلق إلى البشر إلا في هذا الموضع إذا استثنينا قول عيسى بن مريم :» ورسولا إلى بني إسرائيل أني قد جئتكم بآية من ربكم أني أخلق لكم من الطين كهيئة الطير فأنفخ فيه فيكون طيرا بإذن الله وأبرىء الأكمه والأبرص وأحيي الموتى بإذن الله وأنبئكم بما تأكلون وما تدخرون في بيوتكم إن في ذلك لآية لكم إن كنتم مؤمنين»[1].

فنسب عيسى عليه السلام الخلق إلى نفسه ولكنه ربط هذه القدرة بإذن الله الذي أقدره عليها. أما المشركون الوثنيون، فإنهم ينفردون بخلق الإفك الذي لا يرضاه الله ولا يقبله. إن صنعهم للأصنام وخلقهم الإفك بادعاء ألوهيتها، عمل من وحي أنفسهم الضالة بما اتبعت أهواءها وأغوتها شياطينها، والله سبحانه وتعالى بريىء من هذا البهتان والافتراء الذي لا يقبله الوجود بحال. لذلك حالما تدخل البشر في فعل الخلق، حجّر الله سبحانه الوجود فلم يقبلهم سوى العدم يخلقون فيه الإفك ويزورون فيه الحقائق فيدّعون أن الحجر اله وأن الوثن إله وأن القمر إله، وهم بخلقهم لهذا الإفك يتصورون أنهم على شيء وفي الحقيقة هم في الضلال والجهل يعمهون لأنهم نسوا أن الحقيقة لا تتبدل، تماما مثل الوجود الذي هو مجلاها ومظهرها لا يتبدل.

فالقمر لن يصبح إلها لأن هؤلاء الضالون قد ألهوه. والصنم لن يحكم العالم ولن يحكم حتى نفسه رغم أن الوثنيين اعتبروه إلها حاكما. وكذلك الطاغية، لن يأتي بالشمس من المغرب رغم أن قومه عبدوه. فثبت أن الوجود واحد لا ينطق إلا بلغة الواحد سبحانه وتعالى، ولا يظهر إلا بآثار الخالق جل وعلا، وثبت أن أقصى جهد الوثنيين والمشركين أن يسعوا في مرآة الوهم وفي خزانة العدم لكي يصنعوا من الإفك والباطل» وجودا» و»حقائق» تبقى دائما حقائق عدمية، أي في النهاية لا شيء. إن هذا الوصف الإبراهيمي لفعل المشركين يكشف لنا بعمق

(١) سورة آل عمران : ٤٩

عن الخصاء المطلق الذي يتميز به العقل الشركي الذي لا مقدرة له على العمل في مجال الوجود والواقع والصحيح والحق بحال، بل الذي نقل كل آليات عمله إلى مجال العدم بفعل وسوسة شيطانية وكيد شيطاني رهيب. إن المشرك يتصور أنه يستخدم عقله وهو يؤله هذا الصنم ويركع لهذا الشخص؛ وهو يسوق حججا لهذا الفعل أو لذاك ناسيا أن حجته لاغية من أساسها لأنه يقيم حجة ما لا وجود له أصلا.

وهنا نكتشف أمرا هاما وخطيرا بشأن العقلية الشركية ويتمثل في كون الخطأ الأساسي والجوهري الذي جعل هذا العقل ينحط إلى أسفل سافلين ليس هو من نفس العقل، أي من جراء أمر طبيعي مغروس في هذه القوة الإنسانية الساعية إلى فهم العالم وإدراك حقائق الحياة، ولكن الخطأ الأساسي يكمن في الميدان الذي يعمل فيه المشرك، حيث أنه يعمل في ميدان عدمي يستحيل أن يثمر أي معنى وأن يقدم أية فائدة.

إن مثل المشرك في حراكه في هذه الحياة مثل الفلاح يقبل بمحراثه على أرض سبخة يحرثها ويبذر فيها البذر، ثم ينتظر فلا يجد شيئا ولا يحصل على ثمرة. فلو أن هذا الفلاح اتهم نفسه من حيث أنها عاملة ناصبة لأخطأ التقدير، فلقد عملت هذه النفس ونصبت، ولو أنه اتهم محراثه لأخطأ أيضا وكذلك لو اتهم البذرة. ولكنه يصبح صادقا لو تفطن إلى أن الأرض التي يحرثها ويسعى إلى تثميرها تتوفر منذ البداية على عقم لا دواء له ولا شفاء منه. فمثل هذا الفلاح لن يفلح سعيه ولو أنفق عمره وأعمارا أخرى مثله في حرث هذه الأرض، ولكنه سيفلح بالتأكيد لو انتقل بكل بساطة إلى أرض أخرى قابلة للإنتاج والعطاء.

هكذا يقبل المشرك على أوثان لا حول لها ولا قوة طالبا منها الدعم والتأييد، وطالبا منها الرزق. وهي أصنام ميتة لا تملك لنفسها نفعا ولا ضرا. فانظر إلى بشر يخاطب حجارة هل يتوقع منها أن تجيبه ناهيك أن تلبي طلبه ؟ لذلك أوضح الخليل للمشركين هذه الحقيقة بكل بساطة قائلا لهم :» إن الذين تعبدون من دون الله لا يملكون لكم رزقا فابتغوا عند الله الرزق واعبدوه واشكروا له إليه ترجعون»[1].

غير أن هؤلاء الكافرين مدفوعين بمنهج التقليد البائس للآباء والخضوع للأعراف الاجتماعية السائدة، كانوا بعيدين عن سماع خطاب الخليل عليه السلام وعن فهم واستيعاب حجته. إن المسافة التي تفصل عقولهم عن الوعي الإيماني السليم هي مسافة ما بين الوجود والعدم: « إن الذين كفروا سواء عليهم ءأنذرتهم أم لم

(١) سورة العنكبوت : ١٧

تنذرهم لا يؤمنون. ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة ولهم عذاب عظيم»[1].

واضح أن سبب هذا الصمم المطلق وهذا العمى هو الانحصار في دائرة اللاوعي « ختم الله على قلوبهم»، الأمر الذي أفقدهم مقدرة التواصل مع دائرة الوعي. إن لب القضية المعرفية في تناقض الكفر مع الإيمان هو إذن قضية المجال أو دائرة العمل التي يتحرك فيها كل من المؤمن والكافر.

فالكافر يتحرك في دائرة العدم وهي الدائرة الإبليسية الشيطانية العقيم التي تجعل الوجود بالنسبة له لاوعيا، وتجعل من وعيه حطاما وكلاما وأوصافا وإضافات جمعها القرآن الكريم في مصطلح جامع: « الإفك». أما المؤمن، فدائرته الوجود الحق الذي لا يتبدل ولا يتغير، فهو مجال وعيه الذي تعد كل إضافة بالنسبة إليه كفرا وفسوقا وعصيانا. فالمؤمن لا يحيا في عالم الوصف والإضافة ولكن في عالم التحقيق والعيان. والسؤال الذي يطرح هو التالي: ما الذي جعل دائرة الشرك والوثنية دائرة عدمية ؟ وجعل دائرة الإيمان والتوحيد دائرة وجودية حقية ؟

تنطوي الوثنية على نظرية معرفة متكاملة تؤسس لخلق الدائرة العدمية، على عكس الإيمان التوحيدي الذي يستند أيضا على نظرية معرفة متكاملة تمنعه من مقاربة العدم. ويتأسس الشرك على عقيدة راسخة ثابتة هي الإيديولوجيا التي جمعت وتجمع المشركين عبر تاريخ الإنسانية وهي النزعة الدنيوية المساوية كونيا للانحصار في البعد الأرضي للعالم كبعد نهائي ووحيد.

فالمشركون الوثنيون على بكرة أبيهم، دنيويون ماديون أرضيون، لا يفقهون للغيب معنى، ولا يؤمنون بما وراء المادة والمحسوس. وحتى ادعاء البعض منهم الإيمان بعالم آخر أو قول بعضهم إنهم يعرفون الله الأكبر الواحد، فهي ادعاءات وأقوال لا مصداق لها في واقع اعتقادهم وتصرفهم الذي ينبني على التعامل مع الدنيا كعالم نهائي ووحيد ودائرة لا وجود لشيء يتجاوزها.

إن الوجود بالنسبة للمشركين هو هذه الحياة الدنيا، والعالم بالمقابل، هو هذا الكوكب الأرضي، والحياة الإنسانية هي هذه الأيام الفانية التي يقضيها الإنسان فوق الأرض والتي تختتم بموته. تلك هي الحقائق الأساسية بشأن الوجود والعالم الكامنة وراء التصرفات الشركية والتي تجعل من تعصب المشركين والوثنيين للدنيا تعصبا عقائديا، وتجعل من مودتهم فيها وتواثقهم عليها التزاما صارما لا يخلّون به. وقد وعى الخليل عليه السلام هذه الحقيقة، وجاءت آيات القرآن منبهة

(١) سورة البقرة : ٦ - ٧

إليها في قوله سبحانه وتعالى :» أولم يروا كيف يبدئ الله الخلق ثم يعيده إن ذلك على الله يسير. قل سيروا في الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق ثم الله ينشىء النشأة الآخرة إن الله على كل شيء قدير. يعذب من يشاء ويرحم من يشاء وإليه تقلبون. وما أنتم بمعجزين في الأرض ولا في السماء وما لكم من دون الله من ولي ولا نصير. والذين كفروا بآيات الله ولقائه أولئك يئسوا من رحمتي وأولئك لهم عذاب أليم» [1].

إن عمق الموقف الشركي الوثني وجوهر أزمته في نفس الوقت، الكفر بآيات الله ولقائه الأمر الذي يؤسس لدى المشرك يأسا حقيقيا من تجاوز حدود الأرض وحدود الزمان بعد أن يئس من تجاوز حدود الجسد. وإذا كان العجز عن هذا التجاوز لا يعد مأساة بالنسبة للمشرك بل يعدّ عين العقل في نظره، فإن الله تعالى اعتبر هذا الموقف انحطاطا ويأسا من رحمته، أي في النهاية يأسا من النور ومن السعادة، وقبولا بنار العدم وعذاب الانبتات والانسحاق.

يقول سبحانه:» والذين كفروا بآيات الله ولقائه أولئك يئسوا من رحمتي وأولئك لهم عذاب أليم». إن سر انحطاط العقل الشركي الوثني هو هذا الانغلاق ضمن دائرة واحدة هي دائرة الحياة الأرضية الدنيوية. فحكمت الدائرة على العقل السالك فيها، وحصرت قواه وحددت إمكاناته وأورثته بالتالي عقما لا مناص منه. لذلك يمر المشركون الوثنيون بآيات الله تعالى كل يوم وكل لحظة ولا يعونها أو يتدبرونها وما ذلك إلا للبتر الحاصل في عقولهم حيث انتفى منها البعد الأخروي، بعد الأمل والتجاوز والتقدم.

وعلى العكس من المشركين، نجد أن المؤمن تنقلب صورة العالم لديه ليرى في كل شيء آية تدل على الله الواحد. ولو تأمل المشرك حياته وتصرفاته، وقبل ذلك لو راجع منطقه وتفكيره لهاله ما هو عليه من الضيق وما هو فيه من الانحطاط والخمول واليأس. غير أن عاملا حاسما يشكل القاعدة المنهجية للتفكير الشركي يتدخل دائما ويمنع المشرك من الوعي بعمق مأساته وبفداحة خسارته، ذلك هو عامل التقليد.

إن التقليد بكل آلياته و تمظهراته، يشكل الآلية المنهجية الأساسية التي يقوم عليها كل البناء المعرفي الشركي الوثني. فالوثني المشرك الذي يولد ضمن نظام اجتماعي شركي وثني، قائم على تأليه الخلق وتعظيم الجبابرة وإقامة الفروق الحقيقية والوهمية بين البشر، يعي وهو يتطبع بهذا النظام الاجتماعي أن « الحكمة « و» السياسة « تقتضيانه أن يندمج في النظام القائم وأن يتفاعل مع كل علاقاته إذا

(١) سورة العنكبوت : ١٩ -٢٣

أراد أن يكتسب ودّ أهله وقومه، ورغب في الفوز بملذات الدنيا ومسراتها. وقد يحدث أن تنبهه المبالغات السائدة في المجتمع وألوان الضلال والكفر والكبرياء المستفحلة، إلى ضرورة مراجعة هذه الاعتقادات؛ غير أن المصلحة العاجلة الدافعة إلى مراعاة الوفاق والحفاظ على دواعي التضامن مع المجموعة، تمنع قيام هذه المراجعة أو تجعلها غير ذات جدوى لو حصلت. هكذا يدفع المجتمع الإنسان الفرد دفعا إلى أسلوب التقليد ومنهج المتابعة والمحاكاة ضامنا له تحقيق المصالح والمنافع إذا قلّد، ومتوعدا إياه بالقطع والاستعباد ومضيقا عليه إذا اجتهد من تلقاء نفسه واختار سلوكا شخصيا مناقضا للجماعة.

إن العبادة الشركية الوثنية المتمثلة في عبادة الأصنام وتأليه الطواغيت والجبابرة، تفرض سلطتها رغم اللامعقول الكامل الذي تنطوي عليه، بواسطة منهج التقليد الذي يفرضه المجتمع كأسلوب حاسم في تدجين الإنسان وسوقه رغما عنه إلى كنف الجماعة وقيمها وأخلاقها وعقائدها.

وتحت غطاء الحفاظ على الانتماء للجماعة التي لابد منها لكي يحقق الإنسان مصالحه، يستقيل العقل البشري الذي هو في أصله قوة فطرية تأسيسية، مهيأة بالأصالة وبالأساس لكي تتعامل مع النظام الكوني في مطلق أبعاده وحقائقه. وفي المقابل، يعوض هذا العقل استقالته من مهمته الكونية بقبول مقولات العقل الجماعي السائد والمهيمن والمتسلط.

إن الصراع بين العقل الإنساني الكوني الفطري الحر، وبين العقل الاجتماعي السائد والمهيمن، يبرز دائما كأمر لا مناص منه لتحقيق مشروع الإيمان الذي قلنا إنه يشكل في نفس الوقت، مشروع الحرية. وليست العقيدة الشركية الوثنية في العمق، سوى هذه الفلسفة التي تبرر الخضوع للعقل الاجتماعي السائد لأنه هو السائد وهو الأقوى، ولأن مصلحة الإنسان تقتضي ذلك دون النظر في أسس هذا العقل ومدى صحة مقولاته. إن مثل هذا الخضوع يبني الوعي الإنساني منذ البداية بناء سلطويا يجعل الذات الحرة مشروعا حراما، ويمنع الإنسان من الإشراف على ذاته وممارسة الاستخلاف عليها.

وإذا حضرت السلطة[1] ,غاب العقل واستقال الوعي الذي لا ينبجس في اعتقادنا إلا مع ممارسة الحرية والإصرار عليها. إن العقل الاجتماعي إذا هيمن وتسلط وغالبا ما يكون شأنه كذلك، ينقلب بالضرورة عقلا شركيا وثنيا ويفرض منهج التقليد على كل أفراده ويستعبدهم بواسطته. ومن الجدير بالملاحظة أن

(١) - نقصد بالسلطة في هذا الموضع وفي كامل صفحات هذا السّفر، نظام التعسف والهيمنة والاستبداد والتسلط، وليس السلطة من حيث هي محض قوة التنظيم والتأطير الاجتماعي للناس.

العقل الاجتماعي أي البنية المعنوية النظرية التي تختزن فيها الجماعة أفكارها وتصوراتها وقناعاتها، يسعى دائما إلى تأكيد حضوره ووجوده، وإلى فرض نفسه سلطة معرفية مهيمنة وأحيانا وحيدة عبر استعمال واستخدام منهج التقليد. ورغم أن معظم أنماط الاجتماع الكبرى قامت في الأصل على ثورات ومبادىء الحرية والكرامة وعزة الإنسان، فإنها سريعا ما انقلبت إلى مجتمعات تسلطية يفرض فيها العقل الاجتماعي سلطته وهيمنته على أفراده بواسطة التقليد، وكأن هذا العقل لا يقوم إلا على نفي العقل الكوني الفردي الفطري وتعطيله تمهيدا لدمجه واستقطابه. لذلك نلاحظ أنه كلما ساد العقل الاجتماعي السلطوي واستكمل مقولاته ومذهبه، سعى إلى دفن مشاريع التجديد ورفض منطق المبادرة والاجتهاد باعتبارها فعاليات عقول حرة لا تخضع للسلطة والاستقطاب الشركي.

إن سعي العقل الجمعي إلى الهيمنة والتسلط يبدو وكأنه طبيعة من طبائع هذا العقل الذي يتجه بانجذاب غريب نحو دمج أفراده في منظومات قيم ومبادىء واحدة، لا بل إن مفهوم العقل الجمعي نفسه ليس سوى مجموعة هذه القيم والمبادىء التي لها صبغة عامة وتحظى باعتراف جماعي. غير أنه لابد من الاعتراف بأن التجارب الإنسانية الطويلة اتجهت عبر التاريخ نحو تحرير العقل الجمعي من عقدة التسلط والاستقطاب هذه بجعله يعترف أكثر فأكثر بحق الأفراد أي بحق الوجود والحرية الكامن في صلب العقل الإنساني الفردي باعتباره عقلا حرا وكونيا بالطبيعة والتأسيس.

هكذا يؤول مبحث المعرفة في أوالياته ومبادئه إلى مبحث السلطة لتصبح قضية السلطة في كل تجلياتها وأشكالها ومواضيعها هي القضية الأساسية المحتوية لجوهر الصراع الإنساني الوجودي والاجتماعي. إن قضية المعرفة والوعي هي أيضا قضية اعتراف أو استقطاب أي في العمق قضية سلطة.

فالوعي الإنساني لا يستوعب نفسه إلا كوعي مناضل أو خاضع، أي ضمن علاقته بوعي آخر أو بأكثر من نمط من أنماط الوعي التي تسعى إما إلى الاعتراف به أو إلى سحقه وإخضاعه. وكل علاقة بين ذاتين مهما اختلفتا أو اتفقتا، هي بالأساس علاقة جدلية محورها الجذب والانجذاب، الإقبال والطاعة، الأخذ والعطاء.

ليس غريبا عندئذ، أن نجد سفر التكوين الإنساني كما جاء في القرآن الكريم، رواية لقصة الإنسان بين الله والشيطان. فلقد وعى الإنسان نفسه منذ البداية كوجود مستهدف للنفي من قبل الشيطان الرجيم الذي سعى ويسعى لمحقه وإعدامه وإفشال مسعاه؛ في حين وجد نفسه منذ البداية أيضا محضونا من قبل قوة رحيمة أسكنته الجنة أولا ثم أسعفته بالهدى لما غوى وعصى. وإذا كانت

مسألة تعرض الإنسان للاستقطاب والجذب قضاء لا مناص منه، فإن قدر هذا الإنسان أصبح منذ لحظة الولادة الأولى، أن يكون كائنا مصارعا مناضلا ومجاهدا. وكل محاولة للتفصي من هذا القدر، ولتمييع هذه المهمة، أعني مهمة المواجهة والجهاد حفاظا على الحرية والأمان، تشكل انحرافا خطيرا بل مدمرا للإنسان نفسه.

إن أحد أهم أولويات البرنامج الوثني الشركي، تدمير قدرة الإنسان على المواجهة وذلك بإماتة كل نوازعه الذاتية، أي مطالبه الأساسية في الكرامة والعزة والحرية. والمنهج الأمثل الذي استعمل لتحقيق هذا البرنامج عبر التاريخ الإنساني هو منهج التقليد. لذلك ثبت لدينا أن التقليد هو الأسلوب والمنهج الأمثل الذي استعمل لتحويل الإنسان من كائن راق مفضل إلى قرد مثل سائر القردة والسعادين. قرد يشبه الإنسان كما يشبه القرد الإنسان، ويستطيع أن يقلد عديد حركات الإنسان ببراعة، ويقدر على الوقوف والانتصاب مثل الإنسان؛ لكنه دائما يبقى قردا، أي مخلوقا منحطا إلى حضيض الحيوانية.

إن الاستلاب الذي يحصل للذات بفعل استقطاب العقل الجمعي، وتحت شعارات المصلحة الشخصية والمنفعة والتفكير المنطقي، هو في أغلب الأحوال استلاب شيطاني هدفه تدجين الإنسان وحرمانه من مطالعة حقائق الوجود، ومنعه من تحقيق انفتاحه على الحقيقة والحياة، وحصره بالتالي في أوهام المحافظة على حياة رتيبة كئيبة هي بكل المقاييس عرض زائل في صيرورة العالم، وموجة عابرة في ديمومة الوجود.

إن التجربة الإنسانية التاريخية الطويلة تكشف وتبين أنه لم يحدث إلا في حالات نادرة من تاريخ المجتمعات أن كان العقل الجمعي سببا في دعم العقل الفردي، وفي تمكينه من تحقيق تجربته الوجودية اللازمة لتحقيق انعتاقه الكلي وتحرره من كل الأوهام وكل السلط وكل الآلهة المزيفة.

إن هذه اللحظات في عمر الشعوب، هي لحظات الثورة والتمرد حيث تتكلم الجماعة لغة واحدة وتعزف لحنا واحدا هو لحن الحرية. وما إن تنتهي مرحلة الثورة الجماعية هذه التي لا تدوم للأسف إلا لمدة هي في عمر الشعوب لحظات، حتى ترتد الجماعة جاعلة من مبادئها سلطة عليا سريعا ما تصبح سيفا مسلطا على كل من يخرج عنه أو يتجاوزه. إن المأساة أن القيم والمبادىء العظمى تصبح قيم استبداد وإرهاب إذا فرضت بكيفية سلطوية واستخدمت لأغراض الانتفاع الذاتي السياسوي الضيق. فالفكرة والقيمة تبقى ذات شحنة تحريرية ما أخذت بحرية، فإن فرضت بالقوة أصبحت تحطيمية تدميرية.

ثم إن عقيدة الشرك القائمة كما أسلفنا على الأساس الدنيوي الأرضي، لابد أن تكون صنمية وثنية، أي أن ترفع إلها ظاهرا، لأنه لا حقيقة للدنيا سوى المظاهر ولا معنى لها وراء الظاهر. فالدنيا دار ظهور وبيان، ومنطقة تعبير وإفصاح وبرهان، جعلها الله عز وجل ترجمانا ظاهرا لعزته وملكه، وآية باهرة دالة على وجوده وتدبيره وعزته. ولا ريب أن الدال يدل على المدلول والآية تدل على الصانع إذا بقيا ضمن حدود مهمتهما. لكن إذا انتفت مهمة الدال وأصبح عين المدلول، وانتهى دور الآية كوسيلة لتصبح غاية، حينئذ يتسطح المعنى لا بل ينتفي؛ لأن المعنى أبدا غيبي، أعني أنه مدلول يتوصل إليه بالدلائل، وموجود يهتدى إليه بالآيات البينات.

وبما أن العقيدة الشركية تقوم على نفي وجود عالم غيبي قاهر مهيمن، تماما كما تقوم على نفي البعد الروحي في الإنسان، فإنها تحصر كل المعنى في ما ظهر وما بدا. وإذا كانت الحاجة إلى الإله حاجة فطرية لا قدرة للإنسان على مقاومتها، فإن المشرك الدنيوي العقيدة، الظاهري الفهم سوف لن يهتدي إلى إله آخر سوى ما في الأرض من قوى، أعني إلى المال والجاه والمتعة. وكل آلهة الأرض سلط مستبدة، لأنها بالأساس طواغيت مغتصبة ومستعلية بغير حق.

وهنا نخلص إلى أحد أهم أعماق مدلول السلطة على الإطلاق، وأحد أخطر مفاهيمها بالقول إنه تظهر سلطة ويحدث تسلط إذا حدث ظهور بغير حق. وكل ظاهر لا باطن له هو تجل سلطوي سواء أكان ملكا بدون عدل، أو عقلا بدون منطق، او ذكرا بدون أنثى، أو خطابا بدون معنى... وفي كلمة، إن السلطة هي الشهادة بدون غيب، سواء أكانت إنسانا بدون روح أو عالما بدون اله، أو كلاما بدون معنى.

إن السلطة حينئذ، وفي العمق، هي العدم بدون وجود. هي الشيطان الذي أنكره الإله. هي الإنسان الذي أنكر الإله.. ولذلك ينطوي العمل السلطوي أبدا على إنكار صريح وواضح وحاسم للغيب؛ لأن الغيب إذا حضر نفى سلطة الظاهر وحددها.

إن المعنى إذا وجد، ينفى سلطة الكلام ليحدد دوره كدال لا غير على مدلول يتجاوزه. والروح إذا هيمن، يحدد دور الجسد ويحصر مهمته ومعناه. وكذلك الآخرة إذا آمنا بها، جعلت من الحياة الدنيا معبرا ومقرا محدودا للتجربة الإنسانية التي تتجاوزها وتتعالى عليها.

ويعني كل هذا أن الله وهو رب الغيب والشهادة، إذا آمنا به، آمنا في نفس الوقت بكوننا عبيدا لا سادة، ومخلوقات ولسنا آلهة. وهذا الإيمان هو مبدأ إلغاء

بنية السلطة ونسفها من الأساس. إن السلطة لا تعمل إلا في مجال ظاهر لأنها بالأصالة ادعاء وتظاهر، والادعاء هو التظاهر أي محاولة إنطاق الظاهر بما ليس فيه. لذلك نجد المجتمع الشركي الوثني مجتمعا نفاقيا بالضرورة لأنه محكوم بالسلطة الظاهرة التي تطلب آيات العبادة الظاهرة، وتفرض الولاء والتقديس المعلن. والذين يحيون في هذا المجتمع، إن لم يكونوا مجاهدين للباطل فهم إما طواغيت مستعلية، أو عبيد لهذه الطواغيت خانعين لها، راضين بهيمنتها واستكبارها.

إن النزعة الدنيوية التي تشكل قاعدة العقيدة الشركية، تؤدي بالضرورة إلى إعلاء اله صنم مجسد حسي؛ لأن شهوات الدنيا ولذّاتها كلها حسية. ولذلك وقع توليد الآلهة الأرضية لتكون قيّمة على مخازن شهوات الأرض ولذّاتها.

إن بني إسرائيل، لم يتمالكوا عندما فارقهم موسى عليه السلام إلى أجل، من أن يظهروا إلههم المحبوب المعبود من أغلب أهل الدنيا، أعني عجل الذهب. وليس مثل العجل دليلا على التجسد والظهور والحسية، وليس أشد من الذهب لمعانا وبريقا.

إن أصنام المشركين تتميز رغم اختلاف أشكالها بميزة مشتركة، وهي أنها صنعت لتكون مركز التواد في الدنيا، وواسطة التحابب فيها والتواعد على الإخلاص لها. يقول الخليل عليه السلام لقومه:» وقال إنما اتخذتم من دون الله أوثانا مودة بينكم في الحياة الدنيا ثم يوم القيامة يكفر بعضكم ببعض ويلعن بعضكم بعضا ومأواكم النار وما لكم من ناصرين»[1].

كشف الخليل عليه السلام هنا عن الكامن وراء عبادة الأصنام، والمتمثل في حب الدنيا الطاغي على قلوب الكافرين. فهؤلاء لم يعبدوا الأصنام، ولم يركعوا للأوثان لعلم جديد جاءهم ولا لعلم قديم، كما أنهم لم يهتدوا إلى هذه الآلهة المزيفة بمنطق خاص ولا عبر تفكر في ملكوت السماوات والأرض، بل هداهم إلى آلهتهم هذه حبهم للدنيا وعبادتهم لشهواتهم وأهوائهم. فلما اتفقوا على مبدأ تلبية الشهوات والاستجابة للأهواء بلا رادع، بدا لهم أن يخلقوا من أوهامهم آلهة تجمعهم وتوحدهم لا بل كان اصطناع هذه الآلهة أمرا ضروريا حفظا للعهد مع الدنيا، ونصرة لأنفسهم المتهالكة التي يعلمون أكثر من غيرهم أنها في ضلال بعيد. لذلك كانت الأصنام والأوثان في الغالب، مظاهر لتعظيم سلط الأرض، وكانت فترات الأوج في ظهور الطغيان السلطاني هي فترات الأوج في انتشار العبادة الوثنية الصنمية بشتى صورها وأشكالها.

(١) سورة العنكبوت : ٢٥

إن قمة الوعي بالغيب والإيمان به تتمثل في الاعتراف بالله الواحد الأحد الذي لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار. وعلى العكس من ذلك تماما، يمثل الشرك نقطة القمة في إنكار الغيب وتجاهله؛ ولذلك فمن الطبيعي أن يكون اله المشرك قمة في الصنمية والحسية والمادية، وهذا يكشف إلى حد بعيد سر عبادة الثور والعجل، وسر تقديس الحجر. إن معركة الكفر والإيمان هي في أحد تجلياتها معركة التجريد والتجسيد، وضمن هذه المعركة يتجلى العقل الشركي الوثني كعقل عاجز جزئيا أو كليا عن استيعاب المعنى المجرد وعن فهم الحقائق الروحية الغيبية التي ليس لها تجسد في الظاهر.

نخلص من هذا العرض إلى توضيح مدى التواصل العميق بين مصطلحات الشرك والدنيا، وبين التقليد والنزعة الظاهرية(الصنمية). فالنزعة الدنيوية في فهم الحياة، هي المؤسس الفعلي لإيديولوجيا الشرك والوثنية، وهي السبب في ظهور الآلهة الشركية المختلفة. والإديولوجيا الشركية تعول على التقليد كمنهج رئيس وحاسم في غرس مبادئها وفرض سلطانها. أما من حيث التشكل والظهور، فإن الشرك والفعل الشركي يتجلى ويتمظهر تمظهرا حسيا ماديا صنميا؛ لأن شأن الشرك فعل الظهور، وعمل المشرك: الخروج من بنية الحقيقة إلى بنية الوهم، لأن المجال الشركي الوثني كله كما أسلفنا القول،مجال عدمي. وفي دائرة العدم يسعى الشرك لتأسيس سلطانه وإظهار طغيانه ناسيا أنه يؤسس ما لا يتأسس ويؤكد ما لا يكون. ذلك بالضبط حال أولئك الذين نزلوا إلى الأرض وجاهدوا للبقاء فوقها، وحرصوا على تلبية رغباتهم والاستجابة لأهوائهم، ثم لم يلبث القضاء المحتوم أن عبث بأوهامهم وسفه أحلامهم واستهلكهم في الغابرين. نعوذ بالله من مصير الظالمين ، اللهم آمين.

ب - في أصل الإيمان

رأينا أن أصل الطلب وموئل القصد في تجربة الشرك والوثنية، يتمثل في الحياة الدنيا وشهواتها ولذّاتها. حيث أن المشركين لا يبغون عن الدنيا بديلا، ولا يعتقدون أن وراءها حياة أخرى لابد أن يجتهدوا لبلوغها مؤمنين غير ظالمين. وقد أدى حب الدنيا والتهالك عليها إلى الضلال العظيم؛ حيث اضطر المشركون بعد الإيمان بالباطل، إلى خلق آلهة من وحي أهوائهم وضلالاتهم، هي عين الإفك الذي قصده الله سبحانه وتعالى في قوله:» إنما تعبدون من دون الله أوثانا وتخلقون إفكا. إن الذين تعبدون من دون الله لا يملكون لكم رزقا. فابتغوا عند الله الرزق واعبدوه واشكروا له إليه ترجعون». فكان حب الدنيا رأس الخطيئة وسبب فتح باب الخسران المبين أمام المشركين.

أما المؤمنون، فهم على عكس المشركين، انطلقوا من الإيمان بالغيب المتمثل جوهريا في اليقين في وجود الله وفي حصول اليوم الآخر، فكان هذا الايمان بالغيب سببا في مفارقة الباطل ومعانقة الحق.

إن جوهر مشروع الإيمان ولب تجربته يتمثل في هذا الوعي العميق واليقين الذي لا ريب فيه أن أجل الله لآت، وأن الحياة الدنيا ليست سوى عرض زائل وظل حائل. هذا الإيمان الذي سوف يحطم وبدون هوادة أية إيديولوجيا سلطوية يمكن أن تتنشأ لتقيم سلطانها مستغلة ضعف الإنسان أمام شهواته وأهوائه. فقد لاحظنا أن حب الدنيا يؤدي ولابد إلى تأسيس السلطة في مفهومها السلبي أي بما هي استعلاء واستبداد وطغيان بغير الحق.

فأهل الدنيا إذ يتحابون فيها ويلتقون على لذّاتها، يجدون أنفسهم مضطرين إلى إعلاء آلهة تجمعهم وإلى بناء معبد يضمهم؛ وهذا المعبد لن يعبد فيه الحق بطبيعة الحال، بل سوف يكون معبدا لأصنام دورها الأساسي أن تصمت أمام استعلاء الشهوات وطغيان اللذات.

وإذ يتهالك الناس على الدنيا ويرضخون لأهوائهم، فإنهم يؤسسون بذلك الشرط الأول اللازم لقيام مشروع السلطة الأرضية المستبدة ويصبحون بالضرورة قابلين للاستبداد. ذلك أن المعنى العميق للسلطة، ونحن نستعمل هذا المصطلح للدلالة على التسلط والاستعلاء، هو رضوخ النفس لما سوى الحق سبحانه الذي يعتبر المبدأ والمنتهى الفعلي لحركة الوجود والعالم والمدبر الحقيقي لحياة الإنسان وحراك العالم. فإذا خضعت النفس لأهوائها، دلت بذلك على حبها للدنيا وتهالكها على لذّاتها؛ وليس حب الدنيا على وجه التحقيق، سوى التهالك على الأهواء والشهوات. فإذا أقبلت النفس على الدنيا راضخة، كان لابد لها أن تعبد آلهة

الأرض وأن تقدم القرابين لأصنامها الحجرية التي لا تنفع ولا تضر ولا تغني عن الإنسان شيئا ولا تملك له رزقا. والإيمان بالبعث بما هو تجاوز فعلي على مستوى الوعي والمعرفة للحياة الدنيا، هو وحده القادر على تخليص الإنسان من براثن آلهة الأرض من الأصنام والطواغيت، أي من أسر السلطة الأرضية اللعين.

إن عقيدة البعث تقلب الحياة جهادا من أجل تخليص النفس من تسلط طواغيت الأرض بكل أنواعها على عكس حب الدنيا وهو لب العقيدة الوثنية الشركية كما أسلفنا، والذي يعطي الفرصة الكاملة لهذه الطواغيت لإحكام قبضتها على الإنسان و إخضاعه لهيمنتها وتسلطها المريض. يقول سبحانه وتعالى: « من كان يرجو لقاء الله فإن أجل الله لآت وهو السميع العليم. ومن جاهد فإنما يجاهد لنفسه إن الله لغني عن العالمين»[1].

فوضح سبحانه موضوع مرحلة الحياة والتجربة الأرضية والهدف منها توضيحا لا مزيد عليه.

فثبت أن الإيمان عموما وعقيدة البعث على وجه التخصيص، هي الأصل والمبدأ المحرك لحركة العبادة بما هي اتجاه الإنسان نحو ربه متقيا خاضعا قانتا حنيفا. إن العبادة حينئذ، هي المنهج الذي حدده الرحمن لربط الإنسان بالإيمان أي بالله وبالآخرة ؛ وهي تمثل ضمن المشروع الإيماني ما يمثله التقليد ضمن المشروع الشركي الوثني.

فكما أن الوثنية لم تثبت سلطانها في قلب المشرك إلا عبر منهج التقليد الملغي لأي سلطان عدا سلطان الطاغوت المستعلي مهما كان تافها ورخيصا، فإن العبادة هي منهج تحرير القلب من أسر كل الطواغيت بتوجيهه نحو وجهة واحدة ومركز واحد هو الله الواحد الأحد.

لذلك كانت العبادة دائما جهادا ومجاهدة واجتهادا، وهذه المصطلحات ذات أصل واحد ومعنى عميق أصيل واحد. ولذلك أيضا نلاحظ أن سيطرة التقليد تعني بالضرورة غياب قيم المجاهدة والجهاد والاجتهاد وظهور قيم التواكل والانحطاط والإخلاد إلى الأرض، وهو ما يعيشه المسلمون اليوم.

إن العبادة اجتهاد الإنسان لنفسه لإخراجها من الظلمات إلى النور، ولتحريرها من أسر طواغيت الأرض بعد أن تيقنت أن يوم القيامة واقع لا مفر منه، وأن أجل الله لآت. وبذلك تحرك العبادة كل ما يختزنه الإنسان من قيم ومن طاقات العمل والاجتهاد والنزوع والثورة ورفض الانحطاط والسكون وذلك على عكس التقليد الذي يسعى إلى تحنيط الإنسان وتدجينه وإخضاعه للوضع القائم وللواقع

(١) سورة العنكبوت : ٥ - ٦

المعيش.
وبما أن غايتها وعد حق (يوم البعث)، فإن العبادة تتجه إلى القلب، إلى مركز الوعي لاستنهاضه وإقامة بنيانه. فلا يقبل الوعد إلا على مستوى الوعي، وبقوة المعرفة واليقين. وليس كل بشر قادرا على أن يرضى بمجرد الوعد، بل لا يرضى به إلا الواعون الذين يعلمون أن الأمور تجري على مقتضى الحكمة والنظام، وأن ما يلزم لوجود موجود لابد منه ولو طال الأجل.
وبتحريكها للقلب، تبني العبادة الإنسان كذات واعية أي كعقل يستشعر نظام الوجود ويعي حركته بكيفية ناضجة متيقظة غير مرتبطة بأسر الآني أو بخداع المظاهر وأوهام اللحظة الحاضرة.لذلك يتجلى الإيمان كعمل في حقل الوعي أي المعرفة، تماما كما هو عمل في حقل الواقع والملموس. فالإيمان، ومحوره الأساسي علم الغيب، يحرك الذات العارفة، ويبني الإنسان كذات عارفة واعية أي كعقل. والعبادة تربط الإنسان بالعالم والواقع الموضوعي لإظهار مقتضيات ومعاني هذا الإيمان.
إن انبناء العقيدة جوهريا على الإيمان بوجود اله لا تدركه الأبصار، أي غيبي الوجود، وعلى اليقين في حصول يوم يبعث فيه الناس وينشرون، يدفع الإنسان لتحريك كل إمكانات الوعي لديه، ولاستعمال كل طاقاته المعرفية وصولا إلى رؤية ما لا تراه عيناه ولا تسمعه أذناه ولا تمسكه يداه.
وحينئذ، يتنشأ رويدا رويدا كيان آخر داخل الإنسان نفسه بعينين ويدين وأذنين: إنه القلب أو هو الروح، ولنسمه أيضا العقل، فهي جميعا مصطلحات ذات مسمى واحد. هذا الكيان الجديد يرى الوعد حقا والله صدقا والآخرة يقينا لاشك فيه. فثبت أن العبادة تحيي الإنسان الحق الواثق من الوعد الحق عبر إيمانه بالله الحق. والتقليد عكس هذا تماما، إنه اضطهاد لهذا الإنسان وسعي إلى إلغائه وتحطيمه. وحيثما قامت السلطة، فإن مشروعها دائما هو اضطهاد الإنسان وتحطيمه وتصنيمه، أي الاعتراف به كجسد فقط.
وتصنيم الإنسان، هو شرط تهيئته لعبادة الأصنام. وحيثما قام الايمان، فإنه يسعى لإحياء الإنسان وتنويره وتحريكه نحو المجرد والروحي والغيبي والعميق، أي نحو أبعاده التي لا تطالها السلطة ولا تحكمها الطواغيت. لذلك كان الإيمان المشروع الوحيد القادر على تهديم السلطة وتفجير أسسها وجعلها حطاما.
وكلما أصبح التسلط والطغيان برنامجا كليانيا، أي مسعى لتصنيم الإنسان بشكل نهائي، وتحطيم كل أسسه الروحية والمعنوية، وإخضاعه بصفة شمولية، كلما احتجنا إلى إيمان ذي برنامج كلياني، أي قادر على تحرير كل الذات، وبالدرجة

الأولى على الوصول إلى الأعماق، إلى مصادر الوعي القادرة على استثمار المعنى وعلى المراهنة على الحرية والكرامة والقيمة الذاتية مفضلة إياها على الخبز إن لزم الأمر.

لذلك تتجلى العبادة كاستثمار للمعنى والقيمة، وكتثمين مستمر للعقلي والمجرد بجعل الغيب مركز الإيمان. ولكنها وهذا أحد أهم فضائلها وخصائصها، لا تسعى أبدا إلى تحطيم الحسي والجسدي لأنها أولا وبالذات، مشروع إنماء وخير وتواضع وليست مشروع تهديم وتسلط واستبداد. ومن هنا نلاحظ التناقض بين مشروع العبادة ومشروع التسلط. فهذا الأخير ذو نزعة تدميرية ولاشك، حيث تسعى السلطة إلى إفناء الوعي وحصره، وقتل العقل وعدم الاعتراف أصلا بالروح، بينما يؤكد الإيمان بالمقابل هذه المعاني عبر برنامج العبادة، لكنه لا يسعى إلى قتل الجسد أو إلى تحطيمه، بل يتركه ليستكمل تجربته بدون ضغط أو إكراه. يقول سبحانه وتعالى معرفا بالمتقين:» الم ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون» [1].

فجعل عمل المتقين ذا بعدين واتجاهين، اتجاه نحو الوعي والمعرفة عبر الإيمان بالغيب بما يعنيه ذلك من تحريك كل طاقات وقوى الوعي واليقين في الإنسان. واتجاه ثان نحو استثمار الرزق الأرضي المادي وصرفه في المنافع والصالحات. وجاءت الصلاة كبوصلة هادية للعملين معا بما هي آيات تتلى على القلب، وجوارح تقوم وتركع وتسجد للرب سبحانه وتعالى.

لو تأملنا لوجدنا الإنسان صورتين: صورة هي الجسد، وصورة أخرى هي الظل. والظل معقول غير محسوس رغم أننا نراه بأعيننا. جعل الله سبحانه وتعالى الظل للدلالة على الإنسان الكامن في الجسد والذي لاتدركه الحواس ويعلم العقل على وجه اليقين وجوده. فجاء الظل تنبيها إلى عالم المعنى، وأنه عالم كامل تماما مثل عالم الحس، وأنه إذا كان يختلف في وسائل تناوله ومنهج التعامل معه، فليس يختلف في كونه موجودا لابد من الانتباه إليه واستعمال المنهج المناسب لاكتشافه. يقول سبحانه وتعالى:» أفرأيت من اتخذ إلهه هواه أفأنت تكون عليه وكيلا. أم تحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون إن هم إلا كالأنعام بل هم أضل سبيلا. ألم تر إلى ربك كيف مد الظل ولو شاء لجعله ساكنا ثم جعلنا الشمس عليه دليلا. ثم قبضناه إلينا قبضا يسيرا. وهو الذي جعل لكم الليل لباسا والنوم سباتا وجعل النهار نشورا» [2].

(١) سورة البقرة : ١-٣

(٢) سورة الفرقان : ٤٣ - ٤٧

هذه الآيات البينات من سورة الفرقان ذات علاقة وثيقة بمسالة الوعي. فهي تنبه إلى حقيقة العالم ومن ضمنه الإنسان،كما تنبه إلى المرض العضال الذي يصيب الإنسان فيحرمه من الرؤية الحقيقية للعالم. هذا المرض العضال الذي يكشف عنه قوله تعالى: « أفرأيت من اتخذ إلهه هواه أفأنت تكون عليه وكيلا. أم تحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون إن هم كالأنعام بل هم أضل سبيلا «. إن تأليه الهوى هو مبدأ كل شرك وكل وثنية، وهو أساس تكوّن الطاغوت بكل أصنافه وأنواعه. وهذا الإنسان العابد لهواه والذي يتورط حتما في عبادة الطواغيت والأصنام والأوثان أي في الكفر والشرك والنفاق، يصاب إذ يؤله هواه بأخطر مرض يصيب الوعي البشري ذلك هو مرض الجنون.

وإذا كان الجنون المعهود والمتعارف يتمثل في عجز المجنون عن التعامل مع الواقع الموضوعي مهما كان سبب جنونه، فإن جنون الوعي وهو الجنون الأعمق والأخطر، يتمثل في عجز عابد هواه عن رؤية الوجود كما هو في الحقيقة والواقع وذلك لانهماكه واستهلاك نفسه بالكامل في دائرة وهمية عدمية لا تؤدي أبدا إلى نتيجة تلك هي دائرة الأهواء. فإذا استشرت عبادة الهوى في نفس من النفوس عجزت عن رؤية شيء سوى نفسها، وعجزت عن تمثل الواقع الموضوعي تمثلا حقيقيا لأن هذه النفس تصبح حجابا على نفسها. فالمريض بعبادة أهوائه مجنون لأنه ليس محجوبا بأمر عرضي يزول، بل هو محجوب بما لا خلاص منه، أعني بنفسه التي لا مفر منها.

فإذا أصبحت النفس حجابا على صاحبها، قتلت الإنسان فيه وحجبته ، وبذلك تنعدم لديه قدرات العلم والسماع وهي صفات عقلية رفيعة. لذلك جاء قوله تعالى:» أم تحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون إن هم إلا كالأنعام بل هم أضل سبيلا»[1]، مباشرة بعد حديثه سبحانه عن الذين اتخذوا أهواءهم آلهة معبودة. فنبه بذلك إلى المآل الحتمي لعبّاد الهوى والمتمثل في معانقة الصمم والجنون بتغييب قدرتي السماع والتعقل. ويعني العجز عن السماع افتقاد الشرط الموضوعي للوعي بالحقيقة، حقيقة كل شيء كوجود مستقل موضوعي غير متأثر بأوهام الذات.

وهذا العجز هو المقدمة الأساسية التي تحتم الوصول إلى المرحلة النهائية أي مرحلة الجنون بما تعنيه من انعدام الوعي الايجابي بالحياة وحقائقها، الأمر الذي يدفع إلى تصنيف الإنسان عند هذه المرحلة من تهالك الوعي واضمحلاله ضمن الأنعام، بل إلى اعتباره دون هذه المخلوقات وعيا وذوقا وحسن تصرف.

(١) سورة الفرقان : ٤٤

ثم وجه الله سبحانه الخطاب إلى نبيه عليه السلام ومن ورائه إلى كل مؤمن بربه:» ألم تر إلى ربك» ؛ فعبر بالرؤية تدليلا على أن ما يدعو إلى رؤيته قابل للرؤية والمشاهدة وليس أمرا خفيا مجهولا. غير أن في تخصيصه للمؤمن بالخطاب، تنبيه إلى غفلة الكافرين المشركين عن مثل هذه الرؤية رغم أنها متاحة وفي متناول الأبصار. وهذا الموقف هو موقف المشركين من قضية الإيمان أيضا، حيث أنكروا الغيب رغم أن آياته ظاهرة لا تجحد.

فجاء مد الظل آية ظاهرة دالة على الغيب الكامن في جوهر الإنسان وفي قلب العالم. فكل ما تجسد من العالم له صورة ظلية كامنة فيه. هذه الصورة جعلها الله تعالى آية دالة على العمق الكامن في العالم، ذاك عالم الروح والمعنى، أي العالم المعقول. ثم إن الظل لا يخرج ولا يصبح مشهودا إلا إذا تسلط النور على الجسد، سواء أكان نور الشمس أو نور القمر:» ثم جعلنا الشمس عليه دليلا «، فدل بذلك على أن الإنسان لا يخرج حقائقه ولا يكشف عن أعماقه إلا بشرط الاستنارة أي قبول الهدى الإلهي النازل من السماء المماثل في انتشاره وفي فعاليته للشمس التي تشرق فتنير ظلمات الأرض. فإذا قبل الجسد الشمس واستنار بنورها، ظهر ظله فكشف بذلك عن خفاياه، وهي معجزة إلهية باهرة لم تكن لتتيسر لولا فضل الله تعالى ورحمته:» ولو شاء لجعله ساكنا». فلو أنه سبحانه أسكن الظل، لما اهتدى بشر إلى روحه، ولغرق إلى الأبد في ظلمات نفسه وليلها الدامس.

فثبت أن الظلمة للنفس تحصيل حاصل وطبع كائن، وأن الاستنارة أي الوعي بوجود الروح، هو الأمر الذي يتطلب دليلا وبرهانا ويتطلب تزودا بنور الهدى الموضوعي المتعالي: نور الله تعالى.

ثم أشار سبحانه وتعالى إلى خلق الليل والنهار:» وهو الذي جعل لكم الليل لباسا والنوم سباتا وجعل النهار نشورا «. فنبه سبحانه على الزوجية الكونية التي ألمحنا أنها أسلوب الخلق الكوني الذي ارتضاه الرحمن تأكيدا لمخلوقية الكون من ناحية، وتدليلا على وحدانية الخالق من ناحية ثانية.

فلما كان حال الكون الزوجية التي تتواتر على المحل الواحد تواتر الليل والنهار على الأرض وهي واحدة، كان من دلائل العقل ومن آيات الحكمة أن يعتقد الإنسان لزوم وجود زوج للجسد، هو روحه الذي يماثل من حيث الحقيقة والدور، دور الذكر بالنسبة للأنثى، وكل زوج بالنسبة لزوجه.

لقد دمرت النظرة القاصرة الأحادية عقول الوثنيين المشركين، فوقفوا عند ظاهر المعنى، وذلك لوقوفهم أولا عند ظاهر الحياة لا يعرفون إلى عمقها ولا إلى غيبها

سبيلا:» يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون»[1].
أما المؤمنون، فقد نقلهم الإيمان بالغيب إلى العمق، إلى حيث البدايات والأسباب الأولى. لذلك لم يمن غريبا أن تركز العبادة الايمانية على مواطن الوعي الغيبي لتجعل من القلب الخافق في لبّ الكيان، المعبد الحق الذي يعبد فيه الواحد سبحانه. ومن هنا اتسم الوعي التوحيدي أبدا بالتجريد بقدر ما اتسم الوعي الشركي أبدا بالتجسيد. وما بين التجريد والتجسيد مسافة ما بين الوعي واللاوعي أو ما بين الفهم والجهل.
هكذا يكون الموقف من الدنيا، إما تهالكا عليها وفرحا بها أو زهدا فيها ووعيا بعرضيتها، سببا جوهريا مؤسسا إما للإيمان أو للكفر. فما اختلف المؤمنون والكافرون إلا في الوعي بحقيقة الحياة الدنيا، وما تمثله ضمن مسيرة الإنسان عامة. إن الموقف الإيماني ينبني انبناء أساسيا على الوعي بعرضية الحياة الدنيا، وأنها تفنى وتزول؛ ولذلك يتوجه المؤمن إلى العمل على تحقيق الباقيات الصالحات التي مدحها الله سبحانه مبينا فضلها على كل أنواع الشهوات بقوله :» زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث ذلك متاع الحياة الدنيا والله عنده حسن المآب. قل أؤنبئكم بخير من ذلكم للذين اتقوا عند ربهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها وأزواج مطهرة ورضوان من الله والله بصير بالعباد» [2].
إن الاكتفاء بالحياة الدنيا يعني ضمنيا الاعتقاد في اكتفاء الإنسان بنفسه وبكماله في محض ذاته، وأنه لا يرجو شيئا يضاف إلى معناه، ولا حقيقة متعالية تكشف عن جوهره. ومن هنا نفهم لماذا ارتبطت العلمانية دائما بتأليه الإنسان، ونفهم سر أزمات الحضارة المادية الناشئة عن وضع المخلوق الذي يستحيل عليه أن يبدع وأن يطمئن وأن يرتاح. إنها أزمة وضع المخلوق في مكان الخالق بكل ما تعنيه من السعي العبثي لتحقيق اكتشاف كامل وهيمنة كاملة على أبعاد الوجود ومكونات العالم.
أما الإيمان، فهو في جوهر مضمونه إعلان عن عدم الاكتفاء، واعتراف بالنقص والعجز والحاجة المادية والمعرفية. إنه قبول المخلوق بأن يرى نفسه عارية، ولا عري إلا أمام آخر. ولذلك كان الإيمان تواضعا، ومن تواضع للحق رفعه.
لقد آمن الخليل عليه السلام لمّا رأى من آيات ربه، وشاهد عيانا كل شيء يأفل إلا خالق السماوات والأرض، وبذلك اكتسب يقينا دفعه إلى محاربة كل الآلهة

(١) سورة الروم : ٧
(٢) سورة آل عمران : ١٣ - ١٥

الأرضية الفانية المزيفة، وحرّضه على اختراق النار دون خوف ولا وجل. غير أن هذا اليقين العقلي القائم على الوعي بحقيقة التوحيد التي تشكل عماد حركة الكون والتاريخ والإنسان، لم يكن كل المطلوب وإن كان لبّ المقصود من حيث كان منطلقا لسعي الخليل إلى تحقيق مطلب آخر ضروري أيضا لاستقامة حياة الإنسان: إنها طمأنينة القلب، إحدى أعز أمنيات الإنسان، وإحدى أصعب التحديات المطروحة على هذا المخلوق فوق الأرض.

فما أهم حقائق تجربة الاطمئنان والأمان الإبراهيمي ؟ وكيف كانت هذه التجربة تطورا طبيعيا لتجربة اليقين والإيمان؟

٥ - تجربة الاطمئنان
بلوغ الأمان

استطاع الخليل عليه السلام أن يبلغ بتوفيق الله تعالى في الرشد كمالا قل أن يضاهيه فيه بشر.

فبعد تحطيم الرؤية الهرمية السلطوية للوجود، تربع عليه السلام على عرش المعرفة والوعي باكتشاف البعد الرابع المفقود: بعد الغيب الذي مكنه من تجاوز الرؤية الظاهرية العرضية للحياة إلى الوعي بالعمق الواحد الذي يحرك كل شيء ويدبر كل شيء ويهيمن على مسيرة كل الكائنات ويعتني بالإنسان في كل لحظات حياته.

وعبر مسيرته الجهادية لتحطيم أصنام المعبد الشركي الوثني والمتمثلة مركزيا في الكوكب والقمر والشمس، كان الخليل عليه السلام يلغي كل السلط الوهمية التي عششت في عقول آبائه وقومه فجعلتهم عبيدا لما لا يسمع وما لا يرى ولا ينفع ولا يضر. وبتهديم أركان التسلط والطغيان هذه عبر الوعي العميق بعرضيتها وزيفها وضلالها وأفولها، حرر الخليل عليه السلام عقله وأقام بنيانه على اليقين ملغيا بذلك شرعية كل البناءات المنهارة القائمة على الجهل وعلى الشك والظن.

وبتحرير العقل من التسلط، اكتسب رشده ولم يعد عقلا قاصرا متحكّما فيه من أي مخلوق، بل أصبح عبدا لله وحده لا يرجو من سواه خيرا أو مضرة.

لقد علم الخليل عن يقين أن كل شيء يفنى ويموت ويأفل، وأنه لا يبقى سوى الواحد الأحد. وهذا العلم بقدر ما حرره من هيمنة الآخرين ومن تسلط المخلوقين، أحزنه على مصيره هو الخاص، أي على حياته وبقائه. فقد ثبت لديه أن سهم الموت قضاء حتم لا يترك مخلوقا حيا ولا يستثني ذا نفس؛ فتيقن أنه لا محالة هالك وبالضرورة آفل كما أفل الكوكب من قبل والقمر، وما أمر الشمس ببعيد. حينئذ أيقن أنه لن ينقذه من نداءات الفناء المحلق والموت المهيمن سوى معجزة. معجزة يصنعها إلهه الواحد الأحد القادر على كل شيء.

معجزة تطمئن قلبه إلى معبوده، وتطمئنه هو أولا وبالذات على مصيره الخاص. حينئذ خاطب ربه : « وإذ قال إبراهيم رب أرني كيف تحيي الموتى قال أولم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبي. قال فخذ أربعة من الطير فصرهن إليك ثم اجعل

على كل جبل منهن جزءا ثم ادعهن يأتينك سعيا واعلم أن الله عزيز حكيم» [1].
تلك هي المعجزة التي طلب إبراهيم الخليل عليه السلام من ربه أن يريه إياها؛ معجزة خاصة كما يظهر من قوله:» رب أرني»، مما يدل على أننا أمام حوار حميم بين العبد والرب. لقد حاور الخليل عليه السلام عالم الملكوت بسماواته وأراضيه ليكون من الموقنين:» وكذلك نري إبراهيم ملكوت السماوات والأرض وليكون من الموقنين» [2].

وقد انتهى هذا الحوار وتمت هذه الرؤية بتحصيل يقين حاسم وهو أن عالم الملكوت آفل لا محالة بشموسه وكواكبه وأقماره. وبتحصيل هذا اليقين ارتفع السحر عن الساحر، وظهر وجه الكون كما هو آية من آيات الله لا تملك لنفسها نفعا ولا ضرا. كان هذا اليقين منطلق الوعي بالحق الكامن في الوجود، فاطر السماوات والأرض الذي يحيي ويميت وهو الحي الذي لا يموت. وبذلك اكتسب الإيمان الإبراهيمي بعده المعرفي العقلي التأسيسي الذي سيجعل منه إلى الأبد أصح إيمان وأثقله في عقل عاقل. ومع هذا الإيمان اليقيني بوجود الحق سبحانه، تولدت حاجة هي بالنسبة لرجل مثل الخليل ضرورة الضرورات وأخطر الحاجات، تلك هي حاجة النجاة من الفناء المتربص بكل شيء.

وهنا كان الخليل على خط اللقاء مع ربه في حوار حي أساسه إيمان عميق واعتراف لا يشوبه ريب بأن ربه على كل شيء قدير.

لذلك وجد نفسه يخاطبه قائلا:» رب أرني كيف تحيي الموتى». فما السر من وراء هذا الطلب ؟

لا ريب أن ظاهر الطلب واضح، فالخليل يريد أن يرى كيف تبدأ الحياة، لا بل على الأصح كان يرغب في أن يرى كيف تستعاد الحياة بعد الموت. ليست القضية حينئذ، رغبة مجردة في التعرف على الحياة والموت وأسرار هاتين الحقيقتين الغيبيتي الهوية رغم ظهور آثارهما في كل مخلوق وفي كل زمان ومكان، بل المطلوب هو رؤية البعث عيانا، والتأكد من النشور بكيفية يقينية لاشك فيها. إن رؤية الميت يبعث حيا تعني دفع الأمل إلى أقصاه والتحرر نهائيا من أسر الموت والعدم.

لقد بينا في مناسبات سابقة، أن الشيطان جعله الله تعالى قيوما على فلسفة العدم، حاكما على مجاله وعالمه، أي على عالم الوهم والخيال. وقيومية الشيطان على العدم لا تعني انفراده به أو خلقه له، بل هي منحة منحه الله إياها ليظهر

(١) سورة البقرة : ٢٦٠
(٢) سورة الأنعام : ٧٥

أثره في العالم، وليرى بأم عينه أن عناده وكبره كانا زيفا وهراء لا يقومان على حق. إن إنظار الله تعالى للشيطان إلى يوم يبعثون هو عين تمكينه من هذا المجلى العدمي يبرز فيه أثره وفعله ويظهر فيه وعوده:» وما يعدهم الشيطان إلا غرورا» [1].

ثم يختم الله تعالى هذا الإنظار بإلقاء الشيطان في النار، أي بإفنائه جزاء وفاقا على ادعائه وكبره. وما نزل الشيطان إلا إلى الدار الدنيا التي قال فيها الله تعالى»...وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور»[2].

فالوعد الغرور لا يكون إلا في دار الغرور، ولذلك انتقل إليها آدم مع شيطانه لما رضي بهذا الوعد. وهذا ينبهنا إلى أن الحياة الدنيا هي الوهم وهي العدم المعدوم، وأن أفضل عمل الإنسان فيها أن يتفطن إلى أنه يدور في دائرة وهمية، وأن يطلب لذلك من ربه الرحيم العليم أن ينجيه من سوء المنقلب، وأن يبلغه الوعد الحق بإدخاله إلى عالم الحق، إلى الوجود الذي لا يتبدل ولا يتغير ولا يفنى. وما نقول ليس مجرد كلام يقال، بل هو الواقع الذي لا شك فيه، فانظر إلى حياة الإنسان تجدها مصداقا لهذه الحقيقة الواضحة. فكل ما يعمله الإنسان، وكل سعيه وكل حياته إجمالا، تنتهي بحدث واحد وحيد هو الموت ليفنى بذلك كل شيء، ولا يبقى إلا ما أراد سبحانه أن يبقى.

ولا تبقى إلا الباقيات الصالحات التي لا يمكن أن تكون بالطبع مالا ولا بنونا. إن الإنسان يشتغل في فراغ ويعمل في العدم إن عمل للدنيا، ولن يكون جزاؤه إلا الموت شر ميتة تاركا كل عمله، بل الموت له ولعمله أيضا ليدل بذلك على أسوأ حالات الضياع والاضمحلال.

إن الدنيويين جميعا ينالون نفس هذا المصير، أعني الإفناء والإعدام جزاء بما ركنوا للدنيا التي لا حكم لها سوى الفناء والعدم والاضمحلال. وقد وعى الخليل جيدا حقيقة الكفر والشرك، وعلم أن الوثنيين ما التقوا إلا على الدنيا وحطامها الزائل : « وقال إنما اتخذتم من دون الله أوثانا مودة بينكم في الحياة الدنيا ثم يوم القيامة يكفر بعضكم ببعض ويلعن بعضكم بعضا ومأواكم النار ومالكم من ناصرين» [3].

فلقد أسس حب الدنيا الاعتقاد الشركي؛ وعلى العكس منه يؤدي الوعي بفناء الدنيا وبعرضية حطامها، وبما وراء ظاهرها من غرور، إلى تأسيس الاعتقاد

(١) سورة النساء : ١٢٠
(٢) سورة آل عمران : ١٨٥
(٣) سورة العنكبوت : ٢٥

التوحيدي وتركيز قاعدة الوعي الأخروي في عقل الإنسان.
يستحيل إذن على محب الدنيا أن يعي البعد الأخروي، وأن يعتقد في البعث. وهو إن تكلم عن الإيمان بالغيب وعن يوم يبعثون، فكلام زيف ونفاق فى الأغلب، كلام لا ينفعه قيد أنملة، ولا يزيد عمله إلا إحباطا. إن قوة النزوع الأخروي تنبعث من قوة النبذ للدنيا وحطامها، القائم لا على الانخداع الساذج أو الانهيار الجبان، وإنما على الوعي العميق بحقيقة الدنيا، بما هي دار فناء لا يغني ما فيها عن الإنسان شيئا. وعي يقوم على الملاحظة الموضوعية لحياة الإنسان في مبدئها ومنتهاها، وعلى التفكير الموضوعي في ما تؤول إليه الدنيا بلذاتها وأوهامها، وأيضا على النظر العلمي في ما يؤول إليه الكون والعالم. إن آخر الأخبار الكونية، والتعويل هنا على العلماء الواقفين بمراصدهم وأجهزتهم التي ما فتئت تتطور باستمرار، تؤكد على أن هذا الكون إلى فناء، وأن لكل شيء عمرا، ولكل شيء طفولة وشباب وشيخوخة، سواء أكان « ميكروبا « يحيا للحظات، أو نجما يحيا مليارات السنين.
لو كانت الحياة الدنيا دار بقاء لما صلح لها اسم الدنيا، ولكانت أولى بكل جهد الإنسان وعمله وكسبه، ولكان القتال والنزاع عليها أمرا يطلبه كل عاقل حكيم؛ ولكنها دار فناء وغرور، ولا يحصل الإنسان من متاعها إلا ما يفنى ويزول. وهكذا يؤكد الوعي الإيماني أن الحياة الدنيا تزول وأن التعويل عليها غرور، وأنه لذلك يجب العمل من أجل الآخرة، من أجل ما يبقى ولا يفنى. وهذا الوعي بمقولته الأخروية هذه، يغير جوهريا مجال الاشتغال الإنساني ليوجه الإنسان من الاشتغال بالدنيا إلى الاشتغال بالآخرة، ومن الرضا بمتاع الغرور إلى الرضا بوعد الله بالجنة والخلود.
قد يقول قائل ولكن المؤمن لا يعمل للآخرة إلا في الدنيا، ولذلك لابد له أن يهتم بها وأن لا يعتزلها كما يقول الكثيرون. والجواب، إن المؤمن يعي جيدا أنه في الدنيا، وهذا الوعي ينبهه إلى أنه في دائرة خطر محدق، وأنه لابد له من النجاة، ولذلك لا بد له من طلب أسباب النجاة، وهذا ما يدفعه بقوة إلى التعلق بالهدى الإلهي المنزل. هذا من ناحية، ومن ناحية ثانية يعلم المؤمن أنه صاحب نصيب في الدنيا لابد له من أخذه، ولكنه يعلم قبل ذلك أن نصيبه الحق والأبقى هو نصيب الآخرة. يقول سبحانه وتعالى : « وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا وأحسن كما أحسن الله إليك ولا تبغ الفساد في الأرض إن الله لا يحب المفسدين»[1].
إن ابتغاء الدار الآخرة فيما آتى الله الإنسان، هو الذي سينقذ هذا المخلوق من أن

(١) سورة القصص : ٧٧

يقبل ما يأتيه من الدنيا بذلّ، ومن أن يغتر بالسراب الخادع ظانّا أنه الماء الزلال. لذلك كان اشتغال المؤمن أساسا بالآخرة، وما وعد الله سبحانه المؤمن بشيء إلا بالجنة، وهي الدار الآخرة التي جعلها الله سبحانه للذين لا يريدون علوا في الأرض. وفي مقابل هذا الوعد، اشترى سبحانه من المؤمنين أنفسهم وأموالهم : « إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون وعدا عليه حقا في التوراة والإنجيل والقرآن ومن أوفى بعهده من الله. فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم»[1].

فالمؤمن يشتغل من أجل الآخرة، وهو يعي جيدا أنه فوق الأرض أي في الدنيا من أجل دور هو أساسا الخروج بسلام من هذه الحياة الدنيا، ورفض الاستهلاك والانحطاط إلى الأرض. أما الكافر فهو لسان حال الانحطاط، يقول سرّه: إني في الدنيا وفوق الأرض، إذن أنا في الانحطاط؛ فالانحطاط هو واقعي، ولذلك أيضا هو حقيقتي. ليس غريبا أن يكون القبول بالواقع على أنه المعنى النهائي، دائما لغة الضعفاء الخانعين وكلام السفهاء التافهين. وأحسن أمثلة هذا الكلام مما نعيشه اليوم قبول العرب الاعتراف بدولة اسرائيل مادامت قد أصبحت أمرا واقعا، والسعي بناء على هذه «الحقيقة» إلى معاهدتها على السلام والأمان رغم أنهم جميعا يعتقدون صدقا وتحقيقا أنها كيان مغتصب.

إن المؤمن يصر دائما على مبدأ نظام العالم ووحدة الوجود، وأن ما بناه الله تعالى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وأنه لذلك إذا كان الله تعالى قد قضى بفناء الدنيا وعرضية ما فيها، فإن وعده سبحانه الحق، رغم وجود الشيطان الذي يسعى إلى إخضاع الإنسان باسم سياسة الأمر الواقع. يقول الشيطان للإنسان: لقد انحط بك المقام، ونزلت إلى الأرض، ويدعوه إلى تشمم عرقه ومص دمه، فيجد هذا رائحة التراب فيغشاه الألم العميق، ولكنه يسلم بأن ما قيل له الحق، وهكذا يقبل النير الذي يحط على عنقه، ولا يتفطن إلا في آخر لحظة من عمره إلى أنه ضيع على نفسه فرصة عظيمة في الحرية والانعتاق. إن المؤمن يرى الدنيا واقعا مواقعا له لا مناص له من ذلك، ولكنه يراه واقعا قريبا نسبيا لأنه لا يراه وحده بل يراه ضمن واقع أكبر منه، إنه وعد الله الواقع أيضا لا محالة: « إنما توعدون لواقع» [2].

فإذا رأى الإنسان الوعد الواقع رؤية اليقين والإيمان، رأى في ضوئه الدنيا فعرف فقهها ومعناها، وعلم المطلوب منه فيها، وعرف ما يجوز له فيها وما لا يجوز،

(١) سورة التوبة : ١١١

(٢) سورة المرسلات : ٧

وتأكد أن أكبر الممنوعات والحرام المحرم أن يقبل النوم فيها والاستكانة إليها، والإخلاد إلى أرضها الذي يمثله أكبر تمثيل، عبادة صنمها وتأليه وثنها، وأن أهم المطلوبات الفرار إلى الله تعالى والاستهداء بهديه المبارك. لذلك كانت حياة المؤمن فوق الأرض شهادة تنطوي على نبذ وتعلق؛ نبذ للدنيا بما هي فناء واضمحلال وموت ودار غرور، وتعلق بالآخرة بما هي أمل وخلود وبقاء وسماء. ذلك هو جدل الوعي الإيماني الأعمق منبع القوة الإيمانية، ومبدأ الفضائل الروحية. فبحب الآخرة، نسي المؤمنون حب الدنيا؛ وبحب الله تعالوا عن التعلق بحب الخلق. فما حصل هذا إلا بهذا، وذلك هو عين العقل الإيماني الذي هو عقل نفعي وظيفي حيوي لا يعمل بمقتضى الهوى ولا يسعى وراء سراب، بل يطرق البيوت من أبوابها ويلبس لكل حالة لباسها ولا يقضي إلا بالحق.

إن عمق الإيمان شهادة أن ما هو فان فهو فان بالضرورة، وما هو باق فهو باق بالضرورة. وعوض شغل النفس بتخليد الفاني وإفناء الباقي وهو عين العبث وهو عمل الكافرين، فالأولى التحالف مع الباقي وترك الفاني لمصيره الحتمي. وهذا هو أيضا عين العقل.

ولو شئت أن تتأكد فانظر إلى هذا التدبير في دائرة التجارة والأعمال. إن الحاذق من التجار لا يشتري سلعة فاسدة يعلم أنها تبور، بل يحرص على أن يشتري ما يضمن تسويقه وبيعه مقتنعا أنه لا مناص له لكي ينجح، من التعامل حسب قوانين السوق لا حسب تقديراته وأوهامه هو. هذا في سوق التجارة والأموال، وكذا في سوق هذه الحياة التي نحياها، لابد أن يعي الإنسان جيدا أنه ضمن وجود كبير يتجاوزه كفرد وكنوع، وأن كوكبه من ضمن مجموعة كبرى تتجاوزه، وحكم القائم في المحل عين حكم المحل، ولذلك فأولى له أن يفهم الحياة والموت، وأن يعترف بما وراء الحياة والموت مادام أمرا واقعا مؤجلا عوض أن يقضي حياته مجادلا فيما لا يمكن تغييره، متعنتا حول ما لا يمكن تحويله. إن أولئك الذين رفضوا حقيقة كون الأرض تدور، لم يفعلوا سوى أن أضلوا أنفسهم، أما الواقع، فقد كانت الأرض تدور بهم وبغيرهم.

علم الخليل عليه السلام، أنه كائن يموت فوق كوكب آفل ضمن مجرة آفلة، فعرف ربه الجبار الذي لا يقاوم ولا يقبل إلا الخضوع الواعي المطلق والإسلام النهائي الذي لا ريب فيه. فأمام الفناء والموت يخضع كل شيء ويركع كل شيء:» ولا تدع مع الله إلها آخر لا اله إلا هو كل شيء هالك إلا وجهه له الحكم وإليه

ترجعون»[1].

وأمام نفس هذا الجبار فاطر السماوات والأرض، ركع الخليل ودعا، وأسلم وبكى وطلب، وكان طلبه الأول أن يطمئن ويأمن : « وإذ قال إبراهيم رب اجعل هذا البلد آمنا وارزق أهله من الثمرات من آمن منهم بالله واليوم الآخر قال ومن كفر فأمتعه قليلا ثم أضطره إلى عذاب النار وبئس المصير» [2].

هذا البلد الذي يطلب الأمان، هو الإنسان الذي يطلب البقاء؛ فلا خوف إلا من الفناء ولا طلب إلا للبقاء، ولا مطلوب إلا الوجود ولا مرفوض إلا العدم. ذلك هو جوهر السؤال وتلك هي القضية الرئيسية التي تستعاد بألفاظ شتى ولكنها في العمق قضية واحدة: أن نكون أو لا نكون. والخليل عليه السلام مع الكون، مع البقاء، مع الوجود. ولعله في هذا لا يعبر إلا عن رغبات الإنسان وآماله، رغبات الممكن في التحقق كما وصفها البعض، ولكنه يتميز عن الكثيرين في أنه يعلم أن البقاء للفاني لا يحصل إلا بمعجزة، إلا بإنقاذ وتدخل مباشر ممن لا يرد كلامه، ممن يقول لكل شيء كن فيكون.

لابد من معجزة إذن للحفاظ على الأمل، وهذه المعجزة لن يقدمها إلا واحد أوحد، هو فوق الفناء وفوق الموت: « رب أرني كيف تحيي الموتى». كان الخليل إذن يرغب في أن تتحقق المعجزة وفوق ذلك، في أن يراها بعينه لتصبح رؤية لا يلابسها الوهم ولا يداخلها الشك. كان الخليل هنا عبدا يبحث عن الرب، خائفا يطلب الأمان، خطاء يرجو الرحمن. فهو يعلم علم يقين أن كل شيء هالك، ويعلم علم يقين أن الله تعالى حي لا يموت؛ ولكنه لا يعلم علم يقين إن كان سبحانه سينقذه وينجيه أم لا.

لذلك تذرع لرؤية البعث بالسؤال:» رب أرني كيف تحيي الموتى». كان يعلم أنه إذا رأى الميت يرجع حيا، فسوف يكتسب هو نفسه مناعة ضد الموت، وسوف يصبح الموت بالنسبة إليه مرحلة عارضة قابلة حتما للتجاوز لا مأساة مرعبة لا مقدرة على تجاوزها. كان الخليل إذن يبحث عن حصانة ضد الموت، حصانة تطلبها نفسه وتهفو إليها وتعلم يقينا أنه لا يملك إعطاءها إلا الرب الرحيم. ولذلك طلب، ولذلك دعا ربه. وكان رد الله الواحد على هذا الطلب الإبراهيمي بتوجيه سؤال ظاهره الاستفسار وباطنه الاختبار. قال الله تعالى لإبراهيم:» أولم تؤمن». لماذا سأل الله تعالى إبراهيم هذا السؤال ؟.

من الواضح أن السؤال الإبراهيمي يسعى إلى التأكد من حقيقة ما. وطلب التأكد

(١) سورة القصص : ٨٨

(٢) سورة البقرة : ١٢٦

هو دائما قرين الظن والشك. فالمستيقن لا يحتاج لدليل، كيف لا وهو ما استيقن إلا بدليل وبرهان. ولذلك كان سؤاله سبحانه وتعالى دقيقا واضحا:» أولم تؤمن». لأنك إن كنت آمنت فما حاجتك لدليل جديد؟ وما طلبك لرؤية جديدة ؟ وقد أجاب الخليل عليه السلام:» بلى»، فأكد إيمانه وأعلن يقينه، كيف لا وهو في حالة حوار مباشر مع من آمن به.

فالثابت أن الخليل عليه السلام الذي حاور السماوات والأرض وراقب النجوم والكواكب حتى وصل إلى الإيمان الصادق بربه الواحد، لم يكن في وضع شك ولا ظن، بل كان مؤمنا صادق الإيمان، دليل ذلك توجهه بالسؤال إلى ربه الذي آمن به:» رب أرني..» فلو كان ناقص إيمان لما وقع منه السؤال والطلب أصلا. فدل بذلك أنه لا يطلب يقينا موضوعيا مقتضاه صحة الإيمان وسلامة عقيدة التوحيد، لقد انتهت هذه التجربة بالنسبة للخليل وتحصل على يقين ثابت شهد به الحق سبحانه وتعالى :» وكذلك نري إبراهيم ملكوت السماوات والأرض وليكون من الموقنين».

ماذا بقي إذن ؟ لقد بقي الاطمئنان على مصير الذات، أي تحصيل النجاة. و كان يعلم أنه إن رأى بأم عينه نفسا تبعث بعد الموت، فسوف تشفى نفسه نهائيا من الخوف على مصيرها الخاص. هذا الخوف الذي يزداد تعمقا كلما ازداد الإنسان وعيا ومعرفة بالعالم. فكلما ازداد الإنسان معرفة بوضعه الكوني وبوضع العالم جملة، وبما هو عليه من خطر الفناء المحدق، ازداد فرقا وازدادت نفسه شعورا بالغربة والوحشة وخوف الفناء. والخليل عليه السلام قد استمع إلى نغمة الفناء التي تلف الكون علويه وسفليه. و بقدر ما كشفت له هذه النغمة عن وجه ربه الخالق، بقدر ما حركت كل مخاوفه، وأحيت كل هواجسه، وجعلت خوفه الطبيعي من الفناء يشتد ويزداد.

من الثابت أن حب البقاء والرغبة في الخلود مطلب إنساني طبيعي فطري.وهذا المطلب لا يخبو في بشر وإن تغيرت طرق التعبير عنه. وقد استغل إبليس اللعين هذه الرغبة في الإنسان لكي يدفعه دفعا إلى الخطيئة: «...مانهاكما ربكما عن هذه الشجرة إلا أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين»[1].

وبنزول آدم إلى الأرض انفتح باب الفناء تماما كما انفتح باب البقاء، وسعرت الجحيم للمجرمين تماما كما أزلفت الجنة للمتقين. وكل وعي بحقيقة الفناء، لابد أن يبعث على الرعب والخوف والاضطراب الكامل.

إن كل المأساة تكمن في هذا الإمكان، إمكان الفناء والاضمحلال. ولا يقدر هول

(١) سورة الأعراف : ٢٠

هذه المأساة إلا مخلوق واع عاقل عارف بالكون ومآله. أما الجهلة في كل عصر، فهم لا يهتدون سبيلا ولا يعرفون ما يترصدهم. ألهتهم الدنيا عن ما ينتظرهم، وغرهم بالله الغرور. وقد وعى الخليل عمق المأساة الكامنة في صلب وجوده كإنسان وعيا كاملا وحقيقيا، وشعر بالفناء الذي يتخلل كيانه شعورا لا شك فيه. ووقف عند مفترق الإمكان: إمكان الوجود وإمكان العدم؛ وعلم حينئذ أن لا مرجح لإمكان الوجود سوى ربه سبحانه، إذ لا مقدرة له وهو الكائن الممكن، على ترجيح وجوده على عدمه. وكيف يستطيع ذلك وهو الخاضع حتما لقانون الموت والحياة. عند هذا المفترق بالذات، وطلبا للأمان والاطمئنان على المصير، لم يكن يجدي سوى الدعاء والطلب. والدعاء في حياة الخليل عليه السلام، موقف وجودي كامل سوف نتناوله في الإبان.

كان الخليل قد آمن إذن واستيقنت نفسه حقيقة العالم وحقيقة وجود الخالق، ولكن ما كان ينقصه هو الاطمئنان على مصيره الخاص، أي على نجاته من أسر العدم والفناء لذلك أجاب ربه لما سأله عن إيمانه:» بلى ولكن ليطمئن قلبي». فأكد إيمانه، وأعلن عن اضطراب قلبه، والقلب من الإنسان مركز الوجدان فيه وموطن الشعور والإحساس. وما لم يتحول اليقين المعرفي النظري إلى اطمئنان قلبي وجداني، فإن وجوده لا يغني عن الإنسان شيئا. لقد آمن الخليل بعقله، أي وعى الحقيقة وعيا موضوعيا لا مجال للنقاش فيه، ولكنه كان يرغب في تنزيل هذه الحقيقة إلى قلبه، إلى دائرة شعوره الخاص لكي تصبح حقيقته هو، وضمن وعيه هو وداخل كيانه الخاص، وهو ما يمكن تسميته امتلاك الحقيقة واستيعابها ضمن نظام الذات لا خارجها فقط.

إن الحقيقة حقيقة كل الناس أو هي حقيقة الوجود، وهي لهذا لا تتأثر بشيء، ويقبل منها كل كائن بقدر وعيه واستعداده. وفي موقف الكائن من الحقيقة لحظتان متضامنتان، لحظة الوعي بها في مطلق معناها، وهو اكتشاف موضوعية الوجود ومفارقة العالم؛ ولحظة الوعي بها داخل الذات، وهو اكتشاف الذات داخل الحقيقة واكتشاف الحقيقة داخل الذات، أي الوعي بوحدة الوجود بعد الوعي بموضوعيته. وعبر الوعي بالحقيقة في اللحظتين معا، يتأسس وعي شامل بالوجود أو بالحقيقة كحقيقة وكذات معا، أو قل كاله وإنسان، كخلود وزمان، كآخرة وأولى، وفي المحصلة كوعي وشعور وذلك هو كمال المعرفة وهو كمال الإيمان. وما لم يتحول اليقين إلى اطمئنان، فإنه يكون مجرد معرفة، أو قل مجرد اطلاع قشري ظاهري لا يغني من الحق شيئا. إن الإيمان الصحيح هو تحول المعرفة إلى اطمئنان، أي إلى سبيل نجاة وذلك هو معنى الهدى، وهو ما لا يتأتى

إلا من الدين ومن الدين فقط. إن أية فلسفة قد تقف عند حدود المعرفة، وكم من فيلسوف عارف، ولكنه شقي القلب لأن معرفته لم تتحول إلى قلبه.
ولكن المؤمن هو العارف المطمئن. وكل مطمئن فرحان ولابد. وهذا يذكرني بقول « النفّري» رحمه الله في مخاطباته على لسان الحق الذي يخاطب عبده بقوله :» وافرح فإني لا أحب إلا الفرحان». لا يمكن أن يلتقي الإيمان أبدا مع شقاء القلب، وإن جاز أن يشقى المؤمن بجسده. تلك علامة فارقة بين الإيمان وسواه. فمن لم يجد طمأنينة قلبه، ومن لم يجد في نفسه الثبات أمام كل دواعي الفناء والعدم فليتهم إيمانه، فإن حقيقة الإيمان هي عين هذه الطمأنينة وعين هذا الثبات، لذلك استدرك الخليل عليه السلام بقوله:» ولكن ليطمئن قلبي»، بعد أن قال بلى آمنت.

ضمن تجربة الإيمان التقى الخليل عليه السلام بالله تعالى في العالم، وضمن تجربة الاطمئنان التقى بربه في قلبه، وبالتجربتين معا اكتمل إيمانه. وهنا في تجربة الإيمان الإبراهيمي تبرز العلاقة بالله تعالى كمفارق وكمحايث معا، كمتعال وكمتنزل معا، كاله وكرب معا، كواحد خالق وكمحي مميت. فلم يغن التحقق من الدليل في الأكوان عن التحقق من الدليل في الوجدان ليتم الإيمان ويحصل الاطمئنان. وبذلك حضر الله تعالى كغائب وكمخاطب معا، فتهيب العبد وتقرب، وشاهد الجلال والجمال، فلم ينفرط عقد التوحيد بين الألوهية والربوبية، بل اكتمل بالجمع بينهما.
إن الإيمان الإبراهيمي هو النموذج الأصفى والأرقى لإيمان مؤمن ما بقيت الأرض. والخليل عليه السلام، هو المؤسس لدرب الإيمان والإسلام، فإذا حدث بعده ما يوجب المراجعة والإصلاح، فإن تجربته عليه السلام يجب أن تكون الميزان والمعيار الفاصل بين الصواب والخطأ وبين الاعتدال والتطرف. لقد انقسم الإيمان الإسلامي انقساما خطيرا بعد رسالة محمد صلى الله عليه وسلم، أدى إلى تضييع حقيقة التوحيد وذلك نتيجة التنازع في التأليه بين وعي فقهي يرى الله تعالى خالقا متعاليا مكلفا، ويرى المخلوق كائنا منفصلا عن خالقه، بعيدا عنه غير مرتبط به سوى برباط الأمر والنهي، الأمر الذي أدى إلى جفاف عقيدة التوحيد وفساد منظومة الإيمان جملة، نتيجة لهذا الجفاف ليصبح إيمانا شكليا قائما على المظاهر والمراسم والحدود، غير آبه بحرارة اللقاء ولا بعمق التعاطف ولا بقيمة التواصل القلبي الحي بين الله الرب والعبد المؤمن المربوب.
وفي مقابل هذا الوعي، وجد الوعي القلبي الحي بالذات الإلهية والذي يصر على استثمار التوحيد كرصيد أساسي إن لم نقل وحيد للطمأنينة والأمان، نفسه

مضطهَدا، الأمر الذي أدى إلى ظهور تيار عرفاني جارف أغرق الإيمان في علاقة الحب والتواصل، وأكد أن لب التوحيد الوعي بوحدة الوجود أي باتحاد الخالق والمخلوق وعدم انفصالهما أحدهما عن الآخر.

ولعل بعض أفراد هذا التيار قد انتهوا مدفوعين بما يرون من شكلانية الفقهاء، إلى رفض شكلانية العبادة وحدود الشريعة جملة، الأمر الذي خلق تطرفا آخر لم يكن بالضرورة مصدر غنى لعقيدة التوحيد بقدر ما أصبح مصدر تمزيق لها. وهكذا غاب التوحيد الصحيح بين الشكلانية الفقهية ووحدة الوجود الصوفية، وأصبح المسلم من أتباع هاتين الطريقتين يعرَّف بطريقته لا بإسلامه؛ فإذا قيل «ابن تيمية» أو « أحمد بن حنبل»، نسبا مباشرة إلى الفقه، وإذا سمعنا اسم «الجنيد» أو» ابن عربي» نسبناهما مباشرة إلى الصوفية. ولم يعد مستغربا عندنا أن نقول فلان صوفي وفلان فقيه لا على سبيل التصنيف المنهجي بل على وجه اعتقاد الخصوصية والتفرد والمخالفة بين هذا وذاك.

وإذا كان البعض يرون في هذا الذي حدث من تقسيمات وتسميات إثراء للواقع العقدي والثقافي والحضاري الإسلامي، فإني لا أرى فيه في هذه اللحظة الحضارية بالذات من تاريخ الأمة سوى مرض خطير هو أشد على الأمة من عدو خارجي مترصد.

ما أحوج المسلمين اليوم لتنقية أجوائهم الثقافية والاعتقادية من هذه التصنيفات البغيضة، وما أحوجهم إلى أن ينظروا إلى تراثهم وإلى واقعهم بعين التوحيد لا بعين التفريق وهم الذين يشكون من الفرقة والتمزق على كل المستويات. لابد أن يعود المسلمون إلى التوحيد الأول الصافي، توحيد إبراهيم الخليل عليه السلام القائم على اليقين العقلي والاطمئنان القلبي، التوحيد الجامع بين الوعي بالله تعالى كاله خالق، والشعور به سبحانه كرب رحيم،هو الذي ينشر الطمأنينة في قلب المسلم. التوحيد الذي يعي المسافة الحقيقية بين الخالق والمخلوق فيحترم الشريعة ويقيم الحدود، والذي يعي في نفس الوقت النسب الروحي الشريف الجامع بين العبد والرب، فيعلن الوحدة ويفصح عن العلاقة، ويعلن الحب بدون وجل أو خوف إذ من أجل هذا الحب بالذات، أقيمت الصلاة وارتفع الأذان. مثل هذا التوحيد الذي يربط بين العبد والرب بعهد لا يزول كما ارتبطت السماوات والأرض بماء طهور، والذي يؤكد على أن الألوهية دعم للمخلوقية، وأن الله سبحانه سند للإنسان وليس عدوا له،

هو وحده الذي يحتاجه المسلمون اليوم لأنه وحده التوحيد الحقيقي،ولأن ما عداه من تصنيفات ليست سوى مكتسبات عصور التفرقة ونتائج الانقسامات

الاجتماعية والثقافية، أو نتائج الترف والارتخاء العقدي والفكري. لابد أن نعود اليوم إلى الاسم الوحيد الجامع بين المسلمين، فلا نسمي المسلم بأكثر من كونه مسلما، ونلغي كل التسميات الزائدة. فالذي يمارس العبادة الروحية، ويزداد من الأوراد ومن الصلوات والصيام والزكاة والقيام، ليس أكثر من مسلم حقيقي ملتزم. لسنا بحاجة إلى القول إنه صوفي وكأن له مذهبا متميزا خارج أو داخل الإسلام. وكذلك الذي يراعي حدود الله ويحافظ على أوامر الشريعة، هو مسلم لا غير، لا نحتاج إلى وصفه بأكثر من هذا الوصف. ثم إننا لا نحتاج إلى تقسيم التراث بحسب التصنيفات المتعارفة إلى عرفان وبرهان وبيان، وإلى الفصل المتعسف في أغلب الأحيان بين علماء المسلمين ومثقفيهم، بقدر ما نحن بحاجة إلى نظرية تبحث عن عناصر الوحدة في التراث، وتسمو إلى الكشف عن الاسم المشترك الجامع لكل المصلين.

لقد جاء الإسلام بالتوحيد مؤكدا على أنه سر القوة وأساس كل خير روحي ومادي، وأنه قبل ذلك هو الحق الذي لا حق سواه، وكلما تفطن المسلمون إلى ضرورة المحافظة على عناصر الوحدة في دينهم وثقافتهم،وابتعدوا عن أسباب الاختلاف والفرقة، كلما كان ذلك دعما لوجودهم وتقوية لصفهم.

إن الإيمان لا ينفصل بعضه عن كله، ولا يغني بعضه عن كله، ذلك ما يعلمنا إياه الخليل عليه السلام؛ وإن أقصى ما يطمح إليه المسلم هو عين هذه التسمية، أعني أن يتحقق حقا بمضمون اسم» المسلم»، لأن أرقى خلق الله هم المسلمون، جعلنا الله تعالى منهم وفيهم، اللهم آمين.

سعى الخليل إذن إلى تحصيل يقين ثابت قائم على العيان بالعنصر الغيبي الثاني بعد عنصر الألوهية والمتمثل في عقيدة البعث. وطلب من ربه أن يريه كيف يحيي الموتى ليكون في هذه الرؤية طمأنينة قلبه، حيث من المعلوم أن الطمأنينة نتاج السكينة، ولا سكينة إلا بيقين. فثبت من ذلك أن عقيدة البعث هي أحد أهم أركان عقيدة الغيب وأحد أخطر أجزاء الإيمان الغيبي الذي دعا الله إليه المؤمنين المتقين. ولذلك لم يرفض الله تعالى طلب إبراهيم الخليل، بل أقره وأجابه عليه بعد أن تأكد من يقين عبده وإيمانه بالله الواحد الأحد. عرف سبحانه أن عبده ليس عنده أدنى شك في وجود الله ، ولكن شكه وضعفه كامنان في نفسه هو، واليقين الذي يسعى إليه هو يقين بشأن الإنسان لا بشأن الرحمن. فالرحمن لا شك فيه ولا خلاف، وقد جاءت آيات السماوات والأرض مؤكدة على وجوده وتدبيره سبحانه. إن الوعي بوجود الواحد الأحد رب الوجود، الحي الذي لا يموت، يبعث في الإنسان وهو الموجود الممكن، أقصى الآمال وأكبر الرغبات في تحقيق

حلمه الذي لم يفارقه ولا يمكن أن يفارقه، أعني حلم الخلود والبقاء.
ومن هنا ارتباط عقيدة التوحيد بعقيدة البعث ضمن ما يسمى الإيمان بالغيب. فالإيمان بالغيب يعني أولا وبالذات، الإيمان بالله الواحد مدبر الكون وخالق الإنسان، والإيمان بيوم يبعث فيه الناس ليحاسبوا على أعمالهم. فمن آمن بالله وكفر بالبعث كان من الكافرين، هذا وإنه من المستحيل عقلا الإيمان بالبعث دون الإيمان بالباعث، أعني الله الواحد الأحد.
فالعلاقة بين عقيدة التوحيد وعقيدة البعث علاقة جوهرية. فعقيدة التوحيد تكشف عن الله الواحد الأحد، وعقيدة البعث تبني الإنسان المؤمن المجاهد. وبدون إيمان بالبعث، وعمل على الأمان والاطمئنان يوم يبعثون، يوم الفزع الأكبر، فإن عقيدة التوحيد تصبح غير ذات موضوع، ولا تؤدي إلى أي تغيير جذري في شخصية الإنسان.
إن الإيمان بالبعث هو الذي ينزّل التوحيد إلى مستوى الإنسان ليصبح هذا التوحيد مشروع نجاة وباب أمل وطريق نور وترقّ وسمو. معنى الإيمان بالبعث، أن من في الأرض يهفو إلى من في السماء، وأن الهابط بالشرك يؤوب بالتوحيد إلى ربه وإلى جنته. ولذلك كان الإيمان بالبعث الأساس الميتافيزيقي للجهاد والعمل والشهادة. ولا يمكن أن تسمو أية عقيدة في الأرض إلى مستوى كفاءة عقيدة الإيمان بالبعث في القدرة على تحريك مشروع الإنسان ودفعه إلى أن يصبح مشروع بناء وعمل وعطاء. إن الإيمان بالبعث يعني أن الإنسان كائن حي خالد لا يموت إذا أراد وعمل وجاهد وشهد أن لا اله إلا الله، أي إذا استثمر عقيدة التوحيد واستخدمها واهتدى بها.
وكل إيمان بالله لا يقترن بالإيمان بالبعث لا يمكن أن يكون إيمانا فاعلا حقيقيا، ولا يؤدي إلى تغيير حقيقي على مستوى حياة الإنسان نفسه. لذلك كان الخليل واضحا عندما سأله ربه قائلا:» أو لم تؤمن»، فأجاب :» بلى ولكن ليطمئن قلبي». فهو مؤمن بالله إذن، ولكنه يطمح إلى أن يستثمر هذا الإيمان في سبيل البناء، في سبيل طمأنينة القلب؛ فلا معنى للحديث عن قلب بدون طمأنينة وسكينة، فالقلب المضطرب هواء.
فعلمنا أن الإيمان ثمرته الاطمئنان، وأن الاعتراف بالله تعالى الذي نعبر عنه بالشهادة لله وأنه لا اله إلا هو، هو منطلق للاعتراف بالإنسان وتركيزه وتثبيته ككائن خالد مطمئن ساكن. تلك هي أهم مؤسسات الرؤية الوجودية الإسلامية الهادفة إلى بناء إنسان مطمئن القلب، إذ ببناء القلب يبنى الإنسان، وبخرابه يخرب هذا البنيان.

لقد ربط الخليل عليه السلام، بين رؤية مشهد البعث (إحياء الموتى)، وبين طمأنينة القلب. فعلمنا أنه كلما ازداد الإنسان إيمانا بالبعث، كلما ازداد طمأنينة، وكلما ابتعد وغفل عن عقيدة البعث كلما ازداد اضطرابا وفراغا. إن هذا يعني بالتالي أن الدنيويين الماديين هم أفرغ الخلق قلوبا، وأنهم الذين قال فيهم الحق سبحانه:» ولا تحسبن الله غافلا عما يعمل الظالمون، إنما يؤخرهم ليوم تشخص فيه الأبصار. مهطعين مقنعي رؤوسهم لا يرتد إليهم طرفهم وأفئدتهم هواء»[1].

فالظالمون، وهم الذين لم يؤمنوا بالله والذين لم يعملوا على مكانتهم عند الله سبحانه، سوف لن يجدوا ساعة انكشاف الغيب قلوبا مطمئنة عامرة بالإيمان، مؤمنة بالخلود، مستعدة للجنة، ولكنهم سوف يكونون كالخشب المسندة التي لا قلب لها أصلا. فجهاد الإنسان ونضاله فوق الأرض، إنما هو من أجل طمأنة نفسه وتحصيل السكينة والأمان.

ولهذا يؤكد القرآن الكريم دائما أن من يجاهد فهو إنما يجاهد لنفسه؛ وبذلك يجعل عقيدة التوحيد كلها في خدمة هذا الهدف العظيم: بناء الإنسان من جديد بناء يؤهله للخلود وللجنة، ويمكنه من القوى والأنوار التي بها يعانق الملأ الأعلى الروحاني من جديد. يقول سبحانه وتعالى:» من كان يرجو لقاء الله فإن أجل الله لآت وهو السميع العليم. ومن جاهد فإنما يجاهد لنفسه إن الله لغني عن العالمين»[2].

فجعل سبحانه موعد البعث موعد لقائه هو، فتأكد أن لحظة القمة في جهاد الإنسان وعمله، هي هذه اللحظة بالذات التي فيها يكرم المرء أو يهان. ولو أن بشرا بنى حياته على اعتبار هذه اللحظة بالذات والاستعداد لها، لاستحال أن يفشل، لأن حياته عندئذ سوف تصبح جهادا متواصلا من أجل التقدم ومن أجل السمو ومن أجل أحسن العمل. ولذلك فقد كانت السيرة الجهادية تضعف وتتهاوى كلما تراجع الوعي بالغيب والإيمان به، وكلما أغرق الناس في مطالب دنياهم الرخيصة. وفي ظل ثقافة دنيوية مادية، لابد أن ينظر إلى الجهاد كعناء غير مرغوب فيه، بل لابد أن يصبح عدوا لا يرغب أهل الأهواء وأتباع الشهوات حتى في مجرد سماع اسمه.

وهذا ما نراه اليوم واقعا لدى المسلمين، فقد استولى عليهم حب الدنيا، وأطغتهم الأهواء وعبدوا الشهوات حتى أصبح الجهاد بالنسبة لهم أمرا منكرا، وأصبح المجاهدون فيهم قلة معدودة عدّوهم من المتطرفين الذين لابد من إبادتهم،

(١) سورة إبراهيم : ٤٢ - ٤٣

(٢) سورة العنكبوت : ٥ - ٦

المتمثلة في الجنة، هو امتياز للمؤمنين الذين صنعوا بإيمانهم وعملهم الصالح، جناحين قادرين على الارتفاع بهم.
وكأن السماء تنبه هنا، إلى أن البعث بما هو استعادة للحياة الآخرة ونيل للخلود والبقاء، سوف يكون امتيازا خاصا لنخبة متميزة من هذا الوجود الحيواني الإنساني الذي شرفه الله تعالى.
قال تعالى:» فخذ أربعة من الطير». جعل معجزة البعث في أربعة من الطير لمعنى من المعاني العالية، ولحقيقة من الحقائق قد لا ندركها اليوم، ولكننا سندركها إن شاء الله يوم البعث، يوم لقاء الله تعالى الذي سيعرفنا كل شيء وسوف يعلمنا كل شيء. غير أننا نبادر فنجتهد في الأمر فنقول: إن التربيع دليل الاكتمال والانتظام والقوة؛ فأركان البيت العتيق أربعة، وهكذا كل بيت مكين، وأركان الإسلام أربعة وخامستها شهادة هي بمثابة الاعتراف بهذه الأركان، والإعلان عن الالتزام بها. وعموما، فإن البناء التوحيدي يعتبر التربيع أحد أهم خصائصه المميزة لما فيه من أبعاد التمكن والتمام والإشراف والرسوخ.
وقد رأينا أن الخليل عليه السلام، إنما أسس طريقه المميز، أعني طريق الإسلام والإيمان، عندما اكتشف البعد الرابع الغيبي متخلصا بذلك من هيمنة هرمية ثلاثية الأبعاد متمثلة في طغيان الملك والأب والقوم الذين ينتسب إليهم. فلما عرف ربه، استطاع أن يتعرف على زيف السلطة المعلنة في هذه الهياكل المعبودة، وزحف على معبد الأصنام يحطمها بدون خوف ولا وجل. إن الوصول إلى الحقائق الأربع يعني دائما الوصول إلى النجاة، وتحقيق الأسس الفعلية للخلاص. إن الطيور الأربعة:» فخذ أربعة من الطير»، ويظهر من السياق أنها ليست من نفس النوع، أي أن كل طير من فصيلة تخالف الأخرى، سوف تذبح ثم يقع خلط دمائها ولحومها وعظامها:» فصرهن إليك»، ثم يوضع هذا الخليط مفرقا على عدد من الجبال:» ثم اجعل على كل جبل منهن جزءا»، ثم بعد ذلك يقوم الخليل بدعوة هذه الطيور فتأتيه سعيا بإذن الله تعالى: « ثم ادعهن يأتينك سعيا واعلم أن الله عزيز حكيم».
في خضم تجربة البعث إذن، يباشر الخليل فعل الإماتة، وكأنه بذلك يعبر عن ما يجب على الإنسان من إماتة نفسه الأمارة بالسوء، ومن ضرورة القضاء على شيطانه وقرينه الجني اللعين الذي يسعى إلى ربطه بالأرض، ويعمل بكل قواه على أن يمنعه من تحقيق وعي حقيقي بالحياة.
وبعد أن تقع عملية الذبح والإماتة هذه، يفرق الخليل مادة الطيور على عدد من الجبال ولعلها أربعة أيضا، ثم يدعوها فإذا بها تأتيه سعيا بإذن الله تعالى.

وعدّوا الجهاد عنفا وإرهابا لابد من إبعاده ورفضه رغم أن الله تعالى ابتلاهم بأشد أهل الأرض شرا وفسادا وخبثا وهم اليهود، الذين ثبت عبر تاريخ الإنسانية أنهم لا يخضعون إلا لسيف القوة ولا يرهبون إلا الأمم القوية المجاهدة.

كيف سيستجيب الله تعالى لطلب الخليل الساعي إلى رؤية كيفية إحياء الموتى؟ الجواب نجده في هذه الآيات القرآنية الشريفة: « قال فخذ أربعة من الطير فصرهن إليك ثم اجعل على كل جبل منهن جزءا ثم ادعهن يأتينك سعيا واعلم أن الله عزيز حكيم» [1].

هذه الآية الإلهية والمعجزة الربانية الباهرة التي شهدها الخليل عليه السلام، تستدعي الكثير من التأمل والتركيز. فهناك أسئلة عديدة يمكن أن تثار حول طبيعة المعجزة نفسها و نوعيتها. فلماذا حدثت المعجزة على يد الخليل نفسه رغم أن صاحبها هو الله تعالى ؟.

ولماذا كانت إماتة الطيور من قبل الخليل وكان إحياؤها في المقابل من قبل الله تعالى ؟ لماذا استعمل الله تعالى الطير كمجال لإبراز قدرته على الإحياء والبعث ؟ ولماذا كان عدد الطيور أربعة ؟ ثم لماذا وضع كل جزء من لحم الطيور على جبل ؟ لا شك أن هذه الأسئلة تكشف لو وجدنا لها إجابة عن فوائد عظيمة وتنبه إلى حكم ومعاني جليلة.

قال الله تعالى للخليل عليه السلام:» خذ أربعة من الطير فصرهن إليك». اختار سبحانه وتعالى الطير دون سائر الحيوان لما ظهر فيه من أكملية الخلق، حيث زود علاوة على الدواب بقدرة الطيران، فكانت قوة الحياة والحيوية فيه أظهر، لذلك كانت القدرة على إعادته دالة على القدرة على خلق كل ما سواه. هذا من ناحية، ومن ناحية ثانية أشبه الطير الإنسان في أول عهده بربه، حيث أنه كان يحيا في الجنة مكان السمو وموطن الكمال، ثم نزل بعد ذلك، فجرد من كفاءاته، ولا ريب أن أخطر ما جرد منه، الجناحان اللذان رفعاه بدءا ليطالب بعد الهبوط باستصناع جناحين يستعملهما لاستعادة الحياة العلوية من جديد.

فدلّ انبعاث الطير على احتفاء السماء بهذا النوع المتسامي من الخلق خاصة وأن قوة البعث تظهر فيهم خاصة، بل إن البعث أصلا ما حصل إلا من أجلهم، أي من أجل تكريمهم وتعزيز مكانتهم ورفع منزلتهم. أما الذين ادّاركوا إلى الهاوية وأخلدوا إلى الأرض، فهم إن بعثوا ولسوف يبعثون حتما، فلكي تقع إبادتهم من جديد في نار محرقة يخلدون فيها أبدا.

إن البعث بما هو قوة ورفعة وسمو، واستعادة للحياة الرفيعة وللدرجة المحمودة

(١) سورة البقرة : ٢٦٠

فحينئذ يتأكد للخليل أن الله تعالى عزيز لا يمتنع عليه شيء، حكيم لا يضع شيئا في غير موضعه وفي غير محله.

أجرى الله سبحانه وتعالى هذه المعجزة على يدي الخليل نفسه ليرى بأم عينه كيف يحيي الله الموتى فيطمئن قلبه. فثبت بذلك أن طمأنينة القلب لا تتم إلا عبر تجربة حية ومباشرة يرى فيها العبد بنفسه عزة الله تعالى وحكمته. فمجرد المشاهدة أو الاطلاع قد يحقق الوعي النظري، وقد يقرب من الإيمان، ولكن التجربة الشخصية والمباشرة وحدها تؤسس الاطمئنان. وهذه حقيقة من أصدق حقائق النفس الإنسانية التي لا تطمئن إلى فكرة مجردة وإلا لأصبح كل الخلق حكماء لأن كتب الحكمة تباع بأزهد الأثمان، وإنما تدفع بيديها ثمن انعتاقها وحريتها وطمأنينتها.

لقد رأى الخليل بأم عينه كيف انبعثت المادة الميتة المتفرقة، وكيف استعادت الحياة والحركة وكل القوى التي كانت عليها أول مرة وكأنها لم تمت، فعلم يقينا أن الله على كل شيء قدير، وأنه سبحانه عزيز حكيم. ومنذئذ آمن إيمانا خالصا يقينيا، وأمن واطمأن واكتملت الحجة عليه،حيث أكسبه الله تعالى وعيا عاليا رفيعا ورشده وهداه واجتباه، فآمن واطمأن وجعل هذه الحجة دليلا له وآية، واستند إليها في محاجة قومه ومغالبتهم.

وجاهد في الله حق جهاده، فلم يرهب سلطانا ولا أبا ولا عشيرة، ولم يعظم صنما، بل قام وحده بثورة وانقلاب هو في تقديرنا، أغرب وأشجع انقلاب حدث فوق سطح الأرض، حيث هجم على الأصنام بمفرده يحطمها، وحاج أباه وقومه، ولم يتراجع عن محاججة الملك الطاغية بل جاءه بالحق المبين؛ قام بكل هذا البلاء مؤمنا مطمئنا، إذ يقول الله سبحانه وتعالى مسجلا هذا الصمود الإبراهيمي، وهذا الوعي وهذه الثقة العميقة التي تميز بها هذا الرجل:» وحاجه قومه قال أتحاجوني في الله وقد هدان ولا أخاف ما تشركون به إلا أن يشاء ربي شيئا وسع ربي كل شيء علما أفلا تتذكرون.

وكيف أخاف ما أشركتم ولا تخافون أنكم أشركتم بالله ما لم ينزل به عليكم سلطانا فأي الفريقين أحق بالأمن إن كنتم تعلمون. الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون. وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم على قومه نرفع درجات من نشاء إن ربك حكيم عليم»[1].

يرد مصطلح الهداية في هذه الآيات البينات ليدل على كمال الإيمان بتحصيل اليقين والاطمئنان معا:» الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن

(١) سورة الأنعام : ٨٠ - ٨٣

وهم مهتدون». تشير هذه الآية إلى أن الإيمان الصحيح هو الذي يندفع نحو أعماق النفس، نحو القلب ليملأه سكينة وطمأنينة وأمنا. فالظلم هنا خلاف الأمن، حيث أن الإنسان قد يؤمن ويصر على الانتماء للمؤمنين، ولكنه لا يسعى أبدا إلى الانتفاع بهذا الإيمان ليجعله سببا للأمن ومدخلا لطمأنينة القلب. فمثل هذا الإيمان النظري لا يخلو من ظلم للنفس، بل هو الظلم المبين؛ فما هي فائدة النفس من إيمان لا تأمن معه ولا تطمئن. إنها حينئذ تكون كمن يملك كنزا يشح به على نفسه ولا يستخدمه في مصلحته مع علمه بقيمته وفائدته. والخليل عليه الصلاة والسلام، مؤسس طريق الإسلام، هو الذي سيجعل من الإيمان منهجا للنجاة وطريقة في الحياة، وهو الذي سيؤسس درب الحج والجهاد مؤكدا بذلك أنه استثمر أقصى إمكانات النفس واستخدم كل قواها انطلاقا من مدها بالهداية المتمثلة في الإيمان والأمان. إن الهداية عندئذ، إيمان وأمان، فمن آمن وأمن فقد اهتدى:» إن إبراهيم كان أمة قانتا لله حنيفا ولم يك من المشركين شاكرا لأنعمه اجتباه وهداه إلى صراط مستقيم» [1].

فالهداية اهتداء إلى الصراط المستقيم وهو الإيمان والأمن ورفض الشرك والظلم. فلا يؤمن من أشرك، ولا يطمئن أو يأمن من ظلم نفسه. قال الخليل عليه الصلاة والسلام لقومه:» وكيف أخاف ما أشركتم ولا تخافون أنكم أشركتم بالله ما لم ينزل به عليكم سلطانا فأي الفريقين أحق بالأمن إن كنتم تعلمون».

نبه عليه السلام على أن الأمن والاطمئنان إنما يكون مع اتباع الحق، وأن الخوف أولى أن يكون مع اتباع الباطل.

ثم كشف على أن كل ما عدا الله سبحانه فاقد للسلطة، غير قادر على شيء إلا أن يشاء الله . فكيف يخاف المؤمن مما لا يملك لنفسه نفعا ولا ضرا:» ولا أخاف ما تشركون به إلا أن يشاء ربي شيئا..». وبهذا الوعي الراقي لم يعد العالم بكل ما فيه بالنسبة للخليل مصدرا للخوف، لأنه انكشف أمامه كعالم مخلوق فاقد بالأصالة لكل سلطان ونفوذ. إن إدخال السلطة في العالم هو مصدر الخوف منه. ولا بد أن نعي حقيقة أساسية، وهي أن كل صاحب سلطة يملك من قوة التخويف بقدر ماله من السلطة.

وهناك علاقة وثيقة بين إدخال السلطة إلى أي مركز في العالم، وانتشار عدوى الخوف من كل ما في العالم بالتبعية. فالمشركون مثلا الذين أدخلوا السلطة وأسكنوها في جوف آلهتهم الحجرية الصماء، أصبح الخوف من سلطة الطاغوت ومن سلطة الآباء بالنسبة إليهم أمرا نافلا لأنهم قبلوا بدءا بإمكانية بل بضرورة

(١) سورة النحل : ١٢٠ - ١٢١

وجود سلطة في العالم. وليس الشرك على وجه التحقيق، سوى التقسيم الزائف للسلطة من قبل المشركين، وجعلها في أكثر من اله وأكثر من قوة، في حين جاء التوحيد مركزا على أنه لا سلطة لأحد ولا لشيء على الإنسان إلا لله وحده. إن قيمة الإيمان والتوحيد، كشفه عن خواء العالم وفراغه من أية سلطة داخلية، وأن العالم ليس سوى مجلى لسلطة الله.

وبإعلان سلطة الله الواحد الأحد، تتأسس البنية التحتية العميقة للنفس المؤمنة على الأمان والاطمئنان لأنها تقوم حينئذ على الوعي بأنها تتعامل مع واحد حق لا يخلف وعده ولا يبدل كلماته، ولا يعبث ولا يلعب ولا تأخذه سنة ولا نوم. واحد أحد فرد صمد قوي عزيز متين... وتتتالى الأسماء الحسنى لتعرّف به سبحانه، فيزداد القلب عند ذكر كل اسم إيمانا لأن كل اسم يزيده يقينا وثقة فيمن أولاه قلبه و محضه عبادته، وبذلك يفقه المؤمن معنى قوله تعالى:» ألا بذكر الله تطمئن القلوب» ( ). وإذ يؤمن القلب ويطمئن، ويهدأ السرّ ويستكنّ، يتهيأ الإنسان حينئذ لتجربة أخرى تمحص التجربة الأولى وتنميها وتعطيها مصداقها ونصاعتها وبرهانها: إنها تجربة الإسلام .

الفصل الثاني
إعلان الإسلام : اكتشاف الذات

« وإذ ابْتَلَى إبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَاماً قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لاَ يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ (١٢٤) وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ وَأَمْناً وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنْ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ (١٢٥) وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَداً آمِناً وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلاً ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (١٢٦) وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (١٢٧) رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (١٢٨) رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١٢٩) وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلاَّ مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدْ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ (١٣٠) إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ (١٣١) وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ (١٣٢) أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَقَ إِلَهاً وَاحِداً وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (١٣٣) تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلاَ تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٣٤) وَقَالُوا كُونُوا هُوداً أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٣٥) قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (١٣٦) فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنتُمْ بِهِ فَقَدْ اهْتَدَوا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (١٣٧) صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ »[1].

يرتبط الإسلام بالإيمان ارتباطا عضويا؛ وضمن عقيدة التوحيد يتداخل هذان المفهومان بالضرورة ليشكلا مفهوما واحدا حتى أصبح ما يقال عن الإيمان مقبولا إذا استعمل في الحديث عن الإسلام والعكس أيضا صحيح. وكثيرا ما يستعمل مصطلح الإسلام كرديف لمصطلح الإيمان والعكس. وهذا التداخل والتواصل بين المصطلحين مستقى من القرآن نفسه الذي يصف المسلمين بالمؤمنين، ويعتبر المؤمنين مسلمين دون تفريق يذكر. غير أن إجراء المصطلح، وتدقيق الوصف والرغبة في تحصيل الفهم العميق جعلت العلماء المسلمين يتجهون سعيا وراء

(١) سورة البقرة : ١٢٤ - ١٣٨

الدقة، إلى إنشاء عديد الفروق بين الإسلام والإيمان وتمييز مجال أحدهما عن الآخر رغم الاتفاق الحاصل على أنهما متكاملان متعاضدان. وأهم أوجه التمييز بين الإسلام والإيمان القول إن الإيمان يتعلق بالتصديق بأركان العقيدة الستة خاصة، وهي الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وبالقضاء والقدر خيره وشره. أما الإسلام، فهو يتعلق بالعمل المتمثل خاصة في تحقيق الأركان الخمسة: الشهادتان والصلاة والزكاة والصوم والحج.

ومعلوم أن من قام بهذه الأركان عدّ مسلما كما بينت الأحاديث النبوية الصحيحة. وقد وصف الله تعالى الخليل عليه السلام بكونه مؤمنا :» سلام على إبراهيم كذلك نجزي المحسنين إنه من عبادنا المؤمنين» [1].

كما وصفه بكونه مسلما:» ما كان إبراهيم يهوديا ولا نصرانيا ولكن كان حنيفا مسلما وما كان من المشركين» [2].

ولقد رأينا في تجربة الإيمان الإبراهيمي كيف اهتدى الخليل عليه السلام بآيات ربه ليعرف الحق ويستيقنه. فوجه نظره نحو الأكوان، ثم نحو كيانه الخاص، فأصبح بذلك من الموقنين. يقول سبحانه وتعالى :» سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق. أولم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد»[3].

ثم دعم يقينه هذا بتجربة الاطمئنان، فاطمأن قلبه نهائيا وسكن لما رأى كيف يحيي الله الموتى، فاكتمل بالتجربتين معا أعني تجربة اليقين وتجربة الاطمئنان، إيمانه. ومنذئذ أصبح جاهزا ليكون رسول الله، وليحمل أمانة كلمة الله تعالى فوق الأرض. وباختصار، تهيأ لتجربة أخرى هي تجربة الإسلام.

فما هي حقائق هذه التجربة ؟ وكيف تكاملت مع تجربة الإيمان لتجعل من الخليل أمة وحده، ولتجعله أبا لملّة أراد الله سبحانه وتعالى أن تكون وحدها الملّة الناجية ؟

قال تعالى : « وإذ ابتلى إبراهيم ربه بكلمات فأتمهن قال إني جاعلك للناس إماما قال ومن ذريتي قال لا ينال عهدي الظالمين «. ما الكلمات التي ابتلى الله بها إبراهيم عليه السلام ؟ نجيب بإذن الله، إنها الكلمات الثلاث المنجيات: الإسلام والإيمان والإحسان ، من أتمها حاز الأكملية، ودخل في دائرة المصطفين من البشر، وأصبح للناس إماما. أما الإيمان، فقد رأينا كيف أتمه الخليل عليه السلام وأحسنه حتى حاز شهادة ربه الذي قال فيه:» سلام على إبراهيم. كذلك نجزي

(١) سورة الصافات : ١٠٩ - ١١١

(٢) سورة آل عمران : ٦٧

(٣) سورة فصلت : ٥٣

المحسنين. إنه من عبادنا المؤمنين» . وأما الإسلام، فقد كان على الخليل أن يخوض بنجاح ثلاثة ابتلاءات جعلها الله سبحانه امتحانات كاشفة عن مدى يقينه ومدى اطمئنانه، ومناسبات كشف له فيها من الأسرار التي أودعها الله سبحانه باطن الإنسان. هاته التجارب التي سوف يلتقي فيها الخليل عليه السلام بالإنسان، بنفسه، بحقيقته وقيمته هي تجربة الابتلاء بالنار، وتجربة البراءة والهجرة، ثم ابتلاء الله سبحانه له بذبح ابنه.

١ - معنى الإسلام

ما الإسلام ؟

سؤال تجيب عنه سيرة الخليل عليه الصلاة والسلام بوضوح كاسح. ولو أردنا أن نجمل الكلام حول الإسلام قبل تفصيله من خلال هذه السيرة، لقلنا إنه إعلان الإنسان أنه قد آمن. فالإيمان للقلب، للغيب من الذات، والإسلام للجوارح، للجسد المتعلق بالأرض وبالخلق الزاحف ما بين ميلاده وموته، ما بين قضائه وقدره. الإسلام هو شهادة أن لا اله إلا الله فوق الأرض، أي في لحظة ابتلاء يمحص فيها الحق من الباطل، ويفرق فيها بين الإيمان والنفاق. وهو اكتشاف الإنسان لنفسه، لحقيقتها ولقدراتها، لحقها وباطلها، في حين أن الإيمان هو اكتشاف الإنسان لله تعالى، لعظمته، لوحدته، لكل أسمائه الباقيات وآياته البينات. ولسوف يجتاز الخليل عليه السلام، ثلاثة ابتلاءات يتأكد من خلالها إسلامه بإشراق ذاته وظهور صفاته، ليصبح الخليل والإمام المختار.

أ - دخول النار: انتقام الخلق وظهور الحق: الطهر المطلوب: في التعامل مع الطاغوت

قال تعالى:» ولقد آتينا إبراهيم رشده من قبل وكنا به عالمين. إذ قال لأبيه وقومه ما هذه التماثيل التي أنتم لها عاكفون. قالوا وجدنا آباءنا لها عابدين. قال لقد كنتم أنتم وآباؤكم في ضلال مبين. قالوا أجئتنا بالحق أم أنت من اللاعبين. قال بل ربكم رب السماوات والأرض الذي فطرهن وأنا على ذلكم من الشاهدين. وتالله لأكيدن أصنامكم بعد أن تولوا مدبرين. فجعلهم جذاذا إلا كبيرا لهم لعلهم إليه يرجعون. قالوا من فعل هذا بآلهتنا إنه لمن الظالمين. قالوا سمعنا فتى يذكرهم يقال له إبراهيم. قالوا فأتوا به على أعين الناس لعلهم يشهدون. قالوا ءأنت فعلت هذا بآلهتنا يا إبراهيم. قال بل فعله كبيرهم هذا فاسألوهم إن كانوا ينطقون. فرجعوا إلى أنفسهم فقالوا إنكم أنتم الظالمون. ثم نكسوا على رؤوسهم لقد علمت ما هؤلاء ينطقون. قال أفتعبدون من دون الله ما لا ينفعكم شيئا ولا يضركم أف لكم ولما تعبدون من دون الله أفلا تعقلون. قالوا حرّقوه وانصروا آلهتكم إن كنتم فاعلين. قلنا يا نار كوني بردا وسلاما على إبراهيم. وأرادوا به كيدا فجعلناهم الأخسرين. ونجيناه ولوطا إلى الأرض التي باركنا فيها للعالمين. ووهبنا له اسحق ويعقوب نافلة وكلا جعلنا صالحين. وجعلناهم أيمة يهدون بأمرنا وأوحينا إليهم فعل الخيرات وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وكانوا لنا عابدين» [١].

تروي هذه الآيات البينات من سورة الأنبياء، قصة الخليل عليه السلام مع قومه

(١) سورة الأنبياء : ٥١ -٦٣

المشركين الذين أصروا على عبادة الأصنام، فجاهدهم عليه السلام بالحق، ودعاهم إلى التوحيد، ونبههم بالأدلة والبراهين إلى فساد معتقدهم، ولكنهم أصروا على عبادة الأصنام وتقديم القرابين لها.

في تلك الفترة بالذات، في زمان هذه الحادثة، كان إبراهيم عليه السلام في أوج الفتوة والشباب:» قالوا سمعنا فتى يذكرهم يقال له إبراهيم». وكان الإيمان برب السماوات والأرض يملأ قلبه لا سيما وقد اهتدى إلى سبيل الرشاد بعد الضلال والتيه ؛ وكان يشعر وقد عرف ربه، أنه يمتلك من القوة ومن الإرادة قدرا يستطيع معه أن يناجز العالم دون أن ينهزم أو يخاف.

كان الإيمان يملأ كل عروقه وينفذ إلى مسامه، ولم يكن يرى الكفر والشرك إلا عبثا شنيعا لئن فرح به أهل الدنيا فإنه هو وهو الموعود بالجنة، المؤمن بالآخرة لم يكن يطيقه ولا يقدر على الصبر عليه. كان من قوة اليقين بحيث يقدر على مجابهة العالم،ومن شدة السعادة بحيث يستطيع أن يلقي نفسه في النار دون خوف ولا تردد. كان قد عرف الواحد القوي العزيز، وكان يشعر أن قوة هذا الواحد وعزته تسكنانه هو العبد الضعيف، وتجعلان منه قوة بلا حد وطاقة بلا حد.

وكان لابد لهذه الطاقة أن تتجسد، ولهذا الإيمان أن يتشكل عملا فعليا في الواقع وإلا أضنى صاحبه وأتعبه وعاد عليه كلاّ وأورثه همّا وصار في رقبته غلاّ كما قال التوحيدي رحمه الله في الربط بين العلم والعمل والنجاة: « اعلم أن العلم إنما يراد للعمل وأن العمل إنما يراد للنجاة. فإن قصر العلم عن العمل، قصر العمل عن النجاة، وعاد كلاّ وأورث ذلاّ وصار في رقبة صاحبه غلاّ «.

والتفت الخليل إلى الأرض، ونظر إلى قومه وما يصنعون. كان معبد الأصنام في تلك الأيام قبلتهم، وكانوا يتهافتون عليه يقدمون قرابينهم ويرفعون الدعوات ويقيمون الصلوات. وفي لمحة خاطفة من لمحات عقله الرشيد الوقاد، لمحة هي خير من ألف شهر من تفكير من يظنون أنفسهم أهل فكر ورشاد، تحددت أمام الخليل مهمة، وظهر عمل لابد من إنجازه: لابد من تحطيم أصنام المعبد. باختصار، وبوضوح شديد تحددت المهمة، وبسرعة فائقة أيضا، أصبحت عملا ضروريا وواجبا لا مناص منه.

كان يرى الواحد الأحد حاكما على الكون وحاكما على النفس، وكان لا يستطيع عندئذ، أن يرى مع ملكه ملكا ومع إلهه إلها. وكانت تلك الأصنام أمام ناظريه بمثابة شيطان يتجسد أمام عبد مؤمن. ولقد جاهر قومه بقراره: « وتالله لأكيدن أصنامكم بعد أن تولوا مدبرين».

ولم يكن هؤلاء لحديثه بسامعين، كانوا في ضلالهم وغيهم يعمهون. وكان لابد

من إيقاظهم مهما كلف الأمر. ولم يكن أمام الخليل سوى حل واحد، أن يحطم هذه الآلهة المصنوعة من حجر الأرض. وبالفعل، هجم على المعبد، واعتصم داخله، ولعل بعضهم أن يكون سأله عن سرّ بقائه في المعبد، وحينئذ اتخذ حيلة تكشف عنها الآيات التالية:» فنظر نظرة في النجوم. فقال إني سقيم. فتولوا عنه مدبرين»[1].

حينئذ انفرد بالأصنام التي يعلم تمام العلم أنها هياكل فارغة، ومن باب إتمام الحجة وإظهار العلم خاطبها قائلا: « فراغ إلى آلهتهم فقال ألا تأكلون. مالكم لا تنطقون» [2].

لم تتحرك الأصنام بطبيعة الحال لتأكل، ولم تنبس ببنت شفة الأمر الذي زاد الخليل غلاّ ونقمة على هذه العبادة الزائفة؛ وحينئذ أهوى عليها بيده المباركة :» فراغ عليهم ضربا باليمين»، وفي سورة الأنبياء: « فجعلهم جذاذا إلا كبيرا لهم لعلهم إليه يرجعون» [3].

حطم الخليل عليه السلام إذن الأصنام ودمرها بيده، وكان هذا الحدث والله أعلم، اللحظة التاريخية الأولى في بناء الإسلام وبدايته التأسيسية.

أجل، فمنذ تلك اللحظة بالذات، ظهر الإسلام كدين الهي في مواجهة أديان الأرض ومعتقداتها، وظهر معه المسلم كإنسان مؤمن بالله الواحد الأحد، مجاهد في سبيل تأكيد ايمانه وإعلان كلمة الله. منذ ذلك اليوم بالذات، أصبح للتوحيد برنامج أساسي هو دائما واحد رغم تبدل الظروف والعصور : هدم الأصنام بما يعنيه ذلك من تحطيم الآلهة الاجتماعية والتقليدية والأبوية والطاغوتية. لم يعد التوحيد كلمة في صدر الموحد فقط، بل أصبح ضربة من فأس أوطعنة من سيف تنفذ إلى أحشاء آلهة الزيف والبهتان. ومنذ ذلك اليوم، كان على من يريد أن ينتسب إلى الإسلام، أن يرتكب «جريمة كبرى» في حق قومه، وفي حق الطواغيت من الحكام وأعضادهم، جريمة هي في نفس الوقت» شهادة « عند ربه وفي حق نفسه. ومنذ ذلك اليوم، أصبح من يريد دخول الإسلام، مطالبا بالشهادتين، فمن لم يشهد فما أسلم.

فإن سألتنا ماهي شهادة الخليل عليه السلام ؟ أجبناك إنها قوله لا اله إلا الله عندما حطم الأصنام ودمرها وجعلها جذاذا. فهي إذن كلمة في القلب وفعل في الواقع. إنها اعتراف بالواحد عبر نفي سواه ورفض ما عداه، وذلك على وجه

(١) سورة الصافات : ٨٨ - ٩٠
(٢) سورة الصافات : ٩١ - ٩٢
(٣) سورة الأنبياء : ٥٨

التحديد واليقين، معنى لا اله إلا الله.
فلا تستقيم عبادة الله والأصنام قائمة، ولا معنى لقول لا اله إلا الله والمعبد يعج بالأوثان؛ إنها تصبح كلمة بلا معنى وعبارة بدون مضمون. إن لا اله إلا الله تقال في القلب لتترجم مباشرة إلى فعل وعمل، وما لم تقع ترجمتها بنفس الكيفية التي اعتمدها الخليل عليه السلام، فإنها لن تزيد القلب إيمانا، بل لعلها أن تزيده عمى وضلالا.
إن «المسلمين» اليوم، يتناسون هذه الحقيقة، وهي أن الشهادة لم تكن في أي يوم من الأيام، كلمة منفصلة عن العمل، بل كانت منذ لحظة التأسيس الإبراهيمي عملا وتضحية وجهادا واضحا صريحا للطاغوت على رؤوس الأشهاد. يقول تعالى :» يا أيها الذين آمنوا اركعوا واسجدوا واعبدوا ربكم وافعلوا الخير لعلكم تفلحون. وجاهدوا في الله حق جهاده هو اجتباكم وما جعل عليكم في الدين من حرج ملة أبيكم إبراهيم هو سماكم المسلمين من قبل وفي هذا ليكون الرسول شهيدا عليكم وتكونوا شهداء على الناس. فأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة واعتصموا بالله هو مولاكم فنعم المولى ونعم النصير»[1].
تؤكد هاتان الآيتان من سورة الحج على حقيقة الملة الإبراهيمية الشريفة وهي ملّة الإسلام. فالخليل عليه السلام هو أبو المسلمين، وهو الذي سمى أتباعه بهذا الاسم. ولا ريب أنه لم يحز حق هذه التسمية إلا لكونه قدم تضحيات وأعمالا جعلته أول المسلمين وأباهم. فما هو العمل الأساسي الذي قام به إبراهيم عليه السلام والذي مكنه من أن يصبح أبا الملّة الإسلامية ؟ تجيب الآية القرآنية عن هذا السؤال:» وجاهدوا في الله حق جهاده هو اجتباكم وما جعل عليكم في الدين من حرج ملّة أبيكم إبراهيم هو سماكم المسلمين من قبل وفي هذا ليكون الرسول شهيدا عليكم وتكونوا شهداء على الناس..».
العمل الإبراهيمي الأساسي إذن هو الجهاد. فهذا الرجل جاهد في الله حق جهاده، وقام بحق الواحد تعالى وحده، لم يطالب بجماعة، ولم يقصّر لما رأى الجميع ضد دينه ومبدئه؛ وبذلك أصبح أمة وحده، لأن عمله هو في العمق مشروع تأسيس أمة. أمة جديدة بقيم ومبادئ ومفاهيم جديدة. وإذا كانت هذه الأمة لم تقم فعليا في عهد إبراهيم، فحسب هذا الرجل أنه قد وضع قواعد تأسيسها، وحسبه أن كان له شرف وحق تسميتها، إنها الأمة الإسلامية.
وباعتباره مؤسسا، فقد وضع الخليل عليه السلام للأمة الإسلامية برنامج عمل كان هو أول من طبقه. لقد وضع أمته القادمة مباشرة على طريق الجهاد والشهادة

(١) سورة الحج : ٧٧ - ٧٨

وذلك عبر عمل قام به هو شخصيا، أعني عبر الشهادة على قومه وتصعيد الحجاج والصراع معهم إلى أقصى حدوده، إلى درجة هدم أصنامهم وتحطيم آلهتهم. لقد كان قدر الخليل عليه السلام أن يكون مؤسس الأمة الإسلامية.

والمؤسس يتحمل دائما عبء التأسيس المتمثل خاصة في توضيح برنامج العمل لأتباعه. وكان على الخليل الذي جعل برنامجه جهادا وشهادة، أن يكون هو الأنموذج الأول، الشهيد الأول من شهداء الإسلام الذين لا ينقطعون إلى قيام الساعة بإذن الله تعالى. وقد وضح المسلم الأول لأبنائه الوارثين ملّته بكيفية لا لبس فيها، معنى أن يكون الإنسان مسلما.

فالإسلام هو محاربة الباطل بعد الالتزام بالحق. ولنقل إن الوعي بالحق والالتزام المعرفي به، هو الإيمان؛ ولنقل أيضا إن محاربة الباطل هي الإسلام. وبالإيمان والإسلام معا يتحقق الجدل المنتج باتحاد الشهادتين، شهادة للحق تعالى، لله أن نعم وأجل ولبيك، وشهادة للباطل أن لا ثم لا ثم لا. لا للآلهة المزيفة، لا للطاغوت المستعلي، لا لتسلط الآباء والأقوام زورا وبهتانا. وبالفعل، قاوم الخليل عليه السلام كل الآلهة المزيفة، وحطم أصنام المعبد بلا هوادة، وسخر منها بدون خوف، ولم يتراجع إطلاقا أمام ما يطلبه منه الإسلام.

إن عمق برنامج الإسلام قول لا للباطل، لا لكل تسلط يقوم فوق الأرض، لكي يتأكد مضمون الإيمان القاضي بأن صاحب السلطة واحد وحيد، هو الله تعالى. وما لم يقع تطبيق الإسلام وإظهاره والشهادة به، وهذا في وعينا سر جعل الشهادة أول أركانه، فإن الإيمان يصبح كلاما فارغا، وتهريجا لا فائدة منه ولا مصلحة. إن الإسلام عمل وتطبيق. يقول تعالى في نفس سياق التحريض على اتباع ملة إبراهيم:» فأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة واعتصموا بالله هو مولاكم فنعم المولى ونعم النصير». فبهذه الأعمال النافعة والشرائع العظمى، يصبح المسلمون شهداء على الناس كما كان الرسول محمد صلى الله عليه وسلم بإقامتها عليهم شهيدا.

إن هناك جهلا فظيعا بالإسلام اليوم يسعى إلى جعله مجرد كلام في كلام. وما الإسلام إلا شهادة وجهاد وعمل في حقل الواقع وفوق الأرض.

ولا ريب أن الأمر ليس مجرد جهل ناشئ عن سوء الفهم، بل الأقرب أنه تجاهل متعمد من قبل أولئك الذين أعمتهم الدنيا والأهواء فاثاقلوا وأخلدوا إلى الأرض، ولما لم يجدوا بدا من إعلان إسلامهم، جعلوه دينا غريبا دونه أديان الكفار والمنافقين، نعوذ بالله من سوء المنقلب، وإلا فما القول في هؤلاء الذين يسعون اليوم بكل ما أوتوا من خبث لإفشال عقيدة الجهاد ونفي ضرورتها ووجوبها، وتمييعها بكلام هو أقرب إلى ترهات المجانين ؟ كيف يمكن لهؤلاء أن ينسبوا ما

يقولون إلى ملّة إبراهيم الخليل الذي هجم وحده على معبد الأصنام ودمرها ؟ كيف ؟

فإن لم يجيبوا، فليعلموا أنهم قد ضيعوا ملّة رجل عظيم، وأنهم ليسوا أبدا من ذريته الصالحة، بل من الظالمين الذين قصدهم الله سبحانه وتعالى في قوله :» وإذ ابتلى إبراهيم ربه بكلمات فأتمهن قال إني جاعلك للناس إماما قال ومن ذريتي قال لا ينال عهدي الظالمين».

إن كل أولئك الذين يسعون اليوم إلى تضييع فريضة الجهاد والأمة الإسلامية أحوج ما تكون إليها، هم الظالمون المقصودون بالحديث في هذه الآية الكريمة. إنهم أولئك الذين يمرقون من الإسلام كما يمرق السهم من الرمية. والحجة على هؤلاء تكون من صميم حياة الأب المؤسس عليه الصلاة والسلام؛ هذا الأب الذي ما إن آمن ورشد واستيقن، حتى اتجه إلى معبد الأصنام وحده يحطم آلهة من حجر ويحطم من ورائها سلطة هرمية طاغوتية أبوية عشائرية كانت تظن نفسها في منعة من الحق.

لقد حطم الخليل عليه السلام أصنام المعبد وهزأ بها إذن، وبذلك يصبح كل مسلم مطالبا بالإجابة عن سؤال ما هي الأصنام التي حطمتها ؟

وما هي الآلهة المزيفة التي هزأت بها ؟ فإن لم يحر جوابا، ثبت عندئذ أنه لم يخض معركة ولم يقم للحق نصيرا وللباطل مجاهدا ومناوئا، والله سبحانه وتعالى يقول في محكم تنزيله :» الم أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون. ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين» [1].

جاء في لسان العرب حول كلمة « فتن» :».. الأزهري وغيره: جماع معنى الفتنة الابتلاء والامتحان والاختبار، وأصلها مأخوذ من قولك فتنت الفضة والذهب إذا أذبتهما بالنار لتميز الرديء من الجيد، وفي الصحاح إذا أدخلته النار لتنظر ما جودته. والفتْن: الإحراق، ومن هذا قوله عز وجل: يوم هم على النار يفتنون، أي يحرقون بالنار. ويسمى الصائغ الفتّان، وكذلك الشيطان...

ابن الأعرابي: الفتنة الاختبار، والفتنة المحنة، والفتنة المال، والفتنة الأولاد، والفتنة الكفر، والفتنة اختلاف الناس بالآراء، والفتنة الإحراق بالنار... والفتنة: الإحراق، وفتنت الرغيف في النار إذا أحرقته.

وفتنة الصدر: الوسواس... قال الله تعالى: الم أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون، جاء في التفسير: وهم لا يبتلون في أنفسهم وأموالهم، فيعلم بالصبر على البلاء الصادق الإيمان من غيره، وقيل وهم لا يفتنون وهم لا يمتحنون

(١) سورة العنكبوت : ١ - ٣

بما يبين به حقيقة إيمانهم، وكذلك قوله تعالى: ولقد فتنا الذين من قبلهم أي اختبرنا وابتلينا.»[1].

ولقد قال الخليل عليه السلام لربه لما سأله:» أولم تؤمن»، « بلى»، فأكد إيمانه وأعلنه وكان عليه منذئذ، أن يعبر عن صحة هذا الإيمان وعن صدقه. وقد اختار له الله سبحانه وتعالى النار لتكون أول ابتلاءاته، ليكشف إذ يدخلها عن إيمانه وإسلامه أو عن كفره ونفاقه. إن النار كما نعلم، هي التي تميز خبيث المعدن من شريفه، وفي النار يتعرف كل شيء إلى نفسه، ويعود كل شيء إلى أصله. فما أصله الفناء فني وأصبح هباء منثورا، وما أصله البقاء بقي واشتد. إن أوراق الأشجار إذا ألقيت في النار احترقت وأصبحت رمادا، أما الحديد الصلب، فإذا وضع في النار ازداد صلابة وقوة وانتفى عنه خبثه، حتى إن الحداد يستعمل النار لنفي خبث الحديد وتطويعه، وجعله آلة تنفع الناس، سيفا أو فأسا أو محراثا. وقد كان من قدر الخليل أن يلقى في النار، يلقيه فيها قومه المشركون الذين هزأ بهم وحطم أصنامهم: « فما كان جواب قومه إلا أن قالوا اقتلوه أو حرقوه..»[2]، وفي سورة الصافات:» قالوا ابنوا له بنيانا فألقوه في الجحيم»[3]،

وفي الأنبياء: « قالوا حرقوه وانصروا آلهتكم إن كنتم فاعلين»[4].

هكذا التقى قوم إبراهيم عليه، واجتمعت كلمتهم على تدميره بعد أن دمر أصنامهم وألغى آلهتهم. فثبت أن الصراع بين الكفر والإيمان صراع وجود وعدم، وفناء وبقاء ونور وظلمة لا يجتمعان لحظة إلا لكي يقضي أحدهما على الآخر. ألم تر إلى الغروب تلتقي فيه آخر خيوط النور بأول خيوط الظلام، ثم ما يلبث الليل أن يهجم فيحيل النور ظلمة ويذهب بأثره.

وكذلك الفجر، حيث ينبعث النور وليدا، ثم ما يلبث أن يهيمن ويسيطر ويلغي كل أثر للظلام. تلك إرادة الله عز وجل، وتلك مشيئته التي لا مبدل لها، قضت بأن على الإنسان أن يصارع وأن يجاهد وأن يكون أحد طرفي صراع حاسم بين الحق والباطل. فعلمنا أن الجهاد هو بؤرة صنع الذات وبناء الكيان وإظهار الحرية، وهو المصنع الذي فيه يصهر الإنسان لكي يتبين بعد الصهر من أي معدن هو، وإلى أي معنى ينتمي. وكل حديث عن الوجودية قبل الجهاد هو ترهل فكري وتضليل كلامي لساني لا معنى له. إن صراع الوجود والعدم إنما يتبين في عقيدة الجهاد. وإن الانتماء إلى النور أو إلى الظلمة إنما ينكشف في فعل الجهاد

(١) ابن منظور، لسان العرب، مجلد ١٣،مادة: فتن، ص ص: ٣١٧ _ ٣٢٠

(٢) سورة العنكبوت : ٢٤

(٣) سورة الصافات : ٩٧

(٤) سورة الأنبياء : ٦٨

؛ ففيه وحده فصل الخطاب، وفيه وحده الدلالة الصادقة على صدق الانتماء أو على النفاق والتزوير. ولذلك كان الجهاد في الإسلام فريضة، ولذلك أيضا كانت الكلمة الأكبر من بين كل الفرائض التي إذا وضعت مكان كلمة الإسلام أوفت بمعناها أو كادت، هي كلمة الجهاد.

فمن عرّف الإسلام بأنه الجهاد فما أخطأ. أن تسلم يعني شيئا واحدا، أن تضع نفسك ومالك عند الله يصنع بهما ما يشاء، فإن رفضت فما أنت بمسلم. ذلك هو العهد مع المؤمنين الذي أكدته الآية الكريمة في قوله سبحانه: « إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون وعدا عليه حقا في التوراة والإنجيل والقرآن ومن أوفى بعهده من الله فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم»[1].

فإذا باع المؤمن نفسه وماله لله تعالى مقابل الجنة فقد أسلم. ومعنى بيعه نفسه وماله لله ، أن يقاتل في سبيله تعالى : « يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون...». فمن لم يقاتل في سبيل الله، فما أعلن إسلامه، لأن القتال في سبيل الله هو العمل الأساسي الذي يحقق من خلاله المسلم شهادته لله ؛ هذه الشهادة التي تعد دليل البراءة الوحيد أمام الله تعالى في يوم تلتقي فيه الإنس والجن والملائكة أمام واحد حكم عدل.

ليس من المبالغة بحال أن نقول إنه يستحيل فهم الإسلام والتعرف عليه مفصولا عن فريضة الجهاد وعقيدته المعرفية الإيمانية، أعني عقيدة الشهادة. ذلك أن الإسلام هو فى أول أركانه شهادة ولا شهادة إلا بعمل؛ أعني بتضحية في الواقع وفوق الأرض، بالمال وبالنفس .

إن المحاولات التي يقوم بها أعداء الإسلام من خدم الصهيونية والصليبية اليوم لتمييع عقيدة الجهاد وتشويه صورته واعتباره إرهابا وعنفا غير مشروع، هي محاولات حقيقية لطمس الإسلام نفسه والقضاء عليه. ومثل هذه المحاولات ليست وراءها سوى خطة واحدة تتمثل في تدمير الإسلام والقضاء علي المسلمين. فهل يتفطن المسلمون لهذا البغي وهذا الاستعلاء الصهيوني ؟ ذلك ما نرجوه وندعو الله تعالي أن يتحقق قبل أن تقع كوارث تقضي علي الأخضر واليابس.

لقد وعى المشركون جيدا أن الخليل عليه السلام يتهدد وجودهم في الصميم ويسعي للقضاء عليهم بالقضاء علي أصنامهم، وهل القضاء علي الإنسان إلا القضاء علي دينه الذي هو قوام معني حياته ؛ ولذلك سعوا إلى محقه وتدميره بالقتل أو الحرق .

(١) سورة التوبة : ١١١

ولا شك أن تفضيلهم للحرق علي سواه من أوجه العقاب، دليل علي رغبتهم الشديدة في سحق هذا الفتي الذي يعد وجوده نفيا مطلقا لوجودهم وحضوره إلغاء لحضورهم . ولا ريب أن تصعيد العداوة إلى هذا المستوي من الوضوح هو من فعل الخليل عليه السلام نفسه والذي لم يدخر جهدا في هداية القوم ولم يتوان عن تحطيم أصنامهم لما يئس من سماعهم للحق واتّباعهم له . إنه حينئذ صراع واضح الملامح جدي الأسباب وذلك هو صراع الحق والباطل .

إن اختيار الحرق عقابا لإبراهيم يكشف بوضوح عن موقف الباطل والجبروت والطاغوت من الحق ، وهو موقف دائم إلي أن يرفع الله سبحانه وتعالي السماوات والأرض. وبالفعل ، فقد تم إعداد النار التي ستكون جحيم الخليل عليه السلام كما توقع أعداؤه . وفي الموعد المحدد، ألقي إبراهيم عليه السلام في النار وحيدا لامعين له ولا حامي له إلا ربه الذي آمن به . فماذا حصل ؟ لقد حدثت المعجزة، وتدخل رب إبراهيم مباشرة وخاطب النار بلسان العزة والتكوين:» قلنا يا نار كوني بردا وسلاما على إبراهيم. وأرادوا به كيدا فجعلناهم الأخسرين «[1] .وفي آية أخري : « فأنجاه الله من النار إن في ذلك لآيات لقوم يؤمنون «[2].

وفي سورة الصافات:»فأرادوا به كيدا فجعلناهم الأسفلين «[3].

لقد خاطب الله سبحانه وتعالي النار مباشرة وأمرها أن تكون بردا وسلاما علي إبراهيم علي عكس ما أرادها قومه حراّ وانتقاما وغمة وظلاما . فكانت تلك آية بينة علي مدى الأزمان لقوم يؤمنون: « إن في ذلك لآيات لقوم يؤمنون «. وفي هذا البلاء الأول المبين، تبرز الحقائق الأساسية الثابتة لكل معركة بين الحق والباطل .فهناك الوثنيون المشركون المبطلون من جهة وهم قد استعلوا ، واستعلاؤهم إنما كان بالأسباب ظنا منهم أنها لا يمكن أن تخالفهم ، وتوهما أنها طليقة السراح بلا رب يوجهها ويقودها . وهناك رب الأسباب من جهة ثانية يتربص ويمكر بالمجرمين، حتى إذا حق عليهم القول دمرهم بنفس الأسباب التي ظنوها في خدمتهم، تنكيلا بهم وتعذيبا لهم .

وفي ميدان المعركة يوجد الإنسان عبد الله ، الذي لا قوة له أصلا أمام الحق أو أمام الباطل، ولا حكم له سوى على نفسه باستشهاده لمصلحة أحد هذين الطرفين. فإذا شهد للباطل، رأينا كيف يزول ويحول بدون أن تبكي عليه السماء ؛ أما إذا شهد للحق، فإن الله ينصره ولو كره المشركون « إنا لننصر رسلنا والذين

(١) سورة الأنبياء : ٦٩ - ٧٠

(٢) سورة العنكبوت : ٢٤

(٣) سورة الصافات : ٩٨

آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد «[1].
فالنصر بيد الله تعالي وحده الذي يقول :» .. وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم «[2] .
ويقول :»... وما النصر إلا من عند الله إن الله عزيز حكيم «[3].
فآل كيد المشركين من قوم إبراهيم إلي الخسران المبين، وعوض ان ينتصروا أصبحوا هم الأسفلين. ظاهر هذه القصة العظيمة الرائعة، أنها معجزة لا تتكرر، ولكن الواقع والحقيقة أنها تتكرر دائما ولا يوجد إنسان منا إلا وفيه تظهر هذه المعجزة كل يوم إن لم نقل كل ساعة . وإليك تفصيل الكلام .
إن وجود الإنسان فوق الأرض كما نعلم اليوم، وجود معقد بشكل لا يتصور إذا فكرنا في العدد الذي لا يحصى من الشروط اللازمة لحياته وبقائه، ومع ذلك يجد الإنسان نفسه في وضع مريح مناسب، لا يشعر معه بالعنت. فهل كان هذا التوازن و هذه الراحة إلا بتدخل إلهي معجز ؟
إن وجود الإنسان قائم على عدد لا يحصى من المعجزات لأن الحقيقة الكامنة أن كل ما خلق الله سواء من المخلوقات أو من القوانين، هي معجزات لا يقدر عليها سواه سبحانه وتعالى. هذا من ناحية، ومن ناحية ثانية نعلم أن الله تعالى خلق الأضداد كما خلق الأزواج، فجعل سبحانه المرض ضدا للصحة، وكما يوجد فوق الأرض الغذاء والهواء، توجد الجراثيم والأوبئة. وكما سخر الله الأنعام للإنسان، فإنه أوجد الهوام والحشرات ومنها السام الخطير.وهكذا، فإن حياة الإنسان فوق الأرض مهددة بما لا يحصى من مظاهر الفناء، ومع ذلك تتدخل العناية الإلهية في كل لحظة لتحافظ عليه. فهذه العناية الإلهية الظاهرة في كل شيء، معجزات كلها، لأنه لا قبل للإنسان بها ولا مقدرة له على توفيرها بنفسه.
فثبت أن الحق سبحانه وتعالى، يسعى في إصلاح حال الإنسان ويهدف إلى إبقائه، وهو يعطيه هذا الدرس ما بين الحياة والموت، لكي ينبهه إلى درس الحياة الأكبر، فيتفطن إلى ما يريده له الشيطان من الإهلاك، وما يريده له الرحمن من الإبقاء والإحياء.
ومع ذاك فإن أكثر الخلق عن هذه الحقائق الأساسية غافلون، ألهتهم الدنيا وأضلتهم الأهواء. وهذا الذي ذكرنا من آيات الله ومعجزاته المنجية، داخل في رحمته سبحانه لنوع الإنسان قاطبة وهي الرحمة العامة التي شملت الأبرار

(١) سورة غافر : ٥١
(٢) سورة آل عمران : ١٢٦
(٣) سورة الأنفال : ١٠

والأشرار، حفظا منه سبحانه لعهده مع الإنسان القاضي بأن يرزقه ويسخر له كل ما يلزم لحياته لقاء أن يعبده هذا المخلوق ولا يشرك به شيئا.
أما الرحمة الخاصة بالمؤمنين، فهي كل نظام الهداية الذي هيأه الله للخلق، فأقبل عليه الصالحون يستفيدون منه، وأنكره الخاسرون. ثم هي أيضا، التأييد الذي أعلنه سبحانه صراحة للمؤمنين في صراعهم مع الكافرين، والذي جاءت عديد آيات القرآن الكريم مؤكدة له.

في معركة الحق والباطل، يناضل الشيطان مع أعضاده،ونضاله معهم خذلانهم وتضييعهم؛ ويقف الله مع المؤمنين يقويهم ويثبتهم. حدث ذلك في بدر:» إذ يوحي ربك إلى الملائكة أني معكم فثبتوا الذين آمنوا. سألقي في قلوب الذين كفروا الرعب فاضربوا فوق الأعناق واضربوا منهم كل بنان»[1].
أما الشيطان، فقد قال لأتباعه كلاما أرعبهم وخذلهم شر خذلان :» وإذ زين لهم الشيطان أعمالهم وقال لا غالب لكم اليوم من الناس وإني جار لكم. فلما تراءت الفئتان نكص على عقبيه وقال إني بريء منكم إني أرى ما لا ترون إني أخاف الله والله شديد العقاب» [2].
ومن قبل بدر، في لحظة ظهور الفرد الأمة، أيد الله الخليل عليه السلام بما أيد به بعد ذلك الأمة المسلمة التي اتبعت ملته، أيده بالنصر الساحق على أعدائه، وتنجيته أمام أعينهم ورغم كل كيدهم العظيم.
إن نجاة الخليل من النار، هي معجزة التأسيس أيضا كما أن صاحبها هو نبي ورسول التأسيس. إنها تؤسس لمعرفة باقية لا تزول: إن النصر من عند الله فقط، وإنه سبحانه جعله للمؤمنين فقط.

وبانتصار إبراهيم، وبتجاوزه لمحنة الحرق بالنار، كان واضحا أن الله تعالى قد نذره وأعده للبقاء، وأنه سيكون أبا ومؤسسا لطريق لا يفنى ولأمة لا تزول. قال تعالى مباشرة بعد حديث محنة الحرق بالنار : « ونجيناه ولوطا إلى الأرض التي باركنا فيها للعالمين. ووهبنا له إسحاق ويعقوب نافلة وكلا جعلنا صالحين. وجعلناهم أيمة يهدون بأمرنا وأوحينا إليهم فعل الخيرات و إقام الصلاة وإيتاء الزكاة وكانوا لنا عابدين».
وإذا كان الخليل عليه السلام قد أصبح بإيمانه أبا الصديقين، فإنه بهذه التضحية التي قدم فيها نفسه وماله غير عابئ بالنار المحرقة، قد أصبح أبا الشهداء أيضا. وبذلك أعطانا صورة أخرى لما سوف يكون عليه أتباعه من بعده من إقبال على

(١) سورة الأنفال : ١٢
(٢) سورة الأنفال : ٤٨

التضحية ومن رغبة في بذل النفس والمال في سبيل الله تعالى.

إن تحطيم أصنام القوم والتعرض الاختياري لغضبهم وعقابهم هو عمل أول في سبيل تأكيد الإسلام كهوية مناضلة وكانتماء صادق مخلص للواحد، عالم الغيب والشهادة. وسيليه مباشرة عمل آخر لا يقل عنه أهمية: إنها الهجرة.

ب - البراءة والهجرة : في التعامل مع الأهل والعشيرة

بعد اجتيازه محنة الحرق بالنار مؤمنا محتسبا، ونجاته بتوفيق الله وحمايته ورعايته، ارتبط الخليل عليه السلام بربه برباط جديد، رباط الحماية، بعد أن ارتبط به أولا برباط الهداية. فأصبح الله سبحانه حاميه كما كان في البدء خالقه ثم بعد ذلك هاديه. وقد هيأه هذا الرباط الجديد المعلن على رؤوس الملإ، لاجتياز محنة ثانية واختبار جديد سوف يصبح أحد أهم معالم طريق الإسلام حيثما وجد مسلمون، وأحد أهم العناصر المكونة لبنيان الجهاد والشهادة: إنه ابتلاء البراءة والهجرة.

فبعدما حصل بين الخليل وقومه من انكشاف النوايا عبر الأعمال، وظهور العداوة والبغضاء واضحة جلية واستحكام العداء، الأمر الذي أصبح كل أمل في الإصلاح معه مستحيلا، كان لا بد من إعلان البراءة والتهييء للهجرة حيث أن معاشرة الإيمان للكفر أصبحت مستحيلة. يقول سبحانه وتعالى في سورة الممتحنة:» قد كانت لكم أسوة حسنة في إبراهيم والذين معه إذ قالوا لقومهم إنا برءاؤ منكم ومما تعبدون من دون الله كفرنا بكم وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبدا حتى تؤمنوا بالله وحده إلا قول إبراهيم لأبيه لأستغفرن لك وما أملك لك من الله من شيء ربنا عليك توكلنا وإليك أنبنا وإليك المصير. ربنا لا تجعلنا فتنة للذين كفروا واغفر لنا ربنا إنك أنت العزيز الحكيم. لقد كان لكم فيهم أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر ومن يتول فإن الله هو الغني الحميد» [1].

ليس من باب المصادفة إطلاقا أن ترد هذه الآيات ضمن سورة الممتحنة بالذات. فعنوان السورة نفسه يؤكد على أن مضمونها يتعلق بامتحان وابتلاء واختبار، حيث لا يكاد هذا المضمون يخرج عن معنى مركزي واحد ذلك دعوة الله المؤمنين إلى البراءة من المشركين. جاء في الآية الأولى:

« يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء تلقون إليهم بالمودة وقد كفروا بما جاءكم من الحق يخرجون الرسول وإياكم أن تؤمنوا بالله ربكم إن كنتم خرجتم جهادا في سبيلي وابتغاء مرضاتي تسرون إليهم بالمودة وأنا أعلم بما أخفيتم وما أعلنتم ومن يفعله منكم فقد ضل سواء السبيل» [2].

منطق السورة ومضمونها واضح إذن منذ البداية، وخطابها للمؤمنين حاسم صارم يخيرهم بين أمرين، أن ينتموا لله ولرسوله، وحينئذ عليهم أن لا يوالوا

(١) سورة الممتحنة: ٤ - ٦

(٢) سورة الممتحنة: ١

أعداء الله ؛ أو أن يوالوا أعداء الله الذين هم في نفس الوقت أعداءهم، وحينئذ فليحالفوا الضلال:» ومن يفعله منكم فقد ضل سواء السبيل». إنه إذن أحد أهم الامتحانات التي تؤسس مضمون الإسلام باعتباره جهادا وشهادة: امتحان البراءة من القوم والتنكر للأهل والعشيرة ماداموا كافرين. وباعتبار الخليل عليه السلام مؤسسا لطريق الإسلام، فقد كان المسلم الأول الذي اجتاز هذا الامتحان هو ومن آمن معه، فأصبحوا بذلك أسوة ومثلا يذكّر الله سبحانه وتعالى به المسلمين جيلا بعد جيل:» قد كان لكم أسوة حسنة في إبراهيم والذين معه إذ قالوا لقومهم إنا برءاؤ منكم ومما تعبدون من دون الله كفرنا بكم وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبدا حتى تؤمنوا بالله وحده... «.

إنها براءة واضحة يعلنها المؤمنون، براءة من الكافرين ولو كانوا قومهم، وبراءة من آلهتهم الزائفة وأصنامهم التافهة. براءة من عبادة الطاغوت، وقوم إبراهيم كما نعلم يعبدون الطاغوت من دون الله ، وبراءة من عبادة الأصنام وقوم إبراهيم قد أقاموا لها معبدا، وبراءة من عبادة الآباء والأجداد وقوم إبراهيم كانوا يعبدون كل هذا.

ثم إن هذه البراءة تزداد تأكدا ورسوخا عبر عمل وشعور وموقف فعلي من الكافرين يتمثل في إظهار العداوة والبغضاء لهؤلاء وعدم ممالأتهم ومهادنتهم كما يفعل ضعاف الإيمان في كل عصر:» كفرنا بكم وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبدا «. إنه موقف صريح وشهادة واضحة على القوم والعشيرة، ومفاصلة لا تبتغي إلى الهدنة سبيلا. ولا شك أنه لكل نفس كفرها، وقد جعل هؤلاء المؤمنون كفرهم بقومهم الكافرين الذين كان كفرهم في المقابل، بالله الواحد الأحد. إنه كفر بالخلق عندما ينحلّون ويفسدون ويضلون، إنه كفر بالنفس عند فجورها.

« كفرنا بكم»، إلغاء للاعتراف ونفي للوجود، وموقف إن دلّ على شيء فعلى العزة والمنعة التي يتمتع بها هؤلاء المؤمنون بالله الواحد. عزة بالله وحده تمكّن من إلغاء الاعتراف بكل إله سواه، وما لم يصل الإيمان إلى هذه المرتبة من الاعتزاز بالله والكفر بسواه، فما هو بإيمان إبراهيمي. وليس الكفر وحده هو كل ما يبذله هؤلاء المؤمنون للكفار، بل يبذلون لهم أيضا العداوة والبغضاء:» وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبدا «.

كل نفس تعادي، وكل نفس تبغض، وهؤلاء المؤمنون جعلوا عداوتهم ووجهوا بغضهم لأعداء الله ؛ فثبت أنهم عادوا في الله وأحبوا فيه. فدل ذلك على إسلام العاطفة لله تعالى، بعد أن دلّ الإيمان على إسلام العقل، ودلّ الإقدام على النار على إسلام الجسد.

إنها مجموعة من المواقف المتضامنة تهدي كلها إلى حقيقة واحدة، أننا أمام ذات محورها ومركزها ومحركها الوحيد هو الله الواحد الأحد. فمثل هذا التناغم والتناسق والتفاعل الحي بين كل مكونات الذات الواحدة يستحيل أن يتحقق خارج إطار الإيمان، ويستحيل أن تقدمه فلسفة بشرية؛ إنه عمل لا يقدر أن يؤسسه إلا من خلق فسوى وقدّر فهدى. غير أن الوضوح لازم في مثل هذه المواقف، لذلك استثنى المؤمنون حالة واحدة يمكن معها أن يتراجعوا عن عداوتهم وبغضهم للكافرين، تلك هي حالة رجوع هؤلاء إلى الإيمان بالله وحده:» وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبدا حتى تؤمنوا بالله وحده».

إن البراءة تتجاوز القوم والعشيرة إلى الأهل الأقربين، إلى الأب نفسه عندما يتبين للمؤمن أنه عدو لله. فقد استثنى إبراهيم عليه السلام أباه من عداوته أولا :» إلا قول إبراهيم لأبيه لأستغفرن لك وما أملك لك من الله من شيء ربنا عليك توكلنا وإليك أنبنا وإليك المصير». لم يسارع عليه السلام، إلى مقاطعة أبيه مراعاة منه لصلة الرحم القوية التي تجمعه به والتي كان يعلم أن الله أمر بها أن توصل لا أن تقطع، غير أنه لم يتجاوز حده مع ربه في أبيه. فوقف عند حدود الاستغفار له وصارحه بكونه لا يملك له من الله من شيء:» وما أملك لك من الله من شيء». غير أن هذا الموقف الرحيم من الأب لن يستمر طويلا، لقد استمر فقط ردحا من الزمن ظن فيه الخليل أن أباه يعود إلى الإيمان بعد أن وعده هذا شيئا من هذا القبيل. ثم، وفي خضم المواجهة الشاملة التي أعلنها الخليل على الكفر، ولما تبين له أن أباه عدو لله تبرأ منه. تكشف عن هذه الواقعة الآية التالية:» وما كان استغفار إبراهيم لأبيه إلا عن موعدة وعدها إياه فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه إن إبراهيم لأواه حليم»[1].

نلاحظ ونحن نتأمل المسيرة الإبراهيمية الشريفة أن الاعتقاد إيمانا أو كفرا، أصبح هو المحدد لعلاقة الإنسان بغيره. وواقع الأمر أن حياة الإنسان مبنية أبدا على أساس اعتقادي سواء أوعى ذلك أم لم يع.

فالإنسان لا يحب ولا يكره، لا يعادي ولا يوالي، لا يتحمس ولا يخنع إلا بحسب اعتقاده سواء أكان إيمانا أو كفرا، وسواء أكان اعتقاده دنيويا أم أخرويا. وقد كشف الخليل عليه السلام عن واقع اعتقاد قومه المادي الذي يعد الأساس المحرك لكل علاقاتهم الاجتماعية :» وقال إنما اتخذتم من دون الله أوثانا مودة بينكم في الحياة الدنيا ثم يوم القيامة يكفر بعضكم ببعض ويلعن بعضكم بعضا ومأواكم

(١) سورة التوبة : ١١٤

النار وما لكم من ناصرين»[1]. فكشف عليه السلام، عن حقيقة الاعتقاد المادي الدنيوي، وعن آفته، وهي كونه اعتقادا دنيويا عرضيا لا يدوم. فهؤلاء المتحابون في الدنيا المتوادون فيها، لن يلبثوا يوم القيامة أن يكفر بعضهم ببعض، وأن يلعن بعضهم بعضا جزاء ما أضل بعضهم البعض وما أطغى بعضهم البعض.

إن التجديد الإبراهيمي يتمثل في كونه سيقيم علاقة اجتماعية جديدة، وسيعلن مودة جديدة لا في الحياة الدنيا فحسب، بل في الحياة الدنيا وفي الآخرة. مودة تقوم على اتخاذ الله الواحد ربا بدون شرك ولا كفر. وهذه المودة سوف تبقى دائما محفوظة مشكورة بإذن الله تعالى، ولن تزداد يوم القيامة سوى قوة واتصال:» إن المتقين في جنات وعيون ادخلوها بسلام آمنين. ونزعنا ما في صدورهم من غل إخوانا على سرر متقابلين. لا يمسهم فيها نصب وما هم منها بمخرجين»[2].

ولا يظنن أحد أن مثل هذه العلاقة الإيمانية سهلة ميسورة التحقق؛ إنها على التحقيق أصعب ما يمكن أن يتحقق فوق الأرض، ولا يمكن أن يؤلف بين قلوب الناس في الدنيا تأليفا روحيا ايمانيا إلا الله تعالى وحده بما في هداه من أنوار؛ على خلاف العلاقات المادية الدنيوية الظاهرية التي تكتنف الناس.

يقول الله تعالى لرسوله مبينا قيمة التآلف القلبي بين المؤمنين:» وإن يريدوا أن يخدعوك فإن حسبك الله هو الذي أيدك بنصره وبالمؤمنين وألف بين قلوبهم لو أنفقت ما في الأرض جميعا ما ألفت بين قلوبهم ولكن الله ألف بينهم إنه عزيز حكيم»[3].

هكذا يتجه الخليل وبفعل إيمانه، إلى مجابهة المجتمع بأكمله شاهدا عليه، معاديا له إذ وجبت العداوة، مقاطعا له لما حقت المقاطعة، تماما مثلما جابه وبفعل يقينه أيضا الأصنام والآلهة الطاغوتية المزيفة رغم النار التي ألقي فيها.

إن الشهادة على المجتمع هي الابتلاء الثاني الذي يجابهه المؤمن، والذي يطالب فيه أن يكشف عن إسلامه وإيمانه بشكل قاطع نهائي.

لذلك أدت العداوة والبغضاء إلى النتيجة المنطقية المتوقعة وهي المقاطعة والبدء الفعلي في تنفيذ مشروع الهجرة. إن العداوة الحقيقية لا تبقي مجالا لاعتراف عدو بعدوه، والبغض الحقيقي لا يمكن معه لكل واحد من المتباغضين إلا أن يتمنى زوال صاحبه، وهذا ما حدث بالفعل. فالخليل الذي سعى قومه لإحراقه فأنجاه الله، فجاهر قومه بدوره بعداوته وبغضه، لم يعد له ولقلة مؤمنة معه

(١) سورة العنكبوت : ٢٥

(٢) سورة الحجر : ٤٥ - ٤٨

(٣) سورة الأنفال : ٦٢ - ٦٣

أي سبب يجمعهم إلى هؤلاء القوم الأعداء، ولم يعد لهم أي ودّ يمكن أن يربطهم بقوم كافرين مركزوا حياتهم حول أصنام لا تنفع ولا تضر، وربطوا وجودهم وأمنهم بطاغوت مستعل فاسد كذاب.

إن لكل كائن بدءا من الإلكترون وانتهاء بالكواكب الضخمة السيارة، مدار يدور عليه، ونواة صلبة يتجه إليها. والمؤمن يعي جيدا هذه الحقيقة وينخرط فيها، ولذلك نجده يتخذ لنفسه مركز جذب واحد أوحد يدور حوله، إنه الله الواحد الأحد. فإذا ما فسد الناس وضيعوا مركز وجودهم ومعنى حياتهم، فإن المؤمن وحده يجب أن يحافظ على الأمانة، أمانة الولاء للمركز الأصل، للأول، للواحد الخالق الهادي. وهذا ما فعله الخليل عليه السلام لما رأى قومه وقد اتجهوا بكنه الهمة إلى هلاكهم رغم تحذيره وتضحياته. حينئذ لم يكن أمامه سوى أن يتركهم لمصيرهم التعيس وأن يسعى في نجاة نفسه ومن آمن معه، وهذا ما حصل بالضبط. وكان أن أعلن ولأول مرة فوق الأرض، مشروع الهجرة ليتأسس بذلك الطقس الثاني من طقوس الإسلام بعد تطبيق الطقس الأول، طقس الفناء في الله أو الشهادة في سبيل الله. قال الخليل عليه السلام لقومه معلنا اعتزاله لهم:» وأعتزلكم وما تدعون من دون الله وأدعو ربي عسى ألا أكون بدعاء ربي شقيا. ولما اعتزلهم وما يعبدون من دون الله وهبنا له إسحاق ويعقوب وكلاّ جعلنا نبيا. ووهبنا لهم من رحمتنا وجعلنا لهم لسان صدق عليا»[1].

تكشف هذه الآيات من سورة مريم لأول مرة في القرآن الكريم عن نية الخليل عليه السلام اعتزال قومه والهجرة إلى ربه. فلقد تيقن الشاب المؤمن أن قومه لن يتراجعوا عن عبادة الطاغوت وعن تأليه الأصنام وهم الذين أرادوا به كيدا لما أراهم بالبرهان تفاهة ما يعبدون، ويئس عندئذ من إقناعهم بالعودة إلى الحق، وإذ ذاك علم أنه لم يعد له مقام بينهم إلا إذا كان ممن تهون عليهم حياتهم، وما هو على وجه التأكيد كذلك.

إن الهجرة كوجه ثان للشهادة على المجتمع بعد الشهادة الأولى على الآلهة المزيفة والطواغيت، سوف تتأسس كضرورة وكعمل لازم ضمن صيرورة المسار الإبراهيمي الشريف، انطلاقا من اليأس والأمل معا؛ اليأس من إصلاح حال ذلك المجتمع من ناحية، والأمل في حياة أخرى أفضل وفي غرس بذرة الإيمان في مكان أكثر صلاحا وأكثر قابلية. منذئذ أصبح هذا العمل، أعني الهجرة، باب الفتح على كل آل إبراهيم نساء ورجالا. وليس مصادفة أن يكون إعلان الهجرة الإبراهيمية مدونا في سورة مريم الصدّيقة التي انتبذت من أهلها مكانا شرقيا الأمر الذي

(١) سورة مريم : ٤٨ - ٥٠

سنتناوله بالبحث والتدبر في الإبان بإذن الله تعالى.
هاجر الخليل عليه السلام في رهط قليل لا يمكن أن نذكر منهم سوى « لوط « عليه السلام الذي اتخذته السماء بعد ذلك نبيا، فكانت صحبته للخليل وهجرته معه باب فتح عليه ونعمة واصطفاء. ولقد أدت الهجرة الإبراهيمية إلى تحقيق فتح رباعي الأركان:

*** الفتح الأول :**

ما جاء في سورة الأنبياء من قوله تعالى: « ونجيناه ولوطا إلى الأرض التي باركنا فيها للعالمين». فكانت الهجرة باب النجاة ووسيلتها، ولو لم يهاجر عليه السلام لما أمن مكر قومه، ولما أمن مكر الشيطان الذي يسعى إلى تدجين الإنسان بكل الوسائل. إن البقاء مع القوم الكافرين، والركون إلى فئة الظالمين، لا يؤمن معه من الوقوع في النار. وقد قال سبحانه وتعالى: « ولا تركنوا إلى الذين ظلموا فتمسكم النار وما لكم من دون الله من أولياء ثم لا تنصرون».
فجعل سبحانه وتعالى الركون إلى الظالمين، وهم الكافرون المشركون والمنافقون، مدخلا إلى الوقوع في النار، وبابا للتعرض لخذلان الله وخلع ولايته سبحانه للمؤمن. فدلّ بذلك على أنه ليس أمام المؤمن من حل إزاء الظلم والظالمين، سوى ترك هذا السبيل وترك من يقومون عليه ويدينون به. أما القول أن الإنسان قادر على أن يقي نفسه آفات الظلم وهو يعاشر الظالمين، فهو قول مبالغ فيه لا يصدقه الواقع ولا تؤيده الحقيقة. إن الظالمين يحيلون الأرض بظلمهم إلى قطعة من نار، ومن يمشي فوق هذه القطعة لابد أن يناله شواظها ويلفحه من لهيبها.
ونحن في هذا العصر المتأخر الذي ساد فيه بنو إسرائيل من جديد، نرى هذه الآية حقيقة ماثلة أمامنا. فرغم كل ما يبذله المسلم الصادق الإيمان اليوم للاحتفاظ بنقاوة حياته وطهر مسيرته من الدنس و الأرجاس، فإنه يجد نفسه واقعا لا محالة في حمأة الفساد الذي أرهق به هؤلاء المجرمون الناس وأفسدوا به وجه الأرض. من منّا اليوم يسلم من آفات الربا الذي أصبح قاعدة التعامل المالي فوق الأرض ؟
ومن منّا يسلم من آفات المادية الطاغية التي أصبحت دين الناس أجمعين تقاد إليها الشعوب مسحورة بالنماذج البراقة للامتلاء والرفاه والسعادة الوهمية ؟ من منّا نحن المسلمين أو الذين ندعي أننا كذلك، وقد تركنا الجهاد والعمل والشهادة، يهنأ بالعيش فوق الأرض يوما واحدا دون منغّص بل منغّصات وهو يرى آلهة الزيف تنصّب وطواغيت الأرض تستعلي، ويرى مواكب العبيد تساق في ذل عجيب نحو عبادة ما لا يستحق سوى السحق والمحق.

من منّا لم تهتز أركان بيته أمام زحف المادية ولهيب الدنيا وضلال التوجيه والتربية الفاسدة. هكذا أصبحنا نرى بأم أعيننا الفساد يستشري في البر والبحر، في الأبدان والأرواح، في الأزواج والذرية ونحن أعجز من أن نحرك شيئا، قضاء الله الذي لا مرد له في أمة كانت خير أمة أخرجت للناس تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر وتؤمن بالله، فأصبحت شر أمة تهرب من الجهاد، وتتفصى من الإيمان كما يتفصى المجرم من جريمته أمام العدالة. فلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، وإنا لله وإنا إليه راجعون.

كانت الهجرة إذن منطلقا فعليا واقعيا وحقيقيا للنجاة والخلاص من كيد القوم الظالمين، وتلك كانت أولى فتوحاتها وأولى رحماتها. ولذلك فإن حياة الخليل عليه السلام والتي أراد قومه أن تؤول إلى الاضمحلال والفناء، سوف تؤول وتصبح حياة بناء وعطاء منذ لحظة الهجرة بالذات. إن الهجرة بما هي نجاة من القوم الظالمين، وتخليص للنفس من آفات معاشرة الكافرين، سوف تكون كذلك نقطة التأسيس وبداية مشروع البناء لكل الإنجازات الإبراهيمية الكبرى بعد ذلك.

إن بيت إبراهيم كله سوف يبنى بدءا من حدث الهجرة. وهنا نسارع بالحديث عن الفتح الثاني.

* **الفتح الثاني:**

يتمثل الفتح الثاني في توريث إبراهيم الخليل وآله من بعده الأرض التي بارك الله تعالى فيها للعالمين:» ونجيناه ولوطا إلى الأرض التي باركنا فيها للعالمين». وهذه الأرض التي لا نجد لها ذكرا مفصلا في القرآن، هي على الأرجح بيت المقدس؛ تلك الأرض المباركة التي جعلها الله سبحانه بقعة مباركة تشد إليها الرحال، وتزكو فيها العبادات، وتلتقي فيها الرسالات.

وقد يكون في الحديث بعد ذلك مباشرة عن إسحاق ويعقوب، وهما رأسا الفرع الإبراهيمي الذي سيستوطن هذه البقعة المباركة ما يدل على أن هذه الأرض التي بارك الله فيها للعالمين، هي على الأرجح بيت المقدس دون سواها، ناهيك أن لوطا عليه السلام الذي اتجه مع الخليل عليه السلام إلى هذه الأرض، يرجح والعلم لله، أنه لم يبتعد كثيرا عن هذا المكان المبارك كما قد يفهم من بعض خطوط وفصول كتب التاريخ. والعلم لله أولا وآخرا، ويبقى الأمر مجرد ترجيحات مادامت المعلومات الأثرية والتاريخية إجمالا إلى حد اليوم، لا تسعف إلا بما يفي للظن والتخمين لا بما يؤسس للعلم واليقين.

إن وراثة الأرض التي بارك الله تعالى فيها للعالمين، هي وراثة للقبلة الأولى، وما أدراك ما القبلة في علم الله تعالى وفي كتاب الله.

فلا خلاف بين المحققين من أهل الله أن من يرث القبلة هو بالضرورة من يرث الأرض. إن التمكين الإلهي يرتبط أبدا بتحديد القبلة لمن رضي الله عنهم وأراد أن يستخلفهم دون سواهم. قال موسى عليه السلام لقومه لما أراد تهيئتهم للنجاة بأمر الله وتأييده :» وأوحينا إلى موسى وأخيه أن تبوءا لقومكما بمصر بيوتا واجعلوا بيوتكم قبلة وأقيموا الصلاة وبشر المؤمنين» [1].

ومعلوم أن قبلة الله تعالى تظهر وتعلن أحيانا، وتضمر وتخفى أحيانا أخرى بإذن الله تعالى وبحسب تقديره الحكيم. ومعلوم أيضا أنها تتحول رغم العلم اليقين بكونها واحدة، وما جعل الله تعالى ذلك إلا فتنة، وليعلم المؤمنين وليتم أمره. ومهما يكن، فإن الخليل عليه السلام بهجرته، كان يتجه نحو القبلة الأولى التي رضيها الله سبحانه للأمة الإبراهيمية الأولى، أبناء إسرائيل يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم الخليل عليهم صلوات الله وسلامه.

إن ظهور القبلة الأولى نقض أول وحدث كبير من أحداث وتواريخ الأرض؛ وهو ليس بالهين ولا البسيط إلا لأولئك الذين لا يرون شيئا من التدبير الإلهي لتاريخ العالم ولمسيرة الإنسان بالذات فوق الأرض. أما المؤمنون، فيعلمون أن مثل هذا الحدث الجليل يمثل إحدى علامات التاريخ الفارقة والفاصلة، ونقطة هامة من نقاط فهم حقيقة مسيرة الإنسان وخفايا حراك الأمم فوق الأرض.

بظهور القبلة الأولى ممثلة في الأرض التي بارك الله تعالى فيها للعالمين، كان هناك فتح ثالث مضمر سوف يصبح مع الأيام واقعا تاريخيا حقيقيا: إنه الوعد بالأمة الأولى الكامنة في صلب إسحاق الذي بشّر به الخليل عليه السلام.

* **الفتح الثالث :**

« ووهبنا له إسحاق ويعقوب نافلة وكلا جعلنا صالحين» [2].

من المعلوم أن الخليل عليه السلام قد بشّر بإسحاق عليه السلام، ومن وراء إسحاق يعقوب وهو شيخ طاعن في السن، وامرأته التي أنجبت إسحاق كانت عجوزا قد تجاوزت بوقت طويل العمر المألوف الذي تلد فيه المرأة؛ وهذا ما ترويه الآيات التالية: « ولقد جاءت رسلنا إبراهيم بالبشرى قالوا سلاما قال سلام فما لبث أن جاء بعجل حنيذ. فلما رأى أيديهم لا تصل إليه نكرهم وأوجس منهم خيفة قالوا لا تخف إنا أرسلنا إلى قوم لوط. وامرأته قائمة فضحكت فبشرناها بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب. قالت ياويلتى ءألد وأنا عجوز وهذا بعلي شيخا إن هذا لشيء عجيب. قالوا أتعجبين من أمر الله رحمة الله وبركاته عليكم

(١) سورة يونس : ٨٧

(٢) سورة الأنبياء : ٧٢

أهل البيت إنه حميد مجيد» [1].

يتأكد من خلال هذه الآيات البينات، أن الخليل عليه السلام قد بشر بإسحاق بعد أن مسه الكبر وأصبحت زوجته عجوزا، فكانت ولادة إسحاق عليه السلام ومن ورائه كل أبنائه الذين سيخرج منهم فيما بعد شعب إسرائيل، معجزة إلهية ومنة منه سبحانه على أهل البيت، ورحمة نالت تلك المرأة التي عاشرت الخليل عليه السلام فلم تلد منه، فكانت تلك العشرة الخالية من الثمرة مظنة النقص في الخليل عليه السلام الذي أحبه الله، وما كان ليشقي به من عاشره ولاذ به. إن ولادة إسحاق إكرام ينال الخليل عليه السلام ليجعل منه هو بالذات، الرجل المثمر أبدا، المنتج أبدا، وليجعل من عمله عملا صالحا مقبولا.

ما كانت السماء لترضى بأن يؤول حرث الخليل في زوجه إلى البوار، وما كانت لترضى أن تؤول تلك العشرة الطويلة لامرأة مع أب المسلمين إلى العقم. إن من يعاشر الخليل عليه السلام لا بد أن يستفيد منه. وإن هذا الرجل بالذات أراده الله تعالى أن يكون شجرة أصلها ثابت وفرعها في السماء تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها.

وبولادة إسحاق ومن ورائه يعقوب، خط القدر السطور الأولى في بناء الأمة الأولى[2],من آل إبراهيم الخليل التي سيورثها الله تعالى الكتاب والحكمة والملك العظيم لينظر ماذا تفعل فيما أوتيت، تلك هي أمة إسرائيل التي آتاها الله تعالى التوراة فيها هدى ونور، وهداها إلى القبلة الأولى، إلى الأرض التي بارك فيها للعالمين.

*** الفتح الرابع:**

لم يتوقف الفتح الرباني على الخليل عليه السلام لما تمحض لربه وأسلم وجهه لله وهاجر إليه مفضلا إياه على كل شيء سواه، على تنجيته من النار والكشف له عن القبلة الأولى وتوريثه إياها وتبشيره بإسحاق ومن ورائه يعقوب، بل تجاوز ذلك إلى جعله أبا لأمة أخرى هي الأعظم بين أمم الأرض والأكرم بين كل أهل الأرض، إنها الأمة الإسلامية المنتسبة إلى النبي الأمي محمد صلى الله عليه وسلم، حفيد إسماعيل بن إبراهيم الخليل عليهم جميعا صلوات الله وسلامه. جاء في سورة الصافات سرد لقصة الخليل عليه السلام مع قومه : « ... وإن من شيعته لإبراهيم إذ جاء ربه بقلب سليم. إذ قال لأبيه وقومه ماذا تعبدون أئفكا آلهة دون الله

---

(١) سورة هود : ٦٩ - ٧٣

(٢) نطلق على بني إسرائيل اسم « الأمة الأولى»، دون أن نأخذ في الاعتبار أمة التأسيس التي تبدأ بإبراهيم الخليل وتنتهي بالأسباط، وإلا فإنها يقينا، هي الأمة المسلمة الأولى.

تريدون فما ظنكم برب العالمين.
فنظر نظرة في النجوم فقال إني سقيم فتولوا عنه مدبرين. فراغ إلى آلهتهم فقال ألا تأكلون مالكم لا تنطقون. فراغ عليهم ضربا باليمين. فأقبلوا إليه يزفون قال أتعبدون ما تنحتون والله خلقكم وما تعملون. قالوا ابنوا له بنيانا فألقوه في الجحيم. فأرادوا به كيدا فجعلناهم الأسفلين. وقال إني ذاهب إلى ربي سيهدين. رب هب لي من الصالحين. فبشرناه بغلام حليم»[٣]. تؤرخ هذه الآيات البينات لولادة الأمة الثانية في الترتيب ولكن الأولى في الأفضلية والاعتبار، إنها أمة المسلمين العدول، ورثة الخليل عليه السلام بالحق والعدل لا بالظلم والاستعلاء. هذه الأمة التي كانت ولادتها انطلاقا من حدث الهجرة الإبراهيمي: « وقال إني ذاهب إلى ربي سيهدين».
وإذ رضي الخليل عليه السلام باعتزال قومه، وجد نفسه وحيدا، وهنا التجأ إلى الدعاء:» رب هب لي من الصالحين». كان ذلك باختصار دعاء الخليل الذي رتب عليه الله تعالى ولادة إسماعيل الصدّيق النبي عليه الصلاة والسلام. قال تعالى:» فبشرناه بغلام حليم». ثم استمرت الآيات لتؤكد أن هذا الغلام الحليم هو الذي ابتلي الخليل بعد مدة بأمر ذبحه، وهو على التحقيق واليقين، إسماعيل لأن البشارة بإسحاق ما جاءت إلا من بعد ذكر قصته. وما يقال من أن الذبيح هو إسحاق مما ترويه التوراة المحرفة ويقول به بعض المفسرين، هو جهل وخطأ جسيم.
كانت ولادة إسماعيل عليه السلام وهو الغلام الحليم المذكور في هذه الآيات بناء على طلب ودعاء من الخليل نفسه؛ على خلاف ولادة إسحاق التي كانت منّا ورحمة من الله تعالى للخليل وزوجه بعد أن أصبحا شيخين هرمين. ومن البين الواضح أن إسماعيل هو السند الأول الذي سيهيئه الله تعالى لإبراهيم، وهو البذرة الأولى التي ستكون نواة لولادة الأمة الأولى في الاعتبار والفضل، الثانية والأخيرة من حيث اللحظة التاريخية، تلك هي الأمة المحمدية التي كتبت لها رحمة الله الخاصة دون سائر الأمم، وذلك لاتّباعها ملة أبيها إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام.
إن إسماعيل عليه السلام هو جدّ محمد صلى الله عليه وسلم وارث القبلة الأولى في الاعتبار والأفضلية، ولكن أيضا الثانية في الظهور والتجلي، تلك هي الكعبة البيت العتيق، الذي جعله الله تعالى مثابة للناس وأمنا. والواقع أن هذا الفتح على الخليل عليه السلام بجعله أبا الملة الإسلامية المباركة، وأصل الشجرة النورانية

(٣) سورة الصافات : ٨٣ - ١٠١

المحمدية، مع ما اقتضاه ذلك من كشف الله تعالى له عن مكان البيت وإشراكه في رفع أركانه وبناء قواعده، هو أعظم فتح ناله الخليل عليه السلام في الدنيا على الإطلاق لأنه جعل منه باختصار، أكبر مؤسس عرفته الأرض من آدم إلى يوم يرث الله تعالى الأرض ومن عليها.

إن بناء البيت تهيئة لظهور الأمة المباركة وريثة إبراهيم الخليل. وإظهار قواعد هذا البيت بإذن الله تعالى، يعد أعظم حدث روحي حصل فوق الأرض لأنه يعني أن الإيمان سيصبح له تاريخ وستكون له مسيرة، أي أنه سيصبح إسلاما.

إن البيت العتيق الذي رفع قواعده الخليل عليه السلام، هو وحده بيت إبراهيم، وهو البيت المبارك الباقي الذي أذن الله تعالى أن يبقى وأن يقوى وتترسخ جذوره.

إن جوهر مشروع الابن البار للخليل عليه السلام، ونقصد محمدا صلى الله علي وسلم، يتمثل في إعادة تطهير البيت من الأصنام، وإعادة فتح طريق الحج أمام المسلمين تواصلا مع أذان الخليل عليه السلام، مما سنفيض الكلام فيه بعد حين بإذن الله تعالى.

بتبرؤ الخليل عليه السلام من أهله وقومه، كان حقا على الله العادل أن يعوضه خيرا منهم، فكان عوض أولئك الوثنيين المجرمين، أمة مسلمة مؤمنة عادلة كان الخليل عليه السلام هو أول أفرادها. وبتخليه عليه السلام عن داره ومسكنه، أعطاه الله أعظم بيت وجد فوق الأرض، أعطاه البيت العتيق الذي لا يعلم سره ومعناه وعزه وقيمته على وجه التمام والكمال إلا الخالق جل وعلا. أما المسلمون، فهم يعلمون أنه لو لم يكن لهذا البيت من صفة سوى كونه بيت الله وقبلة عبيده الطائعين، لكفاه ذلك عزا على البيوت ورفعة على كل بناء سواه.

أما قبل ذلك، فقد أعطى الله تعالى الخليل دينا قيما ملة إبراهيم، أعطاه الإسلام العظيم الذي أصبح ينسب إليه لمّا حطّم الأصنام، وترك عبادة الوثنيين المشركين.

وبهذا وذاك مما رأينا من أوجه الفتوحات الإلهية على الخليل المصطفى والإمام المهدي الراشد إبراهيم عليه الصلاة والسلام، يتبين لنا إلى أي مدى كانت الهجرة حدثا عظيما في حياته عليه الصلاة والسلام، وعملا ضروريا لا غنى عنه لتطوير مساره وتحقيق الغاية من وجوده فوق الأرض.

وإذا نظرنا إلى قيمة الفتوحات الإلهية الناشئة عن الهجرة، حق أن نقول إنه لا إمكان للحديث عن نمو الشخصية وتطورها في الإسلام بدون الاعتقاد في كون الهجرة حدثا ضروريا بقدر ما هو تأسيسي. ليست هجرة الخليل إذن حدثا اتفاقيا عرضيا ولا مصادفة، بل هي عمل من صميم أعمال الإسلام. وإذا كان الإسلام يتأسس كإيمان قبل الهجرة بإعلان الرفض للطواغيت وللأصنام، فإن إتمام هذا

الإيمان وتأييده بالشهادة اللازمة لتحققه وتحقيقه، لا يتم إلا بالهجرة. إن الهجرة وحدها هي التي تنقل المؤمنين إلى مصاف المسلمين. ويكفي هذا الحدث أهمية وقيمة أنه يقسم المؤمنين أنفسهم قسمين، قسم القاعدين وقسم المهاجرين. يقول تعالى معظما مقام الهاجرين:» أجعلتم سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام كمن آمن بالله واليوم الآخر وجاهد في سبيل الله لا يستوون عند الله والله لا يهدي القوم الظالمين. الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم أعظم درجة عند الله وأولئك هم الفائزون. يبشرهم ربهم برحمة منه ورضوان وجنات لهم فيها نعيم مقيم. خالدين فيها أبدا إن الله عنده أجر عظيم»[1].

جعل سبحانه وتعالى الهجرة قرينا للإيمان:» الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا « وقبل الجهاد، مما يدل على أنها أعظم الجهاد وأرفعه، وأنها باب الرفعة والفوز، وأنها على التحقيق، أول ما ينتج عن النفس من عطاء وتضحيات إذا آمنت بربها.

إن الهجرة كما تؤكد الآيات السالفة، إحدى ثلاث علامات فاصلة بين الإيمان الشكلي الأقرب إلى النفاق والزور، والإيمان الحقيقي الفاعل المثمر الموصل إلى الرفعة والفوز. ولاشك أن مثل هذه الملاحظة القرآنية العظيمة، جديرة بأن تنبهنا نحن مسلمي اليوم، إلى السر وراء قصور إسلامنا الراهن عن تبليغنا حدود الأمان والاطمئنان، ناهيك عن إيصالنا إلى مدارج الرفعة والتمكين.

إن السر يكمن ببساطة في كون إسلامنا اليوم أصبح مقتصرا على سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام، ولم يعد يحمل أي نفس جهادي، ناهيك أن يكون بالفعل هجرة إلى الواحد الحق، وترك الآلهة المصطنعة والأهل الفاسقين والأقوام الضالين.

يقول سبحانه وتعالى: « إن الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله. والذين آووا ونصروا أولئك بعضهم أولياء بعض. والذين آمنوا ولم يهاجروا مالكم من ولايتهم من شيء حتى يهاجروا وإن استنصروكم في الدين فعليكم النصر إلا على قوم بينكم وبينهم ميثاق والله بما تعملون بصير» [2].

فجعل سبحانه الهجرة شرطا للولاية، فلا يتولى المؤمن المهاجر مؤمنا آخر إلا إذا هاجر. فثبت عندئذ أن الهجرة حدث جليل وعمل عظيم يتوقف عليه كل مصير الإسلام والمسلمين.

ليس عجيبا إذ ذاك أن نجد الهجرة تشكل في حياة محمد صلى الله عليه وسلم، الوارث الإبراهيمي وأصحابه، حدثا مركزيا حتى لقد كانت السبب في نشأة الإسلام كمدينة وكقوة مناضلة مجاهدة، وبالتالي كأمة مستخلفة تاريخيا وحضاريا. إن

(١) سورة التوبة : ١٩ - ٢٢

(٢) سورة الأنفال : ٧٢

المهاجرين الأول، بقوا دائما موضع التقدير من قبل الله تعالى ومن قبل المؤمنين باعتبارهم قد أدوا واجب التضحية في سبيل تأسيس مدينة الإيمان التي أصبحت ملاذ المسلمين ومنطلق زحفهم نحو تحرير العالم حاملين رسالة الله تعالى. فعلوا كل ذلك مضحين بالنفس والمال.

فثبت حينئذ، أن المهاجر مجاهد بالضرورة لأنه لا تكون هجرة إلا وهي جهاد بالنفس والمال بل وأكثر من ذلك، تضحية بالأهل والعيال. فمن هاجر فقد صح انه مجاهد، وتأكد أنه على إيمانه بنفسه شاهد، فنعم مقام المهاجرين. هذا وإن الإيمان بدون هجرة كالشجرة المثمرة لا تنال ثمرتها اللقاح اللازم، فلا تبرح هذه الثمرة في ضمور وانكماش حتى يذهب ماؤها وتفسد، ولا يكون منها إلا نفع ضئيل أو لا يكون منها نفع على الإطلاق؛ هذا إن لم تصبح لفسادها سبب ضرر لآكلها. لكل ذلك ارتبط الإيمان بالهجرة ارتباط الروح بالجسد، وارتباط المطلق بالتاريخ.

أن يصبح للمؤمنين تاريخ، معنى ذلك أنهم قد هاجروا. فبالهجرة وحدها يصنع التاريخ. وهذا ما وعاه جيدا «عمر بن الخطاب» رضي الله عنه، عندما جعل التاريخ الهجري أول أيام تواريخ الإسلام. إن إرث الخليل عليه السلام، قد استفيد بشكل جيد في التجربة الثانية، تجربة الأميين المرحومين الذين كانت الهجرة بالنسبة إليهم، أول الفتح وباب كل خير. وإذا كانت هجرة محمد صلى الله عليه وسلم وأصحابه، قد أسست لظهور الأمة الإسلامية، فإن هجرة الخليل عليه الصلاة والسلام قد أسست لأمرين. الأمر الأول: أنه أصبح أمة وحده، لأنه ما من مهاجر إلا وهو أمة بعد أن ترك الأهل والولد والعشيرة. يقول تعالى:» إن إبراهيم كان أمة قانتا لله حنيفا ولم يك من المشركين. شاكرا لأنعمه اجتباه وهداه إلى صراط مستقيم. وآتيناه في الدنيا حسنة وإنه في الآخرة لمن الصالحين. ثم أوحينا إليك أن اتبع ملة إبراهيم حنيفا وما كان من المشركين «[1].

أما الأمر الثاني، فهو أنه بهجرته حدد المسار التاريخي للمؤمنين والمسلمين من بعده وذلك بالكشف عن القبلتين معا كما سبق وأوضحنا. فكان الفرد الأمة، أماما ودليلا هاديا ومشكاة منيرة لدرب الأمم من بعده. لذلك جاءت الآية صريحة في التأكيد على ضرورة اتباع ملة إبراهيم الخليل حتى إنه يمكن القول إن الإسلام ما جاء إلا بإحياء ملة الخليل الدارسة عليه أفضل الصلاة والسلام. تقول الآية: « ثم أوحينا إليك أن اتبع ملة إبراهيم حنيفا وما كان من المشركين». جعلنا الله من أتباع ملة الخليل عليه الصلاة والسلام. اللهم آمين.

(١) سورة النحل : ١٢٠ - ١٢٣

ج - ذبح الابن: في التعامل مع النفس

تجاوز الخليل عليه السلام بتأييد الله وعونه ابتلاءين كبيرين، ابتلاء نقمة الخلق التي وصلت إلى حد رميه في النار بدون رحمة. وابتلاء البراءة من قومه والتخلي عن أهله، والهجرة في المقابل إلى ربه. وعبر كلا الابتلاءين كان عليه الصلاة والسلام يحقق النبذ والفطام، النبذ للآلهة المزيفة الكاذبة، والفطام عن قوم وثنيين، وعن جماعة مشركة كفرت ربها. وكما أن الفطام في حياة الوليد علامة على دخول مرحلة أخرى في حياته يمكن أن نسميها مرحلة الاعتماد على الذات والتخلي عن الوسائط وإلغاء التبعية للأم المرضعة، فكذلك الخليل عليه السلام، كانت براءته من قومه وهجرته لهم، فطاما اختياريا فصله عن منابع الشر والفساد ليطعم منذئذ من رزق ربه الطيب، ولينال من إكرامه وفضله الذي لا حد له.

في الابتلاء الأول، رأى الخليل عليه السلام الحق وتمحض له حتى إن النار لم تعد بالنسبة إليه سوى برد وسلام. وقد دلّ ذلك على أن اليقين أقوى من كل شيء، وأن رؤية الحق عز وجل بعين اليقين تصنع المعجزات. وفي الابتلاء الثاني، رأى عليه الصلاة والسلام الخلق فأولاهم ظهره وهجرهم غير آسف عليهم متبرئا من شركهم وضلالهم.

غير أن السماء لم تكتف بالابتلاءين السابقين، بل كانت تهيئ للخليل عليه السلام، ابتلاء ثالثا رهيبا ما لبثت الرؤيا أن جاءت بالإفصاح عنه، حيث رأى أنه يذبح ابنه. فما هي أبعاد هذا البلاء المبين ؟ وماذا كانت السماء تبغي أن تري الخليل فيه ؟ يقول الحق جل وعلا قاصا وقائع هذا البلاء: « ولقد نادانا نوح فلنعم المجيبون ونجيناه وأهله من الكرب العظيم.

وجعلنا ذريته هم الباقين. وتركنا عليه في الآخرين. سلام على نوح في العالمين. إنا كذلك نجزي المحسنين.

إنه من عبادنا المؤمنين. ثم أغرقنا الآخرين. وإن من شيعته لإبراهيم. إذ جاء ربه بقلب سليم. إذ قال لأبيه وقومه ماذا تعبدون. أئفكا آلهة دون الله تريدون. فما ظنكم برب العالمين. فنظر نظرة في النجوم فقال إني سقيم. فتولوا عنه مدبرين. فراغ إلى آلهتهم فقال ألا تأكلون. مالكم لا تنطقون. فراغ عليهم ضربا باليمين. فأقبلوا إليه يزفون. قال أتعبدون ما تنحتون. والله خلقكم وما تعملون. قالوا ابنوا له بنيانا فألقوه في الجحيم. فأرادوا به كيدا فجعلناهم الأسفلين. وقال إني ذاهب إلى ربي سيهدين. رب هب لي من الصالحين.

فبشرناه بغلام حليم. فلما بلغ معه السعي قال يا بني إني أرى في المنام أني أذبحك

فانظر ماذا ترى. قال يا أبت افعل ما تؤمر ستجدني إن شاء الله من الصابرين. فلما أسلما وتله للجبين. وناديناه أن يا إبراهيم قد صدقت الرؤيا. إنا كذلك نجزي المحسنين. إن هذا لهو البلاء المبين. وفديناه بذبح عظيم. وتركنا عليه في الآخرين. سلام على إبراهيم. كذلك نجزي المحسنين. إنه من عبادنا المؤمنين. وبشرناه بإسحاق نبيا من الصالحين. وباركنا عليه وعلى إسحاق ومن ذريتهما محسن وظالم لنفسه مبين» [1].

احتفت سورة الصافات بسرد قصص عدد من الأنبياء والتركيز خاصة على تنجية الله لهم من البلاء الذي أحاط بهم باعتبارهم صفوة المخلصين من المؤمنين والمحسنين. وقد انطلق القصص بنوح عليه السلام، هذا النبي الذي أرسل كما يبدو في عهد غابر سحيق، وبقي في قومه الف سنة إلا خمسين سنة كما يؤكد القرآن الكريم، الأمر الذي يدل على أن الناس في تلك الفترة قد مد الله تعالى في أعمارهم مالم يحظ به من بعدهم. ونوح عليه السلام كما هو معلوم، هو الذي صنع الفلك بعين الله تعالى ووحيه، وركبه وأهله إلا من ظلم منهم، فأنجاه الله تعالى من الطوفان الغامر الذي غطى الأرض. ومن الواضح أن ذاك الطوفان العظيم الذي ذكره القرآن الكريم، كان لحظة تاريخية فاصلة بين عهدين بشريين لا بد أنهما اختلفا في كثير من الملامح والصفات.

وإذا كانت المعلومات عن هذا العهد الأول السحيق ليست مما يتوفر بيسر سوى ما ذكرنا من إشارة القرآن الكريم إلى طول أعمار أهل الأرض في تلك الفترة، فإن الشيء الثابت أن هذا العهد الأول قد انتهى فعلا بالطوفان الذي لم ينج منه سوى نوح عليه السلام ومن آمن معه، وما حمله على الفلك من أزواج المخلوقات.

إن نوحا عليه السلام، هذا النبي البعيد في آماد التاريخ، يمثل السلف الصالح للخليل عليه الصلاة والسلام، والمصطفى مع آدم الأول عليه السلام في الفترة الأولى من حياة البشرية. يقول تعالى : « إن الله اصطفى آدم ونوحا وآل إبراهيم وآل عمران على العالمين. ذرية بعضها من بعض والله سميع عليم»[2].

ومن ذرية نوح جاء الخليل عليه الصلاة والسلام، ولذلك قال تعالى :» وإن من شيعته لإبراهيم». أي أن إبراهيم الخليل من شيعة نوح، وكما نجا نوح عليه السلام من الطوفان الغامر لأنه من عباد الله المؤمنين، فإن إبراهيم سوف ينجو من طوفان الابتلاءات أيضا، لأنه أيضا من عباد الله المؤمنين. قال تعالى في نوح:» سلام على نوح في العالمين. إنا كذلك نجزي المحسنين. إنه من عبادنا المؤمنين».

---

(١) سورة الصافات : ٧٥ - ١١٣

(٢) سورة آل عمران : ٣٣ - ٣٤

وقال في إبراهيم :» سلام على إبراهيم. كذلك نجزي المحسنين. إنه من عبادنا المؤمنين». فكان اشتراك النبيين في نفس الصفات مدعاة لاشتراكهما في الخلاص والنجاة، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء.

لقد رأينا كيف تعرض الخليل لقومه يسفههم، وأقدم على أصنامهم يحطمها، فاستدعى بعمله هذا نقمتهم الشديدة، وبعث فيهم الرغبة في تدميره وتحطيمه جزاء وفاقا بحسب زعمهم. غير أن الله تعالى حال بينهم وبين تعذيبه، وأنجاه وهم ينظرون، فلم يقدروا له على شيء، ولم تزده النار سوى صفاء ويقين. حينئذ تبرأ منهم وقرر الهجرة إلى الله فرارا من القوم الظالمين:» وقال إني ذاهب إلى ربي سيهدين».

وفي إحدى مراحل طريقه الطويل، عنّ له أن يطلب الولد، يكون له سندا وأنيسا وعملا صالحا يرفعه إلى الله تعالى. وبدون مقدمات، وكما هي عادة كل مسلم حقيقي، رفع يديه مباشرة إلى ربه: « رب هب لي من الصالحين». أعلن بدعائه هذا عن حاجته للصالحين وقد ترك الأرذلين، وعن عميق رغبته في ظهور بذرة الصلاح والخير بعد أن تخلى عن مواطن الشر والفساد. كان عندئذ أمة وحده يحمل كل رسالة الإسلام في قلبه، ويحمل كل آمال الصلاح وكل رغبات الإنسانية في التقدم سالكة درب الشكر لا درب العصيان والشرك. وسرعان ما اتجه إلى الحق يدعوه إلى تثمير هذا المسار الشريف، وإلى إنجاح هذه الهجرة المباركة: «رب هب لي من الصالحين».

وفي قوله من الصالحين تأكيد على أنه لا يرغب في ذرية تؤنس وحشته كفرد وتقوم على شأنه في شيبته كما يتمنى أغلب الناس، وإنما هو يرغب في نمو شجرة الإيمان التي مثّل هو بالذات أصلها الثابت الذي لا يتحطم ولا يتزعزع. كان يعلم ولا شك أن الأرض لا يرثها سوى الصالحين، وأن كل عمل مجانب للصلاح هو هراء وباطل لا يدوم. ولم يكن يرغب أبدا في مباشرة عمل تافه زائل. كانت كل أمنيات التأسيس تجيش في قلبه، وكان يهفو إلى بناء الأمة وإلى ترسيخ قواعد وجذور الشجرة المباركة التي قال فيها الحق سبحانه وتعالى:» ألم تر كيف ضرب الله مثلا كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء. تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها و يضرب الأمثال للناس لعلهم يتذكرون. ومثل كلمة خبيثة كشجرة خبيثة اجتثت من فوق الأرض ما لها من قرار. يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا والآخرة ويضل الله الظالمين ويفعل الله ما يشاء» [1].

في دعاء إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام، كانت تكمن بذرة هذه الشجرة

(١) سورة إبراهيم : ٢٤ - ٢٧

الطيبة التي ستؤتي أكلها كل حين بإذن ربها. وقد استجابت السماء لدعاء الخليل عليه السلام. قال تعالى : « فبشرناه بغلام حليم». وكيف لا تستجيب السماء وهي التي ما فتحت هذا السجل الأرضي إلا من أجل الصلاح ؟ يقول تعالى: « ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادي الصالحون. إن في هذا لبلاغا لقوم عابدين» [١].

إن الغلام الحليم الذي بشر به إبراهيم الخليل سيكون إذن وذريته من الوارثين الأرض بعد أهلها. وبالفعل، فهذا الغلام الحليم هو إسماعيل النبي عليه الصلاة والسلام، أحد الأنبياء المذكورين في القرآن الكريم الذي يقول : « واذكر في الكتاب إسماعيل إنه كان صادق الوعد وكان رسولا نبيا. وكان يأمر أهله بالصلاة والزكاة وكان عند أهله مرضيا»[٢].

إسماعيل إذن هو الابن الأول لإبراهيم الخليل، وهو الذي سيرفع مع أبيه قواعد البيت العتيق، وهو الذي سيكون رأس الفرع المحمدي من أبناء إبراهيم الخليل عليهم جميعا صلوات الله وسلامه. غير أنه قبل كل هذا وذاك، كان مطلوبا في قضاء الله لاجتياز اختبار ترتعد له الفرائص رعبا وتنهد له الجبال هدّا : كان مطلوبا للذبح بيد أبيه الخليل نفسه. ولنستمع إلى القرآن يقصّ الحادثة : « فلما بلغ معه السعي قال يا بني إني أرى في المنام أني أذبحك فانظر ماذا ترى. قال يا أبت افعل ما تؤمر ستجدني إن شاء الله من الصابرين»[٣].

جاء في لسان العرب: « .. .. وقوله تعالى : فلما بلغ معه السعي، أي أدرك معه العمل، وقال الفرّاء: أطاق أن يعينه على عمله. قال: وكان إسماعيل يومئذ ابن ثلاث عشرة سنة، قال الزجاج: يقال إنه قد بلغ في ذلك الوقت ثلاث عشرة سنة ..» [٤].

لاشك أن كلاما كثيرا قد كتب عن سيرة إسماعيل بن إبراهيم الخليل، بل إني قد قرأت كلاما لأحدهم يكذّب أن يكون إسماعيل ابنا لإبراهيم، ويؤكد أنه فقط أحد أقربائه. ولا شك أيضا أن أغلب ما كتب عن إسماعيل يعد من الأساطير والكلام الذي لا برهان له، ناهيك بأن المفسرين قد جعلوا من التوراة مصدرا أساسيا لهم في التأريخ لهذه الشخصية، وهو ديدن أغلبهم في التوجه إلى هذا المصدر كلما أعوزتهم المعلومات، ناسين أن الله تعالى أكد على أنها حرّفت ولم تعد مصدرا صالحا للهداية. ونحن إذ نتناول في هذ الصفحات أو في مواضع أخرى قصة

(١) سورة الأنبياء : ١٠٥ - ١٠٦

(٢) سورة مريم : ٥٤ - ٥٥

(٣) سورة الصافات : ١٠٢

(٤) ابن منظور، لسان العرب ، مجلد :١٤، مادة سعى، ص: ٣٨٥

إسماعيل عليه السلام، نلتزم كما التزمنا دائما في تعرضنا لسير الأنبياء، بما جاء في القرآن الكريم دون سواه، ولا نسعى إلى تجاوز ما جاء به القرآن الكريم اللهم إلا أن يكون استنتاجا مبنيا على مقدمات حاصلة بين أيدينا مما روته آيات الكتاب الحكيم؛ مؤمنين أن هذا الكتاب الحكيم إذ يؤرخ ويقص، كان يعي تماما ما يقص، ويعي تماما ما يغفل من سير الأمم والأنبياء.

المهم، أن الله تعالى قد استجاب دعاء الخليل وبشره بغلام حليم. والحلم كما نعلم هو العقل والأناة والتبصر والرزانة والصبر، وهي صفة عظمى من صفات الله تعالى. ومن الثابت أن هذا الغلام الحليم هو أول أبناء إبراهيم، لأن الحديث عن إسحاق جاء بعد الحديث عن البلاء الذي تعرض له هذا الغلام. ومن نافل القول أن نتصور مدى السعادة التي شعر بها الخليل عليه السلام وهو يستقبل ابنه الأول الذي جاءه في وقت هاجر فيه الأهل، وترك العائلة والأقرباء، وقت هو في أشد الحاجة فيه إلى من يؤنس وحشته ويحيي آماله في غرس بذرة شجرة طيبة لا تزول، تلك شجرة الإيمان والإسلام التي وهب حياته لها.

هكذا أحيا هذا الغلام بولادته في قلب أبيه مشاعر الأبوة، تلك المشاعر العالية الرفيعة التي كانت من القوة في نفس الخليل ما جعلها تشمل كافة المؤمنين إلى يوم الدين، بعد أن أصبح أبا لكل مسلم : « ملة أبيكم إبراهيم هو سماكم المسلمين من قبل..» [1].

ولو أردنا أن نختصر بدون إخلال، لقلنا إن إسماعيل كان رمزا لنفس الخليل التي تفتحت بعد الهجرة، على كل آمال البقاء والثبات والتمكين والتقدم. هاته الآمال التي لم تكن تنبع من عدم، أو تقوم على غير أساس. على العكس، لقد كانت حياة الرجل وإنجازاته تهيؤه ليكون أحد أهم مصادر الثراء والغنى الإنساني الفكري والروحي الذي لا يضاهى. وهو ما حدث بعد ذلك بالفعل.

وفي لحظة معينة من عمر الخليل عليه السلام ومن عمر الغلام، لحظة أصبح فيها هذا الغلام قادرا على السعي والعمل، مستعدا للانطلاق والبدء، جاءت الرؤيا :» قال يا بني إني أرى في المنام أني أذبحك».

تلك هي الرؤيا باختصار، ورؤيا الأنبياء وحي وذلك لتقلبهم في الوجود أبدا في نومهم ويقظتهم، على خلاف بقية الخلق الذين تخالط الوساوس والأوهام والأخيلة وهي من تجليات العدم، بنية الواقع والحقيقة فيهم. جاء الإعلان عن الرؤيا على شكل خطاب مباشر من الخليل لابنه، مما يدل على أنه لم يجعل من الأمر مجالا للتأمل والنظر، بل سارع إلى ما يطلبه الأمر، وهو التطبيق والفعل،

(١) سورة الحج : ٧٨

وهذا ولا ريب دليل أكيد على أن الإسلام الإبراهيمي هو إسلام القمة، هو الإسلام المطلق لله الذي ليس معه للعبد تصرف في نفسه ولا في حياته ولا في شيء من أموره مهما جلّ أو صغر.. لا شك أن تلك الرؤيا كانت مرعبة، فأن يذبح الأب ابنه الوحيد بيده ليس هذا بالأمر الهين ولا السلوك المعتاد. ولو أردنا وصفا لهذا العمل لما وصفناه بأكثر مما وصفه القرآن في قوله :» إن هذا لهو البلاء المبين».

بالفعل، نحن أمام بلاء ليس بعده من بلاء، فأية مصيبة يمكن أن يتخيلها الخيال على طغيانه في التصور والتخييل، لابد أن تكون حدثا هينا أمام مثل هذا البلاء المبين. فماذا كان رد الغلام الحليم؟

الجواب من القرآن الكريم :» قال يا أبت افعل ما تؤمر ستجدني إن شاء الله من الصابرين».

ذلك أيضا رد عجيب. طلب غريب، ورد أغرب، وبلاء مبين لو طلب من الشمس والقمر والجبال لأبت، ولسجدت أمام الرحمن مستعفية مما لا تقدر عليه، ومما يتجاوز طاقتها. أما الخليل عليه السلام، فكان له شأن آخر. كان قد عاهد الله على الإسلام :» إذ قال له ربه أسلم قال أسلمت لرب العالمين»[1].

وكان قد بدأ منذ مدة بالفعل في تطبيق مقتضيات إسلامه المتمثلة أساسا في الطاعة المطلقة لرب العالمين بدون قيد ولا شرط. « أسلمت لرب العالمين»، عهد من الخليل مع ربه على الإسلام بعد الإيمان، على الطاعة بعد اليقين، على العمل بعد الاطمئنان، على التطبيق بعد الوعي والمعرفة. ولقد قام رب العالمين بدوره، فآتى إبراهيم رشده وليكون من الموقنين، بما نبهه إليه من الآيات الكونية والإنسانية، ثم طمأن قلبه بآياته المعجزات، وبقي على الخليل حينئذ، أن يثبت أهليته لهذا الإيمان، وجدارته بهذا الإحسان الذي أغلب الخلق عنه غافلون.

فكانت النار، تحطم كل الأجسام أمر الله الذي لا يردّ؛ غير أن جسم الخليل ثبت لها، أمر الله الذي لا يرد أيضا. ثم كانت البراءة والهجرة، براءة لا تعرف المجاملة، وهجرة إلى الله بدون رجعة. وعبر كل ذلك، كان الإسلام يحقق انتصاراته، وكان المسلم الأول يرسم شرائع الطريق ويحدد حدود الملّة، ويوضح مناسك الحج الأكبر.

وفي لحظة بعينها، لحظة هي كوقفة عرفات من مناسك الحج، لحظة القمة، طولب الخليل بأن يمارس الذبح، ولكن أي ذبح ؟ لقد كانت السماء تطالب بدم إسماعيل.

ما السر الكامن وراء هذا الأمر ؟ لماذا الذبح ؟ ولماذا ذبح الابن بالذات ؟

(١) سورة البقرة : ١٣١

أما الذبح فهو يعني شيئا واحدا، القتل والإفناء والسحق والإبادة وقطع أنفاس الحياة. فما هو هذا الشيء المطلوب للذبح ؟ الرؤيا تحدد الابن بوضوح ليكون الذبيح، ولكن السؤال المطروح لماذا ذبح الابن بالذات ؟ للإجابة عن هذا السؤال لا بد أن نستدعي معلومة هامة تتعلق بالممارسات الدينية القديمة، تلك هي عادة تقديم القرابين البشرية للآلهة. فقد كان الناس قديما لا يجدون حرجا في تقديم أبنائهم قرابين للآلهة إيمانا منهم بأن هذه القرابين البشرية تدفع الأذى وتستجلب الخير والسعادة. ومطالبة الخليل عليه السلام بأن يذبح ابنه قربانا أمام الله عز وجل تعبيرا عن الطاعة والخضوع والإسلام، توحي بأننا أمام طقس مماثل لما يقدم أمام الآلهة الوثنية. ولعل الله تعالى أراد أن ينبهنا إلى هذه الحقيقة، حقيقة كون الاعتقاد كان يقوم على تقديم القرابين،

وأن العبادة كانت تتم بالتضحيات الخارجية، غير أن ماحدث بعد ذلك من فداء الابن، كان يدل دلالة واضحة أيضا على أن السماء كانت تضع حجر الأساس لانقلاب نظام العبادة من عبادة قائمة على تقديم القربان الخارجي الحسي، إلى عبادة هي بناء وعمل وإنجاز. إن إسماعيل سوف تنقذه السماء ليشارك في رفع قواعد البيت العتيق، غير أن حادثة القتل أو الذبح نفسه وقد أظهرتها الرؤيا، ليست حدثا وعملا غريبا عن العبادة وعن سرها ومعناها.

إن العبادة بما هي تمحض لله تعالى، أي للحق المطلق، تقتضي أبدا من العابد تخليا حقيقيا عن الأغراض والشهوات والترهات النفسية الأنانية. وبدون تجاوز للنفس، لا يستطيع العابد أبدا أن يتصل بمعبوده لأن النفس تطلب إذا بقيت، أن تكون العبادة لها هي، والهوى يريد أن يطاع.

إن النفس بؤرة جاذبة بأهوائها وأغراضها ومخاوفها وأطماعها وأوهامها وضلالاتها، ولا يستطيع أحد أن يمارس عبادة صحيحة للحق المطلق الواحد الأحد ما لم يتجاوز حاجز النفس، لأن النفس تضعه دائما ضمن دائرة الذاتية، بينما المعبود لا يرى حقا إلا ضمن دائرة الموضوعية. وكل ركون إلى النفس يؤسس الذاتية، وكل ذاتية هي عمى عن الموضوعية إذا قامت قبلها. أما العودة إلى الذات بعد رؤية الموضوع، فهذا أمر ممكن بل هو عين المطلوب.

وبما أن الأمر رتب على هذه الشاكلة، فقد طرحت أمام العبّاد دائما وفي كل الأحوال والظروف، مسالة النفس كحاجز وستار ومانع حقيقي من تحقيق العلاقة الموضوعية بالمعبود الذي يطلب تمحضا كاملا وإخلاصا لا تشوبه شائبة. ولم يوجد عابد حقيقي إلا وكان لب وجوديته هذه القضية بالذات، أعني قضية النفس والتوفيق بينها وبين المعبود الذي يريد إخلاصا كاملا.

لذلك زخرت كتب الحكماء والرهبان والزهاد والعبّاد والمؤمنين عبر التاريخ، بالحديث عن النفس وعن كيفية سياستها وأساليب التحكم فيها، وقبل ذلك بالتعريف بها وبأغوارها البعيدة. والكلام السائد غالبا بين الحكماء أن النفس لا تستقيم لها عبادة للحق إلا بقانون ونظام تساس به، وأنها إن سرّحت كانت عدوا مانعا من تحقيق المطلوب المتمثل في عبادة الله الحق. وقد اعتبر من باب المتفق عليه القول أن:» أعدى أعدائك إليك نفسك التي بين جنبيك».

أما العارفون الذين خبروا هذا الطريق، وانشغلوا بأمر الحق، فقد وقفوا جميعا أمام حاجز النفس مؤكدين أنه لا صلاح للذات إلا بتجاوزها، ومعنى تجاوزها، إفناؤها ومحوها. قال الجنيد في تعريف الطريق، طريق الوصول إلى الحق : « أن يفنيك الحق عنك ويحييك به». وهذا التعريف والحق يقال، أجمل تعريف قدّم لتوضيح معنى العبادة وجوهرها. إن العبادة اعتراف بالحق، وهو ليس اعتراف الجالس المتأمل، وإنما هو جهاد وشهادة وتضحية، وما لم تتحقق التضحية فلا معنى للعبادة ولا قيمة لها. والله تعالى وهو أعظم وأصدق معبود، طالب بأقصى التضحيات، طالب بالنفس والمال : « إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم واموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون...»، هذا من ناحية، ومن ناحية ثانية نجد القرآن الكريم يؤكد أن من جاهد فإنما يجاهد لنفسه. يقول تعالى :» ومن جاهد فإنما يجاهد لنفسه. إن الله لغني عن العالمين»[1].

فكيف يكون الجهاد بالنفس جهادا في سبيل النفس ؟

إذا أجبنا عن هذا السؤال نكون قد دخلنا لبّ المعضلة الدينية نفسها. فالدين الذي يطالب بالقربان إنما يطالب به من أجل سعادة الإنسان. والإسلام قد قام على أساس المطالبة بالنفس كقربان لله تعالى، هذه المطالبة التي يراد بها أن تدفع النفس إلى تقديم كل شيء، وإلى التضحية بكل شيء حتى بالحياة نفسها. فإذا ما غامرت النفس وضحّت بكل شيء، أدركها المنّ والعطاء، وأعطاها الله الحياة الباقية التي لا تفنى، أعطاها الجنة والرضوان.

نحن إذن، امام جدل عميق حي، خطير وصارم يحدث بين النفس وبين الله، بين الذاتية والموضوعية، بين الحقيقة والوهم. يقول الحق للنفس:» تخلي عن المعنى وافني أرك حقيقتك». وهو هنا كالكلّ الذي يقول لجزئه اندمج فيّ تر نفسك، فإن خرجت عليّ لم تعرف لك معنى، لأنك بي تتقوم. فإذا قبلت النفس بالتضحية، ورضيت بالفناء، وقالت ما قال إسماعيل وهو لسان النفس في هذه القصة المؤثرة: « يا أبت افعل ما تؤمر ستجدني إن شاء الله من الصابرين». وإذا

(١) سورة العنكبوت :٦

رضيت بسيف القضاء يسلّط عليها ويسلمها إلى مصير واحد: « فلما أسلما وتلّه للجبين» ؛حينئذ وحينئذ فقط، يدركها القضاء الإلهي السابق بالعفو والغفران، ويفديها الحق بذبح عظيم:» و ناديناه أن يا إبراهيم قد صدّقت الرؤيا إنا كذلك نجزي المحسنين . إن هذا لهو البلاء المبين. وفديناه بذبح عظيم»

. وهنا نعود إلى ما قال الجنيد رحمه الله في تعريف التوحيد :» أن يميتك الحق عنك ويحييك به». فالحق هو الذي أمر الخليل بذبح ابنه، والحق هو الذي عفا، فما أمر سواه وما منع سواه. فثبت أنه الضار النافع، وأنه المميت المحيي، وذلك كان قصده من وراء هذا البلاء المبين، أن ينبه الغافلين إلى أنه لا معطي إلا هو ولا مانع إلا هو، وأن قضاءه سبق بالرحمة لهذا النوع الإنساني الشريف إذا أطاع وآمن وأسلم.

إن ابتلاء ذبح الابن، أصفى تجربة يمكن أن تكشف عن معنى الإسلام الحقيقي. فالإسلام تسليم النفس لله مطلقا، والإسلام الخضوع لأمر الله مطلقا، والإسلام التضحية المطلقة، والإسلام نسيان حظ الذات، والإسلام الانهماك بالكلية في العمل بحسب الأمر وبحسب الشريعة.

إن الأمر هنا في هذا الابتلاء، يساوي الشريعة في مطلق الدين. فمن طبق الشريعة بدون تردد ولا مناقشة فهو المسلم. أما من تلكأ باحثا عن السرّ، فلن ينال سوى الطرد والحرمان. إن السر، سر الإسلام يكمن في التسليم، وأعظم حكمة الإسلام التسليم والرضا المطلق، وما صيغ اسم الإسلام نفسه إلا من التسليم والرضا بحكم الله وقضائه، دفنا لربوبية النفس وقضاء على تأله الشيطان واستعباده الباطل للإنسان. وما لم يمارس الإنسان الإسلام بهذه الكيفية الإبراهيمية، أي كالتزام صارم بأمر الله ، وكخضوع مطلق للحق جل وعلا، وكتضحية بالنفس والمال في سبيل الله، فلن ينال ثمار الإسلام، ولن ينال الدرجات العليا التي نالها الخليل ومن تابعه.

إن الإسلام تجاوز للنفس عبر التضحية بها، إيمانا بأن الله تعالى يردها ويحييها. إن نموذج المؤمن المجاهد بنفسه في ساحة الجهاد والحرب، هو النموذج المتداول للمسلم الذي يعلم يقينا أنه إذا مات فإن الله يحييه، وهذا هو الإسلام: وقفة هازئة بالعدم تدعوه لأن يفرغ كلّ سمه في النفس، تدعوه لأن يعدمها إن شاء، وحينئذ إن فعل، تضحك النفس المسلمة وتمتلئ فرحا وهي ترى الله يحييها في الحين. أليس ذلك معنى قوله تعالى:» ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون»[1].

إن الإسلام بهذا المعنى، هو التصعيد العملي لنظرية الإيمان إلى أقصى مداها.

(١) سورة آل عمران : ١٦٩

أليس المؤمن يقول إن الله هو الخالق النافع الضار، القادر على كل شيء ؟ فإن كان صادقا فعليه أن يثبت أنه لا يخاف شيئا سوى الله تعالى. لا يخاف الموت ولا يكترث بالحياة، ولا يخاف الشيطان ولا يخشى الناس، لا يخاف الحرب ولا يخشى المواجهة. على المؤمن وهو يقول إن الله عنده خزائن كل شيء، أن يكون مستعدا لترك كل شيء في أية لحظة يدعوه الله فيها إلى العطاء. وكيف لا يعطي كل شيء، ولا ينفق كل ماله وخزائن الله لا تنفذ ؟ فإن بخل بنفسه أو بماله، أو ببعض نفسه أو ببعض ماله، فبقدر بخله يكون إيمانه ناقصا. فما حافظ بخيل على حظ نفسه، وما كنز امرؤ أمواله إلا لنقص إيمانه، إن لم يكن لغياب إيمانه أصلا.

إن المعتقد الإيماني الأعمق تحرر مطلق من كل العالم، وتفصّ من كل شيء سوى الله تعالى. والإسلام هو كل حدث يجسد هذا التحرر ويكشف عنه. ومن هنا كان الإسلام تجسيد الإيمان، ومن هنا كانت الصلاة والزكاة والصوم والحج من أركان الإسلام.

وبإقدام الخليل عليه السلام على ذبح ابنه طاعة لأمر الله تعالى، كان يجسد كل التعليم، ويوضح معنى الإسلام في مشهد واحد، ويؤكد بذلك أنه حاز لقب أب المسلمين عن جدارة. فالأب كما أسلفنا القول، يجب أن يوضح دائما لأبنائه شرائع الطريق ويحدد لهم علاماته. والخليل عليه السلام لم يأل جهدا في النصح لأبنائه المسلمين، وفي توجيههم أحسن توجيه وأوضحه. فقد علمهم معنى الإيمان لما تأمل في الأكوان، ثم لما طلب طمأنينة القلب. فعلموا أن الإيمان يقين عقلي وطمأنينة قلبية. ثم علمهم معنى الإسلام لما ابتلي بكلمات الله تعالى فصبر وصابر وضحى وجاهد، فأصبح أبا المسلمين، وأصبح إمام الناس أجمعين. يقول تعالى :» وإذ ابتلى إبراهيم ربه بكلمات فأتمهن. قال إني جاعلك للناس إماما قال ومن ذريتي قال لا ينال عهدي الظالمين» [1].

هذه الابتلاءات التي نحن بصدد ذكرها وفهم أبعادها، هي الكلمات التي ابتلى الله تعالى بها إبراهيم؛ وقد أسبقنا القول إنه ما ابتلي إلا من أجل أن يتم مسيرة الإنسان الكامل ما بين الإيمان والإحسان مرورا بالإسلام.

وقد يمكن القول كذلك إن هذه الابتلاءات الثلاثة الجامعة لمسمى الإسلام كما بينا، يمكن أن تدل بوضوح أيضا على معنى الإيمان والإسلام والإحسان. فالابتلاء الأول وهو الاحتراق بالنار، كان حدثا دالا على عمق إيمان الخليل عليه الصلاة والسلام وهو الذي حطم أصنام القوم ولم يخف من عقابهم، وقد شكره الله تعالى

(١) سورة البقرة : ١٢٤

بقوله :» إنه من عبادنا المؤمنين» [1].
والابتلاء الثاني كان خروجه مهاجرا إلى ربه، وهو علامة حاسمة على إسلامه وجهه لله تعالى دون سواه. وقد شكره الله تعالى بقوله :» ما كان إبراهيم يهوديا ولا نصرانيا ولكن كان حنيفا مسلما وما كان من المشركين» [2].
أما تجاوزه لابتلاء ذبح ابنه مؤمنا طائعا محتسبا مخبتا، فقد جعله من المحسنين. يقول تعالى مادحا إياه :» وفديناه بذبح عظيم. وتركنا عليه في الآخرين. سلام على إبراهيم. كذلك نجزي المحسنين. إنه من عبادنا المؤمنين». فجمع بعد الخروج من هذا البلاء المبين كل صفات المدح الإلهي للعبد، وأخصها مدح العبد بما فيه من حقائق الإسلام والإيمان والإحسان.
لقد أتم الخليل عليه السلام حجه إلى ربه عبر سلسلة الابتلاءات المتوالية التي كانت في الحقيقة والواقع إثباتات متتالية تعلن بصدق عن إيمانه وإسلامه وإحسانه. وكان حقا على الله تعالى أن يجزي هذه النفس المتطهرة بأكبر نعمة ينعم بها الرحمن على نفس إنسانية، تلك هي نعمة السلام والطمأنينة. قال تعالى :» سلام على إبراهيم». فأعلن بذلك أن عهد الابتلاء قد انتهى، وأن عهد التقريب والاصطفاء والعطاء قد ابتدأ. وبالفعل، فمنذ انتهاء البلوى الثالثة بسلام، بدأ الرحمن يعامل إبراهيم كخليل قريب. والخليل كما نعلم لا يسوء خليله، ولا يدخل على قلبه إلا السرور والسعادة. إن النفس الإبراهيمية أصبحت بعد البلوى نفسا مطمئنة راضية مرضية، موعودة بجنة الله الخالدة:» ولقد اصطفيناه في الدنيا وإنه في الآخرة لمن الصالحين». وما بلغت هاته المراتب العليا التي قل أن يبلغها بشر إلا بعد سفر طويل كانت أيامه كلها جهادا وتضحية وإيمانا واحتسابا.

(١) سورة الصافات :١١١
(٢) سورة آل عمران : ٦٧

الفصل الثالث
بناء البيت وتأسيس الأمة

يقول تعالى في سورة العصر : « والعصر إن الإنسان لفي خسر إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر» [1].

أكدت هذه السورة في إيجاز ووضوح شديد أن هذا الإنسان بناء خاسر كله، وأنه مشروع ملغى إلا طائفة من البشر هم :» الذين آمنوا وعملوا الصالحات». وآيات القرآن الكريم التي تربط بين الإيمان والعمل الصالح عديدة، وهي في هذا الربط بينهما تعلن أنه لا انفصال بين هاتين الحقيقتين. فمن يؤمن بالله لا بد أن يصبح عمله صالحا، ومن يكفر بالله لابد أن يحبط عمله لفساده.

وبذلك تأكد لدينا أن الإيمان هو النظرية المعرفية المؤسسة للعمل الصالح، وأن الكفر بالمقابل، هو النظرية المعرفية المؤسسة للعمل الخاسر. وإذا كان هذا الارتباط لا فكاك منه بين نوعية الفكر والاعتقاد ونوعية العمل والسلوك، فإن إسلام المسلم لا يتم، ومسيرته الوجودية لا تكتمل بمجرد حيازته على النظرية الإيمانية، بل لابد لتمام حجه إلى ربه أن يقدم قربانا يرفعه الله سبحانه هو العمل الصالح. يقول سبحانه وتعالى:» من كان يريد العزة فلله العزة جميعا إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه والذين يمكرون السيئات لهم عذاب شديد ومكر أولئك هو يبور» [2].

وقد بين لنا القرآن الكريم تجربة الإيمان الإبراهيمي، ثم أنبأنا عن تجربة إسلامه وما لاقى فيها من أصناف الابتلاءات حتى بلغ درجة السلام : « سلام على إبراهيم». وحينئذ كان على هذا الرجل أن يرفع إلى ربه عملا صالحا يكمل إيمانه ويحسن إسلامه، ويجعل ذكره عطرا، ويبوؤه بين الصالحين المكانة العظمى. وبالفعل، فقد اختار الله تعالى للخليل عليه السلام أعظم عمل قام به إنسان فوق الأرض؛ لقد هيأه لرفع قواعد البيت العتيق، لكي يؤسس بذلك الملة الإسلامية، ويعلن أن الحج إلى الله قد ابتدأ وأن بيت الله الذي غاب قد ظهر وأصبح هاهنا فوق الأرض، وبالتحديد ببكة حيث مقام إبراهيم الخليل. وإذ يرفع الخليل عليه السلام قواعد البيت، ويؤذن في الناس بالحج، فإنه يكتسب بذلك فضل أن يكون أبا الصالحين كما كان أبا المسلمين.

ما حقيقة البيت العتيق ؟ ولماذا جعله الله تعالى قبلة للناس ومحجة للمسلمين؟ وما هي على وجه التحديد أدواره الكونية والتاريخية على مستوى تاريخ الأرض عموما، وعلى مستوى تاريخ الإسلام والمسلمين خصوصا ؟ تلك أسئلة نسعى أن نجد لها إجابة في ثنايا القرآن الكريم بإذن الله تعالى .

(١) سورة العصر : ١ - ٣

(٢) سورة فاطر : ١٠

١ - مقام إبراهيم
البيت العتيق : الحرم الآمن

قال تعالى :» قُلْ صَدَقَ اللَّهُ فَاتَّبِعُوا ملَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَمَا كَانَ مِنْ الْمُشْرِكِينَ (٩٥) إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكاً وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ (٩٦) فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمناً وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنْ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْ الْعَالَمِينَ (٩٧) قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا تَعْمَلُونَ (٩٨) قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ

تَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجاً وَأَنْتُمْ شُهَدَاءُ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (٩٩) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تُطِيعُوا فَرِيقاً مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ (١٠٠) وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تُتْلَى عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ وَمَنْ يَعْتَصِمْ بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (١٠١) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ (١٠٢) وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعاً وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَاناً وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (١٠٣) وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (١٠٤) وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١٠٥) يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ (١٠٦) وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (١٠٧) تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْماً لِلْعَالَمِينَ (١٠٨) وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ (١٠٩) كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْراً لَهُمْ مِنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ (١١٠) لَنْ يَضُرُّوكُمْ إِلَّا أَذًى وَإِنْ يُقَاتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنْصَرُونَ (١١١) ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوا إِلَّا بِحَبْلٍ مِنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِنَ النَّاسِ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ (١١٢) لَيْسُوا سَوَاءً مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ (١١٣) يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ (١١٤) وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ يُكْفَرُوهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ [١].

ارتبط الحديث عن البيت العتيق في القرآن الكريم بالحديث عن إبراهيم الخليل باعتباره الرجل الذي بوأه الله تعالى مكان البيت ودعاه إلى رفع أذان الحج إلى بيت الله الحرام. وهذا البيت الذي نسبه الله سبحانه وتعالى إلى نفسه «... وطهر بيتي للطائفين والقائمين والركع السجود» [٢]، هو المقصود إذا ذكر البيت بدون إضافة مثل قوله تعالى :» فليعبدوا رب هذا البيت الذي أطعمهم من جوع

(١) سورة آل عمران : ٩٥ - ١١٥

(٢) سورة الحج :٢٦

وآمنهم من خوف»[1].

هذا البيت العتيق هو قبلة المسلمين في صلاتهم، علاوة على أنه ملتقى حجهم وموئل قصدهم. وهو فوق هذا وذاك، رمز لوحدة حضارية ولهوية إنسانية فريدة ولأمة متعينة مذكورة بالمدح والتبجيل، هي أمة المسلمين الموحدين.

تناقش الآيات السالفة من سورة آل عمران أهل الكتاب، وتتهمهم بمخالفة ملة إبراهيم الخليل عليه السلام رغم ادعائهم أن هذا النبي الكريم كان يهوديا ونصرانيا. وهذه الآيات تتعاضد في موضوعها مع مقاطع أخرى وردت في سورة البقرة تحدد جميعها حقيقة الملة الإبراهيمية،وتوضح طبيعة رسالة هذا الرجل المؤمن الذي جعله الرحمن خليلا.

يقول تعالى في حجاجه لليهود والنصارى: « قل صدق الله فاتبعوا ملة إبراهيم حنيفا وما كان من المشركين». بين سبحانه وتعالى حقيقة دين إبراهيم الخليل وملته. فملته هي الحنيفية التي أسبقنا الإشارة إلى أنها تعني الميل إلى الحق والإسلام لله تعالى، ولذلك أضاف مؤكدا :» وما كان من المشركين». فوضح بلا لبس الوجهة التي حنف إليها إبراهيم الخليل وهي وجهة التوحيد المناقضة لوجهة الشرك والتعديد. وقد رأينا كيف ضحى الخليل عليه السلام بنفسه وأهله وماله في سبيل الله تعالى، فلم يخش النار ولم يستسلم للسلطان، ولم يركع أمام عواطفه وهو يقود ابنه إلى المذبح، فكان نتيجة كل ذلك أن حاز عليه السلام على استنارة روحية نادرة وعلى وعي وجودي وكوني فريد مكنه بإذن الله تعالى من أن يرفع أستار الغيب عن البيت العتيق، أول بيت وضع للناس فوق الأرض. يقول تعالى :» إن أول بيت وضع للناس للذي ببكة مباركا وهدى للعالمين».

جاء في لسان العرب :» بكة : مكة، سميت بذلك لأنها كانت تبك أعناق الجبابرة إذا ألحدوا فيها بظلم، وقيل لأن الناس يتباكّون فيها من كل وجه أي يتزاحمون، وقال يعقوب: بكة ما بين جبلي مكة لأن الناس يبك بعضهم بعضا في الطواف أي يزحم، حكاه في البدل، وقيل : سميت بكة لأن الناس يبك بعضهم بعضا في الطرق أي يدفع، وقال الزجاج في قوله تعالى: إن أول بيت وضع للناس للذي ببكة مباركا، قيل: إن بكة موضع البيت وسائر ما حوله مكة، قال للذي ببكة فأما اشتقاقه في اللغة فيصلح أن يكون الاسم اشتق من بكّ الناس بعضهم بعضا في الطواف أي دفع بعضهم بعضا،وقيل بكة اسم بطن مكة سميت بذلك لازدحام الناس. وفي حديث مجاهد: من أسماء مكة بكة، قيل : بكة موضع البيت ومكة سائر البلد، وقيل: هما اسما البلدة، والباء والميم يتعاقبان. وبكّ الشيء: فسخه، ومنه أخذت

(١) سورة قريش : ٣ -٤

بكة «[1].

تشير الآية بوضوح إلى أن أول بيت وضعه الله تعالى للناس هو البيت العتيق الموجود ببكة إشارة إلى البلد الأمين أو إلى موضع البيت من هذا البلد بالتحديد كما جاء في لسان العرب. وقد نسب الله سبحانه وضع البيت لمجهول لما قال:» وضع للناس»، فلم يُعلم بواضعه. غير أن معرفة الفاعل هنا لا تحتاج إلى عناء؛ فما دام البيت قد وضع « هدى للعالمين»، ووصف بالمبارك :» مباركا»، فلا ريب أن واضعه هو الله تعالى سواء مباشرة أو عن طريق جنده وملائكته. ذلك لأنه لا هادي للناس إلا هو سبحانه وتعالى. فقد وعد آدم وزوجه من قبل أن يأتيهما الهدى من قبله: « قلنا اهبطوا منها جميعا فإما يأتينكم مني هدى فمن تبع هداي فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون. والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون «[2].

أكد سبحانه وتعالى أنه هو الهادي، وأنه سوف يتعهد الناس بالهداية بعد نزولهم إلى الأرض. فمهما وجد من هداية فوق الأرض، ومهما ظهر من علامات وآيات كاشفة عن الحقيقة ومنيرة لطريق الإنسان، فلا بد أن يتجه الفكر إلى الله تعالى باعتباره المشرف على هداية الإنسان والمعتني بأمر صلاحه ونجاحه وفلاحه. وما دام البيت العتيق قد وضع «هدى للناس»، فإن واضعه هو صاحب الهدى وهو الله تعالى. ثم إن وصف البيت بكونه مباركا دليل ثان على أنه بيت الله الذي وضعه بيده الشريفة المقدسة ليكون محجة للناس ومأمنا وسكنا. فلا بركة إلا من عند الله تعالى، وهو سبحانه الذي قدر فهدى، وكان من تقديره أن جعل البركة نصيب بعض الخلق دون بعض وبعض الأمكنة دون بعض وبعض الأزمان دون بعض، حكمة منه سبحانه وتقديرا منه وهو المتصرف في ملكه كما يشاء.

فثبت أن هذا البيت الذي وضع ببكة هو أول بيت وضع للناس. فأين كان هذا البيت ؟ ومن أين جاء ؟

من الثابت عندنا أن البيت العتيق هو أحد أهم أعمدة البناء الروحي للكون، والحامل لأهم أسرار التنظيم الإلهي لمسيرة الروح الذي قضي عليه بركوب هذا الكيان الحيواني والانطلاق منه في رحلة صعود نحو خالقه وصاحبه جل وعلا. وإذا كان الأمر على ما ذكرنا، فلا ريب أن العلم اليقين المتصل بحقيقة هذا البيت وأصله وتنزله أو وضعه كما عبر القرآن، والدور المناط به فوق الأرض، كل هذه الحقائق لا يعلمها على وجه اليقين سوى الله سبحانه وتعالى الذي قال في محكم

(١) ابن منظور ، لسان العرب ، مجلد :١٠ ، ص : ٤٠٢ ، مادة : بكك .

(٢) سورة البقرة ٣٨ -٣٩

تنزيله :»ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم إلا قليلا»[1].

والعلاقة بين البيت العتيق وبين مسيرة الروح ومصيره علاقة جد وثيقة، والترابط بينهما قائم لا ينكر. غير أن الله العلي القدير الذي قدر فهدى وأظهر وأخفى ، والذي يعلم السر وأخفى، غيّب الغيب وجعل له علامات، وأخفى السر وأقام على بابه آيات لكي لا ييأس الطامع ولا يتخلى المتأمل المتفكر عن الفكر والطلب. ومثلما نظم سبحانه الكون ثم غاب فيه واختفى عنه، وترك للطالبين آيات ونجوما هاديات ينبهونهم إلى وجوده سبحانه وحكمته وقدرته، فكذلك جاءت آيات القرآن الكريم منبهة إلى أسرار عظيمة يحتويها هذا البيت العتيق، ومشيرة من طرف قريب أو قصي إلى عظمة الدور الكوني والوجودي الذي يضطلع به هذا البنيان القديم الذي شرفه الله تعالى. يقول تعالى : « إن أول بيت وضع للناس للذي ببكة...». فعبر سبحانه بقوله «وضع» عن معنى خاص، وأشار من خلال الكلام إلى احتمالات وإمكانات. فالمتعارف عادة أن البيوت تؤسس وتبنى، أما التعبير بالوضع وإن عنى في اللغة التثبيت والتمكين، فإنه يعني أيضا معنى مضادا للرفع. فالوضع ضد الرفع. فهل كان هذا البيت مرفوعا ثم وضع ؟ هل كان في السماء مثلا ثم نزّل إلى الأرض ووضع فوقها مثلما نزّل القرآن الكريم من اللوح المحفوظ ليجعل قرآنا عربيا لقوم يعقلون ؟

وإذا كان اللوح المحفوظ هو موطن القرآن الأول حيث قال سبحانه وتعالى :» بل هو قرآن مجيد في لوح محفوظ»[2]. فهل كان للبيت العتيق موطن سماوي أول ؟ إن القرآن الكريم يتحدث عن البيت المعمور في قوله تعالى :» والطور وكتاب مسطور في رق منشور والبيت المعمور والسقف المرفوع والبحر المسجور. إن عذاب ربك لواقع» [3].

فما هو هذا البيت المعمور ؟ هل هو البيت العتيق الذي وضع بعد ذلك فوق الأرض لكي يعمره الحجاج القاصدون الطالبون وجه ربهم سبحانه وتعالى ؟ أم هو بالنسبة للبيت العتيق بمثابة اللوح المحفوظ للقرآن العربي المبين، أعني أصله السماوي وموطنه الأول ؟

لا ريب أن العلاقة وثيقة بين ما يحدث في السماء وما يحدث في الأرض. وأن السماء إذا كانت قد قررت وقضت أن يهبط الروح إلى الأرض ليقضي حجا مفروضا، فلا

---

(١) سورة الإسراء : ٨٥

(٢) سورة البروج :٢١- ٢٢

(٣) سورة الطور : ١ -٧

بد أنها عملت على أن تهيئ لهذا الروح كل أسباب الهداية، وأن تمكنه من طرق الوصول إلى محجته ومطلبه. وإذا كان الروح السماوي يقضي عبادته في بيت إلهي معين، فلا ريب أنه فوق الأرض سوف يحتاج إلى بيت مماثل ليقضي فيه مناسكه وليوفي نذره.

إن خط سير الروح فوق الأرض وكما هدى إليه القرآن الكريم، يعطينا صورة عن خط حياة الأرواح السماوية وكيفية ممارستها لوجودها وإظهارها لهويتها ومعناها.

وإذا كان الله تعالى قد جعل لعبده المسلم محجة وبيتا يقصده هو هذا المسجد الحرام بالذات، فلا ريب أنه بهذا الطقس وعبر هذه الفريضة يذكّره بعمل آخر، عمل قديم كان يصنعه هناك في السماء حيث كان يسبح في آفاق الحرية اللامتناهية.

يذكرنا الرحمن سبحانه وتعالى إذ جعل البيت العتيق مقصدا للحاج المؤمن، أن كل عبد صالح يحج إلى ربه، وأنه سبحانه هو مقصد كل روح حي لم يغفل عن الحق ولم يته في ضلالات العالم وأباطيل الشيطان. يقول تعالى: «الرحمن على العرش استوى»[١].

وعرشه سبحانه وتعالى أوسع من أن يحيط به علم ولا بصر:»وسع كرسيه السماوات والأرض ولا يؤوده حفظهما وهو العلي العظيم» [٢].

وعرشه سبحانه وتعالى الذي فوق الأرض، وكرسيه الذي عليه يحكم ما يشاء ويقضي، هو بيته العتيق الذي دعا إليه زواره ومحبيه.

أجل، إن هذا البيت العتيق، هذا المسجد الحرام هو كرسي الله تعالى، وهو عرشه الذي فوقه يحكم العالم ويدبر الكون. إنه المنطقة الحرام التي يحرم أن يقربها مشرك :» يا أيها الذين آمنوا إنما المشركون نجس فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا وإن خفتم عيلة فسوف يغنيكم الله من فضله إن شاء إن الله عليم حكيم»[٣].

إن هذا التحريم، تحريم مقاربة المسجد الحرام على المشركين، يذكرنا مباشرة بتحريم مسّ القرآن الكريم على غير المطهرين:» إنه لقرآن كريم في كتاب مكنون لا يمسه إلا المطهرون»[٤].

---

(١) سورة طه : ٥

(٢) سورة البقرة : ٢٥٥

(٣) سورة التوبة :٢٨

(٤) سورة الواقعة : ٧٧ - ٧٩

فالقرآن لا يمسه إلا المطهرون، وكذلك المسجد الحرام لا يقربه المشركون، ولا ينتسب إليه إلا المتطهرون مصداقا لقوله تعالى :»إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا « [1].

فحرم الله تعالى البيت على المشركين إشارة منه إلى أن محل العبادة هو محل الإخلاص للحبيب، وأنه لا يجوز فيه دعوة الشريك. وإذا كان سبب تحريم مسّ القرآن الكريم على غير المطهرين لكونه كلام الله تعالى الذي لا يدرك معناه غير عباد الله المؤمنين؛ فإن سبب تحريم البيت العتيق على المشركين، هو كونه بيت الله تعالى الذي نسبه إلى ذاته المشرفة العلية في قوله تعالى لإبراهيم الخليل : « ...وطهر بيتي للطائفين والقائمين والركع السجود».

بهذا يتبين عمق العلاقة الرابطة بين القرآن الكريم وبين البيت العتيق لا فقط كموطنين حلت فيهما الذات الإلهية المنزهة العلية حلولا جليا قويا باهرا قاهرا صاعقا في كثير من الأحيان، وإنما أيضا كمنارين هاديين للحق وإلى الصراط المستقيم. فالقرآن جاء هدى للناس: « إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجرا كبيرا « [2].

وكذلك المسجد الحرام الذي قال فيه سبحانه :» إن أول بيت وضع للناس للذي ببكة مباركا وهدى للعالمين». ثم إنهما يلتقيان أيضا في الدور العالمي والكوني الذي يضطلع به كل واحد منهما. فالقرآن هدى للناس، والبيت العتيق هدى للعالمين. فلم تقتصر الهداية بهما على أمة دون غيرها ولا على شعب دون سواه، بل جعلهما الله تعالى هدى للعالمين. ولهذا فليس غريبا أن نجد أوصاف القرآن الكريم مماثلة لأوصاف البيت الحرام. فالقرآن مبارك، يقول تعالى :»كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته وليتذكر أولو الألباب»[3].

والبيت مبارك أيضا :» إن أول بيت وضع للناس للذي ببكة مباركا وهدى للعالمين». فحاز القرآن الكريم والبيت كليهما بركة الله تعالى التي تعني الخير والزيادة والنماء؛ ولذلك كان طالب القرآن ومريد البيت كليهما في زيادة خير وزيادة نور وبركة. وما حاز القرآن الكريم بركة الله تعالى إلا لأنه بيت علمه سبحانه وتعالى. فمن قرأه نال علما مباركا شريفا لا يضاهيه علم. فهو باب الفهم وسبب النباهة، وهو فوق هذا وذاك، علم النجاة الذي ينجي من كل المهالك ويهدي طالبه إلى سعادة الدنيا والآخرة، ويبعد عنه أهوالا لا تقدر على وصفها

(١) سورة الأحزاب : ٣٣
(٢) سورة الإسراء : ٩
(٣) سورة ص : ٢٩

الأقلام، ولا تحيط بفظاعتها وشدتها الأوهام. أما البيت العتيق فهو بيت الأمن والسكينة. يقول سبحانه وتعالى فيه: « فيه آيات بينات مقام إبراهيم ومن دخله كان آمنا...». ويقول سبحانه وتعالى :» وإذ جعلنا البيت مثابة للناس وأمنا» [1]. فكان البيت بيت أمنه، كما كان القرآن بيت علمه. فمن قصد القرآن علم، ومن قصد البيت أمن.

ونظرا لهذه الروابط الوثيقة بين المسجد الحرام وبين القرآن الكريم، ارتبط بهما مفهوم الإسلام، وتعلق بهما معنى الإيمان. فلا يمكن فهم الإسلام ولا تحقيق الإيمان بعيدا عن الوعي بهاتين الحقيقتين، أعني حقيقة القرآن وحقيقة البيت العتيق. ولم يكن من المصادفة بحال أن يكون رافع قواعد البيت العتيق هو إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام، والذي هو في نفس الوقت أبو المسلمين. كما أنه ليس من المصادفة أن يكون مطهر البيت من الأصنام هو محمد صلى الله عليه وسلم، الرسول الناطق بالقرآن العربي المبين.

إن الورثة المسلمين ورثوا البيت كما ورثوا القرآن الكريم، فحازوا النور والخير جميعا بحيازتهم للكتاب وللملك العظيم معا، وهو إرث الخليل إبراهيم عليه الصلاة والسلام. يقول الله تعالى :» أم يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله فقد آتينا آل إبراهيم الكتاب والحكمة وآتيناهم ملكا عظيما» [2]. وإذا كان الكتاب قد اجتمع أخيرا في القرآن الكريم ليصبح هو وحده الكتاب المشار إليه بكلام الله تعالى، فإن الملك العظيم قد اجتمع أخيرا أيضا في البيت العتيق، من دخله ملك الأرض، ومن حازه ضمن تحصيل أسباب السكينة والبقاء والتمكين.

ونحن نتدبر ونتأمل سعيا إلى اكتشاف حقائق هذا البيت العتيق الشريف، تستوقفنا حقيقة واضحة تلك هي تعدد أسمائه، وما قد توحي به من مدلولات. فهو البيت العتيق، وهو المسجد الحرام، وهو الحرم الآمن، وهو الكعبة الشريفة، كما أن القرية التي يوجد فيها وهي مكة المكرمة سماها القرآن الكريم بكّة وأطلق عليها أيضا اسم أم القرى. فما السر وراء تعدد التسميات ؟ وما هي الدلالات الكامنة وراء كل اسم ؟

من الثابت أن تعدد أسماء شيء واحد دليل على المكانة وعلى الثراء وعلى تعدد الأبعاد. فالله تعالى وهو الواحد، تعددت أسماؤه الحسنى ليكشف كل واحد منها عن بعد من أبعاد الذات الإلهية وعن وصف من أوصافها. وكذلك تعدد أسماء المسجد الحرام دليل على مكانة هذا الحرم، وعلى خطورة الأدوار الوجودية

(١) سورة البقرة : ١٢٥

(٢) سورة النساء : ٥٤

والكونية والتاريخية التي يمثلها ويضطلع بها. فهو كما أطلق عليه القرآن الكريم يسمى البيت العتيق. وهي تسمية تدل على قدمه سواء أكان هذا القدم في الزمان أو خارجه. جاء في لسان العرب : « عتق : العتق خلاف الرق وهو الحرية. وعتيق: اسم الصدّيق رضي الله عنه، قيل سمي بذلك لأن الله تبارك وتعالى أعتقه من النار، واسمه عبد الله بن عثمان، روت عائشة أن أبا بكر دخل على النبي صلى الله عليه وسلم، فقال: يا أبا بكر أنت عتيق الله من النار، فمن يومئذ سمي عتيقا. وفي حديث أبي بكر، رضي الله عنه: أنه سمي عتيقا لأنه أعتق من النار، سماه به النبي صلى الله عليه وسلم، وقيل: كان يقال له عتيق لجماله... والعتيق: الكريم الرائع من كل شيء والخيار من كل شيء... والعتق: الكرم، يقال ما أبين العتق في وجه فلان! يعني الكرم. والعتق : الجمال... والعتيق: القديم من كل شيء حتى قالوا رجل عتيق أي قديم. وفي الحديث: عليكم بالأمر العتيق أي القديم الأول... وفي التنزيل: وليطوّفوا بالبيت العتيق. ووفي حديث ابن الزبير أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : إنما سمى الله البيت العتيق لأن الله أعتقه من الجبابرة فلم يظهر عليه جبار قط، والبيت العتيق بمكة لقدمه لأنه أول بيت وضع للناس، قال الحسن : هو البيت القديم، دليله قوله تعالى : إن أول بيت وضع للناس للذي ببكة مباركا، وقيل لأنه أعتق من الغرق أيام الطوفان دليله قوله تعالى : وإذ بوأنا لابراهيم مكان البيت، وهذا دليل على ان البيت رفع وبقي مكانه، وقيل: إنه أعتق من الجبابرة ولم يدعه منهم أحد، وقيل : سمي عتيقا لأنه لم يملكه أحد، والأول أولى...»[1].

يقدم لنا ابن منظور إلى جانب التعريف اللغوي بمعنى العتيق، تأريخا ضافيا لما ورد من تفسيرات بشأن تسمية المسجد الحرام بالبيت العتيق. فالحديث المروي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، يبرر سر التسمية بكون الله تعالى أعتق هذا البيت من الجبابرة، فلم يظهر عليه جبار قط. وهذا التأويل جيد ومقبول يدعمه الدليل التاريخي. فالمسجد الحرام كان عبر تاريخه الطويل، بيتا لله يأمن اللائذ به ويحترم قاصده، ويستقبل زائره بالاحترام والحفاوة. وقد دأب سكان مكة حتى في أشد فترات انحطاط عقولهم لما أشركوا، على استقبال الحجاج القاصدين البيت العتيق، وعلى تعظيم هذا البيت رغم نسيانهم وغفلتهم عن أسراره وحقيقة معناه كما أسبقنا القول. ثم إن ما حدث عام الفيل يؤكد ما قيل من حماية الله تعالى المباشرة لهذا البيت من استيلاء الجبابرة وطغيانهم. فالمعروف تاريخيا أن قوما من جبابرة الأرض سماهم الله تعالى أصحاب الفيل جاؤوا بهدف الاستيلاء

(١) ابن منظور ، لسان العرب، مجلد :١٠، ص ص: ٢٣٤ - ٢٣٦ ، مادة : عتق.

على البيت وربما لأجل تحطيمه. فجعلهم الله تعالى كعصف مأكول بأن أرسل عليهم طيرا أبابيل ترميهم بحجارة من سجيل. تقول السورة : « ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل. ألم يجعل كيدهم في تضليل وأرسل عليهم طيرا أبابيل ترميهم بحجارة من سجيل فجعلهم كعصف مأكول»[١].

فتبين أن منطقة الحرم المكي منطقة مؤمنة بدعم الهي خاص وإشراف رباني مباشر وحاسم. والحماية الإلهية الخاصة والحفظ لهذا الحرم الشريف، يذكرنا بحفظه سبحانه وتعالى للذكر الحكيم، الأمر الذي يشكل وجها آخر من وجوه التشابه بين الحرم والقرآن الكريم، والتي كشفنا عنها آنفا. يقول تعالى مؤكدا حفظه للذكر الحكيم :» إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون»[٢].

وما حفظ سبحانه الذكر الحكيم وهو القرآن الكريم، إلا لكونه جاء من عند الله تعالى معنى ومبنى، على خلاف الكتب السماوية السابقة التي لم يكتمل فيها التجلي الإلهي المقدس. فالتوراة المنزلة على موسى عليه السلام جاءت وفي نسختها هدى ونور. يقول تعالى :» إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور يحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا والربانيون والأحبار بما استحفظوا من كتاب الله وكانوا عليه شهداء. فلا تخشوا الناس واخشوني ولا تشتروا بآياتي ثمنا قليلا ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون» [٣].

غير أن هذا الهدى والنور الذي جاءت به التوراة، استحفظ الله تعالى عليه الأحبار، فمنهم من حافظ عليه وأغلبهم ضل وأضل وبدل كلمات الله بكلام من عنده حتى لم يعد من الممكن أن تنسب التوراة إلى الله تعالى إلا على سبيل الإجمال، أي بالقول إنها كتاب إلهي المصدر، أما ما ورد فيها من أقوال وتواريخ وأسفار فقد ثبت اليوم بما لا يدع مجالا للشك أن أغلبها أقوال بشر وتواريخ إنسانية جاءت المعلومات الصادقة بتكذيب الكثير منها. وكذلك الإنجيل، نزله الله تعالى وفيه هدى ونور : « وقفينا على آثارهم بعيسى بن مريم مصدقا لما بين يديه من التوراة وآتيناه الإنجيل فيه هدى ونور ومصدقا لما بين يديه من التوراة وهدى وموعظة للمتقين»[٤].

وكما حدث للتوراة، حرف الإنجيل أيضا وأصبح أناجيل. وما ذلك إلا لأن الله تعالى قد عهد بحفظ الهدى المنزل فيه إلى أهل الكتاب فضيعوه وضيعوا أنفسهم بتضييعه. فسماهم الله تعالى أهل الكتاب إشارة إلى ما أنعم عليهم به من نعمة

(١) سورة الفيل : ١-٥
(٢) سورة الحجر : ٩
(٣) سورة المائدة : ٤٤
(٤) سورة المائدة : ٤٦

تنزيل الكتب الإلهية عليهم، وجعلهم أهلا لهذه النعمة، وتنبيها إلى أنهم ضيعوا أهم ما أعطاهم الله تعالى، فلم يبق لهم من الكتاب إلا الاسم، ولم يحوزوا من النسبة سوى ظاهرها. أما الكتاب، فسوف يجمع من جديد في قرآن واحد يتلوه جبريل الأمين على محمد صلى الله عليه وسلم في كلام عربي مبين، ويتعهد الله بحفظه من التبديل والتحريف بعد أن جاء آية كاملة شكلا ومعنى.

ولو أن الله أباح الكتاب الكامل وهو القرآن لدواعي التبديل والتحريف لكان معنى ذلك أنه سبحانه وتعالى يبيح حرمه أن يوطأ ويترك سره لمن هب ودب من الخلق يغيره ويبدله. فثبت أن كل عمل الهي مكتمل النسبة لله تعالى في مبناه ومعناه، لا يمكن تحريفه ولا تبديله لأنه يستحيل أن يوجد فيه فرجة أو خلل يدخل إليه منه. وما حرفت التوراة والإنجيل من بعدها، إلا لما عهد الله تعالى إلى الأحبار وأهل الكتاب من ورائهم بحفظهما ؛ فجاء الفساد من جهة هؤلاء، أي بنقضهم لعهدهم وتضييعهم لموثقهم، وليس ذلك بالأمر الغريب على البشر. إن المعجزة الكاملة تستحيل على التبديل لأنها لا تقبل المماثلة ولا التشبيه، ولا تعترف بالقرابة لشيء.

فانظر إلى القرآن الكريم تجد أنه لو أدخل فيه كلام البشر، لظهر وانكشف من أول لحظة، ولو قام أحد بتقليده لبدا كلامه أشبه بالهذيان والترهات التافهة إلى جانب ما في هذا الكتاب الإلهي، والتاريخ يشهد على ما قلنا. فثبت أن القرآن الكريم ما حفظ إلا لأن السر الإلهي ظاهر فيه بكليته، محيط به في معناه ومبناه. ولو أن هذا الكتاب احتوى على الهدى والنور الإلهي وتركت عبارته لتدبير البشر، لما أمن التحريف، ولحدث له ما حدث للتوراة والإنجيل من بعده.

ومثلما حفظ الله تعالى قرآنه وذكره الحكيم من تحريف المفسدين الجاهلين، حفظ سبحانه بيته العتيق من اغتصاب الجبابرة والمتألهين، وحمى منطقة الحرم بطير أبابيل تجعل من هؤلاء كعصف مأكول إذا ما راموا تجاوز الحد بالاستطالة والكبر والطغيان. ولا معنى لنشر الطير الأبابيل كحفظ خاص للمسجد الحرام، إلا أن يكون هذا البيت العتيق مبنى ومعنى من عند الله أيضا مثلما هو القرآن الكريم كذلك. إن القرآن الكريم كلام بلسان عربي مبين، ولكن الله تعالى هو الذي نظم هذا الكلام، وهو الذي رتب الجمل والحروف. فبنى سبحانه وتعالى هذا القرآن الكريم بعلمه؛ ورتب بحكمته وقدرته هذا البيان. وكذلك البيت العتيق، بناء بالحجارة والطوب، ولكن بانيه ومهندسه هو الله تعالى نفسه، بناه بيده الشريفة المقدسة تماما مثلما بنى هيكل القرآن الكريم من لغة العرب ولسانهم ، ومثلما خلق بيديه الإنسان من طين هذه الأرض وصلصالها.

والبناء الإلهي المقصود للبيت العتيق، هو بناؤه أول مرة، ووضعه في مبدأ أمره، وتحديد مكانه وأركانه وشكله وهندسته. فالبيت وضع منذ البداية وضعا الهيا، وبحسب مقاييس وترتيبات إلهية لا دخل للبشر فيها. وذلك معنى قوله تعالى : « إن أول بيت وضع للناس للذي ببكة مباركا وهدى للعالمين». فليس لهذا البيت من واضع سوى الله سبحانه وتعالى، هو بانيه وهو مهندسه الأول. أما إعادة بنائه بعد ذلك ورفع قواعده أو ترميمه، فهي مثل عملية الاستنساخ عن الأصل بالنسبة للخط المكتوب لا تغير من حقيقة كون النسخة نسخة والأصل أصلا. والنسخة ما جاءت إلا بحسب الأصل لا بديلا عنه.

ويقودنا هذا الاستنتاج الذي نراه هاما وأساسيا خاصة فيما يتعلق بإعادة فهم دور البيت العتيق ضمن المسيرة الوجودية والحضارية للإسلام والمسلمين، إلى النظر باهتمام شديد إلى كل ما يتعلق بهذا البيت، موقعه، مبدؤه، سره، دوره، وضعه الوجودي والكوني، تاريخه السماوي والأرضي...

فلا ريب أن هذا البناء الغريب هو من عالم سماوي، وأنه ما وضع فوق الأرض إلا من أجل مهمة معينة مخصوصة، تماما مثل القرآن الكريم الذي علمنا الإله أنه علمه ألقاه بلفظه ليسمع من أراد أن يذكّر أو أراد شكورا، وأنه يبقى إلى أجل ثم يرفع مع ما يرفع من الباقيات الصالحات.

وليس من شك في أن هذا البناء الإلهي الذي هو موضع نظر الله تعالى، ومحل بركاته، ومعبده الذي فيه يقبل التقدمات والأضحيات والقرابين، سوف يرفع أيضا؛ ولكنه لن يرتفع فارغا، بل سوف يأخذ معه كل المسلمين الذين عبدوا الله تعالى مخلصين له الدين من أنبياء وصديقين وشهداء وصالحين إلى العالم الأعلى، إلى السماء، إلى الجنة التي وعدهم الرحمن بها.

وهذا يقودنا إلى معرفة السر في جعل هذا البيت قبلة للناس ومحجة للعالمين. فأرواح المؤمنين تحج إلى هذا البيت في كل صلاة، وهي إذ تفعل ذلك فمن باب الإعلان أنها ما تركت الحرم الآمن قط، وما تخلت عن عهد الله الذي هو في جوهره عهد على البقاء في بيته تعالى وعدم مبارحته إلى بيت الشيطان العنكبوتي الواهي الوهمي. وبيت الله تعالى هو علمه، وهو دينه، وهو عهده ؛ ولذلك فكل هذه المصطلحات لها في العمق الروحي دلالة واحدة عندنا. دليل ذلك أنه لا معنى لزيارة هذا البيت وجعله قبلة، إلا إعلان المؤمن أنه باق على عهد الله تعالى، وأنه مؤتم في مسيرته الحياتية بعلم الله تعالى، وملتزم بالتوجيه الرباني المقدس.

إن البيت العتيق هو فعلا البيت الذي أعتقه الله تعالى من طغيان الجبابرة، وهو

الذي أعتقه الله تعالى من الخوف، فمن دخله كان آمنا، وهو كذلك الذي أعتقه الله تعالى من النار ومن هول يوم القيامة، فمن دخله كان آمنا. وكان هنا لا تعبر عن حين معين ولا عن زمن محدود، بل تعبر عن تجاوز الوجود الخائف المهتز إلى الوجود الآمن الساكن المطمئن، وهذا إذا حصل فلا ردة عنه.

ثم إن ساكن المحل له حكم المحل الذي سكنه؛ فكل من علقوا قلوبهم بهذا البيت، هم بالضرورة أهل الأمن وأهل العتق من الخوف والعتق من النار، والعتق من أهوال يوم القيامة. ولذلك فإننا نرجح والعلم لله، أن هذا البيت العتيق هو السفينة التي ستحمل المؤمنين يوم القيامة إلى موطنهم السماوي وإلى جنتهم الخالدة. وباعتباره محلا آمنا، حرّمه الله تعالى على الخوف وعلى النار، فإن هذا البيت سيرحل بساكنيه في كنف السكينة التامة والاطمئنان الكامل، وهم سوف يشاهدون بأعينهم من أهوال يوم القيامة كل ما ذكره القرآن الكريم، ولكنهم سيكونون وحدهم أهل الأمن يومئذ، وسوف يعبرون الصراط ويتجاوزون النار، يرون من أهوالها ما لا يعلم إلا الله تعالى وما تشيب لهوله الولدان، ولكن سيكون كل ذلك بالنسبة لهم ليس أكثر من نزهة تزيدهم إيمانا بما حباهم ربهم من أمن وطمأنينة ونعيم، فيزدادون بذلك حبا لله تعالى .

وإذا كان لنا أن نقول إن الإنسان جوهر ينقسم إلى جزأين، جزء الكيان وجزء العقل، فإن مستقر كيان المؤمن على هذا التعريف، هو البيت العتيق . كما أن مستقر عقله هو القرآن الكريم. فعند البيت يستقر كيانه ويأمن، وداخل دائرة القرآن يعلم عقله ويستنير. يقول تعالى موجها الحجّاج :

« ثم ليقضوا تفثهم وليوفوا نذورهم وليطوّفوا بالبيت العتيق»[1].

ذكر سبحانه البيت العتيق عند الدعوة إلى الطواف، وليس ذلك من باب الاعتباط، تنزه سبحانه عن الغفلة، بل على وجه القصد والتحديد. فالطواف كما نعلم، هو الدوران والإحاطة إنابة إلى مركز واحد ثابت، وإحاطة بنقطة واحدة لا تتبدل. ومعلوم أن المقصود بالطواف هو تحقيق مرتبة الكمال في القنوت لله تعالى والإخلاص له ونسيان ما سواه. هذا الطواف الذي يحقق ترقيا مستمرا للمؤمن في مدارج الكون والوجود بقدر تقدمه في مراتبه. فكل مرة من مرات الطواف السبع التي يقضيها المسلم، هي رمز لدخوله دائرة سماء من السماوات السبع. فإذا قضى الدورة، استطاع تجاوز تلك السماء حتى يخلص بعد الدورات السبع إلى عالم ما فوق السماوات، إلى سدرة منتهى الكون، فيحقق بذلك المدى الأقصى لوجوده، ويظهر ماهيته بكيفية مطلقة كاملة. قال تعالى :» وليطوّفوا بالبيت العتيق»،

(١) سورة الحج : ٢٩

إشارة إلى أن المقصود بالطواف وهو رمز الدورة الوجودية الكونية، إظهار الحقيقة الأعتق والأقدم، حقيقة العبودية الكامنة في صلب الاعتراف المطلق بالألوهية. فالبيت العتيق على هذا الأساس، هو المحل الحاوي للسر الأول الذي لا يتبدل وللنسخة الإنسانية الأولى بل والكونية الأولى التي لن تتبدل ولن تمّحي. وسوف تنبت حول البيت بيوت لا تحصى ولا تعد، وسوف تبنى محجات أخرى من قبل الواهمين والضالين، ولكن البيت العتيق سوف يبقى أبدا بالنسبة للمؤمن، الرسالة الأولى التي لا تبدّلها الأوهام، والحقيقة الأصلية التي لا يعروها الزيف.

إن البيت العتيق هو مسكن آدم الأول الذي سجدت له الملائكة. وما دعوة البشر للطواف به إلا تذكيرا لهم بحقيقتهم الأولى، بأصلهم الأول، بآدم الذي خلق في أحسن تقويم. وسيكون الحج إلى هذا البيت العتيق تعبيرا فعليا عن رغبة الإنسان في الخروج من أسفل سافلين إلى مرتبة أحسن تقويم التي ينالها الذين آمنوا وعملوا الصالحات. وإذا كان الإيمان يتحقق عبر الالتزام بحقائق القرآن الكريم، فإن عمل الصالحات هو في كل الأحوال، التمسك بالباقيات الصالحات وعدم الانغماس في الملذات والشهوات الملهيات.

إن الوجود لا يكون إلا في محل؛ وبحسب المحل يكون الساكن. فإذا كان المحل ساكنا كان الوجود ساكنا، وإذا كان مضطربا كان الوجود مضطربا. وإذا كان المحلّ حقا راكنا، كان الوجود كذلك، أما إذا كان زيفا مهترئا فإن الوجود سيكون كذلك أيضا. والإنسان كما خلقه الله تعالى عقل، أي وعي في نفس، أي كيان ومحل. والعلاقة بين الوعي والكيان علاقة جدلية، إذا صلح أحدهما صلح الآخر، وإذا فسد أحدهما فسد الآخر. ومن هنا كان على كل كوّان لوعي ما أن يؤول به إلى محل يسكن فيه، يكون ذلك المحل بالنسبة للوعي بمثابة الصورة الحسية للحقيقة المعنوية، أو بمثابة الأنثى الولود للذكر المنتج، تظهر آثاره وأفعاله.

وعندما نزّل سبحانه وتعالى الإنسان إلى الأرض وتداركه بالهدى، جعل هذا الهدى في شيئين: الأمر الأول وعي حق يذكّر بحقائق الوجود، جعله الله تعالى في كتاب توارثه المهتدون جيلا بعد جيل حتى تمت صورته في القرآن الكريم. أما الأمر الثاني، فهو البيت العتيق، جعله الله محل نظر المؤمن حيثما كان فوق الأرض، يذكره بالتوحيد، وينبهه إلى ثبات الحقيقة وسكونها، ويحرضه على طلب الخالد الباقي وعدم الاغترار بالظاهر المزيف ولو تعدد . فالقرآن الكريم وجمّاعه وخلاصته كلمة لا اله إلا الله، هو جوهر وعي الذات المسلمة. والبيت العتيق هو محلّ هذا الوعي ومحط نظره. فإذا ملأت لا اله إلا الله وعي إنسان، وآلت به عين بصيرته إلى البيت العتيق فاستقرت عليه ونسيت ما سواه، كان عندئذ أعظم البشر وعيا،

وكان إذ ذاك أهدى الناس إلى الحق وإلى الصراط المستقيم.

لقد تكاثرت البيوت حتى صارت فوق الإحصاء والعد، كما تكاثر الخلق بعد آدم حتى تجاوزهم الحد، ولكن هذه الكثرة ما هي إلا المرعى الذي أخرجه الله تعالى ليجعله بعد حين من الزمن غثاء أحوى، أي ليهلكه ويدمره من جديد. أما الإنسان الأول، آدم الذي اجتباه ربه فهدى، فهو واحد، والبيت الذي اهتدى إليه فهو أيضا بيت واحد. ولا تغني الكثرة عن الحق، تلك هي فلسفة هذا البيت في البيوت، كما هي حقيقة التوحيد في الديانات.

أن ينبعث البيت بعد الطوفان، وأن يشع من جديد فوق الأرض بأنواره الروحية الهادية، معناه أن الفرصة، فرصة النجاة بين أيدينا، وأن السفينة لم ترحل بعد بركّابها، وأن الله تعالى هنا ، في بيته يجمع إليه أحبابه ومريديه، وأنه لن يأذن بالسفر قبل أن يهدي إليه آخر مسلم مؤمن شاهد لله فوق الأرض.

يتبين حينئذ بما لا يدع مجالا للشك، أن هناك جدلا عجيبا جامعا بين البيت العتيق وبين القرآن الكريم، جدل يجعل أحدهما يصب في الآخر ويهدي إليه. فالقرآن الكريم لما استوى دعوة إلهية بينة، هدى إلى البيت العتيق وكشف السر عن قيمته ومعناه، وأكد أن الحج إلى هذا البيت يكون، وأنه محل القبول وموضع نظر الله في الأرض. فكان أن امتلأ البيت بالحجاج القاصدين وجه ربهم، وقرئ القرآن من جديد، وانتهى أمر الأصنام إلى زوال.

إن البيت العتيق بالنسبة إلى القرآن الكريم بمثابة الجسد بالنسبة للروح. فالقرآن الكريم هو الروح، هو الوعي الأكمل المصنوع بعلم الله تعالى، والبيت العتيق محل إظهار هذا الوعي وموطن حجه ومبلغ نظره. وإذا كانت الأنثى مسكن ذكرها، فإن البيت وحده هو مأمن ومركز سكينة قارئ القرآن الكريم. هل نقول إن البيت جمع في أركانه الأربعة هذا الكون كله بأركانه الأربعة، وهذا الإنسان كله بأعضائه الأربعة، فكان البيت من الكون بمثابة القلب من جسد الإنسان. وإذا كان القلب هو العضو المحرك لجسد الإنسان وهو مصدر إمداده بالحياة والدماء النقية، فإن البيت العتيق يقوم بدور مماثل بالنسبة للكون. فهذا البيت والعلم لله، هو سر قيام الكون وهو مصدر انتظامه واستقامة دورانه. أما كيف يحدث ذلك فالعلم لله أولا وآخرا، وهو الذي يعلم السر وأخفى.

وبارتفاع البيت العتيق سوف ينهار الكون وينعدم نظامه وتقوم قيامته، لأنه يصبح عندئذ كونا بلا محجة وعالما بلا معنى. إن كيفية الخلق الكوني - الوجودي الإلهي، تقوم دائما على مبدأ تثبيت قلب لكل بناء، ووضع نقطة عليها مدار الدائرة تنبيها منه سبحانه وتعالى إلى وجوده هو كمركز لكل العالم وكمحور

لدائرة الوجود العظمى، وكهدف يتجه إليه الموت والحياة. وقد جعل سبحانه وتعالى هذا البيت مثابة للناس وقياما لهم وأمنا لأنفسهم، فكشف بذلك عن القيمة الوجودية والكونية العظمى لهذا البيت بالنسبة للعالمين، وخصوصا بالنسبة للمسلمين.

وفي كلمة، فإن البيت العتيق يكتسب في الإسلام قيمته الحقيقية كمحور مركز ضمن مسيرة ودرب السعي إلى النجاة الذي يؤمن المؤمنون أنه فرض واجب لا يسقط عن عاقل. إن السر في تسمية البيت، بيتا عتيقا، يكمن إلى جانب الكشف عن حقيقته، في سعي السماء إلى توجيه أهل الأرض نحو الحقيقة الأولى، الحياة الأولى، اللحظة الأولى، لحظة أحسن تقويم، تلك اللحظة التي نسيها آدم بعد أن عصى ربه فغوى. إنه تنبيه إلى أن الحقيقة إما أن تكون عتيقة أو لا تكون. وإلى أن ما استجد ما هو سوى هراء وافتراء إذا كانت جدته تقوم على نفي القديم وتغطية الأصل وتغييبه.

وقد أطلق الله على البيت العتيق تسمية المسجد الحرام أيضا. يقول تعالى : « قد نرى تقلب وجهك في السماء فلنولينك قبلة ترضاها فول وجهك شطر المسجد الحرام وحيث ما كنتم فولوا وجوهكم شطره. وإن الذين أوتوا الكتاب ليعلمون أنه الحق من ربهم وما الله بغافل عما يعملون»[1].

وفي آيات أخرى سماه البيت الحرام من مثل قوله تعالى : « جعل الله الكعبة البيت الحرام قياما للناس والشهر الحرام والهدي والقلائد ذلك لتعلموا أن الله يعلم ما في السماوات وما في الأرض وأن الله بكل شيء عليم»[2].

فما السر في تلقيب هذا المسجد بالمسجد بالحرام؟

يمكن أن تحمل هذه التسمية على معان عديدة. فقد يكون السبب تحريم النكاح والصيد ولبس المخيط وسواه على الحاج القاصد إلى مسجد الله الحرام. وقد يكون السبب حرمة هذا المسجد، أي هيبته وقيمته ومركزه الرفيع بين بيوت الأرض. وقد يكون السبب تحريمه على المشركين كما أسلفنا القول.. وقد يكون سمي المسجد الحرام لهذه الأسباب مجتمعة. المهم أن تحريم هذا البيت وهذا المسجد، إعلان لخصوصيته وفرادته. فالحرام هو الممنوع، والمحرّم هو الممتنع. وهذا المسجد إذا كان داخله آمنا، فإنه حرّم على المشركين لأنهم حرموا نعمة الأمان. فهو حرم آمن له حرمته المتأتية من كونه بيت الله تعالى وليس أي بيت. ولذلك فالمسلمون يستقبلونه بكل إعظام وإجلال؛ أما المشركون فإنهم لا يعون

(١) سورة البقرة : ١٤٤

(٢) سورة المائدة : ٩٧

معنى للحرمات، ولا يعقلون أن للوجود حدودا وترتيبات.
إن المسجد الحرام الذي كانت تعظمه العرب حتى في عصور جاهليتهم اتّباعا لتقاليد قديمة تعود إلى عهد إبراهيم الخليل عليه السلام هو البشارة، هو القبلة الجديدة التي أهداها الله لمحمد صلى الله عليه وسلم ولكل المسلمين لاسيما منهم أتباع هذا النبي الأمي الذي كتب له الله سبحانه وتعالى رحمته. وكانت دعوته عليه السلام من قبل ربه إلى تولية وجهه شطر المسجد الحرام، إحدى أكبر المكرمات الإلهية، وكان ذلك اليوم عيدا بالنسبة للمسلمين وعهدا جديدا لا شك فيه. وأما تسمية المسجد الحرام بالحرم الآمن، فهي تعني نفس المعاني التي كنا بصدد ذكرها تقريبا مع التركيز على دور هذا المسجد في تحقيق الأمان لمن يدخلونه ويتخلون عن الأوهام والخرافات التي تهيىء لهم أن هناك ملاذا آمنا سوى الله تعالى، ومأمنا سوى بيته العتيق. يقول تعالى :» وقالوا إن نتبع الهدى معك نتخطف من أرضنا أو لم نمكن لهم حرما آمنا يجبى إليه ثمرات كل شيء رزقا من لدنّا ولكن أكثرهم لا يعلمون»[1].
ثم إن هذا المسجد الحرام يسمى أيضا الكعبة. يقول تعالى : « جعل الله الكعبة البيت الحرام قياما للناس... الآية «. وقد جاء في لسان العرب :» الكعبة : البيت المربع، وجمعه كعاب. والكعبة البيت الحرام منه لتكعيبها أي تربيعها. وقالوا: كعبة البيت فأضيف لأنهم ذهبوا بكعبته إلى تربع أعلاه، وسمي كعبة لارتفاعه وتربعه. وكل بيت مربع فهو عند العرب كعبة... والكعبة: الغرفة؛ قال ابن سيده: أراها لتربعها أيضا»[2].
يتبين مما سلف أن البيت العتيق سمي الكعبة لتكعيبه أي لتربيعه. فهو على ما هو معلوم، بناء مربع. ولا ريب أن وراء تربيعه أسرار ومعان. وقد رأينا ونحن ندرس سيرة الخليل عليه السلام، أن للتربيع دورا هاما في مسيرته وفي وعيه. فقد كان اكتشافه عليه السلام للحق جل وعلا يتم أبدا عبر فتح رباعي الأركان. فلقد تجاوز بوعيه العميق الثالوث الفلكي لكي يحيط علما بالبعد الرابع الغيبي، وهو الله تعالى.هذا في دائرة السماء، أما في محيط الأرض فقد هدم المعابد الشركية الثلاثة، واعتز على السلط الطاغوتية الثلاث، سلطة الملك الطاغية، وسلطة القوم، وسلطة الأب، وحينئذ انفتح أمامه باب الحرية والانعتاق. فكان باب الفتح أمامه دائما، اكتشاف المبدأ الرابع الغائب الذي يحكم كل المبادئ الأخرى الظاهرة. ثم إنه لما سعى إلى تحقيق طمأنينة قلبه، أمر بأن يأخذ أربعة من الطير فيصرهن

(١) سورة القصص : ٥٧
(٢)- لسان العرب، مجلد: ١، ص: ٧١٨، مادة : كعب.

إليه ثم يجعل على كل جبل منهن جزءا ثم يدعوهن فيأتينه سعيا، وهذا ما وقع. فعلم حينئذ لما رأى الأربعة تجتمع في واحد، والواحد يحرك الأربعة، يحييها ويميتها، أن الوجود بأركانه الأربعة، تحت هيمنة خالق واحد، وأن هذا الواحد لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء.

وباختصار نقول، لقد تبين لنا بوضوح أن الإنجاز الإبراهيمي الشريف على مستوى مسيرة الوعي والإيمان، يتمثل فعلا في اكتشاف البعد الرابع الغيبي الذي يمثل سر وجود الكون، وسبب حياته ومماته وبعثه. هذا السر الذي خفي على الخلق، فجاءت آلهتهم في الأغلب الأعمّ هرمية شركية استعلائية. ولم يكن من مصادفات التاريخ وحدها أن الأهرامات التي صنعت من دماء العبيد، سكنتها أرواح الفراعنة الطغاة المتألهين زورا وظلما وعدوانا.

إن البنية الهرمية بدت لنا ونحن نتأمل التاريخ البشري، قرينة الاعتقادات الشركية الطاغوتية الضالة. وبذلك جاءت البنية التربيعية للحرم، فسخا للوعي الشركي الظاهري الثلاثي، وتأسيسا للوعي التوحيدي القائم على إحاطة الواحد فقط، وهيمنة الأحد فقط على الأركان الأربعة للعالم بدون شريك ولا ندّ.

إن البناء الرباعي الأركان يشير هندسيا إلى الوحدة والإحاطة والاستيلاء والهيمنة. فزوايا البيت الأربع وأركانه الأربعة متماثلة كواحد منها، كما أن الأبعاد الأربعة تكون مندمجة حاضرة في تمثل وهندسة البيت المربع الذي يشرف ساكنه على مناطق الأرض الأربع. هذا إلى أن في التربيع استواء وهيمنة وتحكم، وبواسطته يستدير العالم، ويظهر الحق الذي هو وحده مدار رحى الوجود.

وإذ لا نبغي الإطالة نقول إن هذا البيت، هذا الإرث الإبراهيمي الشريف قام ليعلن المسلم من خلاله أنه إذ أحاط بالأركان الأربعة للمبنى وللمعنى معا، آب إلى الوحدة والتوحيد. فحيثما التفت وجد المعنى نفس المعنى، والمبنى نفس المبنى؛ فحينئذ تسكن نفسه إلى حقيقة الوحدة الكامنة في الوجود، وتعلم أن هذا الوجود مبنى واحد ومعنى واحد فتكف عن الطلب، وتهفو إلى دخول دائرة التسليم والتفويض، وتحن إلى الإفاضة بالبيت اعترافا بالحق وتسليما بوحدته واتحاده.

لقد سميت مكة بكة، كما سميت في القرآن أم القرى أيضا، تشريفا لها وتعظيما من ناحية، وتنبيها إلى ما تحمله من سر الهي عظيم ومن إرث توحيدي لا يمسه الفسخ ولا المسخ. إن أم القرى من الأرض بمثابة أم الكتاب من الكتاب. فالله تعالى : « يمحو ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب»[1].

(١) سورة الرعد : ٣٩

فبثبات أم الكتاب ثبت المعنى ولم يضره المحو ولا الإثبات، لأن أم الكتاب حافظة للسر، محتوية على النسخة الأبدية المحفوظة من آفات الكون والفساد،البريئة من تأثيرات الزمان والمكان.

وكذلك أم القرى مكة المكرمة، جعلها الله سبحانه وتعالى موطنا للبيت الأول الذي لا تبديل له ولا إضافة عليه في علم الله تعالى. البيت الذي شهد العهد بين الله تعالى وبين آدم عليه السلام. البيت العلامة الذي عنده وعد الرحمن الإنسان بالنجاة، البيت السفينة والبيت السكينة الذي من انتظر عنده وعد الله تعالى بالنصر والتأييد فلن يخيب الله تعالى رجاءه. أما من اهتز وعيه فأسرع لما رأى تخويف الشيطان بالفقر والبلى إلى بيت العنكبوت الشيطاني يحتمي به، فقد ضل سعيه وخاب عمله. يقول الله تعالى عن هذا البيت العتيق : « فيه آيات بينات مقام إبراهيم ومن دخله كان آمنا ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلا ومن كفر فإن الله غني عن العالمين»[1].

نبهت هذه الآية الكريمة على خصوصيات وميزات امتاز بها هذا البيت العتيق. فهو أولا موطن لآيات بينات، قال تعالى:» فيه آيات بينات مقام إبراهيم». فهذا البيت هو مقام إبراهيم الخليل عليه السلام، وهذا سر عظيم يكشفه القرآن الكريم. ذلك أن كون هذا البيت هو موطن مقام إبراهيم، يعني أن الإرث الإبراهيمي الأهم والأخطر يوجد هنا، وفي هذه البقعة المباركة بالذات.

ويعني سبحانه بقوله مقام إبراهيم، أن هذا البيت هو موطن إقامة وثبات ووقوف الخليل عليه السلام؛ وهو منتهى حجه ورحلته. وسوف يجعل حفيد إبراهيم، محمد صلى الله عليه وسلم من خط سيره مماثلا لخط سير أبيه الخليل عليه السلام الذي وضع في هذا البيت علامة تدل عليه، وآية بينة تكشف عن قيامه ومقامه فيه. إن المقام هو مكان القيام والثبات والبقاء. والخليل عليه السلام قد أقام وقام هنا في هذا البيت الذي جعله الله سبحانه وتعالى قياما للناس :» جعل الله الكعبة البيت الحرام قياما للناس...».

إن قلب الإنسان في جوهره وحقيقته عين مفتوحة أبدا لا تنام ولا تهدأ إلا بالموت. وهذه العين تسعى أبدا إلى موئل ومنتهى تنتهي إليه بنظرها. وهي بفطرتها تسعى إلى أن يكون محط نظرها مسكن ومأمن تأمن فيه. غير أن الشيطان الرجيم، جعل دوره تغيير وجهة نظر هذه العين وإلهائها إما بالشهوات أو بالمخاوف والخيالات حتى لا يقر لها قرار، ولا تجد لها مسكنا. فإذا تحولت هذه العين عن المأمن والمسكن القائم الثابت وليس سوى وجه الله تعالى المتمثل في

(١) سورة آل عمران : ٩٦

بيته العتيق، اضطربت بين الصور والخيالات، ودفعت الإنسان بالتالي إلى اليأس المميت وإلى الاهتراء الكامل. ونظرا لقيمة الوجهة التي تتجهها هذه العين، جعل الله سبحانه وتعالى القبلة، وأقام البيت، ووضعه للناس ليكون قياما لهم وأمنا، وقال سبحانه وتعالى: « أفلم يسيروا في الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها أو آذان يسمعون بها فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور [1]. نبه سبحانه وتعالى في سورة الحج إلى أنه لا بد من حج، وأن الحج هو حج القلب العاقل البصير إلى الحق تعالى وإلى البيت الآمن والحرم الذي لا تطاله الشياطين. فإن لم يكن حج، فهو العمى الذي ما بعده عمى، والذي يعد عمى الأبصار بالنسبة إليه شيئا قليلا. يقول تعالى: « ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلا ومن كفر فإن الله غني عن العالمين» . فجعل سبحانه الحج فرضا واجبا على الناس، كل الناس لينبه بذلك إلى أحد أهم معاني الإسلام لله تعالى، أعني ضرورة التزام قبلة واحدة وتحقيق حج إلى هذه القبلة تعبيرا عن الإيمان وعن العرفان. فثبت بذلك أن البصيرة الباطنة لا تنفتح إلا على قبلة حقيقية؛ وأن هذه القبلة الحقيقية ليست سوى بيت واحد وحرم واحد: إنه المسجد الحرام.

(١) سورة الحج : ٤٦

٢ - المسجد الحرام
القبلة الكونية والحضارية

جعل الله سبحانه وتعالى المسجد الحرام قبلة المسلمين بعد أن رأى سبحانه تقلب وجه رسوله محمد صلى الله عليه وسلم في السماء طالبا القبلة الحق، ساعيا وراء النور الحق. قال تعالى : « قد نرى تقلب وجهك في السماء فلنولينك قبلة ترضاها فولّ وجهك شطر المسجد الحرام وحيث ما كنتم فولوا وجوهكم شطره. وإن الذين أوتوا الكتاب ليعلمون أنه الحق من ربهم وما الله بغافل عما يعملون» ( )[1].

تكشف هذه الآية الكريمة عن حدث كوني حضاري هام، هو حدث انتقال القبلة من المسجد الأقصى إلى المسجد الحرام كما هو معلوم. والقرآن الكريم يؤرخ لهذا الحدث تأريخا يكشف بالفعل عن الوضع الروحي والحضاري لفترة الانتقال هذه. فقوله تعالى :» قد نرى تقلب وجهك في السماء»، اختصار في كلمات قليلة لكل الأزمة الروحية والحضارية التي يعيشها العالم آنذاك. ولا ريب أنه ليس هناك عقل يقدر أن يعي مدى عمق تلك الأزمة مثل محمد صلى الله عليه وسلم الذي كان لسان تلك المرحلة وترجمانها، والذي رضيته السماء ليقوم بدور الإصلاح الروحي والحضاري المطلوب.

كيف آل وضع الأرض إلى الضلال المبين ؟ وما الذي جعل صاحب السر الروحي ورسول الهداية يبحث عن القبلة فلا يلقاها، ويسعى إلى الأمن فلا يجده، ويوجه عين بصيرته بحثا عن البيت الآمن فلا يجد شيئا ؟

للإجابة عن كل هذه الأسئلة لابد من متابعة تاريخ الإرث الروحي للبشرية، ومن متابعة تاريخ الإسلام بدءا من تأسيس طريقه وهداه وإظهار معناه على يد الخليل عليه الصلاة والسلام، إلى تلك اللحظة الحرجة، لحظة اللهفة والحزن والترقب الذي ملأ وجه محمد صلى الله عليه وسلم وهو يقلب وجهه في السماء.

كان الخليل عليه الصلاة والسلام، قد تجاوز كل الارتباطات الأرضية، ونفى عنه كل السلط الوهمية، ودمر الآلهة المستعلية لمّا اختاره الله سبحانه وتعالى ليرفع قواعد البيت العتيق وليكشف عن مكان هذا المعلم الروحي المكنون. جاء في سورة الحج تأريخ لهذه اللحظة في قوله تعالى :» إن الذين كفروا ويصدون عن سبيل الله والمسجد الحرام الذي جعلناه للناس سواء العاكف فيه والباد ومن يرد فيه بإلحاد بظلم نذقه من عذاب أليم. وإذ بوأنا لإبراهيم مكان البيت أن لا تشرك بي شيئا وطهر بيتي للطائفين والقائمين والركّع السجود. وأذن في الناس بالحج يأتوك رجالا وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق. ليشهدوا منافع لهم ويذكروا اسم الله في أيام معلومات على ما رزقهم من بهيمة الأنعام فكلوا

(١) سورة البقرة : ١٤٤

منها وأطعموا البائس الفقير. ثم ليقضوا تفثهم وليوفوا نذورهم وليطوفوا بالبيت العتيق»[1].

بدأت هذه الآيات بالتنبيه إلى حقيقة هامة، وهي أن تاريخ الكفر ارتبط بالصدّ عن المسجد الحرام الذي جعله الله تعالى للناس مثابة وأمنا، كما ارتبط بالإلحاد في هذا المسجد بظلم، إنكارا لقيمته وتغييبا لمعناه. ثم جاء الحديث عن قصة هذا البيت وكيف أظهره الله تعالى على يد إبراهيم الخليل عليه السلام ليكون محجة للموحدين ومأمنا للقاصدين وبيتا للمتطهرين.»وإذ بوأنا لإبراهيم مكان البيت أن لا تشرك بي شيئا وطهر بيتي للطائفين والقائمين والركّع السجود».

جاء في لسان العرب :» بوّأ الرمح نحوه : قابله به، وسدد نحوه... وبوأهم منزلا: نزل بهم إلى سند جبل. وأبأت بالمكان: أقمت به. وبوأتك بيتا: اتخذت لك بيتا. وقوله عز وجل: أن تبوآ لقومكما بمصر بيوتا، أي اتخذا. أبو زيد : أبأت القوم منزلا وبوأتهم منزلا تبويئا، وذلك إذا نزلت بهم إلى سند جبل، أو قبل نهر. والتبوؤ: أن يعلم الرجل الرجل على المكان إذا أعجبه لينزله. وقيل: تبوأه: أصلحه وهيأه. وقيل: تبوأ فلان منزلا: إذا نظر إلى أسهل ما يرى وأشده استواء وأمكنه لمبيته، فاتخذه، وتبوأ: نزل وأقام، والمعنيان قريبان... وأباءه منزلا وبوأه إياه وبوأه له وبوأه فيه، بمعنى هيأه له وأنزله ومكن له فيه... وتبوأت منزلا أي نزلته. وقوله تعالى: والذين تبوأوا الدار والإيمان، جعل الإيمان محلا لهم على المثل، وقد يكون أراد... وتبوأ المكان : حلّه... وتبوأ فلان منزلا، أي اتخذه، وبوأته منزلا وأبأت القوم منزلا. وقال الفراء في قوله عز وجل: والذين آمنوا وعملوا الصالحات لنبوئنهم من الجنّة غرفا، يقال : بوأته منزلا، وأثويته منزلا ثواء: أنزلته، وبوأته منزلا أي جعلته ذا منزل... يقال بوأه الله منزلا أي أسكنه إياه.»[2].

بوأ الله تعالى للخليل عليه السلام مكان البيت بإبرازه له وتمكينه فيه، وجعله له مقاما، وكان العهد بينهما عند هذا البيت في كلمات ثلاث.

الكلمة الأولى : هي كلمة التوحيد:» أن لا تشرك بي شيئا «والخليل عليه السلام أبو الموحدين. وبصفاء توحيده، نال شرف إعادة رفع قواعد البيت الدارس والمختفي حيث لا يعلم إلا الله تعالى. وبذلك تأكد أن وراثة هذا البيت لا تكون إلا للموحدين الذين لم يداخل توحيدهم للخالق عز وجل أي غش أو تزوير» أن لا تشرك بي شيئا « ذلك ما فعله الخليل بالفعل، فقد حطم المعابد الطاغوتية، وكانت الهدية من وراء هذا العمل العظيم، أن تجلى له وجه البيت وظهر له

(١) سورة الحج : ٢٥ - ٢٩

(٢) لسان العرب : مجلد: ١، ص ص: ٣٨ - ٣٩، مادة : بوأ.

مكانه منّة من الله سبحانه وتعالى، وإكراما وتفضيلا لمن هجم على الأصنام يكسّرها وأظهر حجة الله على الطواغيت غير مبال بقلة ناصره من البشر. إن البيت العتيق هو بيت التوحيد، وهو لا يظهر إلا لموحد، كما أن اختفاءه و اندراس أثره دليل على غياب التوحيد وظهور الشرك والضلال.

وإذا كان التوحيد قد أشع نوره زمن الخليل عليه السلام بما أظهره هذا الرجل العظيم من آيات الإيمان والإسلام، فإن البيت كان بالمقابل، مثل الزهرة التي أينعت لما جاءها ماء التوحيد وشربت أنواره. ومنذئذ أصبح البيت رمزا للتوحيد ولمعركته فوق الأرض، فإذا انتصر التوحيد، أشعت أنوار البيت العتيق وأصبح كالزهرة المتفتحة في أجمل أيام الربيع؛ أما إذا غاب التوحيد واستشرى الشرك في عقول الناس وقلوبهم فأمّوا معابد الضلال وانتصروا لبيوت العنكبوت، فحينئذ تذبل زهرة التوحيد ويغيب البيت ولا يعود له ذكر.

وقد شهد البيت العتيق إلى حد اليوم لحظتي عز وظهور لا يضاهى، هما على التوالي اللحظة الإبراهيمية والتي نتج عنها ظهور البيت وانكشاف مكانه ورفع قواعده، واللحظة الثانية هي اللحظة المحمدية والتي نشأ عنها تطهير هذا البيت العتيق من الأصنام التي أحاطت به، وإعادة تطهيره للطائفين والقائمين والركع السجود.

فكلما قام للتوحيد ذكر، إلا وازدهر البيت وأشع، وكلما خبت أنوار التوحيد، انطفأ البيت وانكمش وغاب. ولذلك نعد هذا البيت بحق، رمزا للتوحيد ولمسيرته فوق الأرض. إن ظهور هذا البيت نفسه على يد الخليل عليه الصلاة والسلام، إشارة إلى أن عهد التوحيد كايمان وكبناء روحي وحضاري قد ابتدأ، وأن أمة التوحيد بدأت تضرب جذورها فوق الأرض، وتؤسس بنيانها على تقوى من الله تعالى ورضوان منه. وإذا كان لنا أن نشير إلى اللحظة التاريخية الحاسمة في ظهور الإرث التوحيدي والديانة التوحيدية، فإننا نشير إلى لحظة تمكين الخليل عليه السلام من البيت، ودعوته لرفع قواعده كلحظة تأسيسية أولى سوف لن تنطفئ أنوار البيت بعدها أبدا وإن خبت وذبلت في بعض الأحيان.

ومنذ ارتفاع قواعد البيت العتيق، أصبح للموحدين حرم آمن وأصبحت لهم قبلة. كان عهد الخليل عليه السلام مع الله تعالى أن لايشرك به شيئا ومنذئذ أصبح ذلك العهد، أي إخلاص التوحيد لله، كلمة السر التي بإظهارها ينفتح باب البيت لقاصده، وبإعلانها يستقبل هذا الحرم عاشقه وطالبه.وسوف نرى من خلال التاريخ، أن هذا البيت سوف يشكل منذ لحظة التأسيس الأولى، البؤرة والمركز الجغرافي الذي سيتحرك فيه تاريخ التوحيد برجاله المؤسسين، وسيحافظ فيه على

نقاوته وصفائه، في حين ستفقد رسالته نقاءها وصفاءها في كل أمكنة الأرض الأخرى. وباختصار، نقول إن هذا المسجد الحرام يبقى وحده قيما على النفس المؤمنة المسلمة قادرا على طمأنتها وتحقيق سكينتها ولو كانت في أسوأ لحظات الحياة وفي أعسر مراحل التاريخ، تماما مثل القرآن الكريم الذي يبقى وحده ملاذ العقل المؤمن مهما اختلطت السبل وتعددت الأقاويل.

إن الأرض تشهد في بعض اللحظات التاريخية ارتجاجا رهيبا، وتشهد فلسفات الناس وأخلاقهم وتصرفاتهم انحطاطا عجيبا، ويدّارك الخلق في مهاوي الضلال والشهوات. وحينئذ، في تلك اللحظات التي يصبح فيها اتباع الهدى مثل القبض على الجمر، يبقى البيت بوصلة مشعة تنشر أنوارها الهادية المهدئة المسكّنة، وسفينة نجاة تؤكد أبدا الأمل في اليوم الموعود، يوم لا يخزي الله الرسول والذين آمنوا. يقول القرآن الكريم شاهدا على مثل هذه الفترة من تاريخ الأرض: « وقالوا إن نتبع الهدى معك نتخطف من أرضنا أولم نمكن لهم حرما آمنا يجبى إليه ثمرات كل شيء رزقا من لدنا ولكن أكثرهم لا يعلمون»[1].

وقال تعالى :» أولم يروا أنا جعلنا حرما آمنا ويتخطف الناس من حولهم أفبالباطل يؤمنون وبنعمة الله يكفرون» [2].

إن اللحظة الحضارية الراهنة من تاريخ المسلمين أفرادا وأمة، هي من أسوأ اللحظات التي عاشها المسلمون فوق الأرض، بل لعلها وهذا هو المرجح، أن تكون أسوأها على الإطلاق، وذلك للانحطاط الروحي المريع الذي يعيشه الخلق ومن ضمنهم المسلمون الذين يعيشون الأزمة مضاعفة جزاء بما ضيعوا القرآن الكريم وهجروه وتركوا الذكر والاجتهاد، والتفتوا إلى ضلالات الأمم يقلدونها ويوغلون في التبعية والتقليد. واليوم، وفي هذه اللحظة الحضارية الراهنة بالذات، لم يعد هناك من مأمن لنفوس المسلمين سوى البيت العتيق، ولا من ملجأ لأرواحهم سوى هذا الحرم الآمن، وهو بما آتاه الله من القوة والعزة والمنعة، يحقق هذه الطمأنينة ويضمن السكينة لكل الأنفس المؤمنة رغم النار المشتعلة فوق الأرض بما كسبت أيدي الناس. يعلم هذه الحقيقة من يحيا بروحه في هذا الوقت الذي غاب فيه المعنى الروحي، ومن مازال يلقي السمع وهو شهيد، ومن مازال على عهد التوحيد يجيب نداء إبراهيم الخليل بالحج قائلا: لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك، إن الحمد والنعمة لك والملك، لاشريك لك.

أما الكلمة الثانية التي كانت عهدا بين الخليل عليه الصلاة والسلام وبين ربه،

(١) سورة القصص : ٥٧

(٢) سورة العنكبوت : ٦٧

فتتمثل في قوله تعالى :» وطهر بيتي للطائفين والقائمين والركع السجود» [1].
في هذه الآية إعلام بالمهمة التي سوف يقوم بها البيت العتيق فوق الأرض، وهي أن يصبح قبلة للعالمين ومحجة للقاصدين.
والله هنا ينسب البيت مباشرة إليه : « وطهر بيتي». فما بلغ سبحانه وتعالى هذا الحد من التشبيه والتنزل والتواضع للخلق قدر بلوغه في هذه الكلمة أو على التحقيق، في هذا البيت. فانظر إلى الرحمن جل وعلا، رب العالمين والقابض على ملكوت السماوات والأرض القادر على أن يخلق مثلهن، كيف يتواضع ويسكن هذا البيت، وينسبه إليه معلما بذلك أنه قد أصبح له بيت مقصود، وأنه لم يعد في كل مكان وفوق كل مكان فقط، بل هو على وجه التعيين والتشبيه هنا، في هذا البيت العتيق.
فمن أراد أن يكلم الله تعالى فليكلمه هنا عند هذا البيت. ولذلك كانت الصلاة في المسجد الحرام تعدل مائة ألف صلاة في غيره من بقاع الأرض على ما جاء في الأثر الشريف. ومن أراد أن يطمئن بالله تعالى، فليقم وجهه شطر هذا البيت وليقصد إليه. إن الرحمن بكل جلاله وجماله وجبروته ورحمته، إن الله تعالى هو نفسه من سوف يستقبله.
ليس هناك في الحقيقة أشد إثارة ولا أشد روعة ولا جلالا ولا أشد جمالا، ولا يوجد شيء أبعث على العنفوان واللهفة والأمل والطمأنينة من أن نعي هذه الحقيقة الوجودية الكبرى: إن الله هنا، الله معنا، الله اللامتحيز في زمان و لا مكان يصبح بالفعل منتميا ومتحيزا في الزمان وفي المكان بحلوله في هذا البيت، ليكون رب الطائفين والقائمين والركّع السجود فقط، ربهم بالأمن، ربهم المطمئن، ربهم الهادي، ربهم المطهر، ربهم المعز، ربهم الموفق وما هو رب كل الناس بهذه الكيفية وعلى هذه الشاكلة.
يستوقفنا عند قوله تعالى :» وطهر بيتي»، كون البيت لما رفع قواعده إبراهيم الخليل عليه السلام لم تكن هناك أصنام منصوبة حوله على الأرجح، لأنه لم يكن معلوم المكان. فمم كان الخليل سيطهر هذا البيت ؟ ونجيب بإذن الله، إن هذا البيت في الأرض هو بمثابة القلب في الجسد، محل روحي الهي طاهر.
وهذا المحل على جلالة قدره ورفعة ساكنه، لا يسلم من إحاطة الظلمات به مثلما أن القلب لا يسلم من طغيان الوساوس عليه. ولذلك قبل البيت العتيق في فترة ما واقعة إحاطة الأصنام به لمّا جاء العرب الجاهليون بأصنامهم وأقاموها حوله. وتلك حكمة الله تعالى ومشيئته، شرّف هذا البيت العتيق ورفعه تماما مثلما شرّف

(١) سورة الحج : ٢٦

هذا القلب الإنساني ورفعه، ولكنه ربط تطهيره بعمل الإنسان نفسه وبمجهوده وسعيه. إن فعل النجاة كما قدر الله تعالى وقضى، يكون بواسطة الإنسان نفسه ونتيجة لعمله وإنجازه. وبما أن البيت هو في التأويل، رمز لهذا القلب الإنساني الذي شرفه الله تعالى بأن جعله موطن الروح الإلهي، فقد كان لابد فيه من إبراز حكم القلب وما يطرأ عليه. ومعلوم أن القلب الإنساني إذا كان هو محط نظر الرحمن جل وعلا ومحل الهداية والرحمة، فإنه أيضا قابل للعمى والضلال إذا لم يستثمر ولم تقع العناية به وتطهيره من الضلالات والأوهام.

يقول سبحانه وتعالى في سورة الحج : « أفلم يسيروا في الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها أو آذان يسمعون بها فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور « [1].

ليس من قبيل المصادفة أن تكون هذة الآية المتعلقة بالقلوب ضمن سورة الحج نفسها التي يدعو فيها الله تعالي الخليل عليه السلام إلي تطهير بيته للطائفين والقائمين والركع السجود. فقد خلق الله تعالى الأرض والسماوات بالحق، وهيأها لنزهة الإنسان ذي القلب العاقل الذي يمارس التأمل بقلبه ويمارس الوعي بقلبه ويمارس السماع بأذنه. هذا الإنسان الذي يحرك عين بصيرته الباطنة وهي عين قلبه بالذات ، يحرر أذنه من الصمم فتصبح قادرة علي سماع صوت الحق في كل مكان.

فثبت أنه لابد من تحريك القلب لكي يعقل عن الله تعالي عبر التأمل في ما خلق سبحانه وتعالى أي التأمل في العالم . فاذا تأمل القلب وعى، وإذا وعى سمع وأبصر واهتدى. وما طلب من القلب أن يقوم به علي مستوى الوعي بالحق ، هو نفس ما طلب من الخليل أن يقوم به بالنسبة للبيت ، أعني تطهيره من الأوثان والأصنام والضلالات . إن تطهير البيت يعني في كل الأوقات جعله مجالا مباحا للحجاج القاصدين ، واضحا أمامهم مهما بعدت بهم الشقة وطال بهم السفر . وسوف يقوم الخليل عليه الصلاة والسلام بتطهير البيت كما أمره ربه بأن يجعله مسجدا للصلاة ولذكر الله فقط وأن يؤذن فيه بالحج ولا يشرك بالله شيئا.

فإذا ارتفع صوت الأذان في هذا البيت ، وإذا أقيمت فيه الصلاة ، حينئذ يخلص لله ويحرم وطؤه على الشياطين وعلى كل الضالين والظالمين . قال تعالى : «وطهر بيتي للطائفين والقائمين والركع السجود «. مشيرا إلي ثلاثة أوضاع إنسانية، وضع الطواف وهو الدوران ووضع القيام وهو الاستواء، ووضع الركوع والسجود وهو السكون والإخبات. أشار سبحانه من وراء ذلك إلى ضرورة أن يكون كل عمل

(١) سورة الحج: ٤٦

الإنسان عند هذا البيت، وتحت إشراف فلسفة هذا البيت وهي الفلسفة القرآنية دون سواها (فلسفة الكتاب).

ونبه سبحانه إلى أنه على المؤمن أن يحرص أن يبقى عند هذا البيت في مراحل وجوده الثلاثة الكبرى : الحياة ثم الموت ثم البعث . فمن كانت حياته توجها وحجا إلي هذا البيت ثم كان موته شهادة أمام هذا البيت، كان بعثه ولابد في هذا البيت نفسه الذي سبق وأن قلنا إنه سفينة النجاة التي سوف تحمل المؤمنين يوم الطوفان الأعظم يوم القيامة، نسأل الله تعالى السلامة وحسن العاقبة ونعوذ به من الكفر والضلال وكثرة الجدال. ذلك في اعتقادنا معنى أن يكون المسجد الحرام قبلة للمؤمن، إنه يعني أن يحافظ المسلم علي خط اتجاه واحد هو الاتجاه نحو الله تعالى قانتا مخبتا مخلصا قائما وقاعدا ودائرا ؛ إنه تحويل كل الحركات إلي حركة واحدة، حركة السكون عند الحق جل وعلا. إنه الإحرام واليقين أنه لامنجاة إلا بسلوك طريق واحد ودرب واحد، درب الحق .

إن الطواف والقيام والركوع والسجود حركات تعني ترك الشرك والنفاق وإخلاص التوحيد لله تعالى .

أن يكون للإنسان قبلة، يعني أنه أصبح صاحب رسالة وصاحب هدف لابد من بلوغه وتحقيقه. ويعني أنه وعى أخيرا أنه قارب صغير في بحر الله الواسع، وأنه لن ينقذه سوى عون الله وحده وتوجيه الله وحده. أن يعترف الإنسان بالقبلة، معناه أن يعترف بالهدف، وأن يعترف بالحق وأن يفهم أن للحياة معنى، ولوجوده فوق الأرض معنى وحكمة وسبب.

أن يعترف الإنسان أن هناك قبلة، معناه أن يؤمن بالضياع والنجاة معا ، أن يؤمن أن الضلال ممكن بل حاصل وكائن مثل تلك الظلمات التي يراها في أنحاء هذا الكون الواسع، وأن يؤمن فوق ذلك أن النور أقوى من الظلمات إذا ما صدق الإنسان النية في محالفتة والاتجاه إليه وطلبه .

أن يكون للإنسان قبلة، يعني أنه قد انتمى وتحزب وأصبح له جماعة وأهل، لقد انتمى إلى الله وأصبح له إخوة هم المسلمون جميعا في كل زمان وكل مكان. إنه الانتماء بكل معانيه الوجودية والكونية والحضارية التاريخية.

أن يكون للإنسان قبلة، معناه أنه يمحور حياته كلها حول كلمتين: الحقيقة والمهمة. فالحقيقة هي معنى الوجود وهي معنى العالم، وهي أصل معنى كل شيء، وهي في النهاية الحق، الله سبحانه وتعالى. والمهمة هي السير نحو هذه الحقيقة، والتوجه الصادق نحوها، والإيمان المخلص بها بدون نفاق ولا زيف.

أن يكون للإنسان قبلة، معناه في كلمة أن ينتقل الوجود الإنساني من حالة الطين

إلى حالة الوعي. لأن الوعي هو قبلة الطين.
أما الكلمة الثالثة التي عاهد عليها الخليل عليه السلام ربه عند المسجد الحرام، فهي التعهد برفع أذان الحج : « وأذن في الناس بالحج يأتوك رجالا وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق»[1].
عهد الله سبحانه إلى الخليل عليه الصلاة والسلام برفع أذان الحج. فأثبت له بذلك الأبوة الروحية لكل المؤمنين، لأنه لا يحج سوى مؤمن مسلم. وهذه الأبوة الروحية تجعل الخليل بدون شك، أعظم وأخطر رجل عرفته البشرية، كما تجعل منه صاحب أكبر حظ وأعظم قدر من الروحانية والنور. إن كل المسلمين سوف يصبحون أبناء الخليل عندما يستجيبون لنداء أبيهم الروحي بالحج، والابن دائما مهما تقدم في الدرجات، يبقى جزءا مندرجا في الكل الذي هو الأب. إن من يتعرف على الخليل عليه السلام، يتعرف على قمة الإنسانية وعلى ثمرتها الأنضج ومجلاها الأعظم والأمثل. وبالفعل، لقد ارتفع الأذان، أذان الخليل عليه السلام بالحج إلى الله، وجاء الناس رجالا وعلى كل ضامر، جاء الناس بأرواحهم وبأجسادهم معا، ووقفوا أمام البيت، وصلوا في مقام إبراهيم الخليل، فاستجابوا بذلك للخالق وللأب في نفس الوقت. فما أعظمها مرتبة أن تكون الاستجابة للمخلوق هي عين الاستجابة للخالق !. وبرفع أذان الحج، كان الخليل عليه السلام يبعث الوعي في الخلق، ويوقظ الأرواح الهاجعة في أجسادهم الخاملة.
إن لحظة رفع أذان الحج من قبل الخليل عليه الصلاة والسلام، هي لحظة الاستفاقة الروحية لهذا الإنسان الهابط من الملإ الأعلى إلى الملإ الأدنى، ولحظة دعوة هذا الإنسان إلى معانقة الملإ الأعلى من جديد. إن أذان الخليل في الناس بالحج، حدث شبيه بنفخ الله تعالى الروح في الجسد الإنساني المسوى. هكذا ، وبعد أن سويت الثمرة الإنسانية ونضجت منها بذرة قابلة للإثمار بعد الطوفان الغامر الذي ذهب بالحمأ المسنون وبالنماذج الأولى الممسوخة والفاسدة، جاء نداء الخليل بالحج تذكيرا لهذه البذرة وتلقيحا لها لكي تثمر وتلد وتنتج، وهذا ما سوف يقع بالفعل ببركة الله تعالى وتأييده.
إن نداء الحج دعوة للأرض أن تلتف حول محور واحد هو البيت لأنه بالفعل قلبها وجوهرها ومركزها الثابت، تماما مثل دعوة الجسد للتمحور حول قلبه لأنه مركزه النابض ومصدر حركته وحياته.
لماذا طولب الإنسان بالحج ؟ يجيب القرآن الكريم: « ليشهدوا منافع لهم ويذكروا اسم الله في أيام معلومات على ما رزقهم من بهيمة الأنعام فكلوا منها وأطعموا

(١) سورة الحج : ٢٧

البائس الفقير ثم ليقضوا تفثهم وليوفوا نذورهم وليطوفوا بالبيت العتيق». شرع الحج إذن من أجل غايات عديدة وأهداف كبرى روحية ومادية. يقول تعالى :» ليشهدوا منافع لهم». والمنافع تكون حسية وتكون معنوية، بعضها مما نعلم جميعا وبعضها مما قد لا نعلم. وقال تعالى أيضا : « ويذكروا اسم الله في أيام معلومات على ما رزقهم من بهيمة الأنعام فكلوا منها وأطعموا البائس الفقير». تشير الآية إلى ذكر اسم الله تعالى في أيام معلومات هي أشهر الحج المعدودة على ما رزق الناس من بهيمة الأنعام. والسؤال المطروح هو لماذا حدد الله تعالى سبب ذكره في مناسبة الحج بالنظر إلى ما رزق الناس من بهيمة الأنعام.

فهو تعالى قد رزق الإنسان كل شيء بدءا بنعمة الحياة إلى كل النعم الأخرى التي نحصيها ولا نحصيها. فما السر في هذا التعيين ؟.

يبدو والله أعلم، أنه سبحانه وتعالى أشار إلى ما رزق الناس من بهيمة الأنعام تنبيها للإنسان إلى أهم شيء أعطاه إياه وهو نعمة الوعي والعقل. فبهذا الوعي الروحي العقلي، أو قل بهذا الوعي المؤمن، استطاع الإنسان أن يتجاوز حدود حاجته الحيوانية، وأن يعلم أن له دورا آخر يتجاوز مجرد الاعتناء بجسده ومطالبه. هذا الدور هو الحج والقصد إلى ربه الذي خلقه. فالحج هو الاعتراف بأن من واجب الإنسان أن يتسامى عن هذا المرعى الحيواني، عن هذه الأرض المزينة لكي يتعلق بأسباب السماء في رحلة رجعى إلى الحق وإلى النور الذي منه خلق وكان. فإذا ما تحقق هذا التجاوز فعليا وتم القصد بالحلول بالبيت العتيق، يكون الإنسان حينئذ قد حطم كل أسر الوضع الحيواني الذي ركب فيه، وحينئذ يعلمه الله تعالى أنه أباحه الآن هذا الجسد، هذا الحيوان ليستفيد منه ويتنعم به ويفيد به « فكلوا منها وأطعموا البائس الفقير». إنها مأدبة الدنيا تباح للحاج بعد أن أكد بتخليه عنها في إحرامه وطوافه، أنه ليس عبد شهواته، وليس بالتالي صنيعة الشيطان ولا تلميذه.

فإذا أتم هذه الشهادة التي عبرها يشتمّ بعضا من أنفاس الخليل عليه السلام في تجربة إقدامه على ذبح ابنه عند الحرم، ينعم الله تعالى عليه بذبح عظيم، وهي الأنعام التي يذبحها الحاج في طقس رمزي هو طقس الأضحى الذي يكون في صبيحة يوم العاشر من ذي الحجة بعد أن يتم بالوقوف في عرفات مسيرة المعرفة واليقين، ويحوز درجة الوصول والتمكين. لذلك نبه سبحانه إلى هذا الإنجاز الأعظم لعقيدة الحج، وهو يدعو المؤمن إلى أن يحمده في هذه الأيام والأشهر المعدودات على ما رزقه من بهيمة الأنعام. إنها في الواقع دعوة إلى حمده سبحانه على نعمة الحرية، ونعمة الانعتاق. حرية واعية مسؤولة ليس هدفها التحطيم

ولا السلخ ولا الانخلاع، وإنما هدفها إعادة صياغة الوجود وإعادة تنظيم العالم بإعادة تنظيم العلاقة بين الجسد وبين الروح. حرية تعطي للوعي، للروح أولوية مطلقة وإشرافا واستخلافا على البدن، ثم تجعل هذا البدن آلة طيعة هي مصدر النعمة والسعادة والراحة والمتعة، ومصدر الخير لصاحبها ولسواه أيضا. يقول سبحانه وتعالى : « والبدن جعلناها لكم من شعائر الله لكم فيها خير. فاذكروا اسم الله عليها صواف فإذا وجبت جنوبها فكلوا منها وأطعموا القانع والمعتر. كذلك سخرها لكم لعلكم تشكرون. لن ينال الله لحومها ولا دماؤها ولكن يناله التقوى منكم كذلك سخرها لكم لتكبروا الله على ما هداكم وبشر المحسنين. إن الله يدافع عن الذين آمنوا إن الله لا يحب كل خوان كفور» [1].

هذه البدن المذكورة في الآيات السالفة، هي الأنعام المذكورة في الآيات التي قبلها وكلها من سورة الحج تنبه وترمز إلى نعمة البَدَن التي أنعم الله تعالى بها على الإنسان، وكيف أن الله تعالى إذا كان قد ركّب الروح الواعي في هذا البدن، فليس معنى ذلك أنه سجنه وقضى عليه بالذل والهوان وأنه لا أمل له في الخلاص. لذلك قام الله الحكيم العليم بتحريك هذا البدن وخلعه، فجعله أنعاما سائبة في الأرض رمزا للأجساد البشرية التي حلت فيها الأرواح.

فمن علم أن البُدن نعمة من الله تعالى سخرها له لينتفع بها وليستمتع بها وينفع بها في نفس الوقت غيره، ولا يكون صاحب هذا الوعي إلا مؤمن، تفطن إلى حريته ورأى بأم عينه كيف يقدم على التصرف التام في جسده، وهو يمارس هذا من خلال علاقته بالأضحية التي يقدمها قربانا لله تعالى ولكن :» لن ينال الله لحومها ولا دماؤها ولكن يناله التقوى منكم...». فبذلك تعود الأضحية إلى المضحي ليتنعم بها وينتفع بها وينفع بها تماما مثلما عاد ابن الخليل عليه السلام إلى أبيه لما أهداه لله تعالى وقربه له. إن الله تعالى لا حاجة به إلى أكل لحوم الأنعام ولا إلى شرب دمائها، فهو سبحانه الغني القوي العزيز، ولكنه سبحانه يحب أن يجد عبده شاكرا متقيا :» ولكن يناله التقوى منكم».

ويحب أن يجد عبده مكبرا له:» كذلك سخرها لكم لتكبروا الله». ويحب أن يجد عبده مهتديا :» لتكبروا الله على ما هداكم وبشر المحسنين». فإذا ما حمد الإنسان ربه وكبّره ولا يكون ذلك إلا من حر، يكون قد اهتدى وأحسن. إن المحسنين كما وصفهم القرآن الكريم، قد مروا بدءا بإبراهيم الخليل إلى يوسف الصديق إلى كل الأنبياء والشهداء والصديقين بهذه التجربة، أعني تجربة أن يعطوا الله تعالى كل شيء فينعم الله تعالى عليهم برد كل شيء إليهم مع رضوانه تعالى وحبه ومودته.

(١) سورة الحج : ٣٦ - ٣٨

٣ - الإرث الإبراهيمي
الكتاب والحكمة والملك العظيم

يقول سبحانه وتعالى في القرآن الكريم :» وإذ ابتلى إبراهيم ربه بكلمات فأتمهن قال إني جاعلك للناس إماما قال ومن ذريتي قال لا ينال عهدي الظالمين»[1].

توضح هذه الآية الكريمة من سورة البقرة أن الله سبحانه وتعالى قد أذن بجعل الخليل عليه الصلاة والسلام إماما للناس، وهي إمامة عامة مطلقة قائمة ما بقي الناس. كان ذلك بعد إتمامه عليه الصلاة والسلام للكلمات التي ابتلاه ربه بها. وإذ اطمأن الخليل عليه السلام على مقامه من ربه ورتبته ودرجته العالية التي منحه الله تعالى إياها، لم ينس نصيب ذريته فقال :» ومن ذريتي» ، طالبا الاستعلام والإفادة إن كانت إمامته سوف تنتقل إلى ذريته أم لا.

فكان جواب ربه مباشرا وصريحا:» قال لا ينال عهدي الظالمين». وضمن هذا الرد البليغ، أثبت سبحانه ونفى. فنفى ورفض أن ينال عهده الظالمون، والحديث الدائر كان عن ذرية إبراهيم الخليل. فتبين أنه سيكون من ذرية الخليل ظالمون، طاغون، ضالون، مفسدون. وهؤلاء لن يجعل الله سبحانه فيهم الإمامة، ولن يعطيهم عهده على النصرة والرفعة. وفي نفس الوقت الذي ألغى فيه سبحانه عهده مع الظالمين من ذرية إبراهيم، كان يعلم مسبقا أنه سيكون من ذرية الخليل أيضا آخرون عدول مسلمون صادقون هم الذين سينالون عهده، وسوف يرثون الإمامة عن أبيهم الذي كرمه الله تعالى ورفعه. هذا الإعلام جاء ضمنيا، فهو تعالى لم يرفض أن يكون من ذرية الخليل عليه السلام أئمة على نهج وعلى خطى أبيهم؛ ولكنه سبحانه بقوله: « لا ينال عهدي الظالمين». كان يقر ويعلن أن العدول المؤمنين من ذرية إبراهيم سوف تنالهم بركة أبيهم، وسوف يلتحقون برتبته ودرجته ماداموا لم ينهجوا نهج الظالمين. وبهذا الرد كشف الله تعالى للخليل عن الجماعة التي سوف تنال عهده من ذريته.

والسؤال الذي نطرح، ما الإرث الإبراهيمي الذي سوف لن يناله الظالمون من ذريته ؟ ثم كيف تجسد فعليا وعد الله تعالى باستخلاف الأمة الصالحة من أبناء إبراهيم وإبعاد الأمة الظالمة منهم ؟.

وللإجابة عن السؤال الأول نقول إن الإرث الإبراهيمي إرث ضخم عريض، ومجد عامر تليد، ونور باهر شديد. إنه باختصار، كل رسالة التوحيد وكل رسالة الإسلام. إن الأب المؤسس للإسلام كرسالة وشهادة فوق الأرض، والمكتشف للقبلة الإسلامية الشريفة، ورافع قواعد البيت العتيق، والمؤذن في الناس بالحج، سوف يورث كل هذا الإرث للعدول المؤمنين المخلصين من ذريته مادام لابد لكل أب من ابن وارث كما جرى نظام الحياة وقامت سنتها بذلك.

(١) سورة البقرة : ١٢٤

وقد بين القرآن الكريم طبيعة الإرث الإبراهيمي وحقيقته في قوله سبحانه وتعالى:» أم يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله فقد آتينا آل إبراهيم الكتاب والحكمة وآتيناهم ملكا عظيما. فمنهم من آمن به ومنهم من صد عنه وكفى بجهنم سعيرا « [1].

بينت الآية الكريمة وهي ضمن خطاب كامل يتجه إلى أهل الكتاب كما سنرى لاحقا، أن الله تعالى آتى آل إبراهيم الكتاب والحكمة وآتاهم ملكا عظيما. ذلك هو الإرث الإبراهيمي الشريف: الكتاب، كل الكتاب، سوف لن يخرج عن ذرية إبراهيم، والحكمة من ورائه باعتبارها من هذا الكتاب بمثابة نور الشمس من الشمس، تابعة له وثمرة من ثمراته.

أما الملك العظيم، فهو الإرث الروحي والحضاري للإسلام ورسالته فوق الأرض. ذلك هو إرث آل إبراهيم من أبيهم المبارك الذي أتم كلمات الله تعالى لما ابتلاه بها. غير أن آل إبراهيم سوف ينقسمون قسمين أمام هذا الإرث الكبير، قسم مؤمن آمن به وصدّق، فنال هذا النصيب واستحق هذا الحظ العظيم، أي كل إرث إبراهيم، وقسم ظالم كفر به وصد عنه ولم يعتن به ولم يصدقه، فصرف الله عنه هذه الثمرة وحرمه هذا الإرث، وجعل له جهنم جزاء على ما ضيع وأفسد وكفر.

فمن من آل إبراهيم وذريته نال شرف ونعمة وراثة أبيه، وآمن بما تركه من ملك عظيم ؟ ومن منهم في المقابل، صد عنه وكفر به وضيعه ؟

نجيب وبالله التوفيق، معتمدين على ما جاء في القرآن الكريم أن أبناء إبراهيم وذريته انحصرت في فرعين، فرع إسحاق وفرع إسماعيل. قال الخليل عليه السلام:» الحمد لله الذي وهب لي على الكبر إسماعيل وإسحاق إن ربي لسميع الدعاء. رب اجعلني مقيم الصلاة ومن ذريتي ربنا وتقبل دعاء. ربنا اغفر لي ولوالديّ وللمؤمنين يوم يقوم الحساب»[2].

أما فرع إسحاق عليه السلام فهو الفرع الذي سيكون منه كل أبناء « إسرائيل «، وهو يعقوب بن إسحاق عليهما السلام، والذين سيجعل الله فيهم الكتاب والحكم والنبوة ردحا طويلا من الزمن ينتهي بنبوة عيسى عليه السلام الذي تعرض لمحاولة قتل من قبل بني إسرائيل لولا أن الله تعالى رفعه إليه ونجاه منهم. وأما فرع إسماعيل عليه السلام، فقد كان مبدأ لأمة ثانية هي الأمة الأمية التي سيكون رسولها الخاتم محمد صلى الله عليه وسلم. وكلتا الأمتين أهل الكتاب

(١) سورة النساء : ٥٤ - ٥٥

(٢) سورة إبراهيم : ٣٩ - ٤١

من جهة، والأمة الأمية سوف ترثان إرث الخليل عليه السلام والمتمثل في الكتاب والحكمة والملك العظيم كما جاء في الآية. غير أن أمة ستؤمن بهذا الإرث وأخرى ستصد عنه، وسيكون جزاؤها الطرد والذل والحرمان في الدنيا والعذاب الأليم في الآخرة.

كان أبناء إبراهيم الأول على ملة أبيهم، أي على الحنيفية السمحاء وعلى دين الإسلام الذي رضيه الله تعالى للناس، والذي جاء الخليل رافعا لأركانه مقيما لبنائه. ورغم أن أهل الكتاب، وهي تسمية سوف تطلق على اليهود والنصارى خاصة، سعوا إلى التضليل التاريخي بقولهم إن إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ومن تبعهم كانوا هودا ونصارى، إلا أن القرآن الكريم كذّب زعمهم وفضح تضليلهم أوّلا في تأكيده أن الخليل عليه السلام كان حنيفا مسلما :» ما كان إبراهيم يهوديا ولا نصرانيا ولكن كان حنيفا مسلما وما كان من المشركين»[1].

فثبت أنه عليه السلام لم يكن يهوديا ولا نصرانيا رغم الادعاء الباطل لهؤلاء. وكذلك لم تكن ذريته الأولى يهودا ولا نصارى، بل كانوا مسلمين على ملة أبيهم الخليل : « وقالوا كونوا هودا أو نصارى تهتدوا قل بل ملة إبراهيم حنيفا وما كان من المشركين. قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وما أوتي موسى وعيسى وما أوتي النبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون»[2].

وكذلك قوله تعالى: « أم تقولون إن إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط كانوا هودا أو نصارى. قل أأنتم أعلم أم الله. ومن أظلم ممن كتم شهادة عنده من الله وما الله بغافل عما تعملون» [3].

تؤكد هذه الآيات جميعا بما لا يدع مجالا للشك، أن أبناء إبراهيم الأول إسحاق وإسماعيل ويعقوب والأسباط لم يكونوا أبدا يهودا ولا نصارى بل كانوا مسلمين حنفاء. وبذلك تنتفي أية إمكانية لنسبتهم إلى أهل الكتاب، وإنما هم بصريح القرآن الكريم، السلف الصالح للأمة الأمية المسلمة التي سوف ترث الكتاب والحكمة والملك العظيم كما قدر سبحانه وتعالى وقضى.

غير أن إرادة الله سبحانه ومشيئته، قضت بأن يتحرك الإرث الإبراهيمي الشريف بين أمتين من أبناء إبراهيم، أمة أولى هي اليهود والنصارى؛ والقرآن الكريم يطلق عليهم تسمية أهل الكتاب، وأمة ثانية هي الأمة المسلمة الأمية على ما ذكرنا.

---

(١) سورة آل عمران : ٦٧

(٢) سورة البقرة : ١٣٥ - ١٣٦

(٣) سورة البقرة : ١٦٠

كانت بداية التوريث لأهل الكتاب عندما بعث الله تعالى موسى عليه السلام إلى بني إسرائيل ليخرجهم من الظلمات إلى النور ولينجيهم من ظلم فرعون ووحشيته واستكباره. وقد سجل القرآن الكريم هذه اللحظة التاريخية في قوله تعالى :» إن فرعون علا في الأرض وجعل أهلها شيعا يستضعف طائفة منهم يذبح أبناءهم ويستحيي نساءهم إنه كان من المفسدين. ونريد أن نمن على الذين استضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين. ونمكن لهم في الأرض ونري فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون» [1].

هذه الطائفة التي استضعفها فرعون فذبّح الأبناء واستحيى النساء، هي طائفة بني إسرائيل الذين استوطنوا مصر ابتداء من هجرة يوسف الصدّيق عليه السلام إليها كما هو مسجل في القرآن الكريم. وقد احتفى القرآن الكريم بتسجيل كل وقائع الصراع الموسوي الفرعوني احتفاء خاصا، وذلك لكي يبين كيف أنه سبحانه وتعالى سعى إلى أن يجعل من شعب إسرائيل الشعب الأفضل، الشعب المستنير الذي يحمل كلمة الله تعالى بعد أن نالته الذلة وأصابه الهوان : « يابني إسرائيل اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم وأني فضلتكم على العالمين»[2].

وقد قام موسى عليه السلام بالفعل مدعوما بالتدخل الإلهي الخارق والمباشر، بتنجية شعب إسرائيل من كيد فرعون و ملئه. وبذلك تمت كلمة الله الحسنى على بني إسرائيل :

« وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون مشارق الأرض ومغاربها التي باركنا فيها وتمت كلمة ربك الحسنى على بني إسرائيل بما صبروا ودمّرنا ما كان يصنع فرعون وقومه وما كانوا يعرشون»[3].

لقد أهلك الله فرعون إذن وحطّم عرشه وكبرياءه، ونجّى بني إسرائيل وأورثهم مشارق الأرض ومغاربها، فنعموا بعد الذل بالملك العظيم. فماذا كان عملهم بعد النجاة ؟ لقد فعلوا ما لا يخطر على بال بشر لولا أن القرآن الكريم فضحهم بذكره؛ فعوض أن يقع هؤلاء الملاعين ساجدين خاشعين حامدين شاكرين لله ، لم يصدّقوا حتى رأوا قوما يعكفون على أصنام لهم، فطلبوا من موسى عليه السلام أن يصنع لهم إلها مثل هؤلاء. تقول الآية الثامنة والثلاثون بعد المائة من سورة الأعراف وهي الآية التي جاءت بعد آية النجاة مباشرة : « وجاوزنا ببني إسرائيل البحر فأتوا على قوم يعكفون على أصنام لهم قالوا يا موسى اجعل لنا إلها كما لهم

(١) سورة القصص : ٤ - ٦
(٢) سورة البقرة : ١٢٢
(٣) سورة الأعراف : ١٣٧

آلهة قال إنكم قوم تجهلون. إن هؤلاء متبر ما هم فيه وباطل ما كانوا يعملون. قال أغير الله أبغيكم إلها وهو فضلكم على العالمين». ثم استمرت الأفضال الإلهية وتتالت النعم والخيرات وكان من أهمها ولا شك، تنزّل التوراة فيها هدى ونور :» وإذ آتينا موسى الكتاب والفرقان لعلكم تهتدون»[1].

فهل اهتدى هؤلاء الذين ورثهم الله تعالى الكتاب، وورثهم مشارق الأرض ومغاربها، وهداهم إلى الأرض التي بارك فيها سبحانه وتعالى ؟ كلاّ، لم يهتد بنو إسرائيل إلى الحق، ولم يرضوا أبدا بعقيدة التوحيد، ولم يقبلوا أبدا فكرة الآخرة والبعث والزهد والقناعة، بل برزوا دنيويين كأبشع ما يكون محب الدنيا، وماديين كأسوأ ما يكون المتعلق بالمادة، جاهلين أفظع الجهل وأشده. ولم يكن آخر أقوالهم لموسى: « نريد أن نرى الله جهرة «، بل كان لهم في ميدان العقوق والعصيان صولات، لا بل كان هذا الميدان مسكنهم وموطنهم الذي رضوه ولبثوا فيه حتى أذن الله تعالى بسحقهم وطردهم من رحمته ولعنهم وإذلالهم إلى يوم يبعثون:» ... ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوا إِلاَّ بِحَبْلٍ مِنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِنَ النَّاسِ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ»[2].

وما بين لحظة استخلافهم والمنّ عليهم، ولحظة لعنهم وطردهم من رحمة الله، شهد التاريخ الإسرائيلي أسوأ مشاهد العقوق والفساد والكفر والشرك والنفاق. وكان مصير من نجا من الموت من الأنبياء إلى الإهانة والإنكار والإعراض عن كل ما يجيء به. باختصار، تجلى بنو إسرائيل كمخلوقات رافضة لأية علاقة سوية مع السماء، متهيئة للكفر والعصيان في أية لحظة. وكان لا بدّ أن يؤول تفضيلهم على العالمين إلى مسخهم ولعنهم بعد أن استحبوا الكفر على الإيمان. يقول تعالى: « ولقد علمتم الذين اعتدوا منكم في السبت فقلنا لهم كونوا قردة خاسئين. فجعلناها نكالا لما بين يديها وما خلفها وموعظة للمتقين»[3].

وقال تعالى : « قل يا أهل الكتاب هل تنقمون منا إلا أن آمنّا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل من قبل وأن أكثركم فاسقون. قل هل أنبئكم بشرّ من ذلك مثوبة عند الله من لعنه الله وغضب عليه وجعل منهم القردة والخنازير وعبد الطاغوت أولئك شر مكانا وأضل عن سواء السبيل» [4].

وقال تعالى في سورة الأعراف : « فلما عتوا عن ما نهوا عنه قلنا لهم كونوا قردة

(١) سورة البقرة : ٥٣
(٢) سورة آل عمران: ١١٢
(٣) سورة البقرة : ٦٥ - ٦٦
(٤) سورة المائدة « ٥٩ - ٦٠

خاسئين. وإذ تأذن ربك ليبعثن عليهم إلى يوم القيامة من يسومهم سوء العذاب إن ربك لسريع العقاب وإنه لغفور رحيم»[1].

تلك آيات الله تعالى تكشف عن ما آل إليه الاستخلاف الأول لهذه الأمة من أبناء إبراهيم، أمة إسرائيل، من فشل ذريع مني به هؤلاء الجهلة نتيجة لما فعلوه مع ربهم وجزاء بما عتوا وكانوا يكفرون. لم يظلمهم الله تعالى إذن، بل لقد هيأ لهم من الفرص والإمكانات والأسباب ما لم يهيئ لأمة قبلهم.

غير أنهم قابلوا كل ذلك بإنكار غريب وكفر عجيب، فكشفوا بالفعل عن انحطاط الإنسان عندما يخلو من الروح العاقل الإلهي ويصبح قردا مجرد قرد، يرغب في الأكل والشرب والنكاح والسلطة. ولم يكن الجزاء الإلهي كما قد يتصور البعض، انتقاما مبالغا فيه تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا؛ بل لم يفعل الله تعالى سوى أن كشف عن أنفس هؤلاء الناس وعرّاها، فظهرت على شكل قردة وخنازير وعبد الطاغوت، نعوذ بالله من المسخ.

لقد كان آخر عهد بني إسرائيل مع رسل السماء لما أرسل الله تعالى إليهم عيسى بن مريم، رسول جرّده الله تعالى من النسب البشري لكي ينبه هؤلاء الجهلة إلى ضرورة الوقوف عند الكلمة، عند المعنى، عند الروح وعدم الاهتمام بالسفاسف والأسماء. وأنزل مع عيسى عليه السلام الإنجيل مصدقا لما بين يديه من التوراة وحاملا لمزيد الهدى والنور، غير أن بني إسرائيل الجهلة كانت قلوبهم قد تكلست وأصبحت حجارة وحديدا. ثم لم يرضوا حتى أغروا من أغروا بقتل عيسى المسيح عليه السلام، انتقاما لأنفسهم ونكاية حسب زعمهم بمن بعثه، فنجّى الله تعالى عبده، وختم على قلوب القوم الظالمين.

وما بين لحظة ظهور موسى عليه السلام في محيط بني إسرائيل إلى لحظة ظهور المسيح عليه السلام، كان التاريخ اليهودي يتراجع بعد العز الذي لم يشهده سوى فترة أولى قصيرة وينحط بعد المنعة. فلما جاءهم المسيح كانت مملكتهم أحلاما أو تكاد. وعلى كل حال، فلم تكد تنقضي المائة الأولى للميلاد حتى انهار ملكهم تماما وأصبحوا من شذّاذ الآفاق وشتات الأرض، وأصبح اليهودي التائه أحد الأوجه الثابتة في قصة التاريخ البشري. يقول أحد كتبة التوراة عن أبيه الخليل عليه السلام :» آراميا تائها كان أبي». والحق أن هذه العبارة بقدر ما فيها من الشاعرية والجمال، لم تكن صحيحة في الواقع. فأبوه لم يكن أبدا تائها وإن كان آرامي الأصل حسب بعض الروايات.

فلقد كان الخليل عليه الصلاة والسلام على بينة من ربه، وكان أشد الناس ثباتا

(١) سورة الأعراف : ١٦٦ - ١٦٧

فوق الأرض، وأقواهم حجة وأوضحهم محجة. أما نوره، فيكفي أنه أنار الأرض حتى أظهر كعبتها وأصبح بذلك هدى للعالمين إلى يوم يبعثون. لم يكن التائه حينئذ، سوى ذاك الذي فضله الله تعالى على العالمين، وأنزل عليه المنّ والسلوى، ففضل فوم الأرض وعدسها وبصلها وقثائها. وهداه ربه إلى التوحيد ففضل عبادة عجل الذهب. لم يكن التائه سوى ذاك اليهودي، وسوف يبقى تائها إلى يوم يبعثون، لأنه مصرّ أبدا وإلى اليوم، على أن يبقى على يهوديته الكاذبة الملعونة وعلى استكباره وضلاله المبين.

كانت بلاد فلسطين هي الأرض المباركة الأولى التي أرادها الله تعالى أن تكون موطنا لبني إسرائيل. وكان المسجد الأقصى هو القبلة الأولى التي كشفتها السماء وأرادتها أن تكون محجة مباركة. وكان على بني إسرائيل أن يتسلموا إرثهم عن جدارة، غير أنهم وبفعل خسة أخلاقهم وفساد أعمالهم، لم يجعلوا من هذه الأرض المباركة موطن أمن وسلام تماما مثلما لم يستفيدوا من التوراة المنزلة ولم يفيدوا بها، بل تقوقعوا على أنفسهم معلنين أنهم شعب الله المختار، رافضين أن يشاركهم «غريب» في هذه الأفضلية، وكل من لم يكن يهوديا فهو غريب بالنسبة لهم. وبذلك أصبحت الديانة المنزلة حكرا عليهم، وانتفى أي سعي نحو التنوير والتقدم. كان هناك إرث إذن، و إرث عظيم.

وكان هناك مشروع أمة، ومشروع عمل صالح يصنع فوق الأرض. وكانت السماء على أتم الاستعداد لإعطاء المدد وتقديم العون، وقد فعلت. غير أن الطرف الأساسي في كل هذه المعادلة، لم يكن مهيئا أبدا للقيام بدوره، ونعني بذلك الإنسان اليهودي.

كان الإنسان اليهودي ومازال إلى اليوم، مصرا إصرارا عجيبا غريبا على الالتصاق بالأرض وعلى عبادة عجل الذهب دون سواه، وعلى الاستكبار بغير الحق.

وبارتفاع المسيح عليه السلام، كان كتاب التوريث وعهد الولاية والمنة على بني إسرائيل يرفع إلى الأبد؛ وكانت السماء قد أذنت بالفعل ببدء الإعداد لمشروع استخلاف جديد، هو استخلاف الأمة الأمية، أمة أحمد الرسول صلى الله عليه وسلم، حفيد إبراهيم الخليل عليه السلام من صلب ابنه إسماعيل عليهم جميعا أفضل الصلاة وأزكى السلام. جاء في سورة الصف تأريخ لقصة العزل والتنصيب، عزل بني إسرائيل بما كفروا، وتنصيب الأميين الموحدين. يقول تعالى :» وإذ قال موسى لقومه يا قوم لم تؤذونني وقد تعلمون أني رسول الله إليكم. فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم والله لا يهدي القوم الفاسقين. وإذ قال عيسى بن مريم يا بني إسرائيل إني رسول الله إليكم مصدقا لما بين يدي من التوراة ومبشرا برسول يأتي

من بعدي اسمه أحمد فلما جاءهم بالبينات قالوا هذا سحر مبين. ومن أظلم ممن افترى على الله الكذب وهو يدعى إلى الإسلام والله لا يهدي القوم الظالمين. يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم والله متم نوره ولو كره الكافرون. هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون» [1].

تكشف هذه الآيات المحكمات بجلاء كامل عن حدث عزل بني إسرائيل وإبعادهم من دائرة المن الإلهي والاستخلاف الكوني والحضاري، وذلك بما كانوا يصنعون من إيذاء الأنبياء : « وإذ قال موسى لقومه يا قوم لم تؤذونني وقد تعلمون أني رسول الله إليكم». ومن ناحية أخرى، تخلى هؤلاء عن التعاليم وحرفوها كما شاءت لهم أهواؤهم وضلالاتهم : « فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم والله لا يهدي القوم الفاسقين». ذلك كان قولهم وموقفهم من موسى عليه السلام أول أنبيائهم، ولم يكن موقفهم من آخر أنبيائهم عيسى المسيح عليه السلام، بأحسن من الأول: « فلما جاءهم بالبينات قالوا هذا سحر مبين».

وبكفرهم وضلالهم خرجوا عن الإسلام، وأصبحوا أعداء لله وللحق وللنور، وأنصارا للباطل وللظلمة والشر: « ومن أظلم ممن افترى على الله الكذب وهو يدعى إلى الإسلام والله لا يهدي القوم الظالمين». كان ذلك عملهم عندما دعوا إلى الإسلام، ومن ثم أصبح برنامجهم مناوأة الحق والسعي إلى إطفاء النور: « يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم والله متم نوره ولو كره الكافرون».

هذه الآية تعلن أن الله سبحانه وتعالى أصبح في حالة مواجهة حقيقية مع بني إسرائيل بعد أن كان سندهم الأول وداعما لهم، وذلك جزاء بما سعوا ومازالوا إلى محاربة نور الله تعالى المتمثل في آياته ورسالاته إلى الناس. إن بني إسرائيل أصبحوا في خط مضاد تماما لخط الاستخلاف والتوريث.

ولذلك كان لابد لهذا الاستخلاف أن ينتقل إلى أمة أخرى، وكان مقدرا لهذه الأمة منذ البداية، أن تصبح في حالة مواجهة دائمة مع بني إسرائيل : « هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون». هذا الرسول المذكور هو أحمد صلى الله عليه وسلم الذي بشر به عيسى عليه السلام في قوله :» ومبشرا برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد».

فكيف آل إرث إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام إلى أحمد الأمي عليه الصلاة والسلام ؟ وما هي أبعاد هذا الاستخلاف الجديد ؟ وماذا مثّل على المستوى الكوني والحضاري ؟

للإجابة عن هذه الأسئلة لا بدّ من مراجعة عديد الحقائق التاريخية، ومن متابعة

(١) سورة الصف : ٥ - ٩

القصة منذ البداية.
نعلم جميعا أن الله تعالى قد بوأ للخليل إبراهيم عليه السلام مكان البيت، كما نعلم أنه دعاه لرفع قواعد هذا البيت مع ابنه إسماعيل الذي تركه لكي يعيش ويسكن ضمن منطقة الحرم. قال الخليل داعيا ربه : « وإذ قال إبراهيم رب اجعل هذا البلد آمنا واجنبني وبني أن نعبد الأصنام. رب إنهن أضللن كثيرا من الناس فمن تبعني فإنه مني ومن عصاني فإنك غفور رحيم. ربنا إني أسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع عند بيتك المحرم ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدة من الناس تهوي إليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون»[1].
يأتي هذا الدعاء الإبراهيمي ليكشف عن العلاقة الأساسية التي أقامها الخليل عليه الصلاة والسلام بالبيت المحرم بتوجيه من ربه سبحانه وتعالى. فقد وجهه الله تعالى ومنذ فترة مبكرة إلى أن يسكن من ذريته بهذا الوادي غير ذي الزرع وذلك لتأهيل هذه المنطقة وإعدادها رويدا رويدا لتكون محلا للإرث الإبراهيمي، الإرث التوحيدي الخالد. وكان إسماعيل عليه السلام هو الابن الذي أسكنه أبوه عليه السلام هذه المنطقة، وهو الذي رفع قواعد البيت مع أبيه الخليل.
وقد حدد الخليل عليه السلام الهدف من إسكانه بعضا من ذريته بهذا الوادي غير ذي الزرع في قوله : « ربنا إني أسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع عند بيتك المحرم ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدة من الناس تهوي إليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون». بين عليه السلام أن الهدف من هذه السكنى هو إقامة الصلاة. وهو هدف روحي عباديّ دعمه كون المحل المسكون واد غير ذي زرع لا مطمع فيه لطالب رزق دنيوي وفير.
فتأكد منذ بداية التأسيس أن المطلوب الإلهي هو إقامة نواة لأمة روحية النزعة، أخروية الهدف، وأننا لسنا أمام سعي لتكوين عمران عادي ليس له من هدف سوى الحياة الدنيا ونعيمها.
إن قول الخليل عليه السلام: « رب اجعل أفئدة من الناس تهوي إليهم»، تصريح بأن المطلوب هو تأسيس جماعة تلتقي على أسس روحية قلبية:» أفئدة من الناس». إن تعبير أفئدة واضح الدلالة هنا على أن الخليل يسعى إلى تجميع القلوب والأذهان والعقول، وليس إلى تجنيد الأبدان والأجساد. فإذا أقاموا الصلاة، فلا بأس من أن يرزقهم الله من الثمرات حتى يزدادوا شكرا لله على نعمه، فتجتمع عندهم نعم الدنيا مع أنوار الروح :»وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون». فقام الدعاء منذ البداية على قاعدة طلب الفائدة الروحية قبل الفائدة الدنيوية المادية

(١) سورة إبراهيم : ٣٥ - ٣٧

حيث قال الخليل عليه السلام :» ..رب اجعل هذا بلدا آمنا وارزق أهله من الثمرات من آمن منهم بالله واليوم الآخر قال ومن كفر فأمتعه قليلا ثم أضطره إلى عذاب النار وبئس المصير»[1].

وجاء الرد من الله تعالى بأنه سوف يمتع الكافر قليلا ثم يضطره إلى عذاب النار وبئس المصير. فتبين بذلك أحد مفاتيح وراثة هذا البيت العتيق وهو مفتاح الصلاة. فلا ترث هذا البيت إلا أمة تقيم الصلاة، وهو ما سيكون شأن أمة النبي الأمي صلى الله عليه وسلم. فمتى نشأت هذه الأمة المباركة ؟.

نعثر على الإجابة في الآيات التالية :» وإذ جعلنا البيت مثابة للناس وأمنا واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى وعهدنا إلى إبراهيم وإسماعيل أن طهرا بيتي للطائفين والعاكفين والركّع السجود. وإذ قال إبراهيم رب اجعل هذا بلدا آمنا وارزق أهله من الثمرات من آمن منهم بالله واليوم الآخر قال ومن كفر فأمتعه قليلا ثم أضطره إلى عذاب النار وبئس المصير. وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك وأرنا مناسكنا وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم إنك أنت العزيز الحكيم. ومن يرغب عن ملة إبراهيم إلا من سفه نفسه ولقد اصطفيناه في الدنيا وإنه في الآخرة لمن الصالحين. إذ قال له ربه أسلم قال أسلمت لرب العالمين»[2].

تنبىء هذه الآيات الكريمة عن حقائق عدة تتصل بتاريخ الأمة المسلمة. فهناك أولا العهد إلى إبراهيم وإسماعيل من قبل الله تعالى : « وعهدنا إلى إبراهيم وإسماعيل أن طهرا بيتي للطائفين والعاكفين والركّع السجود».

وهناك أيضا واقعة رفع البيت من قبل إبراهيم وإسماعيل معا: « وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم».

فتبين بذلك أن إسماعيل عليه السلام كان شريكا ومعينا للخليل عليه السلام في رفع القواعد من البيت، وفي تطهيره للطائفين والركع السجود.

وحضور إسماعيل عليه السلام مع أبيه الخليل لحظة رفع القواعد من البيت، ومشاركته الفعلية في هذا الرفع ليس صدفة، بل هو عمل مقصود وترتيب الهي لصيرورة التاريخ، تاريخ التوحيد كما شاء الله تعالى أن يبنيه ويوجهه.

إن إسماعيل عليه السلام كان يحمل في صلبه الذرية الصالحة التي ستكوّن نواة

(١) - سورة البقرة : ١٢٦

(٢) سورة البقرة : ١٢٥ - ١٣١

الأمة المسلمة المقبلة تماما مثلما أن البيت كان يرتفع ليكون قبلة هذه الأمة وحرمها الآمن. ومن هنا كان في رفع البيت من قبل إسماعيل مع أبيه الخليل دلالة واضحة منذ البداية عن حقيقة الأمة المقبلة التي سوف تتنشأ حول البيت، والتي سوف يكون منها الرسول الخاتم الذي يأتي معلّما الكتاب والحكمة.

جاء في دعاء النبيين الكريمين وهما يرفعان القواعد من البيت: « ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك وأرنا مناسكنا وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم. ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم إنك أنت العزيز الحكيم».

هذا الدعاء الصادق هو أول التأسيس للأمة المسلمة التي سوف تنهض بأعباء التوحيد في آخر الزمان. فأول ما كانت هذه الأمة وأول ما ظهرت، ظهرت كدعاء صادق خارج من قلب الخليل عليه السلام ومن قلب ابنه إسماعيل عليه السلام.. طلب الرجلان قبولهما في المسلمين، وهذا دليل على أن نعمة الإسلام لا تضاهيها نعمة، وأن أعظم ما يفخر به الخليل وابنه هو أن يكونا من المسلمين. ثم طلبا معا أن يكون من ذريتهما أمة مسلمة: « ومن ذريتنا أمة مسلمة لك».

هذه الأمة التي طلبها الخليل عليه الصلاة والسلام، هي أمة محمد صلى الله عليه وسلم. ثم لم يلبث الدعاء الصادق أن اتجه إلى طلب الرسول الأمي الذي سوف يقود هذه الأمة المسلمة : «ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم إنك أنت العزيز الحكيم».

وبهذا الدعاء كان الخليل يسلم إرثه بقلبه إلى هذه الأمة، وإلى هذا الرسول المعلم للكتاب والحكمة. وهل إرث الخليل عليه الصلاة والسلام إلا الكتاب والحكمة ؟ أما الملك العظيم، بمعنييه الروحي والحضاري، فسوف تحققه هذه الأمة نفسها التي انطلقت بالفعل عندما جاءها الأمر، في عملية فتح حضاري متواصل شمل مشارق الأرض ومغاربها. ذلك كان دعاء الخليل وابنه إسماعيل عليهما السلام، وقد استجاب الله سبحانه وتعالى لهذا الدعاء الكريم الصادق الذي تحقق بعد فترة بحذافيره. وتحقق هذا الدعاء الإبراهيمي الإسماعيلي دليل على مكانة هذا الرجل من ربه، كما أنه دليل على أن الله تعالى يعين كل من أراد أن يعمل الباقيات الصالحات.

وقد كان هذا دأب الخليل عليه الصلاة والسلام طيلة حياته. قال تعالى معقبا بعد هذا الدعاء العظيم: « ومن يرغب عن ملة إبراهيم إلا من سفه نفسه ولقد اصطفيناه في الدنيا وإنه في الآخرة لمن الصالحين. إذ قال له ربه أسلم قال أسلمت لرب العالمين».

فتبين أن ملة إبراهيم هي هذا التوجيه المذكور في الدعاء الإبراهيمي الإسماعيلي والمتمثل في الإسلام دينا والكتاب والحكمة هاديا والزكاة عملا. ولم يظهر الدين بهذا الاتساع وبهذه الكيفية إلا لما جاء الإسلام وظهرت الأمة المسلمة التي لم ترغب عن ملة إبراهيم بل اتبعتها وحققتها وصدقتها. قال الخليل عليه الصلاة والسلام لربه لما قال له أسلم : « أسلمت لرب العالمين». هذه الاستجابة القوية الصريحة الواضحة للإسلام هي وصية إبراهيم الخليل عليه السلام لأبنائه من بعده:»ووصى بها إبراهيم بنيه ويعقوب يا بني إن الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون»[١].

فاستجابوا له وآمنوا وأسلموا. ثم وصى بها يعقوب عليه السلام أبناءه فأسلموا أيضا : « أم كنتم شهداء إذ حضر يعقوب الموت إذ قال لبنيه ما تعبدون من بعدي قالوا نعبد إلهك واله آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحاق إلها واحدا ونحن له مسلمون»[٢].

فتبين أن أبناء إبراهيم إلى حدود أبناء يعقوب عليهم السلام وهم الأسباط المذكورون في القرآن الكريم ومنهم يوسف الصدّيق عليه الصلاة والسلام، كانوا جميعا مسلمين على ملة أبيهم الخليل عليه الصلاة والسلام. قال تعالى مباشرة بعد هذا :» تلك أمة قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ولا تسألون عما كانوا يعملون»[٣] .

فتبين أن تلك الأمة الأولى هي الأمة المسلمة، وأن الإسلام قد توقف أتباعه عند حدود تلك الأمة، ولم يستشر بعد ذلك في بقية أبناء يعقوب إلا إلى حد. وعندما جاء موسى عليه الصلاة والسلام، كان الإسلام قد غاب منذ زمن، ولم يعد له في أبناء إسرائيل ذكر.

أما اليهود والنصارى فلم ينهجوا نهج الإسلام رغم أن أنبياءهم دعوهم إلى ذلك، بل اصطنعوا من النحل والمذاهب والأقوال ما بعد بهم عن المحجة، ونسبوا إلى الله ما لا يعقل من الأقوال والتصرفات تعالى وتنزه. وباختصار، لقد ضل اليهود والنصارى، ولم يعد في أديانهم ما يهدي بل ما يضل ويهلك. يقول تعالى :» وقالوا كونوا هودا أو نصارى تهتدوا قل بل ملة إبراهيم حنيفا وما كان من المشركين»[٤].

أورث الله تعالى اليهود، والنصارى من بعدهم، الكتاب بما يحويه من هدى ونور وحكمة، وجعل فيهم النبوة، وأظهر أمامهم وعلى أيدي أنبيائه من المعجزات ما

(١) سورة البقرة : ١٣٢
(٢) سورة البقرة : ١٣٣
(٣) سورة البقرة : ١٣٤
(٤) سورة البقرة : ١٣٥

تذهل له العقول وتخشع أمامه قلوب الأعداء. ورغم كل ذلك لم يدخل الإيمان في قلوبهم، ولم يؤمن بالله عن يقين واقتناع إلا قلة منهم لا تذكر بالقياس إلى سوادهم الأعظم الذي بقي سادرا في غيه وضلاله.

غير أنهم على ضلالهم المبين وقتلهم الأنبياء، كانوا يتباهون بأنهم أهل الكتاب دون سواهم، ويتعالون على الخلق بدعواهم أنهم حفظة كلمة الله، وأن يهوديتهم أو نصرانيتهم هي الهدى المنزل الذي لا هدى غيره. غير أن الله تعالى وكما جاء في الآية السالفة، كذبهم وأعلن بصراحة ووضوح مطلق أن الهداية قد رفعت من اليهودية كما رفعت من النصرانية، وأنها آبت إلى موطنها الأول، إلى البيت العتيق. وبذلك تأكد أن اليهود والنصارى لم يحوزوا ثقة الرب سبحانه وتعالى، وأنه حرمهم إرث إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام، بل لعله من الأصح القول أن الله تعالى لم يحرمهم شيئا بل هم الذين حرموا أنفسهم هذا الإرث العظيم بعد أن وطّأه الله سبحانه وتعالى لهم بما مالوا إلى الشرك وظاهروا المشركين والوثنيين ولم يخلصوا التوحيد، وذلك كان ظلمهم العظيم. إن اليهود قد أشربوا في قلوبهم العجل، فثبتوا على حب الدنيا ونسوا التوحيد : « وإذ أخذنا ميثاقكم ورفعنا فوقكم الطور خذوا ما آتيناكم بقوة واسمعوا قالوا سمعنا وعصينا وأشربوا في قلوبهم العجل بكفرهم قل بئسما يأمركم به إيمانكم إن كنتم مؤمنين»[1].

فثبت كفرهم بصريح الآية. أما النصارى فقد كفروا أيضا لما قالوا إن الله ثالث ثلاثة، وجعلوا المسيح ابن مريم وأمه إلهين. قال تعالى مؤكدا كفرهم : « لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم. وقال المسيح يا بني إسرائيل اعبدوا الله ربي وربكم إنه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة ومأواه النار وما للظالمين من أنصار. لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة وما من إله إلا إله واحد وإن لم ينتهوا عما يقولون ليمسن الذين كفروا منهم عذاب أليم»[2].

وهكذا ضيع اليهود والنصارى إرث إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام والمتمثل في توحيد الله تعالى وإسلام الوجه له سبحانه دون سواه. و كان لابد لرسالة التوحيد وإرث الخليل عليه السلام من حامل جديد ووارث جديد؛ وكان هذا الوارث الجديد رجل أمي من أبناء إبراهيم هو محمد صلى الله عليه وسلم، ورث الكتاب بكل ما فيه من هدى وحكمة ونور وشفاء... وأمة هذا الأمي هي الأمة الإسلامية التي اتبعت ولا تزال تتبع هذا الرسول النبي الأمي إلى يوم يرث الله الأرض ومن عليها.

(١) سورة البقرة : ٩٣

(٢) سورة المائدة : ٧٢ - ٧٣

هكذا، وتأسيسا للعهد من جديد، نزل الكتاب إلى النبي الأمي وإلى المؤمنين به يعلّمهم كيف يبنون اعتقادهم ويهديهم إلى سلفهم الصالح. فبعد أن بين لهم كذب من قال : « كونوا هودا أو نصارى تهتدوا «. هداهم بقوله : « قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وما أوتي موسى وعيسى وما أوتي النبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون»[1].

جمعت هذه الآية الكريمة رؤساء السلف الصالح للمسلمين، أو الأمة المسلمة الأولى التي أسسها إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام. وقد نبهت الآية إلى ضرورة الإيمان بما أوتي موسى وعيسى وما أوتي النبيون من ربهم. فثبت أن سر رفض القرآن الكريم لاتّباع اليهودية والنصرانية يتمثل في التحريف والتزوير الذي أفسد به اليهود والنصارى ما أنزل عليهم من هدى ونور. ولذلك أحال الله تعالى هؤلاء من جديد إلى الإسلام الحق وإلى ملة الموحدين التي حادوا عنها بقوله للمسلمين: « فإن آمنوا بمثل ما آمنتم به فقد اهتدوا وإن تولوا فإنما هم في شقاق فسيكفيكهم الله وهو السميع العليم. صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة ونحن له عابدون» [2].

ذلك ما دعا إليه القرآن الكريم اليهود والنصارى، أن يؤمنوا من جديد بالحق، وأن يعودوا إلى ملة إبراهيم وسنن الأنبياء، وأن يتخلوا عن يهوديتهم التي بنوها بجهالاتهم وشهواتهم، وعن نصرانيتهم التي اتبعوها بضلالهم وجهلهم. غير أن هؤلاء لم يتوبوا ولم يرجعوا عن ضلالاتهم، بل لعلهم أن يكونوا قد ازدادوا كفرا وهم يسمعون إلى الأمي يحدثهم بالحق ويقرعهم بما كانوا يخبئون وما كانوا منه يفرون. يقول تعالى معلما المؤمنين حجتهم أمام اليهود والنصارى:» قل أتحاجوننا في الله وهو ربنا وربكم ولنا أعمالنا ولكم أعمالكم ونحن له مخلصون. أم تقولون إن إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط كانوا هودا أو نصارى قل ءأنتم أعلم أم الله ومن أظلم ممن كتم شهادة عنده من الله وما الله بغافل عما تعملون» [3].

تنفي هذه الآيات نفيا قاطعا أن يكون إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام وأبناؤه الأول إلى حدود الأسباط أبناء يعقوب عليه السلام يهودا أو نصارى، وإنما كانوا كما علّمنا القرآن الكريم، مسلمين موحدين. فثبت أن اليهودية والنصرانية

(١) سورة البقرة : ١٣٦
(٢) سورة البقرة : ١٣٧ - ١٣٨
(٣) سورة البقرة : ١٣٩ - ١٤٠

ليستا أبدا من إرث الخليل عليه السلام ولا من إرث أبنائه من الأنبياء المسلمين، وإنما هما ديانتان غريبتان عن روح التوحيد، بعيدتان عن الحق، جافيتان عن الحقيقة والهدى الذي نزله الله تعالى للعباد. هذا ما قاله سبحانه وتعالى وكلامه الحق. وقد جاءت بحوث ودراسات تاريخ ومقارنات الأديان اليوم بالنبأ اليقين وبالحجة والدليل والبرهان، على أن أواصر الصلة بين اليهودية والنصرانية وبين الديانات والفلسفات الشركية والوثنية، هي أكبر وأهم وأوثق من أية آصرة أخرى قد تربطهما بالتوحيد وعقيدته وأهله.

يقول الله تعالى مغلقا كتاب أعمال الأمة الأولى :» تلك أمة قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ولا تسألون عما كانوا يعملون»[1].

أكد سبحانه وتعالى في هذه الآية أن لكل أمة أعمالها تماما كما أكد في آيات أخرى أن كل امرىء بما كسب رهين، فأعطى بذلك قانون الحياة الإنسانية بطريقة حاسمة لا ضلال فيها.

فالإنسان كما يجليه القرآن الكريم محكوم بعمله لا مناص له من أن يسأل عنه ومن أن يتحمل عواقبه في الدنيا وفي الآخرة. وإذا كان كثير من الناس يميلون إلى الهروب من هذه الحقيقة بالارتكان إلى عمل الآباء والنفخ في أمجاد السابقين، فما ذلك إلا لعماهم وضلالهم المبين.

فليس للإنسان مهما كان موقعه ومركزه سوى عمله، ولو أن آباءه كانوا أنبياء وشهداء وقصر به عمله عن مراتبهم فلن يكون معهم ولن يكون منهم مهما تمسح واستجدى وتظاهر.

وهذا القانون الصارم عامل على مستوى الفرد كما على مستوى الأمة. فإذا كان لأمة ما سلف مؤمنون موحدون رضي الله عنهم ورضوا عنه، فليس معنى ذلك أنها بمنجاة من العقاب والعذاب، وليس معنى ذلك أنها آمنة من دواعي الفساد والضلال والانحطاط.

على العكس، إنها تكون على خطر عظيم لو ضيعت سنة الأولين وخالفت أعمالهم ولم تكسب منهم ولم ترث عنهم سوى الأسماء والألقاب.

يقول الله تعالى فاصلا بين أعمال الأمم: « لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ولا تسألون عما كانوا يعملون».

فلكل كسبه، وليس كسب الأمة المسلمة الأولى بمغن للأمة المسلمة الثانية، ولا عمل الأب بمغن للابن عن العمل والكد. ثم إن تبعة أعمال كل أمة متعلقة بها. ومن يرث الأرض من الأمم بعدها بريىء من أعمالها ليس مسؤولا عنها. وهذه

(١) سورة البقرة : ١٣٤

القاعدة التاريخية الحضارية الوجودية العظيمة، إحدى أهم القواعد التحريرية للقرآن الكريم، وإحدى أهم التوجيهات النورانية الإصلاحية القرآنية. ولو أن المسلمين اليوم عملوا بمقتضاها واستوعبوا معناها لكانت قواعد إصلاحهم لأنفسهم وأمتهم قد قامت على ركن غير منهدم، ولما تاهوا في ركام « التراث والحداثة « كما يزعم كتابهم يخبطون خبط عشواء، لا يدرون ما يأخذون ولا ما يتركون. إن مثل هذه القاعدة البنائية الإصلاحية الكبرى وغيرها كثير في القرآن الكريم، جديرة بأن تنبهنا إلى ضرورة العودة إلى هذا الكتاب وجعله هاديا لنا وحجة ودليلا عوض اتخاذه كتابا مهجورا والتذرع بالترهات والغوص في بحار الضلالات.

بقطع القرآن الكريم باب الصلة بين الأمة المسلمة الأولى وبين اليهود والنصارى، كان يعيد ترتيب أوراق التاريخ ويعيد صياغة نظرية وتاريخ التوحيد كما أقامه الله تعالى ورسّخه. فالأمة المسلمة الأولى كانت أمة التوحيد على دين وملة الخليل عليه الصلاة والسلام؛ وقد ظهر فيها أنبياء وصديقون وشهداء ورثوا الكتاب والحكمة، وعلمهم الله تعالى ما لم يكونوا يعلمون. يكفي أن نفكر في يوسف الصدّيق حفيد إبراهيم الخليل عليهم الصلاة والسلام.

وما علمه الله تعالى من علوم التأويل والفهم لندرك إلى أي مدى يقبل بحر التوحيد الاتساع والعطاء ولندرك أن إرث إبراهيم الخليل ليس إرثا هينا ولا شيئا قليلا، بل هو إرث كبير ووارثه موعود بالفتح على كل المستويات الكونية والحضارية والمعرفية، كما هو موعود بالتمكين والنصرة الإلهية.

وقد هيأ الله تعالى لليهود والنصارى أسباب وراثة هذا الإرث الإبراهيمي التوحيدي العظيم. غير أنهم لم يحملوه وهدموا ركنه المكين بتجافيهم عن التوحيد وتحريفهم للكتاب؛ فكان لابد عندئذ أن يسحب منهم التأييد الإلهي على كل المستويات المعنوية والحضارية. وهذا ما كان، فقد أغرق الله تعالى اليهود في الشتات والتيه؛ أما النصارى فقد ولاّهم ما تولوا منذ البدء فعادوا إلى الإرث الوثني اليوناني الروماني جاعلين منه إلى اليوم، المرجع والأساس، فضلّوا بذلك أيما ضلال ولكن أكثر الناس لا يعلمون.

وحينئذ كان لابد من تغيير وجهة الإرث الإبراهيمي الشريف لترثه أمة أخرى مؤمنة مسلمة قانتة لله قادرة على حمل رسالة التوحيد وعلى استيعاب معناه. وهذا ما حدث، واستدارت القبلة ونطق الحق بالكتاب. يقول تعالى معلنا عن تأسيس وتدشين القبلة الجديدة :» قد نرى تقلب وجهك في السماء فلنولينك قبلة ترضاها فولّ وجهك شطر المسجد الحرام وحيث ما كنتم فولوا وجوهكم

شطره وإن الذين أوتوا الكتاب ليعلمون أنه الحق من ربهم وما الله بغافل عما يعملون»[1].

جاءت هذه الآية الكريمة معلنة بدء مرحلة حضارية جديدة وميلاد أمة جديدة بقبلة جديدة وكتاب جديد. أما المرحلة الحضارية الجديدة، فهي مرحلة الإسلام، وأما الأمة الجديدة فهي أمة المسلمين، وأما الكتاب الجديد فهو القرآن الكريم، وأما القبلة الجديدة فهي الكعبة البيت الحرام أو المسجد الحرام كما جاء ذكره في القرآن الكريم.

والسؤال الذي يطرح إذا كان تغيير أمة ضالة واستبدالها بأمة مسلمة مؤمنة أمرا معقولا ومفهوما لا بل مطلوبا مرغوبا، وكذلك استبدال الكتاب المحرف بكتاب جديد صادق لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، أمر لا يمكن للسماء وهي القيمة على مشروع هداية الإنسان، أن تغفله فما القول في استبدال قبلة قديمة بقبلة جديدة ؟ وهل يمكن عقلا وشرعا أن تستبدل القبلة ؟

والجواب بحول الله وتأييده، إن تبديل القبلة يعد فعلا أمرا مربكا شديد الإرباك، وهو حدث جلل لا يكاد يقوى عقل الإنسان على تصوره. فالقبلة تعني أبدا في وعي المسلم، الثبات والرسوخ والبقاء. ثبات الحق ورسوخه وبقاؤه، كما أن التوجه نحوها يعني البقاء على العهد والثبات على المبدأ. ومن هنا كان تحويل القبلة نفسها يعني أن الحق يتحول ويتبدل، وهو المحال الذي لا يقبله الحق ولا يقبله عقل المسلم.

فما السر في تحول القبلة إذن ؟

نجيب وبالله التوفيق، إن القبلة بما هي رمز ومعنى، محال تحولها. ولكن بما هي موطن لهذا الرمز والمعنى، فهي قابلة للتحول والتبديل، وإليك تفصيل الكلام. أما القبلة كرمز وكمعنى، فهي تعني أولا وبالذات الإسلام لله تعالى؛ فمستقبِل القبلة يعلن باستقبالها أنه خشع لله تعالى وأخبت إليه، وآب بذاته ومصيرَه إلى ربه الذي خلقه دون سواه من الآلهة الزائفة التي تدعوه للعصيان والكفر. وهو إذ يوجه وجهه شطر القبلة الإلهية، يعلن أنه جعل الله تعالى إماما مرشدا، وأنه هو في الحقيقة والواقع ليس سوى كائن أعمى أصم أبكم، وأنه بتوجهه نحو خالقه، يرجو أن يرى وأن يسمع وأن يتكلم. ومن باب تدقيق الكلام والأوبة به إلى أصل معناه نقول، إن استقبال قبلة الله يعني التعويل المطلق عليه سبحانه وتعالى في تحصيل أمرين أساسيين هما الحق والخير.

وقد جاءت الآيات التالية من سورة البقرة لتكشف أن معنى استقبال القبلة

(١) سورة البقرة : ١٤٤

الإلهية هو رجاء تحصيل هذا الحق وهذا الخير. أما كون استقبال القبلة هو في نفس الوقت طلب للحق، فيبرز في قوله تعالى :» الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم وإن فريقا منهم ليكتمون الحق وهم يعلمون. الحق من ربك فلا تكونن من الممترين» [1].

كشفت الآية الأولى عن مراء أهل الكتاب ونفاقهم، حيث أنهم يعرفون الحق كما يعرفون أبناءهم، ولكنهم يكتمونه ولا يظهرونه. وهذا كان دأبهم في تعاملهم مع الإرث الإلهي كله سواء أكان كتابا منزلا أم نبيا أم قبلة متبعة ونهجا مسلوكا. فهم بنفاقهم وكفرهم، لم يحافظوا على شيء أصلا، ولم يتحملوا شيئا من أمر السماء الذي نزل إليهم. وسواء أكان المقصود هنا أن أهل الكتاب يعرفون هذه القبلة الأصلية الأولى وهي المسجد الحرام الذي رفع قواعده إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام، أم المقصود معرفتهم بمطلق الحق كما نزلت التوراة والإنجيل معرّفين به، فإنهم في كل الأحوال أنكروا وأخفوا وكتموا وكفروا. ولذلك أعاد الله سبحانه وتعالى التنبيه لنبيه وللمسلمين من ورائه أن لا ينهجوا نهج أهل الكتاب في التعامل مع الحق:» الحق من ربك فلا تكونن من الممترين».

إن جوهر القضية في علاقة الخلق بالحق، أن يقبلوه ويسلموا له أو ينكروه ويجادلوا فيه. وأهل الكتاب كان شأنهم دائما الإنكار والامتراء. إن موقف بني إسرائيل من أمر الله تعالى لهم بذبح بقرة يدل بوضوح قاطع على أنهم ليسوا أهل طاعة وإسلام بل أهل جدل وخداع وسخرية وامتراء ونفاق. وهذا المسلك كان موقفا دائما لهم في كل أمر نزل أو حق جاءهم من السماء, فابحث في تاريخ أهل الكتاب، هل تجد لهم موقفا صادقا شريفا أسلموا فيه وجوههم لله تعالى وقبلوا أمره ؟ والجواب بالتأكيد سوف يكون بالنفي. فأغلبهم إلا من رحم ربك، أعمت الدنيا أعينهم وأضلتهم الأهواء، وهذا مانبه إليه سبحانه في هذه الآيات المتصلة بذكر القبلة من سورة البقرة. يقول تعالى « ...ولئن اتبعت أهواءهم من بعد ما جاءك من العلم إنك إذن لمن الظالمين»[2].

هذا، وقد استثنى القرآن الكريم من أهل الكتاب أمة مؤمنة خاشعة كانت دائما تعيش بين أهلها عيشة الغرباء. يقول تعالى :» وإن من أهل الكتاب لمن يؤمن بالله وما أنزل إليكم وما أنزل إليهم خاشعين لله لا يشترون بآيات الله ثمنا قليلا أولئك لهم أجرهم عند ربهم إن الله سريع الحساب» [3].

---

(١) سورة البقرة : ١٤٦ - ١٤٧

(٢) سورة البقرة : ١٤٥

(٣) سورة آل عمران : ١٩٩

وأما كون استقبال القبلة يعني طلب الخير ورفض الشر، فيبرز من خلال قوله تعالى:» ولكل وجهة هو موليها فاستبقوا الخيرات أين ما تكونوا يأت بكم الله جميعا إن الله على كل شيء قدير» [1].

بين سبحانه وتعالى أن لكل إنسان وجهة هو موليها، وهذا صحيح ثابت رغم أن أكثر الناس عنه غافلون. وحرّض سبحانه وتعالى المؤمنين على استباق الخيرات. فدلّ على أن الخير يجب أن يكون مطلوب المؤمن وبغيته. فجاء معنى استقبال القبلة حاملا لبعدين. البعد الأول معرفي عقلي نظري، ويتمثل في طلب الحق ورفض الباطل.

والبعد الثاني سلوكي عملي، ويتمثل في طلب الخير والابتعاد عن الشر. وباستكمال هذين المسلكين، وتحقيق هاتين الغايتين على مستوى الفكر والسلوك، ينعقد معنى الإسلام ويكتمل مفهوم الإيمان. إن الكتاب والحكمة ما جاءا إلا لتحقيق هذين البعدين.

فالكتاب جاء موجها إلى الحق في كل أبعاده ومعانيه، والحكمة جاءت دالة على الخير معرفة بسبله ودروبه. يقول تعالى منبها إلى أن نشر الحق والخير كان الهدف الأساسي من بعثة الرسول صلى الله عليه وسلم:» كما أرسلنا فيكم رسولا منكم يتلو عليكم آياتنا ويزكيكم ويعلمكم الكتاب والحكمة ويعلمكم ما لم تكونوا تعلمون»[2].

تلك هي حقيقة القبلة من حيث هي معنى ورمز، الحافظ لهما الكتاب والحكمة المنزلين في الذكر الحكيم. فموطن القبلة المعنوية من حيث هي خير وحق، الكتاب والحكمة وهما بعض آيات الذكر الحكيم المحفوظ بالله سبحانه وتعالى : « إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون»[3].

وعليه، فإن القبلة المعنوية لا سبيل إلى تبديلها، بل هي حق راسخ وحكمة خالدة محفوظان في كتاب الله العزيز الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه. هذا من حيث المعنى، أما من حيث المبنى فالأمر يختلف. فإذا كان الحق والخير بعدين ثابتين في تعاليم السماء وفي هديها من آدم إلى آخر مخلوق، فإن المحل القابل لهذا التعليم، والإنسان المتحمل لهذا الهدي وهذه الرسالة ليس ثابتا. فقد نزل الوحي على أمم الأرض وشعوبها وقبائلها منها من آمن ومنها من لم يؤمن، منها من حمل الأمانة ومنها من ضيعها. وقد اقتضى عدله سبحانه وتعالى، أن لا

(١) سورة البقرة : ١٤٨

(٢) سورة البقرة : ١٥١

(٣) سورة الحجر : ٩

يفضل شعبا على شعب ولا أمة على أمة إلا بقدر إيمانه وتقواه. فاستخلف الله الجميع وهدى إليه العالمين. فمن آمن واتقى، جعله أهلا للكتاب والحكمة، ومن بخل واستغنى، خلعه سبحانه وتعالى وأبعده ولم يعبأ به.

وقد رأينا كيف أن الله تعالى فضل بني إسرائيل على العالمين، وجعل فيهم الكتاب والحكم والنبوة وآتاهم من كل الثمرات، غير أنهم أفسدوا وطغوا فحقت عليهم اللعنة وباءوا بغضب من الله تعالى، وكان لا بد حينئذ من أن يرفع عنهم التفضيل وأن يؤول إرث إبراهيم الخليل عليه السلام إلى من يستحقونه، إلى الأميين المذكورين في كتاب الله تعالى، وإلى نبيهم المصطفى والمجتبى صلى الله عليه وسلم. ومن هنا تحولت القبلة، قبلة الكتاب والحكمة ووجهتهما من بيت المقدس إلى الكعبة البيت الحرام في جزيرة العرب تأكيدا على أن الزمان قد استدار، وأن الحق قد آب إلى موطنه الأول، إلى الصالحين العدول من أبناء إبراهيم، وأنه قد استعلى على الظالمين منهم الذين لم ينفعهم ذكر ولا هدى ولا نور.

إن انقلاب القبلة وتحويلها، تحويل لوجهة الحق ولإرث إبراهيم الخليل المتمثل في الكتاب والحكمة والملك العظيم من أوساط أهل الكتاب إلى الأميين المسلمين المؤمنين، وليس تحويلا ولا تبديلا للحق في ذاته، تعالى الله وتنزه عن التحول والتبديل. فاستفدنا بذلك أن عهد الله سبحانه وتعالى إلى فرد أو إلى أمة قائم ما قام هذا الفرد وقامت هذه الأمة بمقتضيات العهد، فإن فرّط أو فرّطت ألغي العهد ورفع الحق وارتفع الكتاب لينزله الله تعالى بعد ذلك بعلمه حيث يشاء.

لاشك أن الكتاب الذي توارثته أمة محمد النبي صلى الله عليه وسلم، هو نفسه الكتاب الذي نزل على بني إسرائيل، أي في مضمونه ومحتواه العميق بدون نظر إلى شكله وسائر الشروط التاريخية التي كان لا بد للحق من مراعاتها. ولا شك أيضا أن بني إسرائيل ومن بعدهم النصارى، ما تصرفوا إلا في إرث الخليل عليه الصلاة والسلام. ولا شكَ أخيرا في أن أهل الكتاب من يهود ونصارى، قد عاثوا فسادا وإفسادا في هذا الإرث، فحرّفوا وزوّروا وكذبوا واستعلوا، وحينئذ لم يكن بدّ من تحويل وجهة هذا الإرث إلى من يحمله من أبناء إبراهيم. وعند هذه اللحظة التاريخية والحضارية من تاريخ الإنسان، كان الأمي ينتظر، وكان قد استعد بكل كيانه لسماع التعليم والقيام بالمهمة، مهمة رفع راية التوحيد ونشره بين الناس.

لقد أحاط بالرسول صلى الله عليه وسلم وهو يؤدي مهمته التوحيدية جمع من أعداء الله من يهود ومنافقين وسواهم كان هدفهم إسقاط الدعوة واللغو في التعليم المنزّل. وكان حدث تبديل القبلة أحد الابتلاءات الكبرى التي حركت الأرض تحت أرجل هؤلاء فانكشفت عوراتهم. أما الذين هدى الله، فقد زادهم

هذا الزلزال الكبير إيمانا. يقول تعالى كاشفا عن هذه المعاني: « ... وما جعلنا القبلة التي كنت عليها إلا لنعلم من يتبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه وإن كانت لكبيرة إلا على الذين هدى الله وما كان الله ليضيع إيمانكم إن الله بالناس لرؤوف رحيم»[1].

أكد الله سبحانه وتعالى أن هدفه من تغيير القبلة، ليس تضييع الإيمان الثابت اليقيني الذي ملأ قلوب المؤمنين. فالإيمان الحق إذا قام في القلب وملأه لم يخرج منه. وإنما كان هدفه كشف هراء المنافقين واليهود والمشركين الذين يستهدون بعلامات برّانية ويحتجون بمشاعر خارجية، ناسين أن المعنى أعمق، وأن الرمز كامن في القلوب لا في الأشكال والمظاهر.

لابد لنا ونحن نسعى إلى تفهم سر القبلة وسر تحولها وانقلابها، أن نشير إلى أنه سبحانه وتعالى لم يشر إلى قبلة محددة معينة في القرآن الكريم ما عدا المسجد الحرام الذي أمر في آيتين واضحتين محكمتين بالتوجه إليه واستقباله. وأنه سبحانه عندما أشار إلى القبلة الأولى لم يسمها ولم يعينها بل أشار إليها بقوله :» وما جعلنا القبلة التي كنت عليها». وفي هذا التركيب ما فيه من الإيحاء والتنبيه. ثم إن السماء قد وجدت الأمي يقلّب وجهه في السماء :» قد نرى تقلب وجهك في السماء».

فدل ذلك على أنه لم يكن مأمورا بأن يتوجه إلى القبلة التي كان عليها بنص صريح، وبتوجيه محكم لا راد له، بل لعله أن يكون اتجه إلى تلك القبلة تواصلا مع مسار الأنبياء السابقين واستهداء بهديهم. وقد قال فيهم سبحانه وتعالى :» أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده. قل لا أسألكم عليه أجرا إن هو إلا ذكرى للعالمين»[2].

ومعلوم أنه صلى الله عليه وسلم قد ورث إرث الأنبياء السابقين كلهم. فقد ورث إبراهيم الخليل نوحا عليه الصلاة والسلام، ثم آل إرثه إلى محمد الأمي صلى الله عليه وسلم كما تقدم. وكان لا بد وهذا الإرث النبوي الرسالي الهائل يؤول إلى الأمي وإلى أمته الأمية، أن يحل فيما حلّت فيه هذه الأمة، وأن يقيم ويستوطن ما استوطنته وما أقامت فيه.

هكذا لبس الكتاب ثوبا جديدا، ونطق بلسان عربي مبين بعد أن ظهر قبل هذا التاريخ في لغات لا يعلمها إلا الله . وفي نفس الوقت كان على المعنى أن يؤول إلى بيت جديد وسط هذه الأمة الأمية وكان من تقديرات القدر ومن قضاء الله

(١) سورة البقرة : ١٤٣

(٢) سورة الأنعام : ٩٠

الذي لا يرد ولا يتخلف أن آخر بيت استوطنه المعنى (الحق + الخير) ، هو نفسه أول بيت وضع للناس. بذلك آب المعنى إلى مبناه الأول، وعاد الدر إلى معدنه كما يقال. وقد أثر عن النبي صلى الله عليه وسلم قوله :» إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السماوات والأرض». فما السر في أن يحمل الآخر كل إرث الأول ؟ . بل ما السر في أن تؤوب البداية إلى النهاية ؟ ما سر هذا التدوير الهندسي الصارم للمعنى كما للكون كما للأرض كما لرأس البشر ؟.

هل هو القول إن البداية هي النهاية، وبذلك كشف لعبة الزمن بما هو وهم خادع وسراب زائل وظل حائل ؟ وكما أن الزمان قد استدار، فإن المعنى نفسه قد استدار، فلم ينطق الآخر إلا بحكمة الأول. إن دين محمد صلى الله عليه وسلم ليس سوى ملة إبراهيم الخليل :» ملة أبيكم إبراهيم هو سماكم المسلمين من قبل». وحكمته صلى الله عليه وسلم ليست سوى حكمة أبيه الخليل. أما ملكه العظيم، فليس سوى ما بوأه أبوه الخليل عليه السلام[1].

ولذلك فلما أسرى فوق الأرض، جمع في إسرائه إرث أبيه وضم إليه ملكه من الجهتين:» سبحان الذي أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذي باركنا حوله لنريه من آياتنا إنه هو السميع البصير» [2].

فتبين أنه إذا كان قد استوطن المسجد الحرام واستقبله وعظمه، فإنه قد ورث المسجد الأقصى أيضا؛ وما إسراؤه إليه إلا دليلا صاعقا على هذه الهيمنة وهذا الاستخلاف والتولية والعهد الإلهي.

بذلك ثبت أن منهج السماء في عطائها ومنعها واحد أبدا. فهي إن أعطت ومنحت، أعطت كل شيء. ولنأخذ مثال بني إسرائيل :» يا بني إسرائيل اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم وأني فضلتكم على العالمين»[3].

وهي إن أخذت وحرمت، منعت كل شيء. جاء في كلام الله عن اليهود لما خذلوا :» ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوا إِلاَّ بِحَبْلٍ مِنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِنَ النَّاسِ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ «[4].

(١) أهم صفة يستوجبها الملك كي يكون عظيما حقا كونه لايزول فإن كان مما يزول فما هو بعظيم مهما بلغ في المراتب والإمكانات. وحيث كان إرث الخليل عليه السلام مبوئا لمكان البيت العتيق فوق الأرض أي للمحل الأرفع للصلاة التي بها تقضى الحوائج، وكان في نفس الوقت سببا لدخول جنة الخلد التي قال فيها الله سبحانه :» وإذا رأيت ثم رأيت نعيما وملكا كبيرا» (سورة الإنسان ٢٠)، فقد صح عندئذ أن يكون الوارث للخليل عليه السلام وارثا لملك عظيم.

(٢) سورة الإسراء : ١

(٣) سورة البقرة : ٤٧

(٤) سورة آل عمران ١١٢

إن أسلوب السماء في تعاملها مع شعب اسرائيل، هو نفسه الأسلوب الذي عاملت به الأمم من قبله، وهو نفسه الذي عاملت به المسلمين من أتباع محمد صلى الله عليه وسلم. فلقد أعطى الله تعالى هذه الأمة الأمية لما آمنت، الكتاب والحكمة وآتاها ملكا لم تعرفه أمة قبلها. فلما هجرت الكتاب وتخلت عن العهد، حرمها بقدر ما أعطاها، فلم يبق لها شيئا البتة. إن المسلمين الفاسقين عن أمر الله، يمثلون اليوم حالة مرعبة من التردي والانحطاط والتخلف العقلي والروحي والجسماني. وباختصار، إنهم في جرف هار لا يعلم إلا الله إن كانوا سيخرجون منه أم لا .

وبتحول القبلة، أعلن القرآن الكريم عن مركز الأمة الخاتمة، وعن مركز الحضارة الأخير، فحق أن ييأس أهل الكتاب. وكان عليهم من حيث الحكمة، أن يتوبوا ويؤمنوا بما جاء مصدّقا لما بين أيديهم، ولكنهم كما أنكروا رسالة أحمد رغم تبشير المسيح عليه السلام بها، أنكروا قبلته وتمسكوا بقبلتهم :» ولئن أتيت الذين أوتوا الكتاب بكل آية ماتبعوا قبلتك وما أنت بتابع قبلتهم وما بعضهم بتابع قبلة بعض. ولئن اتبعت أهواءهم من بعد ما جاءك من العلم إنك إذا لمن الظالمين»[1].

هذه الآية الكريمة تعلن في نبوءة واضحة صريحة، مستقبل العلاقات الحضارية التاريخية بين المسلمين وبين أهل الكتاب. فهي قد أعلنت في وضوح تام، أن أهل الكتاب سوف يصرون على قبلتهم مهما جاءتهم آيات الله ومهما نزل عليهم من الحق.

كما أعلنت ودعت في نفس الوقت الرسول صلى الله عليه وسلم ومن ورائه أمته، إلى التمسك بقبلته التي ولاه الله إياها. ثم إنها أضافت إلى هذا حقيقة أخرى، وهي أن أهل الكتاب لن يتبع بعضهم قبلة بعض. ثم كشفت في النهاية عن حقيقة كون أهل الكتاب قد أصبحوا يتبعون أهواءهم، ولم تعد لهم من قبلة إلهية بعد رفضهم استقبال المسجد الحرام مع المسلمين. ومن هنا انقلب الحديث عن القبلة إلى حديث عن التاريخ والحضارة. إن القبلة في القرآن تعني الوجهة، وهي أولا وجهة روحية لا شك في ذلك، لكنها في نفس الوقت، وجهة تاريخية حضارية.

إن الأمة التي تمتلك قبلة متميزة، تمتلك بالضرورة حضارة متميزة. والأمة التي لا قبلة لها ليست أمة حضارة. ومن هنا نفهم أن إعلان ظهور قبلة جديدة ناسخة للقبلة الأولى قبلة أهل الكتاب، هو إعلان عن ظهور إنسان جديد وحضارة جديدة ناسخة للأمة الكتابية الأولى التي ضيعت وفرّطت. إن الله تعالى لن يغفر

(١) سورة البقرة : ١٤٥

مطلقا لليهود أنهم قالوا عزير ابن الله، فانقلبوا مع الكافرين. ولن يغفر الله أبدا للنصارى قولهم إن الله ثالث ثلاثة، فارتدوا وثنيين مشركين بعد الإيمان والإسلام الذي جاءهم.

ولذلك لم يكن القرآن الكريم أبدا مرائيا ومدهنا في خطابه لأهل الكتاب. لقد صارحهم دائما بأنهم أصحاب الفرصة الضائعة، وأن التاريخ قد تجاوزهم، هذا إذا مازالوا يفقهون أن التاريخ بدون رحمة الله لن يصبح أبدا حضارة إنسانية ترتفع بالإنسان وتسمو به. من هنا وضح الله تعالى بدون لبس، أن أهل الكتاب لم يعد لهم من قبلة سوى الهوى، وهو كما أكد القرآن الكريم إله ضار، ضالّ مضل. وفي المقابل، قامت قبلة المسلمين على العلم اليقين الذي لا يداخله الهوى : « ... ولئن اتبعت أهواءهم من بعد ما جاءك من العلم إنك إذا لمن الظالمين».

وبقدر ما كشفت هذه الكلمات عن حقيقة قبلة أهل الكتاب الضالين الذين لم يعد لهم سوى الهوى إماما ووجهة على عكس ما يدّعون، أعلنت مسبقا عن قدر تاريخي يتصل بهذه الأمة الأمية الناشئة، وهو أنها إن زاغت عما جاءها من العلم واتبعت أهواء أهل الكتاب، فإنها سوف تصبح أمة ظالمة وسوف يطالها بالتالي، ما طال اليهود والنصارى من غضب الله تعالى ومن سخطه. والحقيقة أن مضمون هذه الآية إن كان نبوءة قرآنية في حينه، فهو اليوم حقيقة واقعة تؤكد صدق هذا الكتاب، وأنه ما نزّل إلا بعلم الله تعالى لا تبعا لهوى أو لفكر بشر.

إن المسلمين اليوم قد ضربت عليهم الذلة والمسكنة وباؤوا بغضب من الله، وما ذلك إلا نتيجة لما اقترفوه من ظلم قوامه اتّباع أهل الكتاب والافتخار باقتفاء خطواتهم والتنافس في التبعية لهم ناسين أن لله تعالى في خلقه شؤون، وأنه ما خلق السماوات والأرض إلا بالحق، وأنه ما خلق الإنسان عبثا ولا أنزل الهدى عبثا، وأنه لم يقم بتفضيل هذه الأمة الأمية واختصاصها برحمته الخاصة بعد رحمته العامة للعالمين، لكي تقبل بعد ذلك بالتبعية لمن غضب الله تعالى عليهم ولعنهم وأعد لهم عذابا عظيما.

إن هذه الأمة الأمية التي كانت أشتاتا من الأعراب والقبائل المتناحرة ثم أصبحت أمة العلم والحضارة والنور، ليس لها أبدا أن تختار مصيرها بعيدا عن إرادة الله ومشيئته، وهي إن نسيت ما وقع لأهل الكتاب لما نسوا الله، فإن مآلها أن تصبح مثلهم طريدة الرحمة الإلهية وهدفا للعقاب الإلهي. وهذا، ويا لشقوتنا، ما حدث ويحدث اليوم «للمسلمين» الذين نسوا أن الله تعالى شرفهم بأن جعل لهم قبلة خاصة هي القبلة النهائية التي استقطبت النور الإلهي وأصبحت بيت الله الذي يستقبل فيه الناس من كل أنحاء الأرض، كما شرّفهم بأن أورثهم الكتاب

كله مجملا ومفصلا وتبيانا لكل شيء وجعله قرآنا عربيا بلسان عربي مبين.
ثم يأتي يوم على الأميين ليقوم خطيبهم ناطقا بلسان حالهم معلنا أنهم إن تخلوا عن أنوار الغرب ضلوا، وإن تمسكوا بأهداب القرآن الكريم قعد بهم عن اللحاق بركب الحضارة التي يبدو أنهم يتصورونها طيارة أو صاروخا لابد من الإمساك به قبل أن يتجاوز آفاق الفضاء نحو عوالم أخرى لا قبل لهم بمعرفتها. وفي خضم هذا الضياع الكبير وهذا التيه الشبيه بتيه بني إسرائيل لمّا لعنهم الله وغضب عليهم، لم يعد أحد من المسلمين يذكر أن الحضارة انطلقت في هذه الأمة لما استنارت روح المسلم الأول فيها بأنوار الغيب الذي هداه إليه القرآن الكريم، فأصبح شعلة من نور تضيىء الدرب للسائرين إلى يوم يبعثون.
ولم يعد سوى قلة منهم يذكرون ويعلمون أنه لا تقدم إلا إذا تغير الإنسان وليس البنيان.
أما الغالبية الساحقة فهي تهفو إلى التطاول في البنيان مضارعة لأمم الأرض الأخرى، وتسعى إلى كسب وسائل الراحة والرفاه بكل السبل غير عابئة بإرث الروح ولا بغذائها اللازم. هذه حال أغلب المسلمين اليوم لا مطمع لهم إلا في الحصول على وسائل المتعة والرفاه، فإن فكروا في علم، فليكن علما جاهزا مثل السيارات وسائر الأدوات التي يستوردونها. انحطت منهم العزائم، وأخلدوا إلى الأرض، وضربت عليهم الذلة والمسكنة. فكان من عدل الله تعالى أن ابتلاهم بيهود الشتات؛ هؤلاء الذين عاشوا أيتاما بين أبناء الأمم الأخرى، يسومونهم سوء العذاب، يذبّحون أبناءهم ويستحيون نساءهم، فقاموا فيهم مقام فرعون في بني إسرائيل لما طغى في الأرض. فلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

هذا وليس من حل أمام المسلمين اليوم إلا أن يستفيقوا استفاقة فعلية لكي يتوبوا من ظلمهم لأنفسهم ويستعيدوا إرث أبيهم إبراهيم الخليل عليه السلام الذي أورثهم إياه الله تعالى لما أمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر وآمنوا بالله .
أما نقطة البداية في استحقاق إرث الخليل عليه السلام فهي بدون شك إقامة الصلاة: « ربنا ليقيموا الصلاة « ولا ريب أن الكلام في شروط النهضة والتقدم قد ملأ الكتب والمجلدات وإن لم يكن له من الفعالية سوى القليل، وهذا من مصائب الدهر، ولكننا نوجز في هذا المقام فنقول إنه لن ينقلب حال المسلمين، ولن يعودوا إلى دائرة الفعل والإبداع إلا باستعادتهم لرضا الله تعالى عنهم، ولن يرضى الله تعالى عنهم حتى يستقبلوا قبلته ويعودوا إلى كتابه ويتركوا قبلة أهل الكتاب وسواهم من الشعوب الضالة المضلة. ورغم أن مثل هذا الكلام قد قيل عديد المرات إلا أنه يبقى الكلام الذي لم يطبق مرة واحدة، والذي استهزأ به

أصحاب الشأن قبل سواهم. وقد قال تعالى من قبل :» ولكل وجهة هو موليها». وتلك دائما حكمة السماء وعدالتها، أن تولي كل صاحب وجهة ما تولى، وأن تعطيه ثمرة ما سعى.

أليس هذا التعليم أحد أهم ما جاء في صحف إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام :» وإبراهيم الذي وفّى ألا تزر وازرة وزر أخرى وأن ليس للإنسان إلا ما سعى وأن سعيه سوف يرى ثم يجزاه الجزاء الأوفى وأن إلى ربك المنتهى.[1]

هذه الآيات الهاديات هي نجم أو نجوم زاهرة تركها الخليل عليه الصلاة والسلام إرثا لأبنائه من بعده إلى آخر مؤمن يسلك طريق الحج إلى الله فوق الأرض. لقد ترك الخليل عليه السلام لأبنائه هذه الوصية: « أن ليس للإنسان إلا ما سعى».

في جملة بسيطة واضحة أعطى الخليل عليه السلام كل علم الإنسان، وكشف عن كل حقيقة الإنسان.

ليس الإنسان سوى عمل أو قل لا يبقى من الإنسان سوى ما سعى. فمن عمل صالحا فقد انضم إلى الصالحين، ومن ظلم فقد أصبح من الظالمين. بذلك يبرز الإنسان طاقة فعل وقوة عمل قادرة على الاتجاه الحرّ نحو الخير أو الشر.

والإنسان هو نفسه المسؤول عن سعيه، ولن يكون له في خاتمة مطافه سوى سعيه: « وأن سعيه سوف يرى ثم يجزاه الجزاء الأوفى». وبذلك يذهب أدراج الرياح كل ما يقال عن العبثية والجبرية وتبقى كلمة واحدة أو كلمتان على الأصح: الحرية والمسؤولية. بذلك يحافظ التعليم الإبراهيمي على نقاوة معدن الإنسان فلا يلبسه الأساور الزائفة ولا يدخله معابد وهمية، بل يجعله هنا فوق الأرض، وفي ملأ الكون، كائنا كادحا عاملا ناصبا يرجو أن يصنع خيرا وأن يعمل صالحا يرضاه الله تعالى.

لقد كانت حياة الخليل عليه الصلاة والسلام، أصدق مثال لهذا التعليم. فلقد صنع الرجل بيديه تاريخه، وأهدى بذلك للإنسان فرصة المشاركة في البناء : بناء الذات وبناء الأمة.

لم يعول الرجل يوما على والد ولا ولد، بل هجر الوالد وأقبل على ذبح الولد لولا لطف الله تعالى وكرمه. فبرّأه الله تعالى حينئذ من شبهة النفاق بما يعنيه من إقامة جسور أخرى للنجاة والأمن غير طريق الله وكلمته سبحانه وتعالى. بذلك قال الخليل عليه السلام، وقوله كان دائما فعلا: إن الإنسان يبني نفسه بنفسه، وإن الله تعالى يعلّم هذا البنّاء كيف يبني إذا أخلص النية وصدق العزم، وإنه، أي هذا الكائن الحرّ المسؤول، هو الذي تنتظره السماء أبدا ليكون المحرر وليكون

(١) سورة النجم : ٣٧ - ٤٢

المخلّص وليكون باب الخير والسعادة للإنسانية.

يعلّمنا الخليل عليه السلام وهو الأب المعلم، أننا إن لم نبن أنفسنا بأيدينا فلن نقدر على بناء الأمة، وأنه سوف يكون باطلا كل بناء يبدأ من الخارج، بل البناء الصحيح هو البناء الذي يبدأ بالقلب يصفّيه ويطهره ويطمئنه، ثم ينتشر في الأرض ليملأها بالحق والنور. وهذا التعليم هو أحد أهم الوصايا التي نحتاجها اليوم حاجة الأرض العطشى للماء.

يعلّمنا الخليل عليه السلام أن الإنسانية ليست تاريخا، وإنما هي في الحقيقة عمل. وأن الذين تمسكوا بالتاريخ قد طواهم هذا التاريخ في سجله في النهاية وحجّرهم. أما الذين خرجوا منه فقد صنعوا هم التاريخ وخلّدوا وجودهم في عمل صالح لا يمحوه الزمان.

يعلّمنا الخليل عليه السلام أنه لابد للإنسان من عمل صالح يعمله فوق الأرض ليراه الله تعالى وليكون قربانا تأكله النار، وأن هذا القربان لن يقبل مالم يتم بإيمان. فالإيمان هو المقدمة اللازمة لإتمام العمل الصالح؛ فإذا اتحد الإيمان والعمل ظهر الإنسان وابتسمت السماء فقد تحققت عندئذ معجزة أخرى.

يعلّمنا الخليل عليه السلام أن الله قريب من الإنسان، وأنه يجيب الدعاء؛ ولذلك فعلينا أن نصنع من الدعاء أحد أهم لبنات البناء الشامل لأنفسنا ولأمتنا. إن الإنسان الذي يدعو ربه قد تفطن ولا ريب إلى معنى أن يكون إنسانا، ومعنى أن يكون له رب. وبالدعاء أصبح الخليل مؤسسا، وبالدعاء أصبح أبا لأمة المسلمين.

يعلّمنا الخليل أن الإنسان قد انتصر هنا فوق هذه الأرض التي قيل فيها ما قيل وروي عنها ما روي، هنا ظهر إنسان، وهنا دخل معبد الأصنام وهدمه بعزة لا تقاوم، وهنا رفع إنسان قواعد بيت الرب الذي أصبح كعبة للعالمين وقبلة للموحدين.

يعلمنا الخليل عليه السلام أن الإيمان ليس نفاقا، وأن السؤال ليس كفرا ولا حراما، وأن الله تعالى هو أول من يجب أن نفكر فيه عندما تأتينا أسئلتنا مشرعة أبواب الحيرة.

ذلك كان موقفه عندما لم يطمئن قلبه فصارح ربه بحاجته إلى آية، إلى معجزة، إلى حقيقة. وتلك الصراحة لم تجد سوى رب رحيم أجاب بالتعليم وقدم الدليل والحجة والمثال. بذلك رأينا الله تعالى قريبا من الصدّيقين، حفيا بالطالبين، برا ودودا للمسلمين الراغبين فعلا في أن يسلكوا طريق اليقين. لقد أعطاهم ربهم الحق في كل شيء فطوبى لهم وحسن مآب. أما أولئك التعساء الذين ظنوا أن الحرية خارج الأديان قد قام معبدها، فقد كبلهم الله تعالى بقيود لو رأوها

بأعينهم الفانية لملئوا رعبا ولامتلئوا غما وحزنا.
جاء في صحف إبراهيم وموسى :» بل تؤثرون الحياة الدنيا والآخرة خير وأبقى»[1].

ولعل هذا التعليم وهذه الحقيقة أن تكون آخر حقائق وتعاليم صحف إبراهيم التي نشرت من جديد على يد ابنه الأمي صلى الله عليه وسلم. وكما أن قول إبراهيم الخليل في حقيقة الإنسان كان قولا فصلا، فكذلك قوله في هوى الإنسان يعد قولا فصلا. فمأساة الإنسان تكمن في إيثاره الحياة الدنيا على الآخرة رغم أنها خير وأبقى. وهذا الإيثار هو سبب كل الشرور. أما الحل، فهو العودة إلى الذات، إلى العمل الذي يفتح أبواب الآخرة. لأن العامل لابد له أن يبحث عن جزاء لعمله، ولن يقبل عامل بأوهام الدنيا وعرضها الزائل لكي تكون جزاء عن إيمانه وتضحيته وصبره وشهادته.

تم بحمد الله تعالى.

(١) سورة الأعلى : ١٦ - ١٧

فهرس

* * تمهيد ٥
المسيرة الإبراهيمية: من الظلمات إلى النور
* الفصل الأول: النسخ والإثبات ٩
بناء الإيمان: اكتشاف الله أو البعد الرابع الغيبي
١ - الرؤية الشركية للوجود وللعالم : الهرم الطاغوتي ١٥
أ - الكوكب الآفل : الطاغوت المخلوع ١٨
ب - القمر الآفل : الكفر بالموت ٢٢
ج - عبادة الشمس ٢٤
٢ - نحو تحطيم أصنام المعبد: الخروج من الظلمات
أ - مجابهة الطاغوت: انطفاء نور الكوكب ٣٣
ب - تحصيل الرشاد : الكفر بعبادة الشمس والقمر أو الانقلاب ٣٤
على الأب والعشيرة ٤٧
* - عبادة الآباء : سلطة الماضي أو الليل المجهول
* - عبادة الأقوام : نور الشمس التي تبهر الأبصار: نور اللحظة ٥٣
الآفلة
٣ - الله الحق : البعد الغيبي المفقود ٨٤
أ - البيت العتيق : نور الآيات السبع المعجزات ٩٤
ب - الله الغفور رب يوم الدين ٩٦
٤ - ما وراء الاعتقاد ١١٠
أ - في أصل الشرك ١٢٣
ب - في أصل الإيمان ١٢٣
٥ - تجربة الاطمئنان : بلوغ الأمان ١٣٤
*الفصل الثاني ١٤٢
إعلان الإسلام : اكتشاف الذات ١٦١
١ - معنى الإسلام ١٦٥
أ - دخول النار : انتقام الخلق وظهور الحق : الطهر المطلوب : ١٦٥
في التعامل مع الطاغوت
ب - البراءة والهجرة : في التعامل مع الأهل والعشيرة ١٧٧

ج - ذبح الابن : في التعامل مع النفس ١٩١
*الفصل الثالث
العمل الصالح : بناء البيت وتأسيس الأمة ٢٠٢
١ - مقام إبراهيم : البيت العتيق : الحرم الآمن ٢٠٤
٢ - المسجد الحرام : القبلة الكونية والحضارية ٢١٣
٣ - الإرث الإبراهيمي : الكتاب والحكمة والملك العظيم ٢٣٤